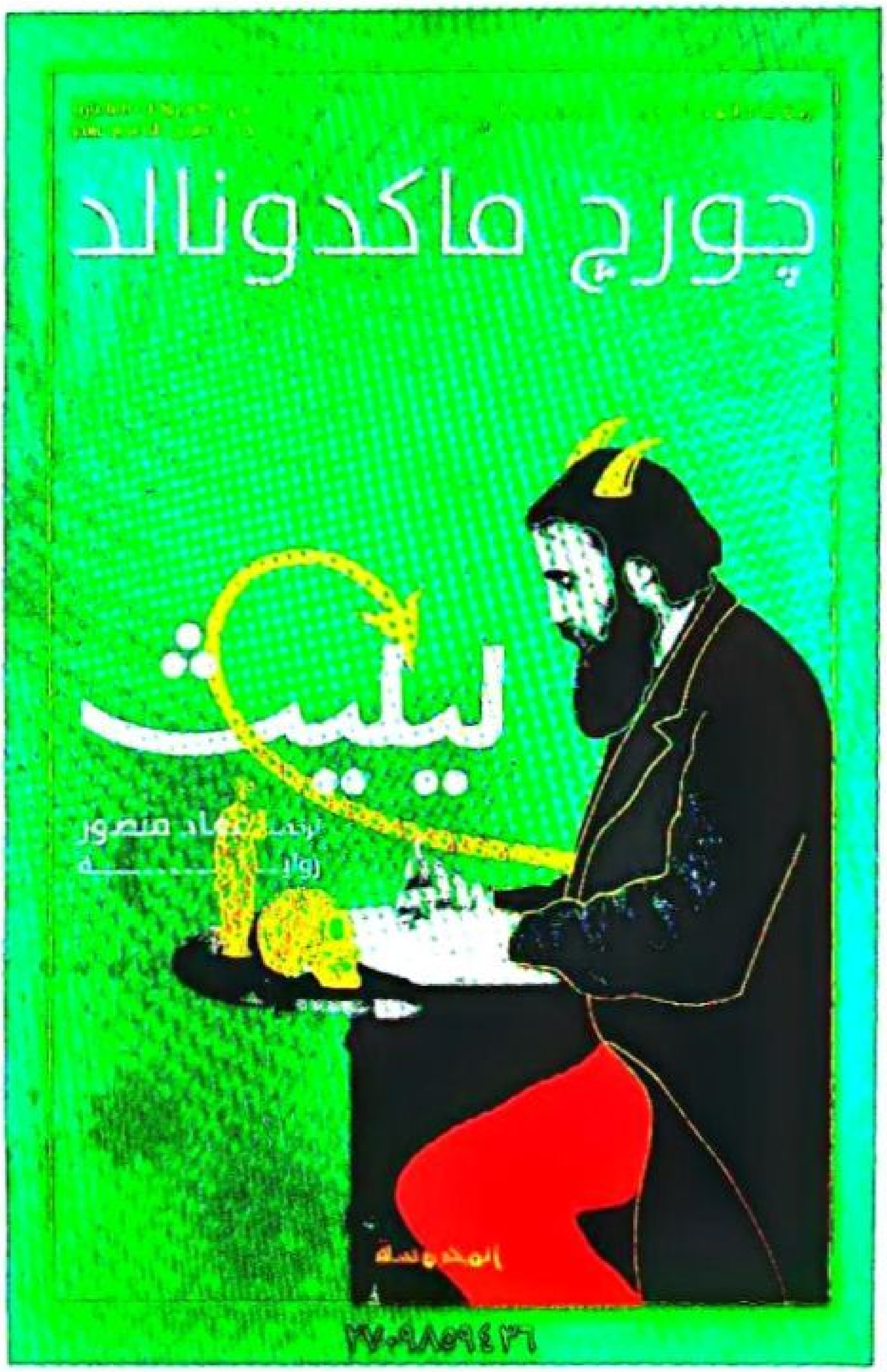

@ART_OF_BOOK

انطلقتُ في تمشية في مزرعة سبولدنج تلك الظهيرة. رأيت الشمس الغاربة تضيء الجانب البعيد لغابة صنوبر بديعة. كانت أشعّتها الذهبية تهيمُ في ممرّات الغابة وصولًا إلى بهو أحد النبلاء. راودني انطباع كما لو أن عائلة قديمة، في غاية الأناقة والأبهة، لهم كانت الشمس خادمةً، قد استقرّت في ذلك الجزء من الأرض المسمّى كونكورد، المجهول بالنسبة لي. لم يتغمسوا في مجتمع القرية، ولم يكن يزورهم أحدٌ. رأيت حديقتهم، أرض ملذّاتهم، بعيدًا داخل الغابة، في مَرج الثوت البرّيّ في مزرعة سبولدنج. مَنحتهم أشجارُ الصنوبر أسقفًا مُسنّمةً مع نُموّها. لكن منزلهم لم يكن باديًا للعيان؛ ذلك أن أشجارهم تنمو عبره. لا أعرف إن كان ما سمعته حينها صوتَ مَرحٍ صاخبٍ مكتومٍ أم لا. طالما بَدَوا وكأنهم يستلقون في شعاع الشمس. لديهم أبناء وبنات. كانوا في حال حَسن جدًا. لم يكن مسار عربة المَزارع، الذي يمضي مباشرةً عبر بهوهم، يكشف عن وجودهم، بقدر ما كان القاع المُوحل لبِركةٍ يمكن رؤيتها أحيانًا عبر السماوات المنعكسة عليها. أبدًا لم يسمعوا عن سبولدنج، ولم يعرفوا أنه جارٌ لهم، رغم أنني كثيرًا ما سمعته يُصفّر وهو يمضي بصُحبته عبر البيت. لا شيء يمكنه مضاهاة هدوء حياتهم. شِعار نَبالتِهم ليس سوى نبتة أشنة. رأيته مرسومًا على أشجار الصنوبر والبلوط. كانت عِلّياتهم على ذرى الأشجار. لا يعرفون ما هي السياسة. لا يحدثون أيّ ضوضاء في عملهم. لم أتخيَّل أنهم

كانوا ينسجون أو يغزلون. اكتشفت مع ذلك، عندما هدأت الرياح وخفتت الأصوات، أعذب وأجمل همهمة موسيقية يمكن تخيلها. لم تكن لديهم أفكار خاملة، لكن لم يكن بمقدور أحد رؤيتهم يعملون، ذلك أن صناعتهم لم تكن في العَقد وترصيع الزوائد.

لكنني أجد صعوبة في تذكّرهم. تلاشوا بلا رجعة من عقلي، حتى الآن وأنا أتحدث وأحاول تَذكُّرهم وتَذكُّر نفسي. لكن فقط، بعد جهدٍ شاقٍّ وطويل لاستعادة أفضل أفكاري، أصبح واعيًا مجددًا بمعايشتهم. ولولا عائلات كهذه العائلة، أعتقد أنني كنت لأرحل عن كونكورد.

ثورو: "المشي"((1)).

@ART_OF_BOOK

(1)

المكتبة

بعد أن أنهيتُ دراستي في أكسفورد، انطلقت في إجازة قصيرة من العمل قبل أن أنخرط في تولّي مسؤولية إدارة الشركة. مات أبي وأنا طفل؛ لحقَت به أمّي خلال عام؛ وأصبحت وحيدًا في هذا العالم بأكبر وحدة مُمكِنة لإنسان.

كنت اطّلعتُ قليلًا على تاريخ أجدادي. وتقريبًا كان الشيء الوحيد الذي أدركته بشأنهم، أن عددًا كبيرًا منهم انغمس في البحث والتأمل. لا بُدَّ أنني ورثت عنهم الميل لتكريس قدرًا كبيرًا من وقتي للعلوم الفيزيائية، لكن لأعترف أن أسلوبي في ذلك كان طائشًا بعض الشيء. كان ذلك في الأساس بسبب الأعجوبة التي أيقظوها داخلي. كنت أرى باستمرار، وأترقَّب في كل موضع، التشابهاتِ الغريبةَ، ليس فقط بين حقائق العلوم المختلفة من نفس الرُّتبة، أو بين الحقائق الفيزيقية والميتافيزيقية، لكن بين الفرضيات الفيزيائية والإيحاءات المنبعثة من الأحلام الميتافيزيقية التي اعتدت على السقوط فيها. كنت في نفس الوقت منغمسًا قبل الأوان في الاندفاع لتحويل الفرضيات إلى نظريات. لكن عن غرائبي العقلية لم يَعُد هناك مجال لقول المزيد.

كان المنزل، وكذلك العائلة، يتّسمان بطابع العصور القديمة، لكن لا حاجة بي لتقديم وصفًا لذلك لفهم

حكايتي. كان المنزل يضمّ مكتبة أنيقة، بدأت في التّوسّع قبل اختراع الطباعة، واستقرّت حتى زماني، متأثرة كثيرًا، بطبيعة الحال، بتغيّرات الأذواق والهوايات. لا شيء بالتأكيد يمنح الإنسان الحِسّ العابر بالامتلاك أكثر من نجاحه في الوصول إلى ممتلكات قديمة! كبانوراما متحرّكة، قضت ملكيّتي هذه أمام أعين كثيرة، وهي الآن تتمركز ببطء أمام عينيّ.

تلك المكتبة، رغم مراعاة وجودها في التعديلات والإضافات الكثيرة التي حدثت على المنزل وإضافاته، بَدَت وكأنها دولة غازية، تبتلع غرفةً بعد أخرى حتى أصبحت تحتلُّ الجزء الأكبر من الطابق السفلي. كانت قاعتها الرئيسة كبيرة، وحوائطها مُغطّاة بالكتب حتى السقف تقريبًا؛ والغُرف التي فاضت المكتبة فيها ذات أحجام وأشكال متباينة، تتّصل فيما بينها بأشكال مختلفة- عبر الأبواب، الأقبية المُقنطَرة المفتوحة، الممرّات القصيرة، الدرجات الصاعدة والنازلة.

في الغرفة الرئيسية كنت أقضي معظم وقتي، أقرأ كتب العلوم، القديمة منها والجديدة؛ ذلك أن تاريخ العقل البشري، ومقارنته بالمعرفة المزعومة، كان أكثر ما يثير اهتمامي. بطليموس، ودانتي، وروجر وفرانسيس بيكون، وبويل كانوا أقربَ لي من داروين أو ماكسويل، تمامًا كقُرب الطّليعة المندثرة، المقتحمة لظلام الجهل.

في مساء يومٍ غائِمٍ من أغسطس كنت أجلس في مكاني المعتاد، ظهري إلى إحدى النوافذ، أقرأ. أمطَرَت معظم النهار والظهيرة، وفور أن بدأت الشمس في الغروب، افترقَت السُحب أمامها، وسطَعَت في الغرفة. نهضت وتطلَّعت إلى خارج النافذة. في مركز الحديقة الكبيرة كانت القمة المغطَّاة بالريش لعمود النافورة غارقةً في مجد الشمس الأحمر. استدرتُ لأعود إلى مقعدي، عندما لفتَ نظري نفسُ المجد على إحدى اللوحات في الغرفة- بورتريه، داخل ما يشبه الكوّة أو ضريح صغير غائص للداخل بين الأرفف الممتلئة بالكتب. أعرف أنه تصوير لأحد أجدادي، لكن أبدًا لم أتساءل لماذا كان يتدلّى هناك بمفرده، وليس في البهو، أو في واحدة من الغرف الكبيرة بين بورتريهات العائلة الأخرى. كشَفَت أشعَّة الشمس المباشرة عن اللوحة بشكل رائع؛ وكأنني أراها للمرة الأولى، وللمرة الأولى، بَدَت وأنها تستجيب لنظرتي. وبعينيْ الممتلئتين بالنور المنعكس عنها، شيءٌ ما، أجهله تمامًا، جعلني أستدير وألقي نظرة خاطفة على الطرف الأبعد من الغرفة، وحينها رأيت، أو تخيَّلتُ أنني رأيت، شكلًا بشريًا طويلًا يمدُّ يده للوصول إلى رف الكتب. في اللحظة التالية، تصحح نظري على ما يبدو بفعل الغسق، لم أر أحدًا، واستنتجت أن أعصابي البصرية قد تأثرت لحظيًا من الداخل.

عدتُ إلى قراءتي، وكان لي أن أنسى بلا شك ذلك

الانطباع الغامض، الغابر لولا أنني، بعد اضطراري لاحقًا للرجوع إلى مجلّد بعينه، وجدتُ فجوةً في الصفّ حيث ينبغي أن يكون، وفي نفس اللحظة تذكّرتُ أنني قد رأيت، أو توهّمتُ أنني رأيت، الرجل العجوز يبحث عن كتاب في نفس المكان. تطلّعتُ حول الموضع بالكامل لكنْ بلا جدوى. في الصباح التالي، رغم ذلك، وجدتُ المجلّد، تمامًا في مكانه الذي توقّعتُه! كنت موقنًا أنْ لا أحد في المنزل قد يهتمُّ بكتاب كهذا.

بعد ذلك بثلاثة أيام، حدث شيء آخر، أكثر غرابةً.

في أحد الحوائط كان الباب الضيّق، الواطئ لخزانة، يحتوي على بعض من أندر وأقدم الكتب. باب سميك جدًا، بإطار بارز، وتراءى لأحد أجدادي أن يقاطعه بأرفُف سطحيّة، ممتلئة بظهور الكتب فقط. كان من الممكن تبرير الخدعة البريئة بحقيقة أن العناوين على الكتب الزائفة كانت أصلية بشكل ساخر أو عناوين لكتب ضاعت منذ زمن ولم يَعُد هناك أمل لاسترجاعها. كان هذه الباب المخادع يعجبني كثيرًا.

حتى يكتمل الإيهام، كان عاملٌ مُحبٌّ للاختراعات قد حشرَ على ما يبدو، أعلى أحد الصفوف، جزءًا من مجلد رفيع بما يكفي ليستقر بين أعلى صفّ الكتب وقاع الرّفّ التالي: أزال بشكل مائل جزءًا كبيرًا منه، وثبّت ما تبقى منه بحيث ظهرت حوافُّه المفتوحة على ظهور الكتب. كان ما يربط المجلد المشوّه رفًّا

مرتخيًا، ويمكن للمرء فتحه بما يكفي ليرى أنه كان مخطوطة على جلد كتابة رقيق.

فيما أنا جالس للقراءة، رفعتُ عينيّ عن الصفحة لألمح هذه الباب، وعلى الفور رأيتُ أن الكتاب الموصوف، إذا كان لنا ندعوه كتابًا، قد اختفى. غاضبًا بما يتجاوز أي قيمة قد يحملها الكتاب، قرعت الجرس، ثم ظهر الخادم. عندما سألته إن كان يعرف ما أصاب الكتاب، شحب وجهه، وأكّد لي أنه لا يعرف. كان لي أن أشك في عينيّ وليس في كلماته، ذلك أنه قضى حياته كلها في العائلة، ولم يَعش بينا أبدًا خادم أكثر إخلاصًا منه. رغم ذلك، ترك لديّ انطباعًا أنه كان بإمكانه قول المزيد.

في الظهيرة كنت أقرأ مجددًا في المكتبة، وبعد أن وصلت إلى لحظة تتطلّب التأمّل، أخفضت الكتاب وتركت عينيّ تهيمان. في نفس اللحظة رأيت ظَهر رجلٍ عجوز نحيل، في معطف داكن، طويل، ملتمع كما لو كان من كثرة ارتدائه، في أثناء اختفائه عبر الباب المخادع إلى الخزانة خلفه. اندفعت عبر الغرفة، ووجدت الباب مقفلًا، سحبته لفتحه، وتطلّعتُ إلى الخزانة، التي لم تكن تضمُّ مَخرَجًا آخر واستنتجت، بما أنني لم أرَ أحدًا، ليس بلا قلق، أن توهُّمي السابق قد تكرّر ثانيةً، وجلست مُجدّدًا لأستأنف قراءتي.

بالطبع، لم يكن بمقدوري سوى أن أشعر بالعصبية قليلًا، وأن ألقي نظرة خاطفة أخرى لأطمئنَ نفسي

أنني بمفردي حقًا، نهضت مجددًا، وهرعت إلى الباب المُخادِع- ذلك أن المجلَّد المشوَّه كان في مكانه! أمسكه وسحبته: كان مثبتًا بإحكام كالعادة.

كنت الآن مذهولًا بشدّة. قرعت الجرس؛ جاء الخادم؛ أخبرته بكل ما رأيته، وأخبرني بكل ما يعرفه.

كان يأمل، قال لي، أن يُنسى الجنتلمان العجوز؛ ذلك أن أحدًا لم يره سواي. كان سمع الكثير عنه عندما جاء للخدمة في المنزل، لكن شيئًا فشيئًا لم يَعُد يُذكَر، وكان هو حريصًا جدًا على ألّا يُلمِّح إليه بأي شكل.

"كان المكان مسكونًا بجنتلمان عجوز، أليس كذلك؟" سألته.

أجاب أن الجميع كان يصدق ذلك يومًا ما، لكن حقيقة أنني لم أسمع به أبدًا قد تعني أن الشيء قد اختفى ونُسي.

سألته ما إذا كان رأى الجنتلمان العجوز من قبل.

لم يره أبدًا، أجابني، رغم أنه يخدم في المنزل منذ أن كان أبي في الثامنة من عمره. لم يحب جدّي أن يسمع كلمة واحدة عن المسألة، مُعلنًا أن أيًا من يُلمّح إليها سيُطرد على الفور بلا إنذار: لم يكن الأمر سوى ذريعة للخادمات، قال لي، للتسلُّل والارتماء في أحضان الرجال خلسةً! لكن السيد رالف العجوز لم يكن يؤمن بشيء لا يراه أو لا يمسكه. وأيٌّ من

الخادمات لم تقل أبدًا إنها رأت الظهور الشبحي، لكن واحدًا من الشغاة غادر المكان بسببه.

أخبرته امرأة عجوز في القرية ذات مرة عن أسطورة بشأن رجلٍ يُدعى السيد راڤين((2))، قيّم مكتبةٍ منذ زمن طويل لدى "ذلك السيد أبوورد الذي يتدلّى بورتريهه من بين الكتب". كان السيد أبوورد قارئًا نهمًا، قالت له- ليس لتلك الكتب المفيدة التي يقرأها الناس عادةً، لكن للكتب العجيبة، المحرّمة، الشريرة؛ وعلى ذلك، كان السيد راڤين، الذي ربما كان الشيطان نفسه، يشجعه كثيرًا. اختفى الاثنان بغتةً، وأبدًا لم يُسمع عن السيد أبوورد أو يُشاهد، لكن السيد راڤين استمر في الظهور على فترات متقطّعة في المكتبة. كان هناك بعض مَن صدّق أنه لم يمت؛ لكنه والمرأة العجوز وجَدَا من الأسهل أن يُصدّقا أن رجلًا ميتًا قد يزور العالم الذي غادره مُجددًا، أكثر من تصديق أن يعيش إنسان لمئات السنين.

أبدًا لم يسمع أن السيد راڤين قد عبث في أي شيء في المنزل، لكنه ربما يعتبر نفسه ذا مزيّة بشأن الكتب. كان عاجزًا عن تبيُّن كيف تمكّنت المرأة العجوز من معرفة الكثير عنه هكذا؛ لكن الوصف الذي قدّمته عنه كان مطابقًا بالضبط للشكل البشري الذي كنت رأيته.

"آمل أنها ليست سوى زيارة وديّة من جانب

الچنتلمان العجوز!" اختتم حديثه، بابتسامة متكدِّرة.

أخبرته أنني لا أعترض على أي عدد من الزيارات من جانب السيد راڤين، لكن سيكون من الأفضل أن يستمر في عزمه على ألَّا يقول شيئًا بشأنه للخدم. ثم سألته إن كان رأى المجلَّد المشوَّه منتزعًا من موضعه؛ أجابني أنه لم يَرَ ذلك أبدًا، وأنه دائمًا ما اعتقد أنه مُثبَّت في مكانه. بقوله ذلك، خطا وحاول انتزاعه: بدا راسخًا ولا يمكن تحريكه.

@ART_OF_BOOK

(2)

المرآة

لم يحدث أي شيء لبضعة أيام. لكن بعد أسبوع تقريبًا، حدث ما يتوجب عليّ حكيه الآن.

كثيرًا ما فكّرتُ في قصاصة المخطوطة، ومرّةً تلو الأخرى حاولت استكشاف طريقةً لاستخراجها، لكن بلا جدوى: لم أتمكّن من اكتشاف ما يثبّتها بهذا الشكل.

كنت انتويت ترميم الكتب في الخزانة؛ ذلك أن حالتها كانت تُسبّب لي انقباضًا. في أحد الأيام تحولت النيّة بغتةً إلى قرار، وبينما أنهض من مقعدي لأبدأ في ذلك، رأيت قيّمَ المكتبة العجوز يخرج من باب الخزانة إلى الطرف الأبعد من الغرفة. عليّ القول إنني لم أرَ سوى شيء ذا ظلٍّ خَلقَ لديّ انطباعًا برَجُلٍ نحيل، مُنحني الظهر، بمعطف رثٍّ يصل إلى عقبيه تقريبًا، بذيلٍ ينكشف،قليلًا عندما يسير، ويكشف عن سيقان رفيعة في جوارب سوداء، وقدمين كبيرتين في حذاء واسع يشبه الخُفّ.

تبعته على الفور: ربما لم يكن سوى ظلٍّ بالفعل، لكنني أبدًا لم أشك أنني أتبع شيئًا ملموسًا. خطا خارجًا من المكتبة إلى الرّدهة، ومضى إلى الدرجة الأولى من السُلّم الكبير، ثم صعد الدرجات إلى

الطابق العلوي، حيث تستقر الغُرَف الرئيسية. بعد هذه الغُرَف، اقتربت منه، واستمرّ هو في طريقه عبر ممرّ واسع، إلى الدرجة الأولى من سُلّم ضيّق يؤدي إلى الطابق الثاني. صَعده أيضًا، وعندما وصلتُ إلى نهايته، رغم غرابة ذلك، وجدت نفسي في منطقة مجهولة تقريبًا بالنسبة لي. لم يكن لديّ أبدًا شقيق أو شقيقة لدفعي إلى شقاوة استكشاف كل زاوية وركن في المنزل. إلى ذلك، كنت مُجرّد طفل عندما انتزعني الوصيّ عليّ؛ وأبدًا لم أرَ المنزل مُجدّدًا حتى استعدت مِلكيّته، قبل شهر تقريبًا.

اجتزنا ردهةً بعد أخرى، ووصلنا إلى باب أسفل سُلّم خشبي ملتفّ، صعدناه. كل درجة كانت تصرّ تحت قدميّ، لكنّي لم أسمع صوتًا من مُرشِدي. في موضع ما في منتصف الدَّرج لم أعُد أراه، وفي نهايته لم أتمكّن من رؤية ظلّه في أي مكان. لم أستطع تخيّل أنني رأيته حتى. كان المكان ممتلئًا بالظلال، لكنه لم يكن أحدها.

وصلتُ إلى العِلّيّة الرئيسية، بعوارض ودعامات ضخمة فوق رأسي، ومساحات فارغة كبيرة من حولي، وأبواب متناثرة هنا وهناك، ومنظورات أفق طويلة تخفّفت قتامتُها بفعل بضعة نوافذ متوارية وراء أنسجة العناكب وكوّات سقف معتمة صغيرة. حملقت بخليط غريب من الرهبة والمتعة: الامتداد الواسع للعلّيّة كان ملكًا لي، ولم يُستكشف بعد.

في منتصفها انتصب تسييج غير مَطليّ من ألواح

خشنة، كان بابه مواربًا. معتقدًا أن السيد راقين ربما كان داخلها، دفعت الباب، ودلفت إليه.

كانت الحجرة الصغيرة غارقة في ضوء كذلك الذي يسكن الأماكن المهجورة: كان كابيًا وتعيسًا، كما لو أنه وجد نفسه عديم الفائدة، يقتله الندم على المجيء. تساقطت أشِعَّةُ شمس خافتة، وجَدَت طريقها عبر سُحُبِ الغبار التي أثارها دخولي لتوِّي، على مرآة طويلة ذات وجه مغبَّر، على طراز قديم وضيقة بعض الشيء- تبدو في الظاهر كزجاج عادي. كان لها إطار من الأبنوس، على قمته ينتصب صقر أسود، بجناحين مفرودين، وفي منقاره سلسلة ذهبية، من نهايتها تتدلَّى كرة سوداء.

كنت أتطلَّع إلى ما حول المرآة عندما أدركت بغتةً أنها لا تعكس الحجرة ولا شخصي الواقف أمامها. راودني انطباع أنني رأيت الحائط يذوب متلاشيًا، لكن ما تلا ذلك كان كافيًا لتفسير أيِّ شكٍّ: هل كانت المرآة مجرد زجاج يحمي لوحة بديعة فحسب؟

رأيتُ أمامي أرضًا بَرِّيَّةً، وعرة ومُغطَّاة بنباتات الخلنج الواطئة. تلالٌ مقفرةٌ بارتفاع ليس كبيرًا، لكن ذات مظهر غريب نوعًا، كانت تشغل المنتصف؛ وعلى طول الأفق تمتدُّ ذُرى سلسلة من الجبال البعيدة؛ وعلى مقربة منِّي استقر مسار من المستنقعات، منبسط ومُوحِش.

كوني قصير النظر؛ اقتربتُ لتفحُّص نسيج حجري

أمامي مباشرةً، وفي قيامي بذلك لمحت، قافزًا ناحيتي بوقار، غراب كبير وعجوز، كان لونه الأسود الحالك مُخفّفًا بزُقَط رمادية. بدا وكأنه يبحث عن الديدان في تقدُّمه ناحيتي. بذهولي من مشهد مخلوق حيٍّ في لوحة، اتَّخذت خطوةً أخرى لأراه عن قرب، تعثَّرت بشيء ما -إطار المرآة بلا شكّ- ووقفت بأنفي ملاصقًا لمنقار الطائر: أصبحت في الهواء الطلق، على مرجٍ مُقفِرٍ، براح.

@ART_OF_BOOK

(3)

الغراب

استدرتُ وتطلّعتُ إلى ما ورائي: كان كل شيء ملتبسًا ومبهمًا، كما عندما يعجز المرء عن التمييز بين الضباب والحقل، بين الشحب وجانب الجبل. حقيقة واحدة فحسب كانت واضحة- أنني لم أرَ شيئًا أعرفه. متخيّلًا أنني انغمست في توهُّم بصري، وأن اللمس سيُصحِّح النظر، مددت ذراعيّ وتحسَّستُ ما حولي، سائرًا في هذا الاتجاه أو ذاك في المواضع التي لا أرى فيها شيئًا؛ فربما أتّصِل بأي شيء، لكن بحثي كان بلا طائل. ثم عفويًا، مُتذكّرًا الشيء الوحيد بالقرب مني، استدرت ناحية الغراب، الذي كان ينتصب على بُعدِ خطوات، ناظرًا إليّ بتعبير وقور وفضولي في آنٍ. ثم صعقتني عبثية البحث عن نصيحة لدى كائن كهذا، فاستدرت ثانيةً، وقد أرهقني ذهولٌ لا يخلو من خوف. هل شردتُ إلي أرضٍ تفكّكت فيها العلاقات الماديةُ والفيزيائية لعالمَنا؟ هل يمكن لإنسانٍ في لحظةٍ واحدة أن يخطو إلى ما وراء النظام، ويصبح تسليةً للفوضى؟ مع ذلك، فقد رأيت الغراب، وشعرت بالأرض تحت قدميّ، وسمعت صوتًا يشبه صوت الرياح في الأعشاب الواطئة من حولي!

"كيف وصلت إلى هنا؟" عاليًا على ما يبدو كان صوتي، ذلك أن السؤال أجيب على الفور.

"لقد جئتُ عبر الباب"، أجابني صوتٌ عجيب، خَشِنٌ بعض الشيء.

تطلّعتُ ورائي، ثم من حولي، ولم أرَ أيّ شكل بشري. استولى عليّ رعب الجنون الحاضر: هل ينبغي لي وضع ثقتي في حواسّي أم في وعيي؟ في نفس اللحظة أدركتُ أن الغراب هو مَن تَحدّثَ، ذلك أنه انتصب متطلّعًا إليّ بسيماء الانتظار. لم تكن الشمس في غاية السطوع، مع ذلك بدا الطائر وكأنه يلقي بظلٍّ على الأرض وبدا الظل وكأنه جزءٌ لا ينفصل عنه.

أرجو من القارئ أن يساعدني في مسعاي لإيضاح كلماتي- هذا إن كان التفاهم ممكنًا بيننا هنا. كنتُ في عالَم، أو لنقل في حالة من الأشياء، تنظيم للظروف، فكرة للوجود، بالكاد جدًّا تتناظر مع الطُّرق والوسائل في هذا العالَم- الذي نميل للاعتقاد أنه العالَم الوحيد، لحدّ أن أفضل كلمة أو جملة يمكنني اختيارها لن تكون سوى إشارةٍ مُعتِمَةٍ لما أريد إيصاله. ينتابني الخوف حقًّا في أنني تحمّلتُ مسؤولية قول ما يستحيل قوله؛ لأنه لا يوجد حديث في متناولي يمكنه ملائمة الأشكال في عقلي. وضعتُ بالفعل عبارات يسعدني تغييرها، فقط لو أعرف بديلًا أكثر صدقًا لها؛ لكن كلما أحاول أن ألائم الواقع بكلمات أكثر قُربًا، أجد نفسي في خطر فَقْد الأشياء نفسها، وأشعر وكأنني أستيقظ من حلم، وأن الشيء، الذي بدا مألوفًا، يتبدّل شيئًا

فشيئًا لكن بسرعة، عبر تتالي الأشكال، حتى لا يُعَدّ من الممكن التّعرُّف على طبيعته الأولى.

استسلمتُ لفكرة أن طيرًا قادرًا على مخاطبة إنسان له حقٌّ إنسانيٌ في تلقّي ردٍّ متحضّر؛ بل وحق أكبر من ذلك ربما، لأنه طير.

تسبّب مَيلُه للنعيب في خشونة مُعيّنة في حديثه، لكن صوته لم يكن بشعًا، وما قاله، رغم أنه يحمل قليلًا من التنوير فحسب، لم يَبدُ وقحًا.

"لم آتِ عبر أيِّ باب"، أجبته.

"رأيتك تأتي عبره! رأيتك بعينيَّ العجوزَين!" أكّدَ الغراب، بيقين، لكن ليس بلا احترام.

"لم أرَ أيَّ باب!" أصرَرتُ.

"بالطبع لا!" أجابني؛ "كل الأبواب التي رأيتها في حياتك -وأنت لم ترَ الكثير- كانت أبوابًا للدخول؛ لكنك صادفت بابًا للخروج! الشيء العجيب بالنسبة لك"، تابع بتأمُّل، "سيكون، أنه كلما صادفت أبوابًا للخروج، كلما ابتعدت في دخولك!".

"تفضَّل عليَّ بإخباري أين أنا".

"هذا مستحيل. لا تعرف شيئًا عن معنى "أين". السبيل الوحيد لمعرفة أين أنت هو أن تبدأ في التصرُّف كأنك في بيتك".

"كيف سأفعل ذلك وكل شيء حولي غريب عني؟".

"عبر فِعل شيءٍ ما".

"شيء مثل ماذا؟".

"أي شيء؛ وكلما أسرعت كلما كان أفضل! ذلك أنك ستجد من الصعب أن تخرج وكذلك أن تدخل، ما لم تشعر أنك في بيتك".

"للأسف، وجدتُ الدخول في غاية السهولة؛ فور أن أخرج لن أحاول الدخول مُجدّدًا!".

"لقد تعثَّرت في دخولك وقد تتعثَّر في خروجك أيضًا. للأسف دخولك مُراقَب دائمًا".

"هل تخرج أبدًا يا سيدي؟".

"عندما أحبُّ، لكن ليس كثيرًا، وليس لفترة طويلة. عالمك ما هو إلا مكان نصف ناضج، إنه طفولي وراضٍ عن نفسه في آنٍ- في الحقيقة، لم يتطوَّر بما يكفي لغراب عجوز حتَّى... في خدمتك!".

"هل أنا مُخطِئ إذن في تَصوُّري أن الإنسان أرقى من الطير؟".

"ربما. لكننا لا نُبدِّد ذكاءنا في التعميم، ننظر إلى الإنسان أو الطير كما هو. أعتقد أنه حان دوري لأطرح عليك سؤالًا!".

"لديك كُلُّ الحَقِّ"، أجبته، "بالنظر إلى حقيقة أن بمقدورك فعل ذلك!".

"ردٌّ جيِّدا" أجابني. "أخبِرني إذن، مَن أنتَ... إذا

كنتَ تعرف!".

"كيف لا أعرف؟ أنا نفسي، وبالتأكيد أعرف!".

"إذا كنتَ تعرف نفسك، فأنت تعرف أنك لست شخصًا آخر؛ لكن هل تعرف أنك نفسك؟ هل أنت متأكّد أنك لستَ أباك؟ أو، اعذرني، الصورة الحمقاء من نفسك؟ مَن أنت، رجاءً؟".

أدركتُ بغتةً أنني عاجز عن منحه أيّ فكرة عمَّن أنا. حقًّا، مَن أنا؟ ليست إجابةً أن أقول مَن أنا! ثم أدركت أنني لا أعرف نفسي، لا أعرف ما أنا، ليس لديّ أي أسُس لتحديد أنني شخص بعينه وليس أحدًا آخر. وبالنسبة للاسم الذي كنت أمضي به في عالَمي، فقد نسيته، ولم أهتم بتذكُّره؛ ذلك أنه لا يعني شيئًا، وما قد يكونه لن يؤثّر بأي شكل هنا. بل إنني أوشكت على نسيان تلك العادة التي تلزم أيّ إنسان أن يكون له اسم! لذلك أمسكت لساني، ووجدت في ذلك حِكمةً؛ ذلك أنه ماذا سأقول لمخلوق كهذا الغراب، الذي يحوّل الصُدفَة إلى كينونة؟

"انظر إليّ"، قال لي، "وأخبرني مَن أنا".

بينما يتحدث، استدار بظهره، وأدركت على الفور مَن هو. لم يَعُد غرابًا، بل رجلًا بطول فوق المتوسط وانحناءة في الظّهر، نحيل جدًا، ويرتدي معطفًا طويلًا أسود بذيل. استدار ثانيةً، ورأيته غرابًا.

"لقد رأيتك من قبل يا سيدي"، قلتُ له، شاعِرًا

بالحماقة أكثر من المفاجأة.

"كيف يمكنك قول ذلك من رؤيتي من ظهري فحسب؟" أجابني. "هل رأيت نفسك من الخلف من قبل؟ لم تَرَ نفسك أبدًا من قبل!- أخبرني الآن إذن، مَن أنا".

"معذرةً"، أجبته: "أظنُّ أنك كنتَ فيما مضى قَيِّمَ المكتبة في منزلنا، لكن أكثر من ذلك لا أعرف".

"لماذا تطلب معذرتي؟".

"لأنني ظَنَنتُك غرابًا"، قلت له- فيما أراه أمامي غرابًا وإنسانًا في نفس الوقت.

"لم تخطئ بي الظنَّ"، أجابني. "أن تدعوني بالغراب، أو تظنَّ أنني غراب، فأنت تمنحني وجودًا، وهو كل ما يمكن للمرء أن يطلب من أقرانه الكائنات؛ لذلك، في المقابل، سأعلِّمُكَ درسًا: لا يمكن لأي إنسان أن يقول إنه نفسه، حتى يعرف أولًا أنه "يكون"، ثم ماذا تكون "نفسه". في الحقيقة، لا أحد يكون نفسه، ونفسه هي لا أحد. هناك المزيد في هذا يمكنك رؤيته الآن، لكن ليس أكثر ممَّا تحتاج رؤيته. أخشى أنك دخلت إلى هذه الأرض قبل الأوان كثيرًا، لكن رغم ذلك عليك أن تتصرَّف كأنك في بيتك؛ ذلك أن البيت، إن كنت تعرف ذلك أم لا، هو المكان الوحيد الذي يمكنك الخروج منه والدخول إليه. هناك أماكن يمكنك الدخول إليها، وأخرى يمكنك الخروج منها؛ لكن المكان الوحيد، إذا وجدته في نهاية المطاف،

الذي يمكنك الخروج منه والدخول إليه متى شئت، هو البيت".

استدار للمشي مبتعدًا، ومجددًا رأيت قيِّم المكتبة. لم يَبدُ أنه تغيَّر، بل اندمج مع ظلِّه فحسب. أعرف أن هذا يبدو هراءً، لكنني عاجز أمامه.

حملقتُ في إثره حتى اختفى من ناظريّ؛ لكن هل أخفاه بُعد المسافة، أم أنه اختفى بين الخلنج، لم أتبيَّن.

هل من الممكن أن أكون ميّتًا، قلت لنفسي، ولم أدرك بعدُ؟ هل أنا فيما اعتدنا تسميته بعالَم بعد القبر؟ وهل عليّ أن أهيم ناشدًا مكانًا فيه؟ كيف لي أن أتصرَّف وكأنني في البيت؟ قال الغراب إنه عليّ فعل شيئًا ما: ماذا بمقدوري فعله هنا؟ وما الذي سيجعل مني شخصًا ما؟ الآن، وا أسفاه، أنا لا أحد.

اتَّخذتُ الطريق الذي سلكه السيد راڤين، ومضيت في إثره ببطء. رأيت غابةً من أشجار صنوبر نحيلة وطويلة، واستدرت ناحيتها. صادفتني رائحتها في طريقي، وأسرعت لدفن نفسي فيها.

مقتحمًا في النهاية ظلام الغسق التي انتشر في الغابة، رأيت أمامي شيئًا ذا سطوع، يقف بين شجرتين. لم تكن له رائحة، لكنه كان كالارتعاشة الشفَّافة للهواء الساخن الذي يصَّعد، في ظهيرة صيف قائظة، من أرضٍ أحرقتها الشمس، يهتزُّ كأوتار آلة موسيقية بعد ضربها. لم تتَّضح ماهيَّته مع

اقترابي منه، وعندما أصبحت قُبالته، لم أعُد أراه، فقط شكل ولون الأشجار وراءه بدت ضبابية على نحو عجيب. كنتُ على وشك المرور من بين جذوع الأشجار، عندما تلقَّيتُ صدمةً خفيفة، فتعثَّرتُ وسقطت أرضًا. عندما نهضت، رأيت أمامي الحائط الخشبي لحجرة العلِّيَّة. استدرت، وهناك كانت المرآة، التي بدا النسر الأسود على قمتها وقد حطَّ عليها في تلك اللحظة.

استولى عليَّ الرعب، وفرَرتُ هاربًا. خارج الحجرة كانت مساحات العلِّيَّة الواسعة ذات منظر عجيب للغاية. بدت وأنها تنتظر شيئًا منذ زمن طويل؛ وقد جاء أخيرًا، وها هي تنتظر مُجدَّدًا. انتابتني رعشةٌ عند الدَّرج الملتفِّ: غدا المنزل ذا منظر غريب في عيني! شيءٌ على وشك القفز عليَّ من الخلف! اندفعت هابطًا الدَّرَج اللولبي، واصطدمت بالجدار مُجدَّدًا وسقطت أرضًا، نهضتُ وبدأت في الركض. عند الباب التالي ضَلَلتُ طريقي، وانطلقت عبر عدَّة رَدهاتٍ مُجدَّدًا قبل أن أجد بداية الدَّرَج. عند أعلى الدرج الكبير استجمعت شتات نفسي قليلًا، وفي غضون لحظات استعدتُ أنفاسي في المكتبة.

لا شيء أبدًا ينبغي أن يجعلني أصعد ذلك الدَّرج المربع مُجدَّدًا! ذلك أن العلِّيَّة في نهايته قد تغلغَلَت في المنزل بأكمله! جثَمَت عليه، مُهدِّدةً بسحقي وإخراجي منه! كانت العقل المفكِّرَ للمبنى، ممتلئةً بالساكنين الغامضين، الذين قد يظهر أحدهم في

أيَّ لحظة في المكتبة حيث أجلس! لم يَعُد لي مكانٌ آمن هنا! سأستأجر مكانًا آخر، سأبيع هذا المكان البشع، الذي تُحوِّم فيه بوابة أثيرية مفتوحة أمام مخلوقات ذات حياة ليست بشرية! سأشتري جرفًا صخريًا في سويسرا، وعليه سأبني عُشًا خشبيًا من طابق واحد بلا عليَّة فوقه، تحرسه ذروة عتيقة هائلة لن ترسل إلى الأرض ما هو أسوأ من بضعة أطنان من صخور كاسحة!

كنت مدركًا طوال الوقت أن تفكيري في غاية الحماقة، بل وواعيًا بالمعنى الكامن للسخرية المتهكِّمة فيه؛ لكن لجامه كُبِح بغتةً، وشعرت أنني أسمع مُجدَّدًا نعيب الغراب.

"إذا لم أكن أعرف أيَّ شيء عن عليَّة منزلي"، فكَّرت، "فماذا يوجد ليحميني من عقلي ذاته؟ هل أعرف ما يستولده الآن حتَّى؟ أيَّ فكرة قد يُقدِّمها في اللحظة التالية، أو الشهر التالي أو بعد عام كامل؟ ماذا يوجد في قلب عقلي؟ ماذا يكمن في تفكيري؟ هل أنا موجود أصلًا؟ مَن، ما أنا؟".

لم أستطع الإجابة على السؤال الآن بأكثر ممَّا استطعتُ عندما طرحه عليَّ الغراب في -فوق- "في أين؟- فوق أين؟" قلت لنفسي، وتخلَّيتُ عن محاولة معرفة أيَّ شيء عن نفسي أو الكون.

نهضت واقفًا، وهرعت عبر الغرفة إلى الباب المخادع، حيث المجلَّد المشوَّه، يبرز من استواء

الكتب عديمة الروح، عديمة الجسد، غير الموجودة، يبدو وأنه يغويني. ركعتُ على ركبتيَّ، وفتحته بقدر ما يسمح موضعه، لكن لم أستطع رؤية شيء. نهضتُ مُجدَدًا، وأشعلت شمعةً نحيلة، ودقَّقتُ النظر في زوج الفكَّين الممانعين، أدركت أن المخطوطة كانت شِعْرًا. لم أستطع اكتشاف شيءٍ آخر. كانت بدايات الأبيات مرئيةً على الصفحة اليسرى، ونهايات الأبيات على الصفحة الأخرى؛ لكنّي لم أستطع، بالطبع، الوصول إلى بدايات ونهايات نفس الأسطر، وعَجزتُ، فيما استطعت قراءته، عن تخمين أيّ معنى. أيقَظَت الكلمات المجرَّدة داخلي، رغم ذلك، مشاعر يستحيل وصفها من فرط غرابتها. بعض الأحلام، بعض القصائد، بعض الجمل الموسيقية، بعض اللوحات، توقظ مشاعر في المرء لم يعرفها من قبل، جديدة في اللون والشكل- استثارات روحانية لا برهان عليها في الواقع: والآن، بعض العبارات، بعض نصف الأسطر عديمة المعنى، بل وحتى بعض الكلمات المفردة أثَّرت عليَّ بشكلٍ مُشابِه- كما لو كانت شَذًا فكرة، تثير داخلي حنينًا عظيمًا لمعرفة ما قد توحي به أو تحمله القصيدة أو القصائد، حتى في تشوُّهها هذا.

نسختُ بضعة شذرات أكبر ما أمكنني، وحاولت جاهدًا إكمال بعض الأبيات، لكن بلا أدنى نجاح. الشيء الوحيد الذي جنيته كان مزيدًا من الإرهاق، لحدّ أنني، عندما أويتُ إلى الفراش، استغرقتُ من

فوري في نوم هانئ.

في الصباح كان كل الرعب الناشئ عن مساحات العلية الخاوية قد غادرني.

@ART_OF_BOOK

(4)

مكان ما أو لا مكان؟

كانت الشمس في غاية السطوع، لكنّي ارتبتُ أن كان النهار سيكون رائقًا، وتطلّعتُ إلى جوهرة الياقوت اللبَنيّة التي أرتديها، لأرى إن كانت النجمة التي فيها صافية. كانت أقلّ وضوحًا ممّا توقّعتُ. نهضتُ عن مائدة الإفطار، وخطوت إلى النافذة لألقي نظرة على الحجَر مرةً أخرى. كانت أمطَرَت بشدّة في الليل، وعلى المرج كان هناك طائر شحرور يخترق صَدَفة حلزون بمنقاره.

فيما أدير خاتمي لألتقط استجابة النجمة مع الشمس، لمحتْ عينًا سوداء ثاقبة تحدّق فيّ من الأزرق الضبابي اللبَنيّ. أجفلني المشهد لحدّ أنني أسقطت الخاتم، وعندما التقطته كانت العين كانت اختفت. في نفس اللحظة كانت الشمس قد احتجبت؛ تحت ستارٍ من بخار أسود، وفي غضون دقيقة أو اثنتين غطّت الشحبُ السماء بأكملها. أصبح الهواء خانقًا، وهبّت عصفة رياح مباغتةً. بعدها بدقيقة، كانت هناك ومضة برق، بقصفة رعد واحدة، ثم انهمرت الأمطار في زخّات.

كنت فتحت النافذة، ووقفت هناك أتطلّعُ إلى المطر المندفع، عندما لاحظت غرابًا يسير ناحيتي على العشب، بمشية وقورة، وتجاهل واضح للفيضان المنهمر، متشكّكًا مَن كان، هنّأت نفسي أنني كنت في

أمان في الطابق الأرضي. في نفس الوقت راوَدَني يقينٌ أنني إذا لم أكُن حَذِرًا، فقد يقع أمرٌ ما.

اقترب أكثر وأكثر، انحنى بشدّة، وبقفزة مُجَنَّحة مفاجئة أصبح واقفًا على عتبة النافذة. ثم خطا على الحافة، وقفز هابطًا إلى الغرفة، وخطا نحو الباب. اعتقدت أنه كان في طريقه إلى المكتبة، وتبعته، عازمًا، إذا صعدَ الدَّرج، على عدم اتّخاذ خطوة واحدة في إثره. استدار، رغم ذلك، ليس ناحية المكتبة ولا الدَّرج، لكن إلى باب صغير يطل على بقعة من العشب في ركن بين جزأين من المنزل العتيق المُتمعِّج. أسرعت لفتحه من أجله. خطا إلى الشرفة المغطاة بالنباتات المعترشة، ووقف يتطلّع إلى المطر، الذي كان يتساقط كشلال شفاف هائل. وقفتُ عند الباب وراءه. برَقَت الوَمضَةُ الثانية، وتبعَتها سلسلة طويلة من الرعود. أدار رأسه من فوق كتفه، ونظر إليّ، وكأنه يقول، "هل تسمع ذلك؟" ثم أدارها ثانيةً، ومن جديد استغرق في تأمُّل الطقس، باستحسان على ما يبدو. كانت وقفته وهيئته في غاية البشريّة وكذلك الطريقة التي كان يدير بها رأسه، لحدِّ أنني قلت رغمًا عني تقريبًا:

"طقس جميل للديدان، سيد غراب!".

"نعم"، أجابني، بالصوت الناعب بعض الشيء الذي أصبحت على درايةٍ به، "ستكون الأرض مناسبة لها من أجل الخروج والدخول!- لا بُدّ أنه وقت رائع على سهول أورانوس!" أضاف، بنظرة لأعلى؛ "أعتقد

أنها تمطر هناك أيضًا؛ كانت كذلك، طوال الأسبوع الفائت!".

"لماذا قد يعني ذلك وقتًا رائقًا؟" سألته.

"لأن الحيوانات هناك جميعها تختبئ في جحور"، أجابني"، كفئران الحقل والخُلْد هنا. ستظلُّ كذلك، لأزمنة قادمة".

"كيف تعرف ذلك، إذا كان لي أن أسأل؟" سألته.

"كما لأيِّ شخصٍ كان هناك أن يعلم"، أجابني. "إنه مشهد عظيم، حتى تعتاد عليه، أن تطرحك الأرض بعيدًا إلى هناك، ثم ترى وحشًا. قد تعتقد أنه فيل مُشعر أو فيل من العصور السحيقة. لكن أيًا من الحيوانات ليست مثل التي لدينا هنا. أوشكتُ على الارتعاب أنا نفسي في المرة الأولى التي رأيت فيها أفعى المستنقعات الجافة تتمرَّغ زاحفةً -يا له من رأس ومن عُرف! تلك العينان!- لكن وابل المطر أوشك على الانتهاء. سيتوقَّف بعد قَصفَة الرَّعد التالية مباشرةً. ها هي!".

سطعت ومضة مع كلماته، وتلَتها قصفة رَعدٍ بعد نصف دقيقة تقريبًا. ثم توقَّف المطر.

"الآن علينا أن نمضي في طريقنا!" قال الغراب، وخطا إلى نهاية الشُّرفة.

"طريقنا إلى أين؟" سألته.

"إلى حيث ينبغي أن نذهب"، أجابني. "لم تظنّ

بالتأكيد أنك عُدتَ إلى بيتك؟ أخبرتك أنك لن تتمتع بالخروج والدخول كما تشاء حتى تصبح في بيتك!".

"لا أريد الذهاب"، قلتُ له.

"لن يمثِّل هذا أي فرق- ليس فرقًا كبيرًا على الأقل"، أجابني. "هذا هو الطريق!".

"أنا مرتاح تمامًا حيث أنا".

"تظنُّ أنك مرتاح، لكنك لستَ كذلك. هيَّا بنا".

وثب من الشُّرفة إلى العشب، واستدار منتظرًا.

"لن أغادر المنزل اليوم"، قلت بعناد.

"ستدخل إلى الحديقة!" كان رد الغراب.

"لن أخوضها بعد الآن"، أجبته، وخطوت خارجًا من الشرفة.

اخترقت الشمس السحب، وتألَّقت قطرات المطر على العشب. كان الغراب يسير عليها.

"ستبلِّل قدميك!" هتفت.

"وألوِّث منقاري"، أجابني، غارسًا إيَّاه بعمق في العشب، وساحبًا به دودة حمراء تتلوَّى. أرجع رأسه للخلف، وطوَّح بها في الهواء. نشرت الدودة جناحين هائلَين، بديعين، بالأحمر والأسود، وحلَّقت مبتعدةً.

"يا للبشاعة!" صِحتُ قائلًا، "أنت مخطئ، سيد غراب: الديدان ليست يرقات فراشات!".

"لا تشغل بالك"، قال ناعبًا؛ "ستكون كذلك لمرّة واحدة! لستُ رجلًا يقرأ الآن، لكنني حفّار القبور في جبّانة... مقبرة بعينها، أو بالأحرى... في... داخل... لا يهم أين!".

"حقًّا! لا يمكنك إبقاء جاروفك ساكنًا: وعندما لا يكون لديك شيء لدفنه، يكون عليك استخراج شيء ما من الأرض! عليك فحسب أن ترى ما هو قبل أن تجعله يطير! لا ينبغي السماح لأي مخلوق بنسيان ما هو ومن أين جاء!".

"لماذا؟" قال الغراب.

"لأنه سيزداد غرورًا، وسينكر أسياده".

لا يرى الإنسان نفسه عندما يكون أحمق.

"من أين تأتي الديدان؟" قال الغراب، كما لو أنه أصبح فضوليًا بغتةً لمعرفة ذلك.

"حسنًا، من طمي الأرض، كما رأيتَ لتوِّك!" أجبته.

"نعم، في آخر مرّة!" كان ردّه. "لكنها لم تأتِ من الأرض أولًا... ذلك أنها لن تعود إليها أبدًا!" أضاف، متطلّعًا لأعلى.

تطلّعتُ لأعلى بدوري، لكنّي لم أرَ شيئًا سوى سحابة داكنة صغيرة، مُحمرّة الحواف، كما لو كان بفعل ضوء الغروب.

"الشمس لا تغرب بالتأكيد!" هتفت، مصعوقًا من

الذهول.

"أوه، لا!" أجاب الغراب. "ذلك الأحمر بسبب الدودة".

"هل ترى الآن نتيجة أن تجعل المخلوقات تنسى أصلها!" هتفت، متحمّسًا بعض الشيء.

"من الحسن، بالتأكيد، أن يكون ذلك من أجل الارتفاع عاليًا والانتفاخ في الحجم!" أجابني. "لكنني لم أفعل سوى تعليمها كيف تُحقّق ذلك!".

"هل تحب أن ترى الهواء ممتلئًا بالديدان؟".

"هذا شأن حفّار القبور. فقط لو يفهم الأمر بقية الكهنة كذلك!".

غرزَ منقاره مُجدّدًا في الأرض الرخوة، واستخرج دودةً متلويّة. طوّح بها في الهواء، وبعيدًا طارت.

تطلّعتُ إلى ما ورائي، وأطلقتُ صيحة ارتياع: كنت أعلنت لتوّي أنني لن أغادر المنزل، وها أنا الآن غريب في الأرض الغريبة!

"بأيّ حَقٍّ تعاملني هكذا، سيد غراب؟" قلت بشعور عميق بالإهانة. "هل أنا، أم لست أنا، كائنًا حرًّا؟".

"الإنسان حرٌّ بقدر ما يختاره لنفسه، وليس أكثر من ذلك بمقدار ذرّة"، أجابني الغراب.

"لا يَحِقُّ لك القيام بهذه الأمور ضد إرادتي!".

"عندما تتمتع بإرادة، ستكتشف أن لا أحد يمكنه

ذلك".

"تسيء إليّ في جوهر فرديّتي!" أصررتُ.

"إذا كنتَ فردًا فلا يمكنني ذلك، وبالتالي لا أفعل ذلك الآن. لستَ سوى في بداية طريقك لتصبح فردًا".

كل ما حولي كان غابة من أشجار الصنوبر، في داخلها كانت عيناي تبحثان عميقًا، على أمل استكشاف وميضًا لا تفسير له، وبالتالي إيجاد طريقي إلى البيت. لكن، وأسفاه! كيف أنني لم أعُد قادرًا على تسمية ذلك المنزل بالبيت، حيث كل باب، وكل نافذة تؤدي إلى "الخروج"، وحتى الحديقة لم يَعُد بمقدوري البقاء داخلها.

أعتقد أنني بدوتُ مرتبكًا.

"ربما يريحك"، قال الغراب، "أن تعرف أنك لم تغادر منزلك بعد، ولا منزلك قد غادركَ. في نفس الوقت لا يستطيع أن يحتويك، ولا أنت أن تسكنه".

"لا أفهمك"، أجبته. "أين أنا؟".

"في أرض الأبعاد الشبعة"، أجابني، بضجيجٍ عجيبٍ في حلقه، ورفرفة في ذيله. "من الأفضل أن تتبعني بحذر الآن خشية أن تؤذي أحدهم!".

"لا يوجد أحدٌ لأؤذيه إلّا أنت، سيد غراب! أعترف أنني قد أحبُّ إيذاءك!".

"هنا يكمُن الخطر في حقيقة أنك لا ترى أحدًا.

لكنك ترى تلك الشجرة الكبيرة على يسارك، على بُعد ثلاثين ياردة؟".

"بالطبع أراها: لماذا قد لا أراها؟" أجبته بحِدّة.

"منذ عشر دقائق لم تكن تراها، والآن لا تعرف أين تنتصب الشجرة!".

"بل أعرف".

"أين تعتقد أنها تنتصب؟".

"حسنًا، هناك، حيث تعرف أنها تنتصب!".

"هناك أين؟".

"تثير امتعاضي بأسئلتك السخيفة!" هتفت. "لقد سئمت منك!".

"تلك الشجرة تقف على موقد مطبخك، وتنمو بموازاة المدخنة تقريبًا".

"الآن أدرك أنك تسخر مني!" أجبته، بضحكة ازدراء.

"هل كنت أسخر منك عندما اكتشفت أنني أنظر من خلال ياقوتتك النجمية بالأمس؟".

"كان ذلك هذا الصباح... منذ لا يزيد عن ساعة!".

"أعمل على توسيع أفقك منذ أطول من ذلك، سيد فين((3))؛ لكن لا تشغل بالك!".

"تعني أنك تجعل مني أحمقَ!" قلت، مستديرًا

للابتعاد عنه.

"معذرةً: لا أحد يستطيع فعل ذلك سواك!".

"وأنا أرفض فعل ذلك".

"أنت مخطئ".

"كيف؟".

"في رفضك الاعتراف أنك أحمق. تجعل من نفسك أحمقَ برفض ما هو حقيقي؛ ولذلك لن تعاقب إلّا نفسك بشدّة".

"كيف، مُجدّدًا؟".

"بتصديق ما هو غير حقيقي".

"إذن، إذا سِرتُ إلى الجانب الآخر من تلك الشجرة، فسأمرُّ عبر موقد المطبخ؟".

"بالتأكيد، عليك أولًا، رغم ذلك، أن تمرَّ عبر السيدة على البيانو في غرفة الطعام. أغصان الورود قريبة منها. ستُفزعها بالتأكيد!".

"لا توجد سيّدة في المنزل!".

"حقًا! أليست مدبِّرة منزلك سيّدة؟ إنها تُعتبر كذلك في بلد مُعيَّن حيث الجميع خدم، بزيٍّ مميَّز واحد وعدد لا يُحصَى!".

"لا يمكنها استخدام البيانو، على أيِّ حال!".

"ابنة خالتها يمكنها استخدام البيانو: إنها هناك...

فتاة مُتعلّمة وعازفة بارعة".

"معذرة؛ لا أستطيع منع نفسي؛ لكنك تتحدث بهراء مَحضٍ على ما يبدو!".

"وكأن بمقدورك سماع شيء غير الموسيقى! تلك الرؤوس الطويلة الهائلة للسنابل البريّة موجودة داخل البيانو، بين أوتاره، بل وتمنح تلك العذوبة المميزة لعزفها- اعذرني: نسيتُ أنك أصمُّ!".

"شيئان"، قلت له، "لا يمكن أن يوجدا في نفس المكان ونفس الوقت!".

"حقًّا؟ لا أعرف! أتذكر الآن كيف يعلّمونك ذلك. إنه خطأ كبير... واحد من أعظم الأخطاء التي ارتكبها مُدّعو العلم! ليس رَجُلٌ من الكون، بل رَجُلٌ من العالَم بمقدوره قول ذلك!".

"أنت قيّم مكتبة، وتتحدث بهذا الهراء؟!" هتفت. "ببساطة، لم تقرأ كثيرًا من الكتب التي كانت في عهدتك!".

"أوه، حقًّا! لقد أنهيتُ كل ما يوجد في مكتبتك... حينها، وخرجتُ إلى الجانب الآخر ليس أكثر حكمةً. كنتُ دودةَ كُتُبٍ حينها، لكن عندما أدركت الأمر، استيقظت بين الفراشات. في الواقع، تخلّيتُ عن القراءة لسنين كثيرة طويلة- منذ ترسيمي حفّارًا للقبور هناك! أشمُّ مسيرة زفاف جريح((4)) في رعشة بتلات الورود هذه".

خطوت إلى أغصان الورود وأرهفت السمع، لم أستطع سماع أدنى إيحاء لصوت؛ لكنني شَمَمتُ شيئًا لم تعرفه أنفي من قبل. كان عبير ورود نعم، لكن مع اختلاف، مرجعه، على ما أظن، مسيرة الزفاف.

عندما رفعت نظري، كان هناك الطائر بجانبي.

"سيد غراب"، قلت له، "اعذرني على وقاحتي: كنتُ منزعجًا. هلّا أريتني الطريق إلى بيتي؟ عليّ الذهاب؛ ذلك أنني ملتزم بموعد مع مساعدي القانوني. لا ينبغي للمرء أن يخلف وعوده مع خَدَمِه!".

"لا يمكنك أن تُخلِف وعدًا خَلفتَه بالفعل منذ أيام!" أجابني.

"أرني الطريق فحسب"، توسَّلتُ إليه.

"لا أستطيع"، أجابني. "حتى تعود، عليك أن تمرَّ بنفسك، وهو طريق لا يمكن لإنسان أن يريه لإنسان آخر".

كان التضرُّع بلا جدوى. عليّ أن أقبل مصيري! لكن كيف تُعاش الحياة في عالم كل قوانينه مجهولة تمامًا لي؟ ستكون هناك، رغم ذلك، مغامرة! تحمل العزاء لي ربما، وسواء وجدت الطريق إلى البيت أم لا، فعلى الأقل فسأجني المزيّة النادرة لمعرفة عالمَين مختلفَين!

ذلك أنني أبدًا لم أنجز شيئًا يُبرِّر وجودي؛ لم يكن عالَمي السابق أفضل مكان لمقامي فيه: هنا، رغم ذلك، يجب أن أجني -أو بطريقة ما أجد- لُقمَة عَيشي! لكنني أدركتُ أنني -ذلك أنه لا لوم عليَّ في وجودي هنا- قد أتوقَّع رعايةَ "هنا" كما كان الحال "هناك"! لا شيء سأجنيه من دخولي إلى العالَم الذي غادرته لتوِّي، وفيه وجدت نفسي وريثًا لمِلكٍ عظيم! إذا كان ذلك العالم، كما أرى الآن، لديه حُجَّةٌ ضدي لأنني اعتدتُ تناول الطعام فيه، وبمقدوري تناول الطعام مجدَّدًا، فضد هذا العالم أتمتَّع أنا بحجَّةٍ لأنه عليَّ أن آكل- وعندها سيحمل حُجَّةً ضدي بدوره!

"لا عجلة في الأمر"، قال الغراب، الذي كان واقفًا ينظر إليَّ؛ "لا نمضي حسب الساعة كثيرًا هنا. رغم ذلك، كلما أسرع المرء في بدء ما يتوجَّب عليه فِعله، كلما كان ذلك أفضل! سآخذك إلى زوجتي".

"شكرًا. هيا بنا!" أجبته، وقاد هو المسيرة على الفور.

(5)

الكنيسةُ القديمةُ

تبعته عميقًا داخل غابة الصنوبر. لم يَقُل أيٌ منّا الكثير مع انغلاق ظُلمَتها المقدسة من حولنا. وصلنا إلى أشجار أكبر وأكبر- أكثر قِدَمًا، وأكثر فردانيةً، وبعضها قد اكتسب طابعًا مُشوَّهًا مع تقدُّمها في العمر. ثم بدأت الغابة في التخفُّف من أشجارها شيئًا فشيئًا.

"هل ترى ذلك الزعرور؟" قال مرشدي أخيرًا، مشيرًا بمنقاره.

نظرت إلى حيث تلاشت الغابة على حافَّة أرض جرداء منبسطة.

"أرى رجلًا عجوزًا مُغضَّنًا، برأس أبيض هائل"، أجبته.

"انظر ثانيةً"، كان رده: "إنه زعرور برِّيّ".

"يبدو حقًّا كزعرور؛ لكن هذا ليس موسم ازدهار الزعرور!" قلتُ مُعترِضًا.

"موسم ازدهار الزعرور"، أجابني، "يحلُّ عندما يزدهر الزعرور. تلك الشجرة تقع على أنقاض الكنيسة في مزرعة بيتك. كنت تُصدِر بعض التوجيهات لمساعدك القانوني بشأن فِنائها، أليس كذلك، صباح الرعد؟".

"كنت سأخبره أنني أريد تحويلها إلى مفازة من أشجار الورود، وأن المحراث يجب أن يكون بعيدًا عنها بمقدار ثلاثة ياردات على الأقل".

"أنصِت!"، قال الغراب، حابسًا أنفاسه على ما يبدو.

أنصَتُّ وسمعتُ- هل كانت تُنهِدة رياح موسيقية بعيدة، أم شبحَ موسيقى كانت سعيدة ذات مرة؟ أو ربما لم أسمع شيئًا حقًّا؟

"يذهبون إلى هناك مع ذلك"، قال الغراب.

"مَن يذهب إلى هناك؟ وإلى أين يذهبون؟" سألته.

"بعض الناس الذين اعتادوا على الصلاة هناك، يذهبون إلى الأطلال رغم ذلك"، أجابني. "لكنهم لن يستمرُّوا في ذهابهم طويلًا، أعتقد".

"ما الذي يجعلهم يذهبون الآن؟".

"يحتاجون إلى مساعدة بعضهم البعض لإنجاز تفكيرهم وتخليق مشاعرهم؛ لذلك يتحدثون ويُغنُّون معًا؛ وحينها، يقولون، تطفو الفكرة الكبيرة من قلوبهم كسفينة عملاقة تخرج من النهر إلى أعالي البحار".

"هل يُصلُّون ويغنُّون أيضًا؟".

"لا؛ اكتشفوا أن كلًّا منهم يمكنه الصلاة بأفضل شكلٍ في قلبه الصامت فحسب. بعضهم ينغمس في صلواته دائمًا. انظرا انظرا ها هو أحدهم!".

أشار بمنقاره عاليًا في الهواء. كانت حمامة بيضاء كالثلج ترتقي، برفرفة أجنحة تزداد سرعةً في صعودها، الدوّامة غير المرئية لدرجٍ سماوي. انعكست أشعة الشمس مرتعشةً من جناحيها.

"أرى حمامة!" قلت له.

"بالطبع ترى حمامة"، أجابني الغراب، "ذلك أنها حمامة حقًّا! أرى صلاةً في طريقها للسماء. أتساءل الآن أيّ قلبٍ هو أمُّ تلك الحمامة! ربما استيقظ أحدهم في مقبرتي!".

"كيف يمكن لحمامة أن تكون صلاةً؟" قلت له. "أفهم بالطبع، كيف أنها رمز مناسب أو تمثيل للصلاة؛ لكن حمامة حيّة تخرج من قلب إنسان؟!".

"لا بُدّ أن المسألة تُربِكُك! فهي لا تخفق في ذلك أبدًا!".

"الصلاة فكرة، شيء روحاني!" تابعت القول.

"حقيقي جدًا! لكن إذا نجحت في استيعاب أي عالَم بخلاف عالَمك، فستفهم عالمك بشكل أفضل كثيرًا. عندما يكون القلب حيًا بحقٍّ، فإنه يكون قادرًا على التفكير في أشياء حيّة. يوجد قلب واحد فحسب أفكاره ما هي إلّا مخلوقات سعيدة، قويّة، وأحلامه ذاتها حيوات. عندما يصلّي بعض الناس، فإنهم يرفعون أفكارًا ثقيلة عن الأرض، فقط ليسقطوها ثانيةً عليها؛ بينما يبعث آخرون بصلواتهم إليه عبر أشكالٍ حيّة، هذا أو ذلك، على حسب

تشابُهها مع كل منهم. كل الأشياء الحيَّة كانت أفكارًا في بادئ الأمر، وذلك فهي مناسبة للاستخدام من قبل أولئك الذي يفكّرون. عندما يقول أحدهم للمُفكّر الأعظم: "ها هي إحدى أفكارك: أنا أفكّر فيها الآن!" فهذه صلاة- كلمة إلى القلب الكبير من أحد قلوبه الصغيرة. انظر، ها هي صلاةٌ أخرى".

هذه المرة أشار الغراب بمنقاره إلى الأسفل، إلى شيء عند قدم صخرة جرانيت. نظرتُ، ورأيت زهرة صغيرة. لم أرَ مثلها في حياتي من قبل، ولا يسعني قول الشعور الذي أيقظته داخلي بشكلها البديع، الموحي بالثقة، ولونها، ورائحتها التي تشبه رائحة عالم جديد لم يصبح قديمًا بعدُ. لا يسعني سوى القول إنها توحي بشقائق النعمان الحمراء، كانت ذات مسحة وردية شاحبة، وقلبٍ ذهبي.

"هذه هي زهرة الصلوات"، قال الغراب.

"لم أرَ زهرة كهذه من قبل!" أجبته.

"لا يوجد مثلها. وكل زهرة صلوات لا تشبه الأخرى بتاتًا"، كان ردّه.

"كيف تعرف أنها زهرة صلوات؟" سألته.

"عبر سيمائها"، أجابني. "لا يمكنني إخبارك أكثر من ذلك. إذا عرفتها فأنت تعرفها؛ إذا لم تعرفها، فلا تعرفها".

"هل يمكنك تعليمي كيف أتعرّف على زهرة

الصلوات عندما أراها؟" قلت له.

"لا يمكنني. لكن إذا استطعت، بماذا سيفيدك هذا؟ لن تستطيع التعرُّف عليها عبر "ذاتك" و"ذاتها"! لماذا تسعى إلى معرفة اسم شيءٍ إذا كنتَ لا تعرف الشيء نفسه؟ مَن سواك عليه أن يفتح عينيه على اتِّساعهما؟ لكن مَهمَّة الكون بحقٍّ هي أن يجعل منك أحمقَ حتَّى تدرك أنك كذلك، وبذلك يمكنك البدء في طريق الحكمة!".

لكنني رأيتُ حقًّا أن الزهرة تختلف عن أي زهرة رأيتها من قبل؛ لذلك أدركت أنني لا بُدَّ أرى ظلَّ صلاةٍ فيها؛ وأن جلالًا عظيمًا قد استولى عليَّ وجعلني أفكِّر في القلب الذي يُنصِت إلى الزهرة.

(6)

كوخ حفّار القبور

كنّا نسير لبعض الوقت على أرض مستنقعات صخرية مُغطّاة بنباتات وطحالب، عندما لمحتُ كوخًا صغيرًا على البعد. لم تكن الشمس قد غربت بَعدُ، لكنها كانت ملتفّةً في سحابة رمادية. بدت الأرض البور كما لو أنها لم تعرف دفئًا قطُّ، بينما الرياح تهبّ ببرودة عجيبة، كما لو كانت من أرضٍ أخرى حيث الليل أبديٌّ.

"ها قد وصلنا أخيرًا!" قال الغراب. "يا له من طريق طويل! في نصف ذلك الوقت كان بمقدوري الذهاب إلى الجنّة ورؤية قريبي- تتذكّره، ذلك الذي لم يَعُد أبدًا إلى نوح((5))! عزيزي! عزيزي! الشتاء يقترب بشدّة!".

"الشتاء!" هتفت؛ "يبدو أنه لم يمرّ سوى نصف يوم منذ غادرنا البيت!".

"هذا لأننا نتحرك بسرعة كبيرة"، أجابني الغراب. "في عالمَك لا يمكنكم إيقاف الشاقول العمودي الذي تسمُّونه الجاذبية، حتى تجعلوا العالَم يدور تحت أقدامكم! لكن هنا يقع منزل زوجتي! طيّبٌ منها للغاية أن تسمح لي بالعيش معها، فيما يسمُّونه كوخ حفّار القبور!".

"لكن أين فِناءُ كنيستك -مقبرتك- حيث تحفر

قبورك أعني؟" قلت له، بينما لا أرى شيئًا من حولي سوى الأرض البور.

مدّ الغراب عنقه، وثبّت منقاره أفقيًا، ثم أداره ببطء إلى جميع جهات البوصلة، ولم يقل شيئًا.

تتبّعتُ المنقار بعينيّ، وعجبًا، بلا كنيسة أو مقابر، أصبح كل ما حولي فناء كنيسة! أينما هبّت الريح الكئيبة، كانت هناك مقبرة الغراب. كان حفّار القبور لكل ما يقع عليه نظره! سيدًا لكل ما يمتد حولنا! وقفت في أرض دفن الكون؛ اتّساعها الأرض البور البراح، حائطها الأفق الرمادي، واطئًا وخاليًا من النجوم! كنت تركت الربيع والصيف، الخريف وسطوع الشمس من ورائي، وجئت إلى الشتاء الذي ينتظرني! بدأت طريقي في زهرة شباب، وإلى هنا وصلت أخيرًا! لكنني مخطئ. ربما كان اليوم طويلًا في هذه الأرض؛ ذلك أنه يحوي كل الفصول. ينام الشتاء هنا، طوال الليل، في كَفَنِه الجليدي؛ بابتسامة طفولية، يأتي الربيع مستيقظًا في الفجر؛ في الظُّهر، يتوهّج الصيف مُتّسعًا في جماله البديع؛ مع حلول الظهيرة بطيئةِ التبدُّل، يزحف الخريف العجوز، ويموت عند أوّلِ نَفَسٍ يطلقه الليل الضبابي، الشبحي.

مع اقترابنا من الكوخ، كانت الشمس الغائمة تسرع في نزولها عبر أكثر منحدرات الغرب تحدُّرًا، ثم اكتمل غرقها ونحن على بُعد ياردات فحسب من الباب. في نفس اللحظة هاجمني بردٌ بدا كوجود

ماديّ، وجاهدت للوصول إلى العتبة كما لو كان للهروب من قبضة موتٍ جليدي. هاجت الرياح فوق المستنقع، وأسرَعتُ نحو الباب وأغلقتُه بصعوبة ورائي. ثم سكنَ كل شيء، وتطلّعتُ من حولي.

كانت شمعة تحترق على منضدة خشبية في وسط الغرفة، وأول ما رأيته كان غطاءَ تابوت، كما تخيَّلتُ حينها، موضوع بالطول على الحائط؛ لكنه انفتح، ليكشف عن باب، دلفت منه امرأة. ترتدي الأبيض بالكامل- أبيض كثلجٍ تساقطَ لتَوِّه؛ كان وجهها أبيض كفستانها، لكن ليس كالثلج؛ ذلك أنه أوحى بالدفء على الفور. ظنَنتُ أن تقاطيع وجهها مثالية، لكن عيناها جعلتني أنساها تمامًا. كانت حياة وجهها وحياة شخصها بأكمله متجمِّعةً ومتركِّزةً في عينيها، حيث تحوَّلَتا إلى نور. ربما كان موتًا وشيكًا هو ما جعل وجهها ساطعًا، لكن العينين احتوتا داخلهما حياةً تكفي أمَّة- كبيرتين وقاتمتين بقتامة تزداد عمقًا كلما حدَّقتُ فيهما أكثر. جنَّة ليل بأكملها تستقرُّ مُتكاثِفةً في كل بؤبؤ؛ كل النجوم كانت في سَوادِه، ساطعةً؛ وحوله على مدى الأفق تلتفُّ قزحية الشفق الأبدي. يا لها من عين، الرَّبُّ وحده يعلم: لا بُدَّ أن عينيها قد جاءتا مباشرة من عين الرَّبِّ ذاته! ربما كان الوجه الساكن كمالًا بدائيًا؛ بينما العينان الحيَّتان خَلْقٌ مستمرٌّ.

"هذا السيد فين، يا زوجتي!" قال الغراب.

"مرحبًا به"، أجابت، بصوت واطئ، دسم، رقيق.

كنوزٌ من الأصوات الأبدية بدت وكأنها مدفونة داخله.

حدّقت، عاجزًا عن الكلام.

"أعرف أنكِ ستبتهجين لرؤيته!" أضاف الغراب.

وقفت أمام الباب الذي دلفت منه لتوّها، ولم تقترب.

"هل سينام؟" سألته.

"أخشى أن لا"، أجابها؛ "فهو ليس مرهقًا ولا مثقلًا بالأحمال".

"لماذا إذن أحضرته إلى هنا؟".

"خشيت أن تفاجئنا الأمور".

"لا أفهمكما حقًّا"، قلت لهما، بتوجُّس مُشوَّش تجاه ما تعنيه بكلماتها، لكن مع أمل غامض في الهروب. "بالتأكيد على المرء أن ينجز عملَ يومٍ أولًا قبل أن ينام".

حدّقت في الوجه الأبيض للمرأة، ورفرف قلبي. أجابت على تحديقتي بالصمت.

"دعوني أذهب إلى البيت أولًا"، تابعت حديثي، "ثم آتي مجددًا بعد أن أجد، أو أصنع، أو أخترع، أو على الأقل اكتشف شيئًا ما".

"لم يتعلَّم بعدُ أن اليوم يبدأ بالنوم!" قالت المرأة، مستديرةً إلى زوجها. "أخبره أن عليه أن يستريح

قبل أن يتمكّن من إنجاز أي شيء!".

"الرجال"، أجابها، "يفكّرون كثيرًا في إنجاز الأمور، لحدّ أنهم يستغرقون في النوم من كثرة التفكير. لا يمكنهم إفراغ بيضة لكنهم يتحوّلون إلى قشرة، ويستلقون أرضًا".

انتزعت الكلمات عينيّ من المرأة إلى الغراب.

لم أرَ الغراب، بل قيّمَ المكتبة- نفس الرجل العجوز النحيل، في معطفٍ بالٍ أسود، عريض عند الجذع وطويل عند الذيل. لم أكن رأيت سوى ظهره قبل ذلك؛ الآن للمرة الأولى أرى وجهه. كان ضامرًا بشدّة لحد أنه يكشف عن شكل العظام من تحته، موحيًا بالجماجم التي لا بُدّ تعامَلَ معها عبر مهنته المزعومة الأخيرة. لكن الحقيقة أنني أبدًا لم أرَ وجهًا بهذه الحيوية من قبل، أو نظرةً ثاقبة أو ودودة بهذا الشكل كتلك التي رأيتها في عينيه الزرقاوين الشاحبتين، اللتين كانتا مع ذلك تحملان غشاوةً كما لو كان من كثرة البكاء.

"تعلم أنني لست غرابًا!" قال بابتسامة.

"كنت أعلم أنك السيد راڤين"، أجبته؛ "لكن بشكل ما ظننت أنك طير أيضًا!".

"ما الذي جعلك تظنّ أنني طائر؟".

"كنت تبدو كغراب، ورأيتك تستخرج الديدان من الأرض بمنقارك".

"وبعد ذلك؟".

"طوَّحتها في الهواء".

"ثم ماذا؟".

"تحوَّلَت إلى فراشات، وطارت مبتعدةً".

"هل رأيت من قبل غرابًا يفعل ذلك؟ أخبرتك أنني حفَّار قبور!".

"هل يُطوِّح حفَّار قبور بالديدان في الهواء، ثم يُحوِّلها إلى فراشات؟".

"نعم".

"لم أرَ واحدًا يفعل ذلك!".

"رأيتني أفعلها! لكنني ما أزال قَيِّم المكتبة في منزلك؛ ذلك أنني لم أطرد أبدًا، ولن أتخلَّى عن منصبي أبدًا. وأنا قَيِّم المكتبة هنا أيضًا".

"لكنت قلت لتوِّك أنك حفَّار القبور هنا!".

"أنا كذلك. إنها نفس المهنة إلى حدٍّ كبير. ما لم تكن حفَّار قبور حقيقي، فالكتب ليست سوى أجساد ميِّتة بالنسبة لك والمكتبة ليست سوى سرداب موتى!".

"أنت تثير حيرتي!".

"هذا صحيح!".

وقف صامتًا لبضع لحظات. ووقفت المرأة بدورها،

ساكنة كتمثال، صامتةً بجوار الباب- التابوت.

"أحيانًا"، قال حفّار القبور أخيرًا، "ما يكون من الأفضل للمرء أن يكشف عن ذات- الطائر فيه. كل امرئ، كما تعلم بالتأكيد، لديه ذات- بهيمة، وذات- طائر، وذات- سمكة غبيّة، وذات- أفعى زاحفة أيضًا، وكلها ذوات تتطلّب قوّةً سخقٍ كبيرة لقتلها! في الحقيقة لديه أيضًا ذات- شجرة وذات بلّوريّة، ولا أعلم كم من الذوات الأخرى أيضًا، وكلها تتآلف معًا في انسجام. بمقدورك أن تعرف نوع الإنسان الحقيقي عبر مخلوقه الذي يظهر لمن أمامه أغلب الأحيان".

استدار إلى زوجته، ورأيته حينها عن كثب. كان طوله أكبر من الطول العادي، يقف أكثر انتصابًا ممّا رأيته آخر مرة. ووجهه، كوجه زوجته، شاحب للغاية، وأنفه يغطّي على نحوٍ جميل المنقار الذي تراجع الآن داخله؛ شفتاه رفيعتان جدًا، وبلا لون حتى، لكن منحنياتهما بديعةٌ، وحولهما ارتعشت ابتسامة غامضة تحوي داخلها السخرية وكذلك الحب والإشفاق.

"نحتاج لنأكل ونشرب يا زوجتي"، قال لها؛ "جئنا من طريق طويل!".

"تعرف جيدًا يا زوجي"، أجابته، "أن بإمكاننا مَنح مَن يطلب فقط".

أدارت وجهها الذي لا يتبدّل وألقت عينيها

المتوهّجتين عليّ.

"أرجوكِ، امنحيني شيئًا آكله، سيدة راڤين"، قلت لها، "وشيئًا -كما تحبين- لأروي عطشي".

"لا بدّ أن يزيد عطشك وطأةً حتى أمنحك ما ترويه به"، أجابتني"؛ "لكن سأمنحك مبتهجةً ما أقدرُ عليه".

خطت إلى خزانة في الحائط، وجلبت منها خبزًا ونبيذًا، ووضعتهما على المائدة.

جلسنا لتناول الطعام الوفير؛ وفيما أن آكل، شعرت أن الخبز والنبيذ يزيدان الجوع والعطش. اختفى القلق والانزعاج؛ وحلّ مكانهم الترقُّب.

ازداد نعاسي بشدة شيئًا فشيئًا، والآن لأول مرة أشعر بإرهاق شديد.

"لم أجنِ طعامًا ولا نومًا، سيدة راڤين"، قلت لها، "لكنكِ منحتِني أحدهما طوعًا، والآن آمل أن تمنحيني الآخر، فأنا في حاجة ماسّةٍ إليه".

"النوم أرقى شيء يمكن اكتسابه"، قال حفّارُ القبور؛ "يتوجّب منحه وقبوله؛ ذلك أنه ضرورة. لكن من الخطر استخدام هذا المنزل كفندق على قارعة الطريق- من أجل راحة الليل فحسب، أعني".

قفزت قطّةٌ سوداء صغيرة ذات مظهر متوحّش على ركبته بينما يتحدث. ربّت عليها كما يُربّت المرء على طفلٍ حتى ينام: بدا لي أنه يربّت بمجرفة على

المرج المحيط بقبر- يربِّت بحُبٍّ، بتهويدةٍ روحانية.

"هذه واحدة من قطط مارا!" قال لزوجته: "هل منحتِها شيئًا وأخرجتِها؟ قد ترغب في استعادتها!".

تناولتها المرأة منه برقَّةٍ، ومنحتها كسرة خبز صغيرة، وانطلَقت إلى الخارج معها، مغلقةً الباب وراءها.

"كيف لي إذن أن أستفيد من حسن ضيافتك؟" سألته.

"بقبولها بالكامل"، أجابني.

"لا أفهم".

"في هذا المنزل لا أحد يوقظ نفسه".

"لماذا؟".

"لأن لا أحد في أيِّ مكان على الإطلاق يوقظ نفسه. يمكنك إيقاظ نفسك بقدر ما يمكنك خلق نفسك".

"إذن ربما تتفضَّل أنتَ أو السيدة راڤين بمناداتي بصوتٍ عالٍ!" قلت، عاجز عن الفهم تمامًا ما زلت، لكن شاعرًا من جديد بذلك التوجُّس الغامض.

"لا نستطيع".

"كيف إذن سأجرؤ على النوم؟" هتفت.

"إذا كان لك أن تنال راحةً في هذا المنزل، فلا ينبغي لك أن تقلق بشأن الاستيقاظ. يجب أن

تستغرق في النوم بحماسة، كلِّيًا وتمامًا". غرقَت روحي داخلي.

جلس حفَّار القبور مُحدِّقًا في وجهي. بدت عيناه وكأنها تقول، "ألن تثق بي؟" أجبته بتحديقةٍ مُماثِلَةٍ:

"سأفعل".

"إذن تعال"، قال لي؛ "سأريك فراشك".

فيما هو ينهض، دلَفَت المرأة. تناوَلت الشمعة، استدارت إلى الباب الداخلي، وقادت المسيرة. خطوتُ مقتربًا منها، وتَبِعنا حفَّار القبور.

@ART_OF_BOOK

(7)

المقبرة

استقبلني هواء كهواء منزلٍ جليديٍّ بينما أعبر العَتَبة. تراجع الباب وراءنا منغلقًا. قال حفَّارُ القبور شيئًا لزوجته جعلها تلتفت نحونا. يا له من تغيُّر ذلك الذي حلَّ بها الآن. كما لو كان بهاء عينيها قد تنامى لحدّ أنهما لم تعودا قادرتين على احتماله، وغائصًا إلى وجهها، جعلَه يلتمع بفتنةٍ كفتنة بياتريس في الوردة البيضاء للمُنعتِق((6)). الحياة ذاتها، حياة أبدية، خالدة، تدفَّقَت منه، برقٌ لا ينقطع. حتَّى يداها سطعتا بشعاعٍ أبيض، كل "قشرة لؤلؤية" توهَّجت كحجر القبر. كان جمالها كاسحًا؛ تنهَّدتُ بارتياح عندما استدارت وابتعدت عنِّي.

لكن ضوء الشمعة كان ضعيفًا، لحدّ أنني لم أستطع في بداية الأمر رؤية شيء من المكان. رغم ذلك، سقطَ على شيءٍ توهَّج لتَوِّه، مرتفع قليلًا عن الأرض. هل كان فِراشًا؟ هل يمكن لشيء حيٍّ أن ينام في برودة فانية كهذه؟ إذن فلا عجب أن يعجز عن إيقاظ نفسه! وراء ذلك الشيء تبدَّى شيءٌ أقلّ بريقًا؛ ثم تراءى لي أنني لمحت ومضات في كل مكان.

بضعة خطوات جعلتنا بجوار الفراش الأول؛ تحت الملاءة كان شكلًا إنسانيًا، مُمتدًا باستقامة وخمول- لم أتبيَّن إن كان رجلًا أم امرأةً، ذلك أن الضوء بدا

وأنه يتجنّب الوجه مع مرورنا.

سرعان ما أدركت أننا كنّا نسير على طول ممرّ من الأسِرّة، على كل واحد منها تقريبًا، برأسه ناحية الممر، يستلقي شيء نائم أو ميّت، مُغطّى بملاءة بيضاء كالثلج. ازدادت روحي سكونًا من الرعب. انطلقنا في ممرّ بعد آخر، بين أسِرّة لا نهاية لها. كان بإمكاني رؤية قليل منها فحسب في نفس الوقت، لكنها كانت على جميع الجوانب، تختفي كما يبدو، في اللا نهاية. هل كان الفِراش الذي سأختاره يستلقي هناك؟ هل ينبغي لي أن أنام بين اللا مستيقظين، بلا أحد يوقظني؟ هل هذه مكتبة حفّار القبور؟ هل هذه كتبه؟ لم يكن ذلك منزل إيواء بالتأكيد، حجرة الموتى هذه!

"هذا واحد من الأقبية التي يتوجّب عليّ مراقبتها!" قال السيد راڤين، بصوت خفيض، كما لو كان يخشى إزعاجه نزلائه الهامدين. "الكثير من النبيذ وُضِع هنا ليختمر! لكن الظلام، حالك على الغرباء!" أضاف.

"القمر يرتفع؛ سيصل ضوؤه هنا قريبًا"، قالت زوجته، وفي صوتها الرائق، الخفيض، العذب، نغمة وداع حزين قديم.

وفيما تتحدث تَطَلَّع القمر من خلال شقٍّ في الحائط، وألقَ شعاعٍ أبيض تجاوب مع تألُّقه. لكنني لم أستطع بَعدُ تَبيُّن بداية أو نهاية الأسِرّة. كانت

تمتدُّ بعيدًا وبعيدًا، كما لو كانت مُهيّأةً لنوم شخوص العالم المنعزلين جميعًا. ذلك أنه على طول الممرات الضيّقة المتقهقرة، كان كلُّ فِراش ينتصب بذاته، وعليه ينام نائم غارق في الوحدة. ظننتُ في بداية الأمر أن نومه كان موتًا، لكنني سرعان ما أدركت أنه كان شيئًا أعمق من ذلك- شيئًا أجهله تمامًا.

ازداد ارتفاع القمر، وسطع عبر الشقوق الأخرى، لكنّي أبدًا لم أتبيّن من المكان ما يكفي لتحديد شكله أو شخصيته؛ حينًا يبدو كصحن كاتدرائية متطاوِل، وحينًا حظيرة هائلة وقد اقتحمت مُقام المقابر. بدا ذلك القمر أكثر برودةً من أيّ قمر في ليالي العالَم الأكثر تجمُّدًا، وفي الموضع التي يسطع ببريقه على الأسِرّة، تشكّلَ وهج مُزرقٌّ، جليدي، على الملاءات البيضاء والوجوه الشاحبة- لكن ربما كانت الوجوه هي ما يجعل القمر باردًا هكذا!

مَن تمكّنتُ من رؤيتهم، كانوا جميعًا متشابهين في أخوّة الموت، لكن مختلفين في الشخصية وتاريخ حياتهم. هنا يرقد رجُلٌ قد مات -رغم أنه لم يكن موتًا، بل شيئًا أعجز عن منحه اسمًا- في زهرةِ قوة الفحولة؛ لحيته الداكنة وكأنها تنساب كتيار مُتحرِّر من جليد سيماه المتجمّدة؛ جبينه ناعم كرخام مصقول؛ ظلٌّ من الألم يتهادى حول شفتيه، لكن كظلٍّ فحسب. على الفراش التالي يستلقي شكل فتاة، بديعة في مرورها أمام النظر. حزن الفراق المتخلِّف في وجهها لم يتلاش تمامًا

بفعل السلام المطلق، لكنّ خنوعًا خالصًا استولى على الملامح الهادئة، التي لم تكن تحمل علامةً على مرض مُهلِكٍ، على "جَزعٍ أو حزن قاتل في القلب": إذا كانت عرفت الألم يومًا، فقد شجِزت حتى نامت، وأبدًا لن تستيقظ. كثيرون كانوا في غاية الجمال لحدّ أنهم يستلقون هناك في غاية السكون- بعضهم مجرّد أطفال؛ لكنني لم أرَ أيّ رضيع. الأكثر جمالًا من بينهم جميعًا كانت سيّدةً يوحي شَعرُها الأبيض، وحده لا غير، بأنها كانت عجوزًا عندما استغرقت في النوم لأول مرّة. على مُحَيَّاها المهيب استقرَّ- ليس خضوعًا، بل قبولٌ نبيل عادل، تطمين، راسخًا كأسُس الكون، أن كل شيء قد جرى كما ينبغي. على بعض الوجوه تخلَّفت ندوب الكفاح التي كادت أن تنمحي، تشوُّهات الفَقد اليائس، ظلال الأحزان المتلاشية التي بدت عَصِيَّةً على أيّ عزاء: فجر الصباح العظيم الذي لم يتلاشَ تمامًا؛ لكن تلك الوجوه كانت قليلة، وكلٌّ منها يحمل علامة على أملٍ يتوسَّل كما يبدو: "اعذرني: متُّ في الأمس فحسب!" أو، "اعذرني: متُّ منذ قرن فحسب!" كنت مدركًا لحقيقة أن بعضهم مات منذ دهور، ليس فحسب بالنظر إلى خمودهم الذي لا يوصف، لكن عبر شيء لا أحمل له كلمةً ولا حتى رمزًا.

وصلنا أخيرًا إلى ثلاثة أسِرَّة فارغة، وراءها مباشرةً يستقر الشكل البشري لامرأة جميلة، تجاوزت زهرة الحياة بقليل. إحدى ذراعيها خارج الملاءة، ويدها

تستقرُّ براحتها مُتَّجهة لأعلى، في مركزها لطخة سوداء. بجوارها كان الشكل قويُّ البنية لرَجُل في منتصف العمر. ذراعه أيضًا كانت خارج الملاءة، اليد القويَّة منغلقة تقريبًا، كما لو كانت مضمومة على مقبض سيف. فكَّرت أنه لا بُدَّ ملك مات في حربٍ دفاعًا عن الحقيقة.

"هلَّا اقتربتِ بالشمعة يا زوجتي العزيزة؟" همس حفَّار القبور، منحنيًا لتفحُّص يد المرأة.

"تتعافى جيدًا"، غمغم لنفسه: "لن يؤلمها المسمار الذي كان فيها!".

تجرَّأتُ على التحدُّث أخيرًا.

"أليسوا موتى؟" سألته بصوت خفيض.

"لا يمكنني إجابتك"، كان ردَّه بصوتٍ خافت. "كدتُ أنسى ما يعنونه بكلمة "ميِّت" في العالم القديم. إن قلت إن شخصًا ما ميِّت، فإن زوجتي ستفهم شيئًا، وستتخيل أنت شيئًا آخر. ليس هذا سوى واحد من أقبية كنوزي"، تابع القول، "ولا يستلقي جميع نزلائي في الأقبية: بل يستلقي معظمهم هناك على المستنقع بوفرة كأوراق غابةٍ بعد الهَبَّة الأولى لشتائكم، بوفرة، لأقُل لك، كما لو أن وردة السماء البيضاء العظيمة قد سفحت كل بتلاتها. في الليل يقرأ القمر وجوههم، ويبتسم".

"لكن لماذا تتركهم في ضوء القمر المُفسد؟" سألته.

"قمرنا"، أجابني، "ليس كقمركم، ذلك الرماد العجوز لعالَم محترق؛ لكن شعاعه يُحنِّط الموتى، ولا يصيبهم بالعفن. ترى أن حفَّار القبور هنا يضع موتاه على الأرض؛ يدفن قِلَّة قليلة جدًا تحتها! في عالَمك توضع صخور هائلة عليهم، كما لإبقائهم تحت الأرض؛ أنتظر أن تقرع الساعة جرس البعث، حتى يستيقظ مَن لا يزالون نائمين. ينظر حفَّار القبور في عالمَك إلى الساعة ليعرف متى عليه أن يحشد الموتى- الأحياء إلى الكنيسة؛ أنصت أنا إلى الساعة على برج الكنيسة حتى تنعق قائلةً: "استيقظوا، معشر النائمين، وقوموا من الموت!"".

بدأت في استنتاج أن حفَّار القبور الزائف هذا هو في الحقيقة كاهن مجنون: المسألة بأكملها كانت جنونًا! لكن كيف لي أن أهرب بنفسي من كل هذا؟ كنت عاجزًا! في عالم الموتى هذا، كان الغراب وزوجته هما الأحياء الوحيدين الذين رأيتهم؛ أين لي أن أجد العون؟ كنت ضائعًا في فضاء أكبر من الخيال؛ ذلك أنه إذا كان بمقدور شيئين، أو أي جزء منهما، أن يشغلا نفس الحيِّز، فلماذا لا يقدر عشرون أو عشرة آلاف شيء؟- لكني لم أجرؤ على المضيّ في التفكير في ذلك الاتجاه.

"يبدو لي أنك ترى بين موتاك فروقًا خارج إدراكي!" غامرتُ بالقول.

"أيًا ممَّن تراهم"، أجابني، "ليسوا موتى تمامًا بعد، وبعضهم بدأ في العودة إلى الحياة ليموتوا. بينما

بدأ آخرون في الموت حتى يعودوا للحياة؛ طويلًا قبل أن يعودوا إلينا، وعندما يكونوا أمواتًا بحقٍّ، فإنهم يستيقظون ويرحلون عنّا. في كل ليلة تقريبًا ينهض البعض ويرحل. لكنّي لن أقول المزيد، ذلك أن كلماتي لن تزيدك إلّا حيرةً!- هذا هو الفِراش الذي طالما كان في انتظارك"، ختم كلماته، مشيرًا إلى فراشٍ من الثلاثة.

"لماذا هذا الفِراش بالتحديد؟" قلت، وقد بدأت في الارتعاش، توّاقًا لتأخير كل ذلك.

"لأسباب ستبتهج يومًا ما لمعرفتها"، أجابني.

"ولماذا لا أعرفها الآن؟".

"هذا أيضًا ستعرفه عندما تستيقظ".

"لكن هؤلاء موتى جميعًا، وأنا حيّ!" اعترضت، مرتجفًا.

"ليس جميعهم"، قال حفّار القبور بابتسامة، "ولا حتى معظمهم! مباركةٌ هي الحياة الحقّة التي تنقطع، لكن لا تموت، بين خفقاتها!".

"هذا المكان بارد للغاية على أن يسمح بنوم أحدا!".

"هل يجد هؤلاء الأمر هكذا؟" أجابني. "ينامون جيدًا، أو سيفعلون قريبًا. لا يشعرون بنفَسٍ واحدٍ من البرد؛ بل يشفي جروحهم. لا تكن جبانًا، سيد ڤين. أدِر ظهرك للخلف، ووجهك إلى أيّ ما يصيبك. استسلم لليل، وستجد الراحة حقًّا. لن يصيبك أذى،

بل خيرٌ لا يمكنك توقُّعه".

وقفنا أنا وحفّار القبور على جانب الفراش، بينما وقفت زوجته، بالشمعة في يدها، عند نهايته. كانت عيناها ممتلئتين بالضوء، لكن وجهها وقد اكتسب البياض الخامد مجددًا؛ لم يعد متألقًا.

"هل سيضطرونني لأن أجعل من منزلٍ لزفات الموتى حجرةً لنومي؟" هتفت عاليًا: "لن أفعل. سأستلقي على الأرض البور في الخارج؛ لا يمكن أن تكون أكثر برودةً من هنا!".

"أخبرتك لتوّي أن الموتى هناك أيضًا:

"بوفرة، كأوراق خريفيةٍ تتراكم على صفحة غدران فالومبروسا"((7)).

قال قيّم المكتبة.

"لن أفعل"، هتفتُ مجددًا؛ وفي الظلام الذي يحتوينا تمامًا، توهّج الاثنان كشبحين يخدمان الموتى؛ لم يجبني أيّهما؛ بل وقف كلاهما ساكنًا وحزينًا، ينظران لبعضهما البعض.

"ليفرح قلبكِ ويتعزَّ؛ فنحن نرعى قافلة الراعي العظيم"، قال حفّار القبور لزوجته.

ثم استدار إليّ.

"ألا تجد هواء المكان الآن أكثر نقاءً وعذوبةً ممّا كان عند دخولك؟" سألني.

"نعم، لكن أوه، بارد بشدّة!" أجبته.

"إذن فلتعلم"، كان ردّه، بصوت متجهّم، "أنك، أنت مَن تسمّي نفسك حيًا، قد جلبتَ إلى هذه الحجرة روائح الموت، وهوائها لن ينفع النائمين حتى ترحل عنها!".

ثم ابتعدا إلى الحجرة الكبيرة، وتركاني وحيدًا في ضوء القمر مع الموتى.

استدرتُ للهروب.

يا له من طريقٍ عودة طويل كان عليّ أن أقطعه بين الموتى! في البداية كنتُ في غاية الغضب على أن أشعر بالخوف، لكن مع هدوء غضبي، ازدادت الأشكال الساكنة فظاعةً. في نهاية الأمر، باندفاعةٍ قويّة عبر الصمت المهيب، ركضتُ، فررتُ بجنون، وانطلقت خارجًا عبر الباب الذي انغلق من ورائي بصمتٍ مريع.

وقفتُ في الظلام الحالك. متحسّسًا ما حولي، وجدتُ بابًا، فتحته، وأدركت وجود الضوء الخافت لمصباح. كنت أقف في مكتبتي، بمقبض الباب المخادع في يدي.

هل خرجتُ لتوّي من هلوسة؟ أم تهت وعدتُ إلى هلوسة؟ أيهما الحقيقي: ما أراه الآن، أم ذلك الذي لم أعد أراه؟ ربما كان الاثنان حقيقيّين، يتداخلان لكن لا يمتزجان؟

ألقيت بنفسي على فراشي واستغرقت في النوم.

في المكتبة كانت هناك نافذة صغيرة ناحية الشرق، عبرها، في هذا الوقت من العام، تسطع أشعّة الشمس الأولى على مرآةٍ ومنها تنعكس على الباب المُخادع: عندما استيقظت، كانت تسطع، وإلى الباب جذبت ناظرَيّ. مع شعوري أن وراءه لا بُدّ تكمن الحجرة اللا نهائية التي كنت غادرتها لتوّي، اندفعتُ واقفًا، وفتحته، اندفع النور، ككلب صيد متحمّس، أمامي إلى الخزانة، وارتدّ على الحواف المذهّبة لكتاب كبير.

"أيّ أحمق"، هتفت، "وضع ذلك الكتاب في الرفّ بهذه الطريقة الخاطئة؟".

لكن الحواف المذهّبة، عاكسةً النور للمرة الثانيةً، طوّحت به على شبكة من الأدراج في زاوية مظلمة من الغرفة، ورأيت أن أحدها كان نصف مفتوح.

"المزيد من التخريب!" هتفت، وخطوتُ لإغلاق الدُرج.

كان يحوي أوراقًا قديمة، وبدا أنه أكثر من ممتلئ؛ ذلك أنني لم أستطع إغلاقه. بعد أن أخرجت الورقة الأعلى، أدركت أنها عبارة عن كتابة طويلة بعض الشيء بخطّ أبي. أول ما سقطت عليه عيناي من كلماتها، أصابني على الفور بحماس لمعرفة ما تحتويه. حملتها إلى المكتبة، وجلست عند واحدة من النوافذ الغربية، وقرأتُ ما يلي:

(8)
مخطوطة أبي

يملؤني التَّهيُّب ممَّا يتوجَّب عليّ كتابته. الشمس تسطع بالذهب من فوقي، البحر يستلقي أزرقَ تحت نظرة الشمس؛ العالم نفسه يرسل بأشيائه النامية إلى الشمس، وأشيائه الطائرة إلى الهواء الذي أتنفَّسه منذ طفولتي؛ لكنّي أدرك أن ذلك البهاء المتفشّي ما هو إلّا استعراض عابر، وأنه في أي لحظة، كمشهد النهاية في مسرحية، قد يرتفع الستار عن أشياء أكثر روعةً.

بعد وفاة أبي بوقت قصير، كنتُ أجلس ذات صباح في المكتبة، أنظر، بفتور بعض الشيء، إلى البورتريه الذي يتدلّى بين الكتب، والذي لم أكن أعرف سوى أنه يخصُّ جَدًّا بعيدًا، وتمنَّيتُ لو أنني أعلم المزيد عن أصوله. ثم تناولتُ كتابًا من الأرفف وشرعت في القراءة.

رافعًا نظري عنه لوهلة، رأيته قادمًا نحوي. ليس بيني وبين الباب، لكن بيني وبين البورتريه. رجُلٌ شاحبٌ نحيل يرتدي الأسودَ الباهت. بدا حاسمًا ومندفعًا، ذا أنف بارز ذكَّرني على الفور بخادم بعينه كانت شقيقاتي تدعوه السيد كرو.

"وجدتُ نفسي بجوارك، سيد فين، فمنحت نفسي بهجة زيارتك"، قال بصوت عجيب لكن ليس كريهًا.

"جدُّك المبجّل كان قد عاملَني -بإمكاني قول ذلك بلا تكلُّف- كصديق، بعد أن امتدَّت معرفته بي من الطفولة كقيِّم مكتبة لوالده".

لم أسأل نفسي حينها عن عمر الرجل الآن!

"هل لي أن أسأل أين تعيش الآن، سيد كرو؟" قلت له.

ابتسم باستمتاع.

"خمَّنت اسمي تقريبًا"، أجابني، "وهو ما يكشف عن حكمة العائلة. رأيتَني من قبل، لكن مرة واحدة فحسب، ولم تتمكَّن من سماع اسمي!".

"أين كان ذلك؟".

"في هذه الغرفة نفسها. كنتَ طفلًا جدًّا، رغم ذلك!".

لم أتبيَّن إن كنت أتذكَّره حقًّا، لكن لوهلة توهَّمتُ أنني أتذكَّره، وطلبت منه أن يُصحِّح اسمه لي.

"يوجد ما يُعرف بالتذكُّر لكن ليس الذِّكرى نفسها بالضرورة"، أشار "بالنسبة لاسمي -الذي اقتربت من تخمينه جدًّا- فهو راهين".

كنت سمعت ذلك الاسم؛ ذلك أنني عرفتُ عنه حكايات عجيبة.

"لطفًا منك للغاية أن تأتي وتراني"، قلت له. "هلَّا جلستَ؟".

وجد لنفسه مقعدًا وجلس عليه على الفور.

"أفترض أن كُنتَ تعرف أبي إذن؟".

"كنت أعرفه"، أجابني بابتسامة غامضة، "لكنه لم يهتمّ كثيرًا بمعرفتي، وأبدًا لم نلتقِ. ذلك الجنتلمان، رغم ذلك"، أضاف، مشيرًا إلى البورتريه، "السيد أبوورد العجوز، كما يدعوه أناسه، كان على أيّامه صديقًا لي لكن أكثر حميميّةً من جدِّك".

سرعان ما بدأت في استغراب هذا اللقاء. لكن حقيقة أن زائري يتذكَّر السيد أبوورد كانت أكثر غرابةً بالكاد من أنه كان قبل ذلك قيِّمَ مكتبة جدِّي الكبير.

"أدين له بالكثير"، تابع القول؛ "ذلك أنه، رغم أنني قرأتُ كُتبًا أكثر ممَّا قرأ، وعبر التوجُّه الخاص لدراساته، كان قادرًا على إخباري بعلاقة مُعيَّنة بين أنظمة الأشياء لم أكن لأكتشفها أبدًا بمفردي، وبالكاد كان بمقدوري تعلُّمها من أي شخص آخر".

"هل يمكنك إخباري المزيد عن ذلك؟" قلت له.

"بالتأكيد- بقدر ما أستطيع على الأقل: لا يوجد هناك شيء اسمه أسرار متعمَّدة"، أجابني- واستمرَّ في حديثه.

"تلك الخزانة كانت تحفظ مكتبته- ما يقرب من مائة مخطوطة؛ ذلك أن الطباعة لم تكن قد اكتُشفَت بعدُ حينها. ذات صباح كنت جالسًا هناك، أعمل على

فهرس لتلك المخطوطات، عندما تَطلَّع إلى الباب وقال، "تعال". وضعت قلمي جانبًا وتبعته- عبر البهو الكبير، عبر مهبط مائل بشدّة، ثم على طول ممرٍّ تحت الأرض إلى برجٍ كان بناه لتوِّه، يتكوّن من دَرَجٍ وغرفه في أعلاه. كان باب هذه الغرفة ذا قُفلٍ هائل، نزعه بأصغر مفتاح رأيته في حياتي. لم أكد أعبر العتبة في إثره حتى بدأ هو، أمام عينيّ، في التضاؤل شيئًا فشيئًا. لكن سرعان ما تَصحّح نظري، ورأيث أنه كان يخطو بسرعة مبتعدًا عني. بعدها بدقيقة أصبح مجرّدَ بقعة على البُعد، بقمم الجبال الزرقاء وراءه، جليَّةً على خلفيةٍ من سماء أكثر شحوبًا. تعرَّفث على البلد؛ ذلك أنني ذهبت إليها وعُدت عدة مرّات، رغم أنني لم أعرف هذا الطريق إليها".

"بعد ذلك بسنوات عديدة، طويلًا بعد أن اختفى البرج، عَلَّمتُ واحدًا من ذُرِّيَّة جَدِّكَ الأكبر ما علَّمني إيّاه السيد أبوورد؛ وبين الحين والآخر حتى هذا اليوم أستخدم منزلك عندما أرغب في الوصول إلى بيتي عبر أقصر الطُرُق. لا بُدَّ أنني -دون إذنك، وهو ما أطلبه الآن- قد اكتسبتُ الآن حقَّ المرور عبر منزلك.. ليس من الأمام إلى الخلف، لكن من القاع إلى القمة!".

"إذن فأنت تريد لي أن أفهم، سيد رافين"، قلت له، "أنك تمضي عبر منزلي إلى عالم آخر، غيرَ مكترثٍ بأي حيّز فاصل؟".

"حقيقة أنني أمرُّ من خلاله هي اعتراف لا شكّ فيه بالحيِّز"، أجابني قيّم المكتبة العجوز.

"أرجوك، لا تراوغني سيد راڤين"، قلتُ له. "اقبل سؤالي كما أعنيه تمامًا".

"في منزلك يوجد باب، خطوة واحدة عبره تحملني إلى عالَم مختلف تمامًا عن هذا العالَم".

"عالَم أفضل؟".

"ليس دائمًا؛ لكنه أفضل حقًّا من ناحية أن معظم قوانينه الفيزيائية، وكثيرًا من قوانينه الذهنية تختلف عن قوانين هذا العالم. أمّا القوانين الأخلاقية، فلا بُدَّ أنها واحدة في كل مكان من ناحية الجوهر".

"أنت تختبر قدرتي على التصديق!" قلت له.

"تعتقد أنني مجنون، ربما؟".

"لا تبدو كمجنون".

"كاذب إذن؟".

"لا تُقدّم لي أساسًا لأعتقد أنك كاذب".

"فقط أنت لا تصدّقني؟".

"سأخرج من هذا الباب معك إن شئتَ: أصدّقك بما يكفي للمخاطرة بمحاولة".

"هذه هي الزّلات التي يرتكبها كل أطفالي!" غمغم. "باب الخروج الوحيد هو باب الدخول!".

بدأت في الاعتقاد أنه مجنون حتمًا. جلس صامتًا لوهلة، رأسه مستقر على يده، ومرفقه على المائدة، وعيناه على الكتب أمامه.

"الكتاب"، قال بصوت أعلى، "هو باب للدخول، وبالتالي باب للخروج". "أرى السيد أبوورد العجوز"، تابع القول، مغلقًا عينيه، "قلبي يفيض بالحب من أجله: في أيّ عالَمٍ هو؟".

"عالم قلبك!" أجبته؛ "أعني أن صورته توجد هناك".

"هناك عالم واحد إذن على الأقل لا يفتح عليه باب بَهوك؟".

"أتّفِق معك في هذا؛ لكن الأشياء في ذلك العالم هي أشياء لا يمكن امتلاكها أو لمسها".

"فكّر أبعد قليلًا"، كان ردّه: "هل أصبح أي شيء مِلكًا، باستثناء عبر الولوج إلى ذلك العالم؟ الفكرة خارج إدراكك، رغم ذلك، في اللحظة الحاضرة! أقول لك إن هناك عوالم أكثر، وأبوابًا أكثر إليها، من مُجمل أفكارك في سنوات عديدة!".

نهض، غادرَ المكتبة، اجتازَ البهو، وخطا مباشرةً صاعدًا إلى العلّية، خبيرًا كما هو واضح بكل انعطافة. تبعته. متأمّلًا ظهره. كان شَعرُه يتدلّى طويلًا وداكنًا، لامعًا ومسترسلًا. ومعطفه عريضًا ويصل إلى عقبيه. بدا حذاؤه كبيرًا عليه.

في العلّيّة اخترق ضوءٌ حواف ألواح السقف الكبيرة، وأظهر لنا المواضع المنفتحة على السماء، وكان علينا أن نخطو من دعامة إلى أخرى؛ في منتصف واحدة في من هذه المساحات انتصب حاجز، ذو باب، عَبره تبعتُ السيد راقين إلى حجرة صغيرة، مظلمة، يتقلص سقفها كلما ارتفع مائلًا حتّى نهايته.

"هذا هو الباب الذي حدّثتك عنه"، قال لي، مشيرًا إلى مرآة مستطيلة تستند مائلةً على الحائط. خطوتُ ووقفت أمامها، ورأيتُ شكلَينا البشريَّين ينعكسان بقتامةٍ على وجهها المغبَّر. كان هناك شيء حيالها أصابني بالذُّعر. بَدَت قديمة الطراز ومُهمَلَة، لكن رغم مظهرها العادي، إلا أن النسر، الذي يحطُّ على القمة بجناحين مفرودين، بدا تهديديًا.

"كمرآة"، قال قيِّم المكتبة، "أصبحت كالِحةً مع مرور الزمن؛ لكن هذا لا يهم؛ ذلك أن صفاءها يعتمد على الضوء".

"الضوء!" أجبته؛ "لا يوجد ضوء هنا!".

لم يجبني، بل شرعَ في شدِّ سلسلة صغيرة على الحائط المقابل. سمعت صوت قرقعة: كانت قمة الحجرة تستدير ببطء. توقَّفَ عن الشَّدِّ، ونظر إلى ساعته، وشرعَ في الشّدِّ مُجدَّدًا.

"وصلنا في اللحظة المناسبة بالكاد!" قال؛ "إنها على عقرب الظهيرة بالضبط!".

استمرَّ السقف في القرقعة والدوران نحو دقيقة. ثم شدَّ سلسلتين أخريَين، بالتبديل بينهما، ثم عاد إلى السلسلة الأول. بعدها بدقيقة بدأت الحجرة في الانجلاء، سقطت رقعة من ضوء الشمس على مرآة على الحائط المقابل الذي يستند عليه الحائط الآخر، وعلى الغبار رأيت مسار الأشعة المنعكسة الساقطة من المرآة. لكن لم يرتدَّ منها شيء؛ بدت الأشعة وكأنها تمرُّ من خلالها، لم يكن في الحجرة أي رقعة ضوء ثانية!

"أين اختفى شعاع الشمس؟" هتفت.

"لا يمكنني إخبارك"، أجابني السيد راڤين؛ "إلى الوراء، ربما، إلى حيث جاء في البدء. ينتمي الآن، أتخيَّل، إلى حاسَّة لم تظهر فينا بعد".

ثم شرعَ في الحديث عن علاقة العقل بالمادة، وعن علاقة الحواس بالسِّمات، بطريقة لم أتمكَّن من فهمها إلا قليلًا، ثم تابع حديثه في أشياء أكثر غرابةً لم أستطع فهمها على الإطلاق. تحدَّث كثيرًا عن الأبعاد، وأخبرني أنه توجد أكثر من ثلاثة أبعاد، بعضها يتعلَّق بقدرات موجودة فينا حقًّا، لكننا لا نعلم عنها شيئًا بعد. أعترف أنه كلماته، رغم ذلك، لم تؤثر فيَّ أكثر من تأثير الضوء في المرآة؛ ذلك أنني اعتقدتُ أنه يعرف بالكاد ما يتحدث عنه.

أدركتُ بغتةً أن أشكالنا البشرية قد اختفت من المرآة، التي بدت ممتلئةً بضباب أبيض. فيما أحدِّقُ

فيها رأيث، متجلِّيةً شيئًا فشيئًا من وراء الضباب، ذرى سلسلة من الجبال، تزداد وضوحًا في كل لحظة. سرعان ما انكشف الضباب بالكامل، كاشفًا عن وجه أرض بور متّسعة، عليها، على مبعدة، كان الشكل البشري لرجل يتحرّك مبتعدًا بسرعة. استدرت لأخاطب مُرافقي؛ لكن لم يَعُد بجانبي. نظرت ثانيةً إلى الشكل في المرآة، وتعرّفتُ فيه على المعطف الواسع المتطاير، والشّعر الأسود الذي يرتفع برياح لم أشعر بها إطلاقًا. أسرعتُ في رعب هربًا من المكان.

@ART_OF_BOOK

(9)
أنا نادم

وضعتُ المخطوطة جانبًا، شاعرًا بالعزاء باكتشافي أن أبي قد ألقى نظرة خاطفة على ذلك العالَم الغامض، وأنه كان يعرف السيد راڤين.

ثم تذكّرتُ أنني لم أسمع قطُّ عن أي سبب أو ملابسات لوفاة والدي، وبدأتُ في الاعتقاد أن آخر ما فعله كان أن تَبِعَ السيد راڤين، ولم يَعُد؛ عليه تزايَدَ خَجلي بسرعة من هروبي. أيّة حقائق خارقة كان لي أن أجمعها بشأن حياةٍ وموتٍ، وأراضٍ متّسعة، تتجاوز إدراكي العادي! بالتأكيد كان راڤين وزوجته أناسًا صالحين، وليلةٌ في منزلهما لم تكن لتُسبِّب لي أيّ أذى! كانا غريبَين بلا شك، لكن تلك الغرابة ليست سوى المَلَكة التي كان أحدهما متفرّدًا فيها، والجمال الذي كانت الأخرى بديعةً فيه! ورغم ذلك لم أصدّقهما! لم أعاملهما باعتبارهما جديرَين بثقتي، لكن باعتبارهما يدبّران مؤامرة ضدّي! وكلما تأمّلتُ في سلوكي ناحيتهما، كلما ازداد امتعاضي من نفسي. لماذا كان عليّ أن أخاف من هؤلاء الموتى؟ أن أشاركهم راحتهم المقدّسة كان شرفًا لا أستحقّه! أيّ ضَرَرٍ كان ليوقعه عليّ ذلك الملك النائم، أو السيدة ذات الجُرح في راحتها؟ شعرتُ بتَوقٍ للسكون الجليل والعذب في وجهيهما، وبكيت. ألقيت بنفسي على فراشي منتحبًا، واستغرقت في

النوم بغتةً.

استيقظتُ بغتةً أيضًا، شاعرًا أن أحدًا قد ناداني. كان المنزل ساكنًا ككنيسة خاوية، وطائر شحرور يغنّي في الحديقة. قلت لنفسي، "سأذهب وأخبرهما أنني أشعر بالخجل، وأنني سأفعل أيًا ما يطلبانه منّي!" نهضتُ، وانطلقتُ مباشرةً إلى الدَّرَج المؤدي إلى العِلّيَّة.

كانت الحجرة الخشبية كما رأيتها لأول مرة بالضبط، والمرآة تعكس بشحوبٍ كلَّ شيء أمامها. كانت الوقت في الظهيرة تقريبًا، والشمس أعلى قليلًا من زيارتي: عليّ أن أرفع الساتر قليلًا، وأضبط المرايا حسب ذلك! لو كنتُ وصلت في الوقت المناسب لرأيت السيد راڤين يفعل ذلك.

جذبت السلاسل، وسمحت للضوء بالسقوط على المرآة الأولى. ثم استدرت إلى الأخرى؛ فيها كانت أشكال الصورة السابقة- يمكن تمييزها حقًّا، لكنها مرتعشة كمشهد في بِركَةٍ تَهتزُّ بفعل "رياح خافتة متماوجة!" لامستُ الزجاج؛ لكنه كان غير نافذ.

شككتُ أن الشيء يحتاج إلى استقطاب، فقلبتُ المرايا مرةً بعد أخرى، مُغيّرًا التناسب بينهما، حتى نجحت أخيرًا بالصدفة، بدرجة كبيرة ترضيني، في جعل الأشياء في مكانها الصحيح بينهما، وحينها رأيت الجبال الزرقاء راسخة ورائقة. خطوتُ للأمام، وأصبحت قدماي بين حشائش الخلنج البريّة.

كل ما كنت أعرفه عن الطريق إلى الكوخ هو أنه يمرُّ عبر غابة من أخشاب الصنوبر. مَرَرتُ بين أجمات كثيرة وعِدّة شُجَيرات سرو صغيرة، مُتخيِّلًا باستمرار أنني قد تعرَّفتُ على شيءٍ في هذا البلد؛ لكنني لم أصادف أيّ غابة، وغدَت الشمسُ الآن قريبةً من الأفق، والهواء قد بدأ في الارتعاش البارد بفعل الشتاء الوشيك، وحينها، لبهجتي، رأيت جسم أسود صغير يقترب ناحيتي؛ كان هو الغراب!

أسرعتُ لملاقاته.

"ألتمس عفوك، سيدي، على وقاحتي الليلة الفائتة"، قلته. "هل ستأخذني معك الآن؟ أعترف من قلبي أنني لا أستحق".

"أها!" كان ردّه، ثم رفع بصره. وبعد صمت للحظات، "لا تتوقَّع زوجتي مجيئك الليلة"، قال لي. "كما أنها تأسف بشدة على تشجيعنا لك لتبييت ليلتك الأسبوع الفائت".

"خُذني إليها وسأخبرها بنفسي كم أنا آسف"، توسّلت بمذلّة.

"لا فائدة من هذا"، أجابني. "ليلتك لم تَحِن حينها، وإلّا لم يكن لك لتغادرنا. ولم تَحِن الآن، ولا يمكنني أن أريك الطريق. كان الموتى يبتهجون تحت أقحواناتهم. يستلقون جميعًا بين جذور زهور السماء، وهو مشهد كان ليمنحك السعادة عندما ينقضي الشتاء، ويحلُّ الصباح بطيوره: قبل أن

تغادرهم، ارتجفوا في أسرّتهم. وعندما يحلُّ ربيع الكون... لكن ذلك لن يحدث لأزمنة طويلة بعدُ! كم زمن، لا أعرف، ولا أبالي بالمعرفة".

"أخبرني شيئًا واحدًا، أتوسّل إليك، سيد راڤين: هل أبي معك؟ هل رأيته منذ أن غادر العالَم؟".

"نعم؛ إنه معنا، غارق في النوم. ذلك الذي رأيته وذراعه على ملاءة السرير، بيده نصف مغلقةً".

"لماذا لم تخبرني؟ أنني اقتربت منه هكذا، ولم أدرك!".

"وحينها أدَرتَ ظهرك إليه!" صَحَّح لي الغراب.

"كنت سأستلقي لو أدركت ذلك على الفور!".

"أشكُّ في ذلك. لو كنتَ مستعدًا للاستلقاء، كنت ستتعرَّف عليه على الفور! السيد أبوورد العجوز، وجدُّك الأكبر، كلاهما في الأعلى منذ زمن طويل. جَدُّك الأكبر معنا منذ سنوات طويلة؛ أعتقد أنه سيبدأ في التحرُّك قريبًا. رأيتَه الليلة الفائتة، رغم أنك لم تتعرَّف عليه بالطبع".

"لماذا بالطبع؟".

"لأنه أقرب إلى الاستيقاظ منك كثيرًا. لا يمكن لأحد أن لا ينام ويستيقظ أبدًا".

"لا أفهمك على الإطلاق!".

"استدرتَ مبتعدًا، ولا يمكنك أن تفهم!" أمسكتُ

لساني. لكن إن لم أقُل شيئًا، سيرحل حتمًا!

"وجَدّي- هل هو معكم أيضًا؟" سألته.

"لا، ما يزال في الغابة الشريرة، يحارب الموتى".

"أين هي الغابة الشريرة، حيث يمكنني إيجاده؟".

"لن تجده؛ لكنك ستخطئ تلك الغابة بالكاد. إنها مكان هؤلاء الذين لا ينامون، بل يستيقظون في الليل، لقتل موتاهم ودفنهم".

"لا يمكنني فهمك!".

"بالطبع لا يمكنك. ولا أنا أفهمك؛ لا أستطيع قراءة قلبك ولا وجهك. عندما لا نفهم أنا وزوجتي أطفالنا؛ فهذا لأنه لا يوجد ما يكفي منهم لفهمه. الربُّ وحده يمكنه فهم الحماقة".

"إذن"، قلت له، شاعرًا بالعُري وانعدام القيمة، "هل ستكون خيِّرًا بما يكفي لتريني أقرب طريق للبيت؟ أعرف أنه يوجد أكثر من طريق؛ ذلك أنني سلكتُ طريقين بالفعل".

"توجد بالفعل طرق كثيرة".

"أخبرني، أرجوك، كيف أتعرَّف على أقربها".

"لا يمكنني"، أجابني الغراب؛ "أنا وأنت نستخدم نفس الكلمات لكن بمعانٍ مختلفة. نعجز غالبًا عن إخبار الآخرين بما يحتاجون معرفته، لأنهم يريدون معرفة شيء آخر؛ وبالتالي لن يحدث سوى أن

يسيئوا فهم ما نقوله. البيت دومًا بعيدٌ للغاية في راحة يدك، ولا فائدة من إخباري بكيفية الوصول إليه. لكنك ستصل إليه؛ لا بُدّ أن تصل إليه، ينبغي لك أن تصل إليه. كل مَن ليس في بيته، عليه أن يصل إلى بيته في نهاية المطاف. تعتقد أنك كنت في البيت حيث وجدتك: إذا كان ذلك بيتك حقًا، فلم يكن لتغادره. لا أحد يمكنه مغادرة بيته. أبدًا لم ولن يكن أحد في بيته دون الذهاب إليه".

"لغزٌ يخطو فوق لغز!" هتفت. "لم آتِ هنا حتى تطرح عليّ أحجياتٍ".

"لا؛ لكنّك أتيت، ووجدت الأحجيات في انتظارك! أنت ذاتك الأحجية الوحيدة في الحقيقة. ما تدعوه أحجيات هي حقائق، وتبدو أحجيات لأنك لستَ حقيقيًا".

"أسوأ وأسوأ!" هتفت.

"وحتمًا عليك أن تجيب على الأحجيات!" تابع القول. "ستستمرُّ الأحجيات في طرح نفسها حتى تفهم نفسك. الكون أحجيةٌ تحاول الخروج، بينما أنت تغلق بابك بقوة أمامها".

"ألن تخبرني بدافع الشفقة على الأقل ما يتوجّب عليّ فعله، إلى أين عليّ أن أذهب؟".

"كيف لي أن أخبرك بما يتوجّب عليك فعلُه، أو الطريق إلى ذلك؟".

"إذا لم أذهب إلى البيت، فعلى الأقل أرشدني إلى أيّ بيتٍ آخر".

"لا أعرف أيّ بيت. الكائنات أمثالك تمضي في ذلك الاتجاه غالبًا".

أشار بمنقاره. لم أستطِع رؤية شيء سوى الشمس الغاربة التي أعمتني.

"حسنًا"، قلت بمرارة، "لا يسعنى سوى الشعور بقسوة معاملتي. انتُزِعتُ من بيتي، وهُجِّرتُ في عالَم غريب، وحُرمتُ من إرشادي إلى أين أذهب وماذا أفعل؟!".

"لقد نسيتَ"، قال الغراب، "عندما أحضرتك إلى هنا ورفضتَ ضيافتي، أنك وصلتَ إلى ما تُسمِّيه بيتًا بأمان: والآن أتيتَ من تلقاء نفسك! ليلة طيبة".

استدار وخطا مبتعدًا ببطء، منقاره مُتَّجِه إلى الأرض. وقفتُ في مكاني مُدوَّخًا. كان حقيقًا أنني أتيتُ من تلقاء نفسي، لكن ألم آتِ بنيَّة التوبة والتكفير؟ كان قلبي موجوعًا، وفي عقلي لم يكن هنا مسعى ولا هدف، ولا أمل ولا رغبة. حدَّقتُ في إثر الغراب، ووددتُ أن أتبعه، لكنني شعرت بلا جدوى ذلك.

لكن بغتةً، انقضَّ الغراب على بقعة من الأرض، مُلقيًا بثقل جسمه بأكمله على منقاره، ولبضعة لحظات حفرَ بحماس شديدة. ثم برفرفة من جناحيه أرجع رأسه، وانطلق شيءٌ من منقاره،

متطوِّحًا عاليًا في الهواء. في تلك اللحظة غَرُبَت الشمس، وغدا الهواء على الفور معتمًا للغاية، لكن ذلك الشيء انفتح في سطوع هادئ، وانطلق ناحيتي نابضًا كطائر من نار، لكن بضوء أكبر وأكثر اصفرارًا. طار من فوق رأسي. استدرتُ وتبعته.

هنا أوقف حكايتي لأقول مجدَّدًا أنها تنطوي على صراع مستمر لقول ما لا يمكن قوله بأي شكل من الدِّقَّة، فالأشياء المسجَّلة هنا، بطبيعتها وطبيعة المخلوقات المتصلة بها، مختلفة بما لا يوصف عن أيِّ حوادث ممكنة في نظامي القديم، لحدِّ أنه يمكنني فحسب تقديمها عبر سردي -بأشكال ولغة الحياة في هذا العالَم- للأمزجة التي خلقتها داخلي، ليس الأشياء ذاتها إذن، بل المشاعر التي أيقظتها داخلي. وحتَّى هذا أفعله بحسٍّ دائم وثقيل بالإخفاق، مع اكتشافي أنه يستحيل تقديم أكثر من طَورٍ واحد من المغزى المعقَّدة الوفير، أو موضوع متراكز واحد من التجسُّد المتداخل. شيءٌ واحد قد يتمظهر أحيانًا ويعني أشياء كثيرة، مع هويَّة ضبابية في القلب منها، وهو ما يُبدِّل من مظهرها باستمرار، لكنني مدفوعٌ حقًّا لأدوِّن، بأدنى اقتراب من الوضوح واليقين، ما أعرف أنه ليس سوى تمثيلًا أخرقَ ومشكوكًا فيه للشعور الذي أصبو إليه، رغم أن أيًا من أشكال التواصل في هذا العالَم لا يلائم مسعاي أبدًا، بالنظر إلى غرابتها الفريدة. حتى بالنسبة لإنسان يعرف تلك الأرض أفضل منِّي، فلا

ضمان لديّ لنقل حقيقة وجودي فيها إليه. ورغم أنه لا شكّ لديّ، مثلًا، أنني أرى بحقّ مشهدًا حيويًا، فربما أدرك في وعيي، في نفس اللحظة، أنني أستقصي جدليّةً ميتافيزيقية.

(10)

الجحر الرهيب

مع ازدياد الهواء اسودادًا وانغلاق الشتاء سريعًا من حولي، توهَّجَت النار المرتعشة بسطوع أكبر، وأوقفت صعودها، محوِّمةً في انتظاري؛ لذلك سريعًا بعد أن أويتُ إلى وهجها، تطايَرَت ببطء، وتلكَّأت فوق بضعة مواضع في الأرض الصخرية. في كل مرَّة أتطلَّع لأعلى، تبدو لي وقد ازدادت حجمًا، وفي النهاية منحتني ظِلًّا ملازمًا. فراشة طائرة كما هو واضح، تطير وكأنها تُنافِس طائر السنونو. كان جناحاها كبيرَين جدًّا، مُربَّعَين تقريبًا، يومضان بكل ألوان قوس قزح. مندهشًا من بهائها، استغرقت تمامًا في جمالها لحدِّ أنني تعثَّرتُ في صخرة واطئة، واستلقيت مصعوقًا. عندما عدتُ إلى رشدي، كان المخلوق يحوِّم فوق رأسي، ساطعًا بكل توليفات الضوء، مع تدرُّجات وفيرة وأنواع من الألوان لم أرها في حياتي. نهضت وخطوتُ قُدمًا. لكنني، كوني عاجزًا عن نزع عينيَّ عن الشيء المتألِّق لأنتبه لخطواتي، ضربت حجرًا بقدمي. خائفًا من سقوط آخر جلستُ لمراقبة المجد الصغير، وتوقٌ هائل قد استيقظ داخلي للإمساك بها بين يديَّ. ويا لبهجتي التي لا توصف، عندما بدَأت في الهبوط ناحيتي! ببطء في البداية، ثم غاصت في هبوطها بسرعة، وحجمها يزداد مع اقترابها. شعرتُ كما لو أن كنز

الكون يمنح نفسه لي. مددتُ يدي، وأمسكتُ بها. لكن في اللحظة التي اقتنصتها فيها، انطفأ ضوؤها؛ أصبح كل شيء حالك الظلمة؛ كتابٌ ميّت بزُقعَتِه منشورة تستلقي باردة وثقيلة في يدي. ألقيته في الهواء، فقط لأسمعه يسقط بين عيدان الخلنج. دافنًا وجهي في يديّ، جلستُ بائسًا بلا حراك.

لكن البرد اشتدّ وطأةً لحدّ أنني نهضت خشية التجمُّد. وفور أن وقفت على قدميّ، استيقظ داخلي شعورٌ خافت بالنور. "هل تعود إلى الحياة؟" هتفتُ، وأملٌ متجدّد عظيم قد انطلق داخلي. وا أسفاه، لا! كانت حافة قمر يتلصّص بحدّة وفضول على الأفق! جلب لي الضوء، لكن ليس الإرشاد! لم يكن له ليحوّم فوقي، ولا ليراقب خطواتي المتعثّرة. لم يكن له إلَّا أن يمنحني اختيارًا جاهلًا!

بوجه كامل ارتفع، وبدأت في تَبَيُّن ما حولي قليلًا. في الغرب منه، وليس بعيدًا عنّي، اخترقت سلسلة من التلال الواطئة خط الأفق؛ شرعتُ في المسير نحوها.

لكن أي ليل عليّ أن أجتازه قبل أن أصل إلى هناك! بدا القمر وكأنه يعرف شيئًا ما، ذلك أنه حدّق فيّ بغرابة. كان مظهره باردًا كالجليد حقًا، لكن ممتلئًا بالاهتمام، أو الفضول على الأقل. لم يكن نفس القمر الذي أعرفه على الأرض؛ كان وجهه غريبًا عنّي، وضوؤه أكثر غرابةً. ربما جاء من شمس مجهولة! في كل مرة أرفع فيها بصري، أجده يحدّق فيّ بكل

قوّته! في البداية شعرت بالضيق، كما لو تجاه وقاحة رفيق من بني البشر؛ لكن سرعان ما لاحظت -أو توهمتُ أنني لاحظتُ- شفقةً متسائلةً في تحديقته: لماذا أقف في لَيلِه الآن؟ حينها، ولأول مرّة، أدركت كم هو من المريع أن يستيقظ أحدٌ في الكون؛ كنتُ مستيقظًا، ولا شيء في يدي حيال ذلك.

بينما أسير، تاهت قدماي عن الخلنج، وطرقتْ أرضًا رخوة جرداء، شيءٌ يشبه الفحم المسحوق، الجاف. لارتياعي، ماجتْ لحظيًا من تحتي، ثم رأيتُ ما بدا أنه زلزال متتابع يمضي أمامي، مُظلّلًا بالقمر الواطئ. انطلقَ إلى البُعد؛ لكن بينما أحدِّق في إثره، ارتفعت موجةٌ، وتقدّمَت ناحيتي ببطء. بعد ياردة أو اثنتين انفجرت، ومنها، متسلقًا وقافزًا، انبثق حيوان يشبه النمر. حول فمه وأذنيه يتدلّى عقدٌ من الطحالب، عيناه ترمشان وتتوهّجان فيما يندفع ناحيتي، مُظهرًا أسنانه البيضاء في زمجرةٍ بلا صوت. وقفتُ مذهولًا، غير واعٍ بشجاعة أو خوف. أدار رأسه إلى الأرض، وغطس فيها.

"ذلك القمر يتلاعب بعقلي"، قلتُ بينما أستأنف رحلتي، "أيّ حياة قد تكون هنا سوى حياة التوهُّمات- حياةٌ تُصنع من مادّتها الأحلام؟ حقًا، أسير الآن في استعراض زائف.

لذلك، جاهدتُ لأبقي قلبي فوق مياه الخوف، ولم أدرك أن ذلك الذي ارتبتُ فيه كان في الحقيقة حائط صدّ بيني وبين الحقائق التي ظَنَنتُها أشباحًا:

كان ضوؤه يسيطر على الوحوش، وإلّا فلم أكن لأمضي خطوةً واحدةً أخرى على تلك الأرض الشنيعة. "لن يخيفني ما يبدو ظاهريًا فحسب!" قلتُ لنفسي، ومع ذلك شعرتُ أنه من المريع أن أمشي على بحر تلهو تحته أسماكٌ كهذه. إلى ذلك، على بُعد خطوة أو خطوتين منّي، بدأ رأس دودة في الظهور ببطء من الأرض، كبيرًا كرأس دُبٍّ قطبي ويشبهه كثيرًا، بعُرفٍ أبيض على عنقه الأحمر. التلويّات الساحبة التي خلّصت بها الدودة نفسها كانت شنيعة، مع ذلك لم أجرؤ على إبعاد عينيَّ عنها. وفي اللحظة التي تَحرَّر فيها ذيلها، استلقَت هناك كما لو كانت مُنهكةً، متمرِّغةً بجَهْدٍ ضعيف لتحفر في الأرض ثانيةً.

"هل تعيش على الموتى"، تساءَلتُ، "وهل هي عاجزة عن إيذاء الأحياء؟ إذا كانت قادرة على شمِّ فريستها والخروج إليها، فلماذا لا تؤذيني؟".

أدرك الآن أن القمر هو مَن أصابها بالشَّلَل.

طوال تلك الليلة بينما أسير، داوَمت مخلوقات شنيعة، لا يتشابه اثنان منها، على تهديدي. في بعضها، عزَّز جمال اللون من بشاعة الشكل: إحداها، أفعى كبيرة، كانت مغطاة من رأسها إلى ذيلها المتباعد بريشات ذات مسحات ألوان مبهرة.

سرعان ما اعتدت في النهاية على تهديداتها غير المؤذية لحدّ أنني شرعت في تسلية نفسي

باختراعات الوحوش هذه، غير متشكك لوهلةٍ أنني أدين بكل لحظة في حياتي للقمر المحدِّق. رغم أن تألُّقه لم يكن أصيلًا، إلَّا أنه أعاق الأشياء الشريرة، حتى أسير في أمان. ذلك أن الضوء يظل ضوءًا، حتَّى وإن كان مجرد سلسلة أبدية من الانعكاسات! كيف كان لقدميَّ أنا تحملاني بسرعة عبر الأرض المضطربة لو أدركتا أنني في تلك اللحظة، فيما أزال في مرمى تلك الوحوش بعد أن يتوقَّف القمر عن السطوع على البقعة الملعونة، فريسةً لرحمة من لا رحمة لديه، مركز رُكامٍ متمعِّج من البشاعة، كل وحشٍ فيه أكثر شناعةً من سابقه. أحمقَ بالجهل وليس المعرفة، راقبتُ هبوط القمر المُتعب، الجليل، التوَّاق، إلى قوس السماء المُتَّسع فوقي، بلا أي مخاوف أسوأ من رُعب أن أضلَّ طريقي- وهو ما لم يكن ليحدث حتى لو أردت.

كنت أقترب من التلال التي قصدتها، وغدَا القمر الآن ليس بعيدًا عن خطِّ أفقها، عندما توقَّف التمرُّغ الهادئ، واستقرَّ الجحر ساكنًا وأجرد. وحينها رأيته، يمضي ببطء على التراب الناعم، شكل امرأة، ضبابٌ أبيض يطفو حولها، حينًا يتكاثف، وحينًا يتلاشى ليتكاثف ثانيةً متخذًا شكل رداء، كما لو أنه ينغلق عليها أو يهبُّ مبتعدًا عنها بفعل رياح تقتفي أثر خطواتها.

كانت جميلة، لكن بكبرياء وبؤس على مُحيَّاها لحدِّ أنني بالكاد صدَّقتُ ما سأراه لاحقًا. صعودًا

ونزولًا خَطَت، مُحاولةً بلا جدوى الإمساك بالضباب ولفَّه حولها. كانت العينان في الوجه ميِّتتين، وعلى جانب جسدها الأيسر بقعةٌ داكنةٌ. كانت تحاول من وقت لآخر الضغط عليها بيدها، كما لو كان لخنق ألم أو مرض. شعرها يتدلَّى واصلًا إلى قدميها تقريبًا، وأحيانًا ما تمزجه الرياح بالضباب حتَّى لا يعود من الممكن تمييز أحدهما عن الآخر؛ لكن عندما يسقط متجمِّعًا ثانيةً، يتألق بذهبيٍّ شاحب في ضوء القمر.

بغتةً وهي تضغط بكلتا يديها على قلبها، سقَطَت أرضًا، وارتفع الضباب عنها وذاب في الهواء. هرعتُ إليها. شرَعَت في التَّلوِّي في عذابٍ جعلني أقف مصعوقًا. بعدها بلحظة، أسرَعَت قدماها مبتعدةً عن جسدها كأفعى. من كتفيها هربت ذراعاها كما لو كانتا مرتعبتَين، أفاعٍ بدورها. ثم طارَ شيء منها يشبه الخفاش، وعندما تطلَّعتُ مُجدَّدًا، كانت اختفت. ارتفعت الأرض كالبحر في قلب عاصفة؛ استولى الرعب عليَّ؛ استدرتُ نحو التِّلال وشرعتُ في الركض.

وصلتُ إلى منحدر عند قاع التلال، ووجدتُ القمر قد غرقَ وراء واحدةٍ من ذُراها، تاركًا إيَّاي في ظِلِّه. ورائي ارتفعت صيحة خرابٍ ومَرضٍ، كما لو كانت رغبةً مُحبطةً- الصوت الوحيد الذي سمعته منذ سقوط الفراشة الميِّتة؛ جعلَت قلبي يرتعش كراية في الرياح. استدرت، ورأيتُ أجسامًا قاتمةً كثيرة تركض في إثري، اتَّجهتُ إلى قِمَّة الحافَّة التي ما

زال القمر يسطع عليها. بدا وكأنه يتلكأ هناك حتى أتمكّن من الدفاع عن نفسي، سرعان ما تمكّنتُ من رؤيته، وصعدتُ الحافة مسرعًا.

بعد أن عبرتُ ظلَّ صخرة، سمعتُ المخلوقات تلهث عند عَقِبَيّ. لكن في اللحظة التي ألقى فيها أول مخلوق بنفسه عليَّ بزمجرة كراهية شَرِهة، اندفعنا معًا إلى القمر. سطعَ بنور غضب، وسقط المخلوق من فوقي كلطخة بلا جسد. منحنى ذلك القوة، استدرت إلى البقيَّة، واحدٌ بعد آخر فيما يندفعون إلى الضوء، تساقطوا بعواء؛ ثم رأيت أو تخيَّلتُ ابتسامةً عجيبة على الوجه المستدير من فوقي.

تسلَّقتُ إلى قمة الحافَّة؛ بعيدًا كان يسطع القمر، غارقًا إلى أفقٍ واطئ. كان الهواء نقيًا وقويًا. هبطتُ لمسافة صغيرة إلى حيث وجدت الهواء أكثر دفئًا، وجلست انتظارًا للفجر.

اختفى القمر في الأسفل، وغدا العالم مُظلمًا مُجددًا.

(11)

الغابة الشريرة

استغرقتُ في النوم سريعًا، وعندما استيقظتُ كانت الشمس في طلوعها. خطوتُ إلى القمة مجددًا، وتطلّعتُ إلى ما ورائي؛ استلقى الخواء الذي كنت عبرته في ضوء القمر بلا أيّ علامة على الحياة. هل يعقل أن ذلك الامتداد الهادئ أمامي كان يكتظُّ في الأمس بمخلوقات الجشع المُلتهِم؟

استدرت وتطلّعتُ عبر الأرض التي لا بُدَّ يستلقي طريقي عبرها. بدت كصحراء مُتَّسعة، ببقعة ذات لون مختلف على البعد قد تكون غابةً. لكنني لم أرَ أي علامة على الوجود، إنسانيًا كان أم حيوانيًا، دخان أو غبار أو ظلُّ حضارة. ولا سحابة واحدة كانت تطفو في السماء الرائقة؛ ولا نتفة ضباب كان تموّج أيَّ خطًّ من المحيط المستدير.

هبطتُ نزولًا، وانطلقت إلى الغابة المتخيَّلة؛ شيء حيٌّ لا بُدَّ يوجد هناك؛ على هذا الجانب منها لا يمكن أن يوجد شيء.

عندما وصلت إلى الأرض المنبسطة، وجدتها صخرية على اتّساع البصر، مستوية ومثلَّمة في مواضع، ومُحدَودِبَة وبارزة في مواضع أخرى، القاع الواسع على ما يبدو لنهرٍ مُختفٍ، وقد حزَّزه جريان الماء مرّاتٍ لا نهائية، بلا أثر لرطوبة فيها.

بعض الأثلام كانت تحمل طحالب جافَّةً، وبعض الصخور حشائش صلدة مثلها تقريبًا. كان الهواء، "الذي امتلأ يومًا بالضجيج المبهج للمياه"، صامتًا كالموت. استغرق مني الأمر النهار بأكمله لأصل إلى البقعة البعيدة، التي وجدتها غابة حقًّا، وليست بقايا غدير أو جدول كنت عبرته! مع ذلك، عبر الظهيرة المتوهِّجة تراءى لي أنني مسكون بسراب صوتي، بعد أن تناهت إلى سمعي أصوات واضحة جدًا لمياه كثيرة لحدٍّ أنني بالكاد صدَّقتُ ما تشهده عيناي.

كانت الشمس تقترب من الأفق عندما غادرت قاع النهر ودخلت الغابة. غاطسةً تحت قمم الأشجار، ومُرسلةً شعاعها بين جذوعها التي تشبه النُّصُب، كشَفَت الشَّمسُ عن عالم من الظِّلال المباركة التي تنتظر استقبالي. كنتُ توقَّعتُ غابة من أشجار الصنوبر، لكن هنا كانت أشجار من أنواع كثيرة، بعضها يتشابه كثيرًا مع أشجار أعرفها، وأخرى ذات اختلافات بديعة عن أيِّ أشجار رأيتها في حياتي. ألقيت بنفسي تحت أغصان ما بدا أنها شجرة كافور في طور الازدهار؛ كانت أزهارها ذات كؤوس صلبة تشبه الجماجم، ترتفع قممها كالغطاء، بقلب زهرة مُزبِد يملأ الكأس حتى الثمالة. من تحت ظلال أوراقها المنجلية انطلقت عيناي هائمةً في أعماق الغابة.

لكن سرعان ما بدأت أبوابها ونوافذها في الانغلاق، خالقةً ممرًا وردهةً وفسحةً أكثر اتساعًا. كان الليل

من حولي؛ وحادًا وسريعًا كان البرد. يا لها من ليلة تصادفني مُجدَّدًا! كيف لي أن أتشارك مع القارئ في شبحيَّتها الجامحة؟

كانت الشجرة التي أستلقي تحتها ترتفع عاليًا قبل أن تتفرَّع، لكن أغصانها انثنت بشكل واطئ جدًا حتى بدت على وشك الانغلاق عليَّ فيما أستند على الجذع الناعم، وأهيم بعينيَّ عبر الشفق العابر للغابة المختفية. في تلك اللحظة، أمام تحديقتي المتجوِّلة الفاترة، بدأت الخُضرة الدَّغلية في اتَّخاذ أو محاكاة، لِنَقُلْ: الإيحاء بأشكال غير أشكالها. بدأت ريحٌ خفيفة في الهبوب؛ وشرَعَت في هزِّ أغصان شجرة مجاورة وأرجحة كل فروعها؛ كل غصين وكل ورقة تمزج حركتها ذاتها مع تمايُل فرعها واهتزاز غُصنها. وبين أشكالها الورقية كان قطيعٌ من الذئاب يجاهد للتحرُّر من سوط ساحر: كلاب الصيد ذاتها لم تكن لتعتصر نفسها بهذه الوحشية! راقبته باهتمام تزايد مع اشتداد الرياح، وانبعاث الحياة في حركاته.

مَنحت كتلةٌ أخرى من الخضرة الدَّغلية، أكبر وأكثر كثافةً، خيالي مجموعة من رؤوس الأحصنة ومُقدِّماتها تبرز مزركشةً من اسطبلاتها. كانت أعناقها تداوم على الحركة صعودًا وهبوطًا، بنفاد صبر يتزايد مع تزايُد اقتحام الرياح لإيقاعها الرأسي خالقةً تأرجحًا أكثر شِدَّةً من جانب لآخر. يا لها من رؤوس التي عليها! نحيلة جدًا، قوية جدًا -الكثير منها مجرَّد جماجم جرداء- إحداها بالجلد

مشدودًا على عظامها فحسب! وأخرى قد فقدت الفَكّ الشفليّ وتدلّت للأسفل، باديَة الإرهاق بما لا يوصف... لكن بين حين وآخر تلهث كما لو لترتاح قليلًا. فوق الأحصنة، في نهاية أحد الفروع، طَفَا منتصبًا شكل امرأة، تلوِّح بذراعيها بإيماءة مستبدّة. أذهلني وضوح تلك الأشكال والكتل الأخرى في البداية ثم أربكتني: ماذا لو كانت استولت على عقلي بواقع مخادع؟ لكن الشفق غَدَا ظلامًا؛ توقّفت الرياح، انغلقت كل الأشكال في الليل؛ استغرقتُ في النوم.

كان الظلام ما يزال دامسًا عندما لفتت انتباهي ضجّةٌ بعيدة، مُشوَّشة، مندفعة، تختلط بصرخات خافتة. تصاعد الضجيج أكثر وأكثر حتى تحوَّل إلى هيجان كما لو أن حشودًا مجتمعة قد مَلأت الغابة. من جميع على الجوانب اقتربت الأصوات بغتةً؛ بدت البقعة التي أستلقي فيها كمركز لاصطخاب يمتدُّ عبر الغابة بأكملها. بالكاد حرَّكتُ يدًا أو قدمًا خشية أن أفضح وجودي للأشياء العدائية.

في النهاية، اقترب القمر من الغابة، وتغلغل فيها ببطء: مع أول وهج منه تزايدت الضوضاء حتى أصبحت مَعمعةً مُصمّةً للآذان، وبدأتُ في رؤية أشكال ضبابية من حولي. فيما يهبط ويزداد تألّقًا؛ أصبحت الضوضاء أعلى، والأشكال أكثر وضوحًا. معركةٌ شرسة كانت تدور رحاها من حولي، صرخات وحشية وزمجرات غضب، هجوم مفاجئ، وصراع

ممتدّ، كل ذلك اختلط بكلمات واضحة، تدفَّقت إلى أذني. لعنات وأيمان، زئير ونخرات، ضحك وسخريات، أسماء مقدّسة ونعيب كراهية، انطلقت جميعها محتشدةً في تداخل فوضويّ. هياكل وأشباح تتعارك بفوضى مجنونة. سيوف تخترق الأشباح: ترتعش فحسب. صولجانات تنقضُّ على الهياكل العظمية، مُحطِّمةً إيّاها بشناعة: لكن لا هيكل يسقط أو يتوقَّف عن القتال، مادام بقيَ مِفصَلٌ واحد يربط بين عَظمَتين. استلقت عظام الرجال والأحصنة متناثرة ومتكوِّمة؛ كانت الهياكل تحارب، طاحنةً وساحقةً إيّاها تحت أقدامها. في كل مكان تنطلق الخيول البيضاء العجفاء؛ في كل مكان على الأقدام أو على حصان معارك ضبابي تنثره الرياح، كانت الأشباح الفتّاكة تهتاج وتزبد وتفترس؛ الأسلحة والحوافر تتصادم وتتقارع؛ فيما فكوك الجماجم البيضاء وحلوق الأشباح تملأ المعمعة المُصِمّة بصيحات الحرب من كل مذهب، صالح أو طالح، احتضنَ ذات يوم نضالًا، أو ظلمًا، أو قسوةً في أيّ عالَم. أكثر الكلمات قداسةً تنطلق جنبًا إلى جنب مع ضربات الكراهية المطلقة. الحقائق التي شوّهتها الأكاذيب تتطاير مُندفعةً بين هَبّات الرماح والعظام. في كل لحظة كان أحدهم ينقلب على رفاقه، ويقاتل بشراسة أكثر من ذي قبل، وصيحته ما تزال "الحقيقة!"... "الحقيقة!". لمحتُ أحدهم يدور في دوائر ويطلق ضرباته في كل اتجاه. مُنهكَين، كان اثنان منهم يجلسان لدقيقة جنبًا

لجنب، ثم ينهضان ويستأنفان القتال الضاري. أحدٌ لم يكن ينحني لمواساة مَن يسقط، أو ينتحي جانبًا ليعفو عنه.

استمرَّ سطوع القمر حتى ارتفعت الشَّمس، وطوال الليل كنت أقتنص لمحاتٍ من امرأةٍ تتحرَّك بمفردها بين الجموع التي يعذِّبها النضال، حينًا على هذه الجبهة وحينًا على تلك، بذراع تمتد للحثّ على القتال، والآخر يضغط على جنبها. "يا رجال: اذبحوا بعضكم بعضًا!" كانت تهتف. رأيت عينيها الميتتين ولطختها الداكنة، وتذكَّرتُ ما كنتُ رأيته في الليلة الفائتة.

كانت تلك معركة الموتى، تلك التي شهدتها وسمعتها فيما أستلقي تحت الشجرة.

قُبيل شروق الشمس، هبَّ نسيم عبر الغابة، وصرخ صوتٌ، "دعوا الموتى يدفنون موتاهم!" وعندها سقطت الألوف المتصارعة خامدةً، وعندما طلعت الشمس، لم تشهد عَظْمةً واحدة، بل فروعًا ذاوية متناثرة هنا وهناك.

نهضتُ واستأنفت رحلتي، عبر غابة لم تنبت أبدًا غابةٌ في مثل هدوئها على تلك الأرض الهادئة. ذلك أن رياح الصباح كانت انقطعت عندما ظهرت الشمس، وأصبحت الأشجار صامتة. ولا طير كان يغنّي، ولا سنجاب أو فأر أو نمس يكشف عن نفسه، ولا عِثّة متوانية تطايَرَت قاطعةً طريقي. لكن بينما

أمضي داومتُ على الاحتراس، ولم أجرؤ على أن تستقر عيناي على أي شكل غابيّ. طوال الوقت توهمتُ أنني أسمع أصوات خافتة لعزق وجرف وتكويم العظام: في أيّ لحظة قد تسقط عيناي على أشياءٍ لا أودُ رؤيتها! كانت حكمة ضوء النهار تهمس لي أن عشرة آلاف شبح ينتظرون، على ما يبدو، أن يستجيب خيالي لهم.

في منتصف الظهيرة خرجتُ من الغابة، لأجد أمامي شبكة ثانية من مجاري المياه الجافة. اعتقدتُ في البداية أنني حِدتُ عن مساري المقصود، فعكستُ اتجاهي؛ لكنني سرعان ما اكتشفت أن الأمر لم يكن كذلك، واستنتجتُ حينها أنني قد وصلت إلى تفريعة أخرى من نفس قاع النهر. شرعتُ على الفور في عبورها، وعندما غربت الشمس كنتُ في قاع قناة متَّسِعة.

جلستُ أنتظر القمر، ومع نعاسي المتزايد، تمدَّدتُ على الأشنة. في اللحظة التي لامسَ فيها رأسي الأرض، تناهت إلى سمعي أصوات تيارات متدفقة، بكل أشكال الضجيج المائي العذب. حملني اللحن المستتر للموسيقى الدائبة إلى نوم بلا أحلام، وعندما استيقظت كانت الشمس في سَمتها، والبرِّيَّة المثلَّمة مرئية على اتِّساعها، يغطِّيها الظلام، وتمتدُّ مرقَّطةً ومخطَّطةً كجلد حيوان وحشي. تضاءَلت الظلال مع ارتفاع الشمس، وبدت الصخور وكأنه تمتصُّ من جديد الظُّلمة التي كانت انسالت منها

أثناء الليل.

حتّى تلك اللحظة كنت مشتاقًا إلى فرسي العربي وكتبي، أكثر من اشتياقي إلى أيّ امرأة أو رجل حيّ ربما؛ لكن الآن أصبحت روحي أخيرًا عطشى لوجود بشري، تُقتُ حتى إلى ساكني هذا العالم الغريب الذين كان الغراب قد وصفهم بغموض على أنهم الأقرب لنوعي. بقلبٍ مُثقَل، يحدوه الأمل مع ذلك، وعقلٍ مسكون بشكوك ما إذا كنتُ أمضي في أيّ اتّجاه على الإطلاق، تابعتُ تقدُّمي المرهق "شمال الغرب وجنوبًا".

@ART_OF_BOOK

(12)

أصدقاء وأعداء

بعد أن وصلتُ، في واحدة من القنوات، إلى ما بدا أنه شجيرة صغيرة، الحارس النائي لجيش يختفي وراءها بالتأكيد، ركعتُ للنظر إليها عن قُرب. كانت تحمل ثمرة فاكهة صغيرة، خَشيتُ قطفها وأكلها؛ كوني لم أتعرَّف عليها. لم يخطر لي كثيرًا أنني كنتُ موضِعَ مُراقَبة من وراء الصخور من قبل مئات الأعين المصطخبة بسؤال هل سآكل الثمرة أم لا.

صادفتُ نبتة أخرى أكبر نوعًا، ثم إلى أخرى أكبر وأكبر، وفي النهاية وصلت إلى أجَمَةٍ من نوع مشابه؛ وحينها رأيت أنها ليست شجيرات بل أشجار قزمة. قبل أن أصل إلى ضفة هذا الفرع الثاني من قاع النهر، اكتشفت أن القنوات تغصُّ بتلك الأشجار لحدِّ أنني عبرتها بصعوبة عاجزًا عن القفز من عليها. في إحداها تناهى إلى سمعي صوت اندفاعةٍ هائلة، كما لو كانت اندفاعةَ حشدٍ من الطيور من سور مكسو باللبلاب، لكنني لم أرَ شيئًا.

صادفتُ بعد ذلك بعض الأشجار المثقلة بثمار الفواكه الكبيرة، لكن ما تحملها بدا خشنًا ورديئًا. كانت تنتصب على حافَّة وهدةٍ غائرة، كانت ذات مرَّةٍ على ما يبدو حوضًا لبحيرة. من اليسار بدا أن غابةً تتدفَّق لملئه؛ لكن في حين كانت الأشجار في الأعلى من أنواع متباينة، بَدَت تلك التي في الوهدة،

جميعها تقريبًا، من أنواع حاملة للفاكهة.

خطوتُ بضعة خطوات أخرى هبوطًا على منحدر العُشب الممتزج بالأشنة، وتمدّدتُ عليه مرهقًا. أبعد قليلًا كانت تنتصب شجرة ضئيلة مثقلة بثمار تفاح وردية اللون ليست أكبر من ثمار كرز صغيرة، قمتها في متناول يدي؛ قطفت إحداها وأكلتها. بعد أن وجدتها لذيذة المذاق، أوشكت على قطف أخرى، عندما أجفلني صياح أطفال مفاجئ، يختلط بضحك رائق وعذب كموسيقى ينبوع صغير.

"إنه يحبُّ تفّاحنا! إنه يحبُّ تفّاحنا! إنه عملاق طيب! إنه عملاق طيب!" هتفت الأصوات الصغيرة الكثيرة.

"إنه عملاق!" اعترض أحدها.

"إنه كبير بعض الشيء فحسب"، أكّدَ آخر، "لكن الصِّغَر ليس كل شيء! لن يمنعك من أن تكبر وتصبح غبيًا ما لم تأخذ حذَرك!".

نهضتُ على مرفقي وحدّقتُ فيهم. فوقي ومن حولي وتحتي كان يقف حشدٌ من الأطفال، من جميع الأعمار على ما يبدو، بعضهم بالكاد يستطيع الركض بمفرده، وبعضهم في عمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. أربعة أو ثلاثة منهم يبدون أكبر. وقف هؤلاء في مجموعة صغيرة، متباعدة قليلًا، وأقل استثارةً من البقية. الكثيرون كانوا يثرثرون في مجموعات، يخبطون ويتجادلون، كحشد من الكبار

في مدينة، لكن فقط بمرح أكبر، وطريقة أفضل، والمزيد من الحسّ المشترك.

استنتجت أنهم أدركوا، عبر اقتراب يدي من ثمرة التفاح الثانية، أنني أحببتُ الثمرة الأولى؛ لكنني لم أتبيّن لماذا يتجادلون بسبب ذلك بشأني كثيرًا، ولا لماذا أشار عليهم واحد منهم على الأقل بالحذر. لم أتفوّه بكلمة؛ ذلك أنني كنت أخشى إفزاعهم، وبالتأكيد سأعرف المزيد عبر الإنصات وليس طرح الأسئلة. إلى ذلك، فقد فهمتُ كل ما قالوه تقريبًا، وهو ما لم يدهشني؛ فالفهم لا يثير تعجُّبًا أكثر ممَّا يثيره الحبّ.

ثم صدرت حركة وانفضاض طفيف بينهم، وناولني أحدهم، ذو مظهر بريء وحَسن، وخبيث على نحو بديع، تفاحة خضراء ضخمة. هبطَ الصمت على العصبة الصاخبة؛ كان الجميع ينتظر بترقُّب.

"كُلْ، أيُّها العملاق الطيِّب"، قال لي.

اعتدلت في جلستي، تناولتُ التفاحة، وابتسمت شاكرًا؛ وكنت على وشك أكلها؛ لكن قبل أن أضعها على فمي، طوّحتها بعيدًا.

ارتفعَت مجدّدًا صيحة ابتهاج؛ ألقوا بأنفسهم عليَّ واحدًا بعد آخر حتى أوشكوا على خنقي؛ قبَّلوا وجهي ويديَّ؛ تشبّثوا بساقيَّ؛ تسلّقوا ذراعيَّ وكتفيَّ، محتضنين رأسي وعنقي. سقطتُ على الأرض في النهاية، مغلوبًا أمام العفاريت الصغيرة البديعة.

"عملاق طيِّب، طيب!" هتفوا جميعًا. "كنَّا نعرف أنك ستأتي! أوه يا عزيزنا، عملاقٌ طيب، قويٌّ!".

انفجرت ثرثرة أحاديثهم من جديد، وارتفعت الصيحة المبتهجة مرارًا وتكرارًا من مئات الحلوق الصغيرة النقيَّة.

ومجددًا حلَّ صمتٌ مباغت. مَن كان يقف حولي تراجع مبتعدًا؛ والصاعدين فوقي هبطوا وشرعوا في محاولة إيقافي على قدميَّ. على وجوههم العذبة، حلَّ القلق محل الابتهاج.

"انهض، أيُّها العملاق الطيب!" قالت فتاة صغيرة. "أسرع! أسرع كثيرًا! لقد "رآك" تُطوِّح بتفاحته بعيدًا!".

قبل أن تنهي حديثها، كنتُ نهضت واقفًا، بينما وقفت هي مشيرةً إلى المنحدر. عليه كان يقف رجل، ذو مظهر مُشعث، أخرق، أطول منِّي ببضعة إنشات. بدا عدائيًا، لكنني لم أرَ سببًا للخوف منه؛ ذلك أنه لم يكن يحمل أيَّ أسلحة، وأصدقائي الصغار كانوا اختفوا جميعًا.

شرعَ في النزول، بينما صعدتُ أنا، على أمل إيجاد موضع قدم أفضل. زمجر كالبهيمة عندما استدار ناحيتي.

بعد أن وصلتُ إلى بقعة أكثر استواءً، وقفت وانتظرته. مع اقترابه، مدَّ يده. كنتُ على وشك مصافحتها على نحو وديٍّ، لكنه سحبها، وأوشك

على الانحناء، لكنه تراجع مُجدّدًا. ثم أدركت أنه يطالب بالتفاحة التي طوّحتها بعيدًا، وعليه تجهَّمتُ بنفور، وأبديتُ إيماءة رفض.

أجابني بعواء غاضب وبدا أنه يقول، "هل تجرؤ على القول إن تفاحتي لا تصلح للأكل؟".

"تفاحة فاسدة قد تنمو على أكثر الأشجار صلاحًا"، قلتُ له.

لم أتبيَّن إن كان أدرك ما أقصده أم لا، لكنه خطا مقتربًا، ووقفت أنا مُحترسًا. رغم ذلك، أجَّلَ هجومه حتى اقترب عملاقٌ آخر يشبهه كثيرًا، كان يتسلل من ورائي، وعندما اندفع ناحيتي. أجبته بضربة قوية في الوجه، ثم ضربني الآخر على مؤخّرة رأسي، وبينهما سرعان ما انهزمت.

سحباني إلى الغابة أعلى الوادي، حيث تعيش قبيلتهما، في أكواخ بائسة، مُشيَّدة من فروع أشجار ساقطة وبضعة أحجار. إلى أحدها دفعاني، وهناك ألقياني على الأرض، وشرعا في ركلي بأقدامهما. كانت هناك امرأة، شاهدت كل هذا بلا مبالاة.

يجدر بي أن أذكر هنا أنني نجحت بالكاد خلال أسري في التمييز بين النساء والرجال، كانت الفروق بينهما ضئيلة جدًا. كثيرًا ما سألت نفسي إن كنت صادفتُ شعبًا يشبه الفطر ربما، بعقل يكفي فحسب لمنحهم الحركة وتعبيرات الغضب والجشع. بالنسبة لي، كان طعامهم، الذي يتكوَّن من الدَّرنات

والبصيلات والفواكه، مثيرًا للاشمئزاز بما لا يوصف، لكن شيئًا لم يكن يثير حفيظتهم قَدرَ إبدائي النفور منه. كانت النساء يُكبِّلنني بينما يركلني الرجال دومًا لأنني أرفض ازدراده.

استلقيت على الأرض تلك الليلة قادرًا بالكاد على التحرُّك، لكنني نمتُ جيدًا، واستيقظت منتعشًا قليلًا. في الصباح جرُّوني إلى الوادي، وربطوا أقدامي بحبل طويل إلى شجرة، ثم وضعوا حجرًا منبسطًا بحواف مثلَّمة في يدي اليسرى. نقلته إلى يدي اليمنى، فركلوني ووضعوه ثانيةً في اليسرى؛ أفهموني أن عليَّ أن أقشِّر لحاء كل فرع لا يحمل فواكه؛ ركلوني مجدَّدًا، وغادروني.

شرعتُ في العمل العجيب على أمل أن أرضيهم حتَّى يتركوني وشأني؛ منتبهًا جيدًا لما حولي حتَّى أختار الوقت المناسب للهروب. لحسن الحظ، كانت واحدة من الأشجار القزمة تنمو بالقرب، وبين كل دقيقة وأخرى كنت أقطف ثمرة صغيرة، وآكلها، وهو ما منحني طاقةً وانتعاشًا بديعَين.

(13)

المخلوقات الصغيرة

لم أكد أستغرق في العمل للحظات، حتى تناهت إلى سمعي أصوات هامسة، ثم ظهر الأطفال، المخلوقات الصغيرة، كما اكتشفت لاحقًا أنهم يسمُّون أنفسهم، مُتسلِّلين من بين الأشجار الضئيلة التي كانت، كالأجَمَات، تملأ المسافات بين الأشجار الكبيرة. في غضون دقيقة كان هناك العشرات والعشرات من حولي. أبديت إيماءات أن العمالقة قد غادروني لتوِّهم، وأنهم ليسوا بعيدين؛ لكنهم ضحكوا، وأخبروني أن الرياح في غاية الصفاء.

"إنهم لا يروننا البتَّة"، قالوا وضحكوا كحشدٍ من أجراس الأغنام.

"هل يعجبك هذا الحبل حول كاحِلَيك؟" سألني أحدهم.

"أريدهم أن يظنُّوا أنني لا أستطيع انتزاعه"، أجبته.

"إنهم بالكاد يمكنهم رؤية أقدامهم!" كان ردَّه. "امشِ بخطوات قصيرة وسيظنون أن الحبل على ما يرام".

بينما يتحدث، كان يرقص بابتهاج.

واحدة من الفتيات الأكبر حجمًا ركَعَت على

ركبتيها لفك العُقدة الخرقاء. ابتسمتُ، معتقدًا أن هذه الأصابع الجميلة لا يمكنها فعل شيء في الحبل، لكن في لحظة كان محلولًا.

ثم جعلوني أجلس أرضًا، وأطعموني بعض الفواكه الصغيرة اللذيذة؛ بعدها شرعَ أصغرهم في اللعب معي بشقاوة كبيرة، بالتالي كان من المستحيل عليّ استئناف عملي. عندما يصيب أوّلهم الإرهاق، يأخذ آخر مكانه، واستمرّ الأمر بهذا الشكل حتى غربت الشمس، ثم سمعنا صوت خطوات ثقيلة تقترب. جفلَ الأناس الصغار وابتعدوا عنّي، وأسرعوا لوضع الحبل حول كاحلَيّ.

"يجب أن نأخذ حذرنا"، قالت الفتاة التي كانت حرَّرَتني؛ "دهسةٌ واحدة من أقدامهم القصيرة والممتلئة قد تقتل واحدًا من المخلوقات الصغيرة جدًّا!".

"ألا يستطيعون رؤيتكم على الإطلاق؟".

"قد يرون شيئًا يتحرك؛ وإذا كان الأطفال في كومة فوقك، كما كانوا منذ لحظات، سيكون الأمر مريعًا؛ ذلك أنهم يمقتون كل شيء حيّ سواهم. ليس أنهم أحياء جدًّا رغم ذلك!".

صفَّرَتْ كطائر. في اللحظة التالية لم يعد من الممكن سماع أو رؤية أيٍّ منهم، حتى الفتاة نفسها كانت اختفت.

كان سيدي، كما يعتبر نفسه بلا شك، هو مَن جاء

لأخذي إلى البيت. حرر كاحلَيّ، ثم جرّني إلى باب كوخه؛ هناك طرحني أرضًا، وربط قدمَيّ مجددًا، ومنحني ركلة، ثم غادرني.

قد أستطيع الآن تنفيذ خطة هروبي على الفور؛ لكن أخيرًا أصبح لي أصدقاء، ولم أستطع التفكير في الرحيل عنهم. كانوا ساحِرين للغاية، ممتلئين بطُرُق المرح، لحدّ أنه لا بُدّ أن أراهم ثانيةً! عليّ أن أعرفهم أفضل! "غدًا"، قلت لنفسي بابتهاج، "سأراهم مُجدّدًا!" لكن من اللحظة التي انتشر فيها الصمت في الكوخ حتّى استغرقت في النوم، كنت أسمعهم يهمسون جمعيًا من حولي، وأدركت أنني موضع مراقبة مُحِبّة من قِبَل الحشد. بعد ذلك، أعتقد أنهم بالكاد تركوني وحيدًا.

لم أتمكّن من معرفة العمالقة على الإطلاق، وأظن أنه بالكاد يوجد شيء لمعرفته حيالهم. لم يصبحوا ودودين أبدًا بأي شكل، لكنهم كانوا في غاية الغباء على أن يخترعوا وسائل تعذيب حقيقية. كثيرًا ما نجحث في تجنُّب الركلات عبر الإمساك بالقدم وإسقاط صاحبها، وحينها لا يكرر المحاولة أبدًا.

لكن الأناس الصغار كانوا دومًا يفعلون ويقولون أشياء تثير بهجتي أغلب الوقت. في كل يوم يزداد نفوري من تركهم. فيما أنغمس في العمل، كانوا يجيئون ويروحون، يمنحونني البهجة والتسلية، وينزعون كل البؤس، ومعظم التعب، من عملي الشاقّ الرتيب. سرعان ما وقعتُ في غرامهم. لم

يكونوا يعرفون الكثير، لكنهم كانوا حكماء جدًا، وقادرين فيما يبدو على تعلُّم أيِّ شيء. لم يكن لديَّ فِراش باستثناء الأرض الجرداء، وكل مرّة أستيقظ فيها تقريبًا، كنت أجد عشًا من الأطفال- واحد أو اثنين منهم في ذراعي، رغم أنني لا أستطيع تمييزهم إلَّا بعد طلوع النهار؛ ذلك أنهم وضعوا نظامًا محكمًا لدور كل منهم. عندما يتسلَّل أحدهم إلى صدري، أضمُّه بلا وعي عليَّ، ويستلقي البقيَّة قريبين من حولي، بأصغرهم مقتربين أكثر. يجدر بي أن أقول أنني لم أتعذَّب كثيرًا من برد الليل! كان أول ما يفعلونه في الصباح، وآخر ما يفعلونه قبل الغروب، هو جلب كثيرًا من الطعام للعملاق الطيِّب.

ذات صباحٍ تفاجأتُ عند استيقاظي عندما اكتشفت أنني بمفردي. مع استفاقتي بالكامل، رغم ذلك، تناهت إلى سمعي أصوات خافتة تقترب، ثم ظهرت تلك الفتاة، الأطول والأكثر وقارًا من بينهم والتي يعتبرونها أمًّا لهم جميعهم، من الغابة، يتبعها الحشد في مظاهرة فَرِحة، لكن صامتة خشية أن يثيروا العملاق النائم الذي يستلقي عند بابه. كانت تحمل طفلًا رضيعًا في ذراعيها: حتى الآن، كانت طفلة رضيعة، في عمر عام تقريبًا، هي الأصغر من بينهم. ثلاثٌ من الفتيات الأكبر كُنَّ يعتنين بها، لكنهن يشاركن كَنزَهُنَّ مع البقية. لم تكن المخلوقات الصغيرة تعرف ما هي الدُمَى؛ الأكبر من بينهم لديهم الأصغر منهم، والأصغر لديهم الأصغر منهم، ليعتنوا

ويلعبوا بهم.

خطت لونا إليّ ووضعت الطفل بين ذراعيّ. فتح الرضيع عينيه ونظرَ إليّ، ثم أغلقهما ثانيةً، واستغرق في النوم.

"وقع في حبك على الفورا" قالت الفتاة.

"أين وجدتِه؟" سألتها.

"في الغابة بالطبع"، أجابتني، وعيناها تتألّقان بالبهجة، "حيث نجدهم دائمًا. أليسَ غايةً في الجمال؟ بحثنا عنه طوال الليل. أحيانًا لا يكون من السهل العثور عليهم!".

"كيف تعرفون أنه يوجد واحد للبحث عنه؟" سألتها.

"لا أعرف بالضبط"، أجابتني. "أحدنا يهرع لإخبار الآخر، لكننا لا نعرف أبدًا مَن أول من ينقل الخبر. أحيانًا ما أظنُّ أن أحدنا ينقل الخبر وهو نائم، ويسمعه آخر وهو نصف مستيقظ. عندما يكون هناك رضيع في الغابة، لا يتوقف أحدنا لطرح الأسئلة، وعندما نجده، يصبح السؤال بلا معنى".

"أيُهم يأتي إلى الغابة أكثر، الرُّضَّع الذكور أم الإناث؟".

"إنهم لا يأتون إلى الغابة؛ بل نذهب نحن إلى الغابة ونجدهم".

"هل يوجد الآن رُضَّعٌ ذكور أم إناث أكثر؟".

لاحظتُ أن طرح نفس السؤال مرتين عليهم، جعلهم يعقدون حواجبهم.

"لا أعرف"، أجابتني.

"يمكنكم عدُّهم بالتأكيد!".

"لا نفعل ذلك أبدًا. لا نحبُّ أن يَعُدَّنا أحد".

"لماذا؟".

"لن يكون مريحًا. لا نحبُّ أن نَعرف".

"من أين يأتي الرُّضَّع في الأصل؟".

"من الغابة... دائمًا. لا يوجد مكان آخر يمكنهم المجيء منه".

كانت تعلم من أين يأتون في النهاية، وتعتَقِدُ أن شيئًا بخلاف ذلك لا يمكن أن يُعرف عن ظهورهم الأول.

"هل تجدون كثيرًا منهم؟".

"تلك الأشياء السعيدة تنال كل ما لدينا من بهجة، لكننا ننسى آخر مرة نجد فيها رضيعًا. أنت مبتهج جدًّا بأن تحمله بين ذراعيك، أليس كذلك أيُّها العملاق الطيب؟".

"نعم، أنا مبتهج حقًّا" أجبتها. "لكن كيف تطعمونه؟".

"سأريك"، أجابتني، وخطت مبتعدةً، لترجع على

الفور باثنتين أو ثلاث من ثمار البرقوق الناضجة الصغيرة. وضعت واحدة على شفتي الرضيع.

"سيفتح فمه إذا كان مستيقظًا"، قالت، ثم أخذته بين ذراعيها.

عصَرَت قَطرةً على الأرض، ثم أمسكت بثمرة الفاكهة مُجدَّدًا على شَفَتي الرضيع.

دون أن يستيقظ، بدأ في مصّ الثمرة، واستمرَّت هي في العصر ببطء حتّى لم يتبقَّ سوى جلد وحَجَر.

"نعم!" هتفَت، بنبرة انتصار رقيقة. "عالَم التُفّاحات الكبيرة لا ينفع الرُضَّع في شيء! لن نضع أقدامنا فيه، أليس كذلك يا عزيزي؟ سنتركه للعمالقة الأشرار!".

"لكن ماذا لو سقط الحَجَر في فم الرضيع بينما تطعمينه؟" قلت لها.

"لا يمكن لأمّ أن تفعل ذلك"، أجابتني. "حينها لن أستحقَّ أن أحمل رضيعًا!".

قلت لنفسي يا لها من امرأة رائعة ستكونها عندما تكبر. لكن إلى ماذا يصيرون عندما يكبرون؟ إلى أين يرحلون؟ أحالني هذا إلى نفس السؤال مُجدَّدًا... من أين جاؤوا في الأصل؟

"هلّا أخبرتني أين كنتِ تعيشين من قبل؟" قلت لها.

"هنا"، أجابتني.

"ألم تعيشي أبدًا في أيّ مكان آخر؟" غامَرتُ بالقول.

"أبدًا. جئنا جميعًا من الغابة. يعتقد البعض أننا سقطنا من الأشجار".

"لماذا الكثير منكم صغار جدًا هكذا؟".

"لا أفهم. بعضنا أصغر وبعضنا أكبر. أنا كبيرة جدًا".

"الرضيع سيكبر ويزداد حجمًا، أليس كذلك؟".

"بالطبع سيكبر!".

"وهل ستكبرين أنتِ؟".

"لا أعتقد ذلك. آمل أن لا يحدث. أنا أكبرهم. يفزعني ذلك أحيانًا".

"لماذا يفزعك ذلك؟".

لم تمنحني إجابة.

"كم عمرك؟" تابَعتُ أسئلتي.

"لا أعرف ماذا تعني، جميعنا نوجد فحسب".

"إلى متى سيظل الرضيع يَكبر؟".

"لا أعرف. البعض"، أضافت، بانزعاج في صوتها، "يستمر في النمو بعد أن نظنّ أنه توقّف عن النموّ. هذا شيء مرعب. لا نتحدث عنه!".

"ما الذي يجعله مُرعِبًا؟".

صمتت لوهلة، ثم أجابتني:

"نخشى أنهم قد يكونون في طريقهم ليصبحوا عمالقة".

"لماذا يخيفكم هذا؟".

"لأن هذا فظيع جدًا. لا أريد التحدEث عن ذلك!".

ضمّت الرضيع على صدرها بنظرة مهمومة في عينيها لحدّ أنني لم أجرؤ على طرح أيّ سؤال آخر عليها.

سرعان ما بدأت في ملاحظة بعض آثار الجشع والأنانية في اثنين أو ثلاثة من الأطفال الأصغر، وأدركت أن الفتيات الأكبر يلقين عليهم بنظرات توجُّس ليست نادرة.

لم يضع أيٌّ منهم يدًا في عملي: لم يكونوا ليفعلوا شيئًا من أجل العمالقة. لكنهم أبدًا لم يتراخوا في خدماتهم المُحِبّة تجاهي. كانوا يغنُّون، واحدٌ بعد آخر لساعات؛ يتسلّقون الشجرة للوصول إلى فمي وفرقعة ثمرة فاكهة فيه بأصابعهم الضئيلة الأنيقة؛ يداومون على المراقبة خشية اقتراب واحد من العمالقة.

أحيانًا ما كانوا يجلسون ويحكون لي قصصًا-طفولية جدًا في أغلبها، ونادرًا ما تعني أي شيء. من حين لآخر كانوا يدعون لتجمُّعٍ عامٍّ لتسليتي.

في إحدى هذه المرّة غنّى لي طفل صغير سوداوي المزاج أغنية ترنُّميّة عجيبة، بلازمةٍ في غاية الشّجى لحدّ أنها، رغم استغلاقها عليّ، أجرَت الدموع في عينيّ. دفعَت هذه الظاهرة مَن حولي لأن ينظروا إليّ بارتباكٍ كبير. ثم خطرَ على بالي لأول مرّة أنني أبدًا لم أرَ ماءً في هذا العالَم، سواءً كان ساقطًا أو راكدًا أو جاريًا. وفرةٌ منه كانت موجودة في زمن بائد بعيد -كان هذا واضحًا- لكن المخلوقات الصغيرة لم تكن رأت أيّ ماءٍ في حياتها قبل أن ترى دموعي! لكن كانت لديها فيما يبدو فكرة غريزيّة غامضة عن مَنشَئِها؛ ذلك أن طفل صغير للغاية خطا إلى المُغنّي، وهزّ قبضته المضمومة في وجهه، وقال شيئًا من قبيل: "لقد عصرت العصير من فراولة العملاق الطّيّب! أيُّها العملاق الشريرا!".

"لماذا"، سألت لونا ذات يوم، بينما تجلس بالرضيع بين ذراعيها مستندةً على شجرتي، "لم أرَ أبدًا أيّ أطفال بين العمالقة؟".

حدّقت قليلًا، كما لو كان للبحث بلا جدوى عن معنى في سؤالي، ثم أجابتني:

"إنهم عمالقة؛ لا يوجد بينهم صغار".

"هل رأوا أيّ أطفال قطّ؟".

"لا؛ لا يوجد أي أطفال لهم في الغابة. لا يحبّونهم. إذا رأوا أطفالنا، سيدهسونهم".

"هل يوجد نفس العدد من العمالقة دائمًا إذن؟

اعتقدتُ، قبل أن أتبيّن الأمر بشكل أفضل، أنهم آباؤكم وأمّهاتكم".

انفجَرَت في أبهج ضحكة مُمكِنة، ثم قالت:

"لا؛ أيُّها العملاق الطيب؛ نحن سابقون عليهم".

لكن فيما تقول ذلك، تلاشت البهجة منها، وبدت مرعوبةً.

توقّفتُ عن العمل، وتفرّستُ فيها مذهولًا.

"كيف ذلك؟" هتفت.

"لا أعرف؛ لا أفهم"، أجابتني. "لكننا كنّا هنا ولم يكونوا هم. جاءوا مِنّا. أنا آسفة، لم يمكننا منع ذلك. لكن كان بإمكانهم منعه".

"منذ متى وأنتم هنا؟" سألتها، متحيّرًا أكثر وأكثر- على أمل إيجاد بصيص من الضوء في المسألة.

"دائمًا، أعتقد"، أجابتني. "أعتقد أن شخصًا ما جعلنا "دائمًا"".

استدرتُ إلى تقشيري.

أدرَكت أنني لم أفهم.

"لم يُجعل العمالقة "دائمًا""، تابَعت حديثها. "إذا لم تنتبه المخلوقات الصغيرة، ستُصبح جَشِعَة، ثم كسولة، ثم كبيرة، ثم غبيّة، وأخيرًا شريرة. تلك المخلوقات البليدة لا تدرك أنها جاءت مِنّا. قليل منهم جدًا يؤمنون أننا موجودون أصلًا. ينطقون

هراء! انظر إلى بلانتي الصغير: إنه يأكل واحدة من تفّاحاتهم! سيكون التالي! أوه! أوه! قريبًا سيصبح كبيرًا وشريرًا وقبيحًا، ولن يدرك ذلك!".

كان الطفل يقف بمفرده على بُعد خطوات، يلتهم تفّاحة بحجم رأسه تقريبًا. كثيرًا ما قلت لنفسي إنه لا يبدو خيّرًا كالبقيّة؛ والآن يبدو مثيرًا للاشمئزاز.

"سأنتزع الشيء البشع ذلك منه!" هتفتُ.

"لا فائدة من ذلك"، أجابتني بحزن. "جميعنا قد فعلنا ما بوسعنا، كما آن الأوان قد فات! كنّا خائفين أن يكبر، ذلك أنه لم يصدّق أيّ شيء يُقال له؛ لكن عندما رفض ذات مرة مشاركة ثمار الكرز، وقال إنه جمعها لنفسه، حينها أدركنا كل شيء! إنه شَرِه، ولا يوجد أمل منه. يصيبني الغثيان عندما أراه يأكل!".

"ألا يمكن لبعض الفتيان أن يراقبوه، ويمنعوه من ملامسة الأشياء السّامّة؟".

"سينالها إذا شاء: الأمر سيّان: أن تأكل التفاح، وأن تكون صبيًا يرغب في أكلها إذا استطاع. لا؛ عليه أن يذهب إلى العمالقة! إنه ينتمي إليهم. يمكنك رؤية كم زاد حجمه عمّا رأيته أول مرّة! إنه أكبر ممّا كان في الأمس".

"وكأنه تحوّلَ ليصبح كتلك الكتلة الخضراء البشعة في يده!".

"يلائمه ما يصنع بنفسه".

"قد تحلُّ مكان رأسه!".

"ربما تفعل!".

"هل يريد أن يكون عملاقًا؟".

"إنَّه يبغض العمالقة، لكنه يجعل من نفسه أحدهم مع ذلك: يحبُّ تفّاحاتهم! أوه، يا وليدي، يا وليدي، كان بنفس روعتك عندما وجدناه!".

"سيكون بائسًا جدًّا عندما يكتشف أنه عملاق!".

"أوه، لا؛ سيتقبَّل الوضع جيدًا! هذا أسوأ ما في الأمر".

"هل سيبغض حينها المخلوقات الصغيرة؟".

"سيكون كالبقيَّة؛ لن يتذكَّرنا- الأغلب أنه لن يصدِّق أنه توجد مخلوقات صغيرة. لن يلقي بالًا؛ سينشغل بأكل تفّاحاته".

"هلَّا أخبرتِني أكثر عن كل هذا. لا أفهم عالَمكم البتَّة! جئتُ من عالَمٍ كل شيء فيه مختلف عن هنا".

"لا أعرف ماذا يعني "عالَم". ما هو؟ ماذا يكون بخلاف كلمة تخرج فمك الكبير الجميل هذا فحسب يثير فضولي!".

"لا تُلقي بالًا للكلمة؛ أخبريني ماذا سيحدث بعد ذلك لبلانتي".

"سيستيقظ ذات صباح ويجد نفسه عملاقًا- ليس مثلك: عملاقًا طيِّبًا، لكن كأيِّ عملاق شرير آخر.

بالكاد ستتعرّف عليه حينها، لكنني سأخبرك مَن هو. سيظنُّ أنه كان عملاقًا دائمًا، ولن يتعرّف عليك، أو على أيٍّ منّا. خسرَ العمالقة أنفسهم، يقول بيوني؛ ولهذا لا يبتسمون أبدًا. أتساءل، هل هم تعساء لأنهم أشرار، أم أشرار لأنهم تعساء. لكنهم لا يمكن أن يكونوا سعداء وليس لديهم رُضّع! أتساءل ماذا يعني "شرير"، أيُّها العملاق الطيب!".

"أخشى أنني لا أعرف أكثر ممّا تعرفين!" أجبتُها. "لكنني أحاول أن أكون صالحًا، وأنتوي الاستمرار في المحاولة".

"وكذلك أنا... ولهذا أعرف أنك طيِّب".

أعقبَ ذلك صمتٌ طويل.

"إذن فلا تعرفين من أين يأتي الرُّضّع إلى الغابة؟" قلت لها، في محاولة أخيرًا.

"لا يوجد شيء لمعرفته"، أجابتني. "إنهم في الغابة؛ ينمون فيها".

"إذن لماذا لا تجدون أبدًا رضيعًا قبل أن ينمو؟" سألتُها.

عقَدَت حاجبيها وصمتت لوهلة.

"لا يكونوا هناك حتى يكتمل نموُّهم"، قالت.

"من المؤسف أن البليدين الصِّغار لا يمكنهم التحدُّث إلّا بعد أن ينسوا كل شيء يمكنهم حكيه!" قلت معقِّبًا.

"تولما الصغيرة، الرضيعة قبل هذا الرضيع، بَدَت كما لو أن لديها شيئًا تقوله، عندما وجدناها تحت شجرة زان، تمصُّ إبهامها، لكنها لم تتحدَّث. لم تفعل سوى أن رفعت نظرها إليَّ- أوه، في غاية العذوبة! أبدًا لن تتحوَّل إلى شريرة وتصبح كبيرة! عندما يبدؤون في التضخُّم لا يهتمون بشيء سوى التضخم؛ وعندما لا يُعدُّ من الممكن أن يكبروا أكثر من ذلك، يحاولون تسمين أنفسهم. العمالقة الأشرار فخورون جدًا بكونهم بُدناء".

"وهم كذلك في عالَمي"، قلت لها؛ "لكنهم لا يقولون "بدين" هناك، بل "ثري"".

"في واحد من منازلهم"، تابَعَت لونا، "يجلس أكبرهم وأسمنهم- فخورًا للغاية أن لا أحد يمكنه رؤيته، يذهب العمالقة إلى منزله في أوقات محدَّدة، ينادون عليه، ويخبرونه كم هو سمين، ويتوسَّلون إليه أن يجعلهم أقوياء بما يكفي حتى يتضخَّموا ويصبحوا سمينين مثله".

في النهاية وصلت الإشاعات إلى سمعي أن بلانتي قد اختفى. رأيتُ بضعة وجوه حزينة بين المخلوقات الأكبر حجمًا، لكن لم يبدُ أنه سيُفتقد كثيرًا.

في الصباح التالي جاءت لونا إليَّ وهمَسَت:

"انظر! انظر هناك- بجوار شجرة السفرجل تلك: ذلك العملاق هو بلانتي! هل كنت لتتعرَّف عليه؟".

"على الإطلاق"، أجبتُها، "لكن أخبريني، بمقدوري تخيّل أن بلانتي يحدّق عبر ضباب! يبدو غبيًا حقًّا!".

"إنه يأكل تلك التفّاحات دائمًا الآن!" قالت. "هذا مصير المخلوقات الصغيرة التي لا تريد أن تكون صغيرة!".

"يُسمّونه "تَرَعزُعًا" في عالمي!" قلت لنفسي. "فقط لو تُريني كيف أنمو في الاتجاه الآخر، حتّى أصبح مخلوقًا صغيرًا! لكن هل أستطيع يومًا أن أضحك مثلهم؟".

كانت الفرصة توفَّرَت لي، وطوَّحتُها بعيدًا! بلانتي وأنا متشابهان! لا يدرك مقدار خسارته، وكان لا بُدَّ من تبصيري بخسارتي!

(14)

مِحنَة

في بداية الأمر، لم تكن لديّ رغبة في قضاء حياتي مع المخلوقات الصغيرة. لكن سرعان ما بدأت أفكارٌ ومشاعِرُ أخرى في التأثير عليّ. أولًا، استيقظ ذلك الحسُ الغامض بأنه ينبغي أن أفعل شيئًا ما؛ أنني لم أُخلَق لتسمين الأجلاف! ثم واتتني تلك الحقيقة أنني في عالَمٍ رائع، كان لي بالتأكيد أن أستكشف طرائقه وقوانينه؛ وأن عليّ، إذا كان لي أن أفعل شيئًا كردِّ جَميلٍ للأطفال، أن أعرف عنهم أكثر ممَّا يخبرونني به، ولهذه الغاية يجب أن أكون حرًّا. وبالتأكيد، قلت لنفسي، فإن إيقاف نموِّهم ليس ضروريًا البتَّة لكل ذلك الجمال والحقيقة والنقاء داخلهم! وفي أيّ عالَم كان، لا يمكن أن يوجد تعارض هائل بين التكوين الجسماني ونتيجته الطبيعية! لا يمكن للحياة والقانون أن يختَلِفَا بهذا الشكل لحدّ استحالة تحقُّق الكمال سوى عبر النمو المُعطَّل! لكن نمو المخلوقات الصغيرة تعرَّض للإيقاف حقًّا! شيئًا ما تداخل معه: ماذا كان ذلك الشيء؟ تبدو لُونَا أكبرهم، لكنها مظهرها لا يزيد عن الخامسة عشرة، ولزمن طويل كانت مسؤولةً عن الحشد، على شاكلة، وغالبًا بأسلوب أصغر الأطفال، الذين يعتبرونها أمًّا لهم! هل كان ينمون ذات يوم على الإطلاق؟ أشكّ في ذلك. عن الزمن، لم تكن لديهم

أيّ فكرة تقريبًا؛ عن أعمارهم، لا يعرفون شيئًا! لونا نفسها تعتقد أنها تعيش منذ الأبد! ممتلئة بالحكمة وخليّة من المعرفة،كانت حبّهم وقانونَهم في آنٍ! لكن ما يبدو لي أنه جهلها قد يكون في الحقيقة افتقاري للبصيرة! كان شغفها الوحيد البسيط، أن لا تنمو المخلوقات الصغيرة أبدًا وتتحول إلى عمالقة أشرار! "عملاقهم الطيّب" كان ملتزمًا بأن يفعل ما في وسعه من أجلهم: لكن دون أيّ معرفة بطبيعتهم، وببعض المعرفة عن تاريخهم، لن يستطيع فعل شيء، وبالتالي ينبغي له أن يرحل عنهم! ليس لهم أن يكونوا إلّا ما كانوه من قبل؛ أبدًا لم يصبحوا معتمدين عليّ؛ كانوا ما يزالون حُمَاتي، لم أكن حاميهم؛ لم يجلب وجودي عليهم سوى مزيدًا من خطر جيرانهم الحمقى! كنتُ توّاقًا لتعليمهم أشياء كثيرة: عليّ أولًا أن أفهم المزيد عن هؤلاء الذين أودّ تعليمهم! المعرفة بلا شكّ تجعل الأشرار أكثر شرًّا، لكنها حتمًا تجعل الصالحين أكثر صلاحًا. كنت على قناعة أنهم قادرون على تعلُّم الرياضيات؛ ولماذا لا يتعلّمون أيضًا تدوين الألحان اللطيفة التي يدندنون بها ثم ينسونها؟

خلصتُ من كل ذلك أنه يتوجّب عليّ النهوض ومتابعة أسفاري، على أمل مصادفة تفسيرٍ ما لأقدار ومصائر المخلوقات الصغيرة الساحرة هذه.

لم يكن تصميمي، رغم ذلك، ليتحوّل إلى أفعال سريعًا جدًا، لولا ما حدث.

من أجل تهيئتهم لغيابي المؤقَّت، أخبرتهم بينما أعمل أنني وددتُ لو غادرتُ العمالقة الأشرار منذ زمن طويل، لكنني أحببت المخلوقات الصغيرة كثيرًا، وحينها، كما لو كان باتفاق، هرعوا وتزاحموا من حولي؛ تدافعوا فوق بعضهم البعض، متسلِّقين الشجرة ومتساقطين على رأسين حتى أوشكوا على سحقي. بثلاثة صغار جدًّا بين ذراعيَّ، وواحد على كل كتف يتشبَّث به، وآخر يقف على رأسي مباشرةً، وأربعة أو خمسة يمسكون بساقيَّ بإحكام، والبقيَّة تتشاجر على جذعي وذراعيَّ، وحشدٌ يصعد ويهبط من فوقهم، شعرتُ بعجزٍ كما لو كنت غارقًا في حمم بركانية. مستغرقين في الاقتتال المَرِح، لم يلاحظ أيُّهم مجيءَ طاغيَتي حتَّى أصبح فوقي تقريبًا. بهتاف واحد فحسب: "انتبه، أيُّها العملاق الطيب!" هرعوا مبتعدين عنِّي كالفئران، تساقطوا من عليَّ كالقنافذ، تطايروا من فوقي وصعدوا الشجرة كالسناجب، وفي نفس اللحظة، من حول الشجرة مباشرةً جاء العملاق الشِّرِّير، وناولني ضربة على الرأس بعصا أسقطتني أرضًا. أخبرني الأطفال لاحقًا أنهم أرسلوا عليه "صواعق كثيرة من التفَّاحات والأحجار الكبيرة" لحدِّ أنه ارتعب، وركض متعثِّرًا نحو منزله.

عندما استفقت، كان الليل قد حلَّ. فوقي كانت بعض النجوم الشاحبة التي تنتظر القمر. ظننتُ أنني بمفردي. كانت رأسي تؤلمني بشدَّة، وأشعر بعطش

مريع.

تقلّبتُ مُرهَقًا على جنبي، في اللحظة التي لامست فيها أذني الأرض، سمعت انبجاس وقرقرة مياه، وجعلني الضجيج الناعم أتأوّه من الاشتياق. على الفور وجدتُ نفسي بين حشدٍ من الأطفال الصامتين، وبدأت ثمار فاكهة صغيرة ولذيذة في زيارة شَفتيّ. توافَدَت وتوافَدَت حتّى تلاشى عطشي.

ثم أصبحتُ واعيًا بأصوات لم أسمعها من قبل قطُّ؛ كان الهواء غاصًا بأصوات نحيب صغيرة.

حاولتُ الاعتدال في جلستي. على الفور، تراكَمَت على ظهري كومةٌ من الأجساد الصغيرة. ثم جاهدتُ للوقوف على قدميّ، وسط الكثير من الدفع والشدّ من جانب المخلوقات الصغيرة، الذين كانوا أقوياء على نحو غريب بالنظر إلى حجمهم.

"يجب أن تهرب أيُّها العملاق الطّيّب"، قالوا لي. "عندما يرى العمالقة الأشرار أنك تأذّيت، سيدهسونك جميعًا".

"أعتقد أنه يجب أن أرحل"، أجبتهم.

"اذهب، وعندما تصبح قويًا عُد ثانيةً"، قالوا لي.

"سأفعل"، أجبتهم.

" حقًا يجب أن ترحل على الفورا" همَسَت لونا، التي كانت تسندني والآن تركع بجواري.

"أرهفتُ سمعي على بابه"، قال واحد من الصبيان الأكبر حجمًا، "وسمعت العملاق الشرير يقول لزوجته إنه وجدك متبطّلًا، تتحدّث مع كثيرٍ من حيوانات الخُلد والسناجب، وعندما يضربك، يحاولون قتله. قال إنك ساحر، وأنهم يجب أن يتخلّصوا منك، وإلّا لن يعرف السلام".

"سأرحل على الفور"، قلت لهم، "وسأعود فور أن أكتشف ما يجعلكم أكبر وأقوى".

"لا نريد أن نكون أكبر"، أجابوني، بنظرة جادّة للغاية في أعينهم. "لا نريد أن نكبر ونصبح عمالقةً أشرارًا! نحن أقوياء الآن؛ لا تدرك كم نحن أقوياء!".

عبثًا كان منحهم وعدًا بشيء لا يجدون فيه أيّ إغراء! لم أقُل شيئًا آخر، بل نهضت وخطوت ببطء صاعدًا منحدر الوادي. على الفور شكّلوا أنفسهم في مسيرة طويلة؛ بعضهم يقود الطريق، وبعضهم يسير بجواري لمساعدتي، والبقيّة يتبعوننا. داوموا على إطعامي بينما نسير.

"أنت واهن"، قالوا لي، "وقد فقدتَ الكثير من العصير الأحمر؛ تناوَل بعضًا منه".

عندما وصلنا إلى حافة الوادي، هناك كان القمر يرفع جبينه لتوّه على محيط الأفق.

"جاء ليعتني بك، سيريك الطريق"، قالت لونا.

طرحت الأسئلة على هؤلاء المحيطين بي بينما

نسين، وعلمتُ منهم أنه هناك مكان عظيم حيث توجد فتاة عملاقة كملكة. عندما سألتهم إن كان ذلك المكان مدينةً، أجابوني بأنهم لا يعلمون. ولا يستطيعون إخباري كم تَبعُد، أو في أيِّ اتجاه هو، أو ما هو اسم الفتاة العملاقة؛ كل ما كانوا يعرفونه أنها تكره المخلوقات الصغيرة، وتودُّ قَتلَهم، فقط لو تمكَّنت من إيجادهم. سألتهم كيف يعلمون ذلك؛ أجابتني لُونَا أنها دائمًا ما تعلم ذلك. إذا جاءت الفتاة العملاقة للبحث عنهم، فعليهم حينها الاختباء جيدًا، قالت. عندما أخبرتهم أن بمقدوري الذهاب وسؤالها لماذا تكرههم، هتفوا جميعًا:

@ART_OF_BOOK

"لا، لا! ستقتلك، أيُّها العملاق الطيب؛ ستقتلك! إنها ساحرة عملاقة شريرة بغيضة!".

سألتهم إلى أين ينبغي لي التَّوجُّه إذن. أخبروني أنه، وراء غابة الرُّضَّع، بعيدًا حيث يطلع القمر، تمتدُّ أرض خضراء مستوية، مريحة للأقدام، بلا صخور أو أشجار. لكن عندما سألتهم كيف أنطلق نحوها:

"سيخبرك القمر نعتقد"، أجابوني.

كانوا يأخذونني عبر الفرع الثاني من قاع النهر: عندما رأوا أن القمر قد وصل إلى شفته، توقَّفوا من أجل العودة.

"أبدًا لم نبتعد إلى ما وراء أشجارنا"، قالوا لي. "الآن انتبه إلى أين تمضي، حتى ترى داخل عينيك كيف يمكنك العودة إلينا".

"وحذارِ من المرأة العملاقة التي تعيش في الصحراء"، قالت واحدة من الفتيات الأكبر فيما يستديرون، "أظنُّ أنك سمعت بها!".

"لا"، أجبتها.

"إذن فانتبِهْ ولا تقترب منها. تُدعى المرأة- القطّة. إنها دميمة بشناعةٍ... وتُخَرْبِش".

فور أن توقَّف الأطفال الأكبر، شرع الأصغر في الركض عائدين. نظرَ لي الآخرون بوقار لوهلة، ثم خطوا مبتعدين ببطء. بينما رفعت لونا، آخر من تركني، الرضيع إليَّ لتقبيله، وحدَّقت في عينيَّ وهمست، "المرأة- القطّة لن تؤذيك"، ثم مضت مبتعدةً بلا أي كلمة. وقفتُ لبرهة، مُحدِّقًا في إثرهم عبر نور القمر، ثم استدرت، وبقلب مثقل بدأت رحلتي وحيدًا. سرعان ما استولت عليَّ ضحكات المخلوقات الصغيرة، كأجراس أغنام لا نهائية، تتماوج عبر الهواء، ويرتد صداها على الصخور من حولي. استدرتُ مجددًا، ومجدَّدًا حدَّقتُ في إثرهم: انطلقوا في طريقهم واثبين بمرح، بلا أيّ هموم في أرواحهم العذبة. لكن لونا كانت تسير على مبعدةٍ بالرضيع على ذراعيها.

متأمِّلًا بينما أمضي، تذكَّرتُ خصالًا عديدةً في أصدقائي الصغار.

ذات مرة عندما اقترحت عليهم الرحيل عن بلد العمالقة الأشرار والانطلاق معًا لإيجاد بلد آخر،

أجابوني، "لكننا لن نكون أنفسنا!"- عظيمًا جدًا كان حبّهم للمكان، لحدّ أنه بَدَا جوهريًا لكينونتهم ذاتها! بلا طموح أو خوف، أو قلق أو جشع؛ لم يكن لديهم أي دافع للرغبة في أيّ تغيير؛ لم يدركوا افتقادهم لأي شيء؛ وباستثناء الرُّضّع، فأبدًا لم تُتَح لهم الفرصة لمساعدة أيّ إنسان سواي: كيف سيكبرون؟ لكن مُجدّدًا، لماذا ينبغي أن يكبروا؟ في مسعاي لتحسين أحوالهم، ألا يمكن أن أسبّب لهم الأذى، ولا شيء غير الأذى؟ تضخيم عقولهم لتتشرّب أفكار عالَمي- ألن يؤدّي ذلك ربما إلى تشويههم وإضعافهم؟ خوفهم من النمو باعتباره بداية محتملة نحو العملقة قد يكون غريزيًا!

دور المحِبّ للخير هذا خطير حقًا؛ والإنسان الذي يَودّ الإحسان إلى جاره عليه أولًا أن يتأكّد أنه لن يوقع به شرًا، وعليه أن يبدأ عبر إخراج الخشبة من عينيه أولًا((8)).

(15)

مُضَيِّفتي العجيبة

انطلَقتُ في سفري يصحبني القمر. كان مكتملًا كالعادة -أبدًا لم أره غير ذلك- والليلة فيما يغوص هابطًا، تخيَّلتُ أنني لمحتُ شيئًا يشبه الابتسامة على مُحيَّاه.

عندما وصَلَت حافته السُّفلى إلى تحت الأفق قليلًا، ظهرَ في منتصف قرصه، كما لو كان مطليًا عليه، كوخ، عبر بابه المفتوح ونافذته تألَّقَت هي؛ وبهذا المشهد أدركتُ أنها كانت في انتظاري. على الفور تقريبًا اختفى القمر، وتلاشى الكوخ؛ كان الليل يزداد قتامةً بسرعة، ومع وجود طريقي على تَتالٍ مُتقارِبٍ من الوهاد الصغيرة، قرَّرتُ أن أظلَّ حيث أنا وأنتظر الصباح. تمدَّدتُ لذلك في تجويفٍ رَمليّ، وتناوَلتُ عشائي من الفواكه التي كان الأطفال منحوها لي عند افتراقنا، وسرعان ما استغرقتُ في النوم.

أستيقظت بغتةً، ورأيتُ من فوقي كوكبات من النجوم غير معروفة في عالَمي السابق، وكنت مستلقيًا لفترة أحَدِّق فيها، عندما أصبحت واعيًا بشكل بشري يجلس على الأرض على مبعدة قليلة في الأعلى. جفلتُ، كما يحدث للمرء عندما يكتشف فجأة أنه ليس بمفرده. كان الشكل بيني وبين السماء؛ ولذلك رأيتُ هيئته جيدًا. من حيث أستلقي واطئًا في التجويف، بدا لي أكبر من الأشكال

البشرية العادية.

تحرّك رأسه، ثم اكتشفت أنه يوليني ظهره.

"ألن تأتي معي؟" قال صوتٌ غضٌ، عذب، صوت امرأة بالتأكيد.

توّاقًا لأعرف المزيد عن مُضيّفتي.

"أشكرك"، أجبتها، "لكنني لستُ منزعجًا هنا. إلى أين تريدين أخذي؟ أحبُ النوم في الهواء الطّلق".

"لا ضرَرَ في الهواء"، أجابتني؛ "لكن المخلوقات التي تهيم ليلًا في هذه الأنحاء ليست من النوع الذي قد يحب الإنسان ملاقاته في نومه".

"لم يزعجني شيء"، قلت لها.

"لا؛ أجلس بجوارك منذ أول لحظة استلقيتَ فيها".

"هذا لطفٌ منك! كيف تسنّى لك معرفة أنني هنا؟ لماذا تقدّمين لي هذه المعروف؟".

"رأيتك"، أجابتني، ساكنةً ما زالت بظهرها ناحيتي، "في ضوء القمر مع هبوطه بالضبط. لا يمكنني الرؤية بوضوح في النهار، لكن في الليل أرى كل شيء. كان لظلّ منزلي أن يحجبك، لكن كِلَا بابَيه كانا مفتوحين.خرجتُ إلى العراء، ورأيتك تخطو إلى هذه الحفرة. استغرقتَ في النوم مع ذلك، قبل أن أتمكّن من الوصول إليك، ولم أرغب في تعكير نومك. ينزعج الناس عندما أظهر لهم بغتةً. يدعونني المرأة- القطّة. لكن هذا ليس اسمي".

تذكَّرتُ ما قاله الأطفال لي- أنها كانت دميمة جدًا، وتخربش. لكن صوتها كان رقيقًا، بنغمة اعتذاريَّة بعض الشيء: لا يمكن أن تكون عملاقة شريرة!

"لن تسمعيه منّي"، أجبتها، "هلَّا أخبرتِني بماذا أدعوكِ!".

"عندما تعرفني، ادعُني بالاسم الذي ترى أنه يناسبني"، أجابتني: "سأعرف بذلك أيَّ نوعٍ أنت. لا يمنحني الناس الاسم الصحيح غالبًا. سيكون حسنًا لو فعلوا".

"أعتقد، سيدتي، أنكِ تعيشين في الكوخ الذي رأيته في قلب القمر؟".

"نعم. أعيش هناك وحدي، إلَّا لو استقبلت زائرين. إنه مكان بائس، لكنني أفعل ما في وسعي من أجل ضيوفي، وأحيانًا ما يكون نومهم عذبًا هناك".

اقتحمني صوتها، وجعلني أشعر بسكون عجيب.

"سأذهب معك، سيدي"، قلت لها، ناهضًا.

نهَضت في نفس اللحظة، ودون أن تلتفت وراءها البتَّة قادت الطريق. كان بمقدوري رؤية ما يكفي منها لأتبعها. كانت أطول منّي، لكن ليست بالطول الذي كنت توقَّعته. حقيقة أنها أبدًا لم تُدِر وجهها ناحيتي أصابتني بالفضول- وليس التوجُّس على الإطلاق؛ ذلك أن صوتها بدا في غاية الصِّدق. لكن كيف لي أن أنتقي لها اسمًا وأنا لم أرها؟ جاهدتُ

لمحاذاتها، لكنني أخفقتُ: كلّما أسرِع الخُطا، تسرع هي في خطاها، وتسبقني بسهولة. في نهاية المطاف بدأ الخوف في الاستيلاء عليّ قليلًا. لماذا كانت في غاية الحرص هكذا على ألّا تُرى؟ البشاعة الاستثنائية قد تفسّر ذلك: ربما تخشى إفزاعي! رعبٌ من وحشيّة لا يمكن تصوُّرها بدأ في مهاجمتي: هل أتبع عبر الظلام شناعةً لم يُسمع عنها أبدًا؟ كدتُ أندم على قبول ضيافتها.

لم يتحدث أيُنا، وغدا الصمت غيرَ مُحتَمَلٍ. يجب أن أكسره!

"أريد أن أجد طريقي"، قلت لها، "إلى مكان سمعتُ عنه، لكنني لم أعرف اسمه بعد. ربما بمقدورك إخباري به!".

"صِفْه لي، إذن، وسأرشدك إليه. المنتفخون الحمقى لا يفقهون شيئًا، والعُشّاق الصغار الطائشون ينسون كل شيء تقريبًا".

"أين يعيش هؤلاء؟".

"لقد أتيتَ من عندهم لتوِّك!".

"أبدًا لم أسمع بهذه الأسماء من قبل!".

"لم يكن لك لتسمعها. كِلَا الشعبين لا يفقهان اسمَيهما!".

"غريب!".

"ربما الأمر هكذا! لكن بالكاد يعرف أيّ إنسان في

أي مكان اسمه! سيتطلَّب الأمر تحديقات كثيرة من چنتلمان راقٍ حتى يسمع أحدهم يناديه باسمه الحقيقي!".

أمسكت لساني، وبدأت في التساؤل عن ماذا قد يكون اسمي.

"ما اسمك الذي تتخيّله الآن؟" تابَعت، كما لو كانت واعيةً بأفكاري. "لكن، اعذرني، إنها مسألة بلا أهمية".

كنتُ على وشك فتح فمي لإجابتها، لكنني اكتشفتُ أن اسمي قد تلاشى من داخلي. لم أتمكّن حتى من تذَكُّر الحرف الأول منه! كانت هذه هي المرة الثانية التي أسأل فيها عن اسمي وأعجز عن النطق به!

"لا تشغل بالك"، قالت؛ "لا حاجة إلى ذلك. اسمك الحقيقي، في واقع الأمر، مكتوب على جبينك، لكنه الآن يلتفُّ بعشوائية ولا يمكن لأحدٍ قراءته. سأقوم بدوري لتثبيته. سريعًا سيزداد بطئًا، على أمل أن يستقر في نهاية المطاف".

أجفلني هذا، واستغرقتُ في الصمت.

كنّا غادرنا القنوات وسرنا لزمن طويل، لكن لم تظهر أيّ إشارة على وجود الكوخ بعد.

"أخبرتني المخلوقات الصغيرة"، قلتُ أخيرًا، "عن أرض خضراء منبسطة، مريحة للأقدام!".

"نعم؟" أجابتني.

"أخبروني أيضًا عن فتاة عملاقة كانت مَلِكَة في مكان ما؛ هل تلك هي بلادها؟".

"توجد مدينة في تلك الأرض المعشوشبة"، أجابتني، "تحكُمها أميرة. تُدعى المدينة بوليكا. لكن الأميرة ليست فتاة بالتأكيد! إنها أقدم من هذا العالم، وجاءت إليه من عالَمكم- بتاريخ مريع، لم ينتهِ بعد. إنها إنسانة شريرة، وتسودُ بقوة إلى جانب أمير شلطان الهواء. كان شعب بوليكا فيما مضى أناسًا بسطاء، يحرثون الأرض ويرعون الأغنام. حتى ظهَرَت بينهم، وأحسنوا ضيافتها. علَّمَتهم كيف يحفرون بحثًا عن الألماس والعقيق وبيعه إلى الغرباء، وجعلتهم يتخلَّون عن الحرث والرعي من أجل تشييد مدينة. ذات يوم وجدوا أفعى ضخمة وقتلوها؛ ما أثار غضبها لحدّ أنها أعلنت نفسها أميرةً عليهم، وشرَعَت في ترويعهم. كان اسم البلاد حينها "أرض المياه"؛ ذلك أن القنوات الجافَّة، التي عبرَتها مرَّات كثيرة، كانت تفيض بسيولٍ حيَّة؛ والوادي، حيث يعيش المنتفخون والعشَّاق مع أشجار فاكهتهم الآن، كان بحيرةً تتلقى حصَّةً كبيرة من تلك السيول. لكن الأميرة الملعونة جمَّعَت في حِجْرِها ما استطاعت من المياه في أرجاء البلاد، وأغلقت عليها بيضةً، وحملتها بعيدًا. حِجْرها، رغم ذلك، لم يكن يحتمل أكثر من نصفها؛ وفي اللحظة التي رحلت فيها، تسرَّب ما لم تأخذه من ماء هاربًا

إلى باطن الأرض، مُخَلِّفَةً البلاد جافَّةً ومغبَرةً كقلب الأميرة ذاته. ولولا المياه في باطن الأرض، لهلك كل كائن حيٍّ عليها منذ زمن طويل؛ ذلك أنه لا أمطار بلا ماء، ولا ينابيع بلا أمطار. من ذلك الحين والأميرة تعيش في بوليكا، مُبقِيةً أهلها في رعب دائم؛ وفاعلةً ما في وسعها لمنعهم من التكاثُر. مع ذلك فهم متبجِّحون ويؤمنون أنهم يعيشون في رفاهية، شعب مغرور حتمًا- بارعين في المساومة والشراء، بارعين في البيع والغشِّ؛ يتَّحدون معًا من أجل المصالح المشتركة، وعلى استعداد للخيانة فور أن تتعارض المصالح؛ فخورين بأميرتهم وقوَّتها، ويزدرون أيَّ إنسان ينجحون في هزيمته؛ أبدًا لا ينال منهم أيُّ شَكٍّ أنهم أشرف الأمم، وكل رجل منهم يرى نفسه أفضل من أيِّ رجل آخر. لا يمكن للمرء أن يفهم عمق حقارتهم ومجدهم الزائف إلَّا لو لرآهم، لو تعرَّف على تلك المخلوقات البائسة، المقهورة، الموهومة".

"أشكرك، سيدتي. والآن، إذا تفضَّلتِ، هلَّا أخبرتِني بشأن المخلوقات الصغيرة- العُشَّاق؟ أتوق من قلبي لخدمتهم. مَن وما هم؟ وكيف وصلوا إلى هناك؟ هؤلاء الأطفال هم أعظم عجيبة صادفتها في عالم العجائب هذا".

"في بوليكا يمكنك، ربما، الاستنارة بشأن هذه المسائل. توجد قصيدة قديمة في مكتبة القصر، يُقال، لم يقرأها أحد هناك بالطبع، لكن مكتوب فيها

بوضوح أن العشّاق قد خاضوا مصاعب هائلة وأنهم عرفوا اسمهم؛ أنهم سيملؤون الأرض، وسيجعلون من العمالقة عبيدًا لهم".

"لكن حينها سيكونون قد كبروا قليلًا، أليس كذلك؟" قلت لها.

"نعم، سيكونون قد كبروا؛ لكنني أعتقد أنهم لن يكبروا. من الممكن أن تكبر ولا تكبر، أن تتضاءل وتتضخَّم، في نفس الوقت- نعم، بل حتَّى وأن تكبر من خلال ألَّا تكبر".

"كلماتك غريبة، سيدتي!" أجبتها. "لكنني سمعتُ ذات مرة أن بعض الكلمات؛ لأنها تعني الكثير، تبدو وكأنها تعني القليل!".

"هذا حقيقي، وهذه الكلمات تحتاج إلى الفهم. كان من الأفضل لأميرة بوليكا لو سَمِعَت صمت الأرض ذاته يصرخ في أذنيها طوال اليوم! لكنها كانت في غاية الحذق على أن تفهم أيَّ شيء".

"إذن فأفترض، عندما يكبر العشّاق، أن أرضهم سترتوي بالماء مجدَّدًا؟".

"الأمر ليس كهذا بالضبط: عندما يصيبهم العطش بما يكفي، سيحصلون على الماء، وعندما يحصلون على الماء، سيكبرون. ليكبروا، يجب أن يتوفَّر لهم الماء. وهو ما زال يتدفَّق في الأسفل".

"سمعتُ ذلك الماء مرتين"، قلت لها؛ "مرَّةً عندما

استلقيت انتظارًا للقمر، وعندما استيقظت كانت الشمس ساطعةً! ومرةً عندما أسقطني العملاق الشرير وأوشكت على الموت. في كلا المرّتين تناهت إليّ أصوات الماء، وشفتني".

أبدًا لم تُدِر المرأة رأسها، وداومت على استباقي قليلًا، لكن كان بمقدوري سماع كل كلمة تغادر شفتيها، وكثيرًا ما ذكّرني صوتها بصوت المرأة في منزل الموت. كثيرًا ممّا قالته، لم أفهمه؛ ولذلك لم أتذكّره. لكنني نسيت خوفي منها في كل لحظة.

تابعنا سيرنا قُدمًا، وعبرنا بقعةً واسعةً من الرمال قبل أن نصل إلى الكوخ. كانت أساساته تنتصب عميقًا في الرمال، لكن كان بمقدوري رؤية أنه كان صخرة. في المجمل كان الكوخ يتشابه مع كوخ حفّار القبور، لكن بحوائط أكثر شمكًا. وانفتح الباب، الذي كان ثقيلًا وقويًا، مباشرةً على غرفة خالية كبيرة، كانت لها نافذتان صغيرتان تواجه إحداهما الأخرى، بلا زجاج. خطَت مُضيّفتي عبر الباب المفتوح الذي كان القمر قد أطلّ خارجًا منه، وانطلَقت مباشرةً إلى الركن الأبعد، تناولَت قطعة قماش طويلة من الأرض، ولفّتها حول رأسها ووجهها. ثم أغلقت الباب الآخر، الذي كان القمر أطلّ داخلًا إليه، وهيّأت مشكاةً كانت تنتصب على المدفأة، واستدارت لاستقبالي.

"مرحبًا بك، سيد ڤين!" قالت لدي، داعيةً إيّاي بالاسم الذي كنت نسيته. "ستكون تسليتك بسيطةً،

لكن، بما أن الليل ما يزال طفلًا، والنهار بعيدًا، من الأفضل أن نظل في الداخل. هنا ستكون بأمان، وحرمان صغير ليس مأساة كبيرة".

"أشكرك من قلبي يا سيدتي"، أجبتها. "لكن، بالنظر إلى أنك تعرفين الاسم الذي لم أستطع إخبارك به، فهل لي أن أعرفك اسمك؟".

"اسمي مارا((9))"، أجابتني.

ثم تذكَّرتُ حفَّار القبور والقِطّة السوداء الصغيرة.

"يظنُّ بعض الناس"، تابَعت القول، "إنني زوجة لوط، أنتحب على مصير سَدُوم؛ ويظنُّ آخرون أنني راحيل((10))، تنتحب على أطفالها؛ لكنني لستُ أيَّتهما".

"أشكرك مُجدَّدًا يا مارا"، قلت لها. "هل لي أن أستلقي على أرضية منزلك حتى الصباح؟".

"في نهاية ذلك الدَّرج"، أجابتني، "ستجد فِراشًا- كثيرًا ما وجد عليه البعضُ نومًا أكثر استرخاءً ممَّا توقَّعوا، وآخرون ساروا طوال الليل ثم ناموا عليه طوال النهار ليس مريحًا جدًا، لكنه أفضل من الرمال، ولن تجد ضباعًا تشتمُّ من حوله!".

قادني الدَّرج، الضَّيق والمائل بشدَّة، مباشرةً من الغرفة إلى عِلِّيَّة غير مجتزأة، ذات سقف مفتوح في منتصفه مع نافذة واحدة ناتئة، عريضة وواطئة. تحت السقف المائل مباشرةً يستقرُّ فِراشٌ ضَيِّق،

أصابني مشهده بأغطيته البيضاء برعشة شديدة في جسدي، لحَدّ أنه استدعى إلى ذاكرتي الأسِرّة في حجرة الموت. على المنضدة كان رغيف خبز جاف، وبجواره كوب من الماء البارد. كان ذلك بالنسبة لي، أنا الذي لم يَذُق سوى الفواكه على مدى شهور، وليمةً.

"يجب أن أتركك في الظلام"، نادت مُضيِّفتي من الأسفل. "هذه المشكاة هي كل لما لديّ من ضوء، وهناك أشياء عليّ إنجازها الليلة".

"لا مشكلة، أشكرك يا سيدتي"، أجبتها. "الأكل والشرب، والاستلقاء والنوم، أشياء يمكن إنجازها في الظلام".

"ارقد في سلام"، قالت لي.

أكلتُ الرغيف، وشربتُ الماء حتّى آخر قطرة، وتمدّدتُ على الفراش الذي كان قاسيًا، بينما الغطاء رقيق وهزيل، والليل بارد: حلمتُ أنني أستلقي في حجرة الموت، بين المحارب والسيدة ذات الجُرح المندمل.

استيقظت في منتصف الليل، متخيلًا أنني سمعت ضجيجًا خافتًا لحيوانات بريّة.

"مخلوقات الصحراء تقتفي رائحتي، أعتقد!" قلت لنفسي، ومدركًا أنني كنتُ آمنًا، أوشكتُ على الاستغراق في النوم مجدّدًا. لكن في تلك اللحظة تصاعد هريرٌ خَشِنٌ حتّى تحول إلى عواء تحت

نافذتي، وحينها اندفعتُ من الفراش لرؤية أي نوع من الوحوش أطلقه.

أمام باب الكوخ، في تألُّق القمر المكتمل، كانت تقف امرأة طويلة، متَّشِحة بالبياض، بظهرها ناحيتي. كانت تميل على حيوان أبيض كبير يشبه النمر، تربِّت وتُمَسِّد عليه بيد واحدة، بينما الأخرى تشير إلى القمر الذي كان في منتصف السماء، ثم سحبت خطًّا متعامدًا مع الأفق. على الفور وثبَ المخلوق بسرعة مهولة في الاتجاه المرسوم. تبعته عيناي لوهلة، ثم بحثتُ عن المرأة؛ لكنها اختفت قبل أن أتمكَّن من رؤية وجهها! نظرتُ مجدَّدًا في إثر الحيوان، ولم أتبيَّن هل رأيتُ حقًّا أم توهَّمتُ رؤية لطخة بيضاء على البُعد. ماذا يعني هذا؟ إلى أيِّ مَهمَّة أرسِلَ القِطُّ الوحشي ذلك؟ ارتعشت، وقفلتُ راجعًا إلى فراشي. ثم تذكَّرت، عندما استلقيت في الحفرة الرملية في الخارج، أن القمر كان يغرب؛ ومع ذلك ها هو فوقي الآن، بعد بضعة ساعات، يتألَّق بكامل مجده! "كل شيء مُحيِّر هنا"، قلت لنفسي، "حتَّى حركة الأجرام السماوية!".

علمتُ بعد ذلك أن هناك عدة أقمار في خدمة هذا العالم، لكنني أخفقت في اكتشاف القوانين التي تحكم أزمنتها ومداراتها المختلفة.

استغرقتُ مجدَّدًا في نوم هانئ.

عندما هبطتُ إلى الأسفل في الصباح، وجدت

خبزًا وماءً في انتظاري، كان الرغيف كبيرًا لحدّ أنني أكلتُ نصفه فحسب. جلَست مُضيِّفتي غارقة في الصمت بجواري فيما أتناول إفطاري، باستثناء أنها حيّتني عند دخولي، ولم ينفرج فمها ثانيةً حتى طلبت منها إرشادي لأصل إلى بوليكا. أخبرتني أن عليّ أن أصعد ضفة قاع النهر حتى يختفي؛ ثم أنحدر يمينًا حتى أصل إلى غابة- فيها قد أقضي ليلة واحدة، لكن ينبغي مغادرتها بوجهي متَّجِهًا ناحية القمر الصاعد. محافظًا على نفس الاتِّجاه، قالت لي، حتى أصِلَ إلى نبعٍ ناضحٍ، عليّ أن أعبره بزوايا قائمة، ثم أنطلق مباشرةً حتى أرى المدينة في الأفق.

شكرتها، وغامرتُ بالقول، مُتطلِّعًا عبر النافذة إلى الليل، أنني ذُهلتُ لرؤية رسولها يفهمها جيدًا هكذا، وينطلق مباشرةً وبسرعة في الاتجاه الذي أشارت إليه.

"إذا لم يكن لي سوى حيوانك ذلك لإرشادي"، تابعتُ القول، آملًا أن أعرف شيئًا عن مَهمَّته، لكنها قاطعتني، قائلةً:

"إلى بوليكا انطلَقت- عبر أقصر الطرق".

"كم بَدَت ذكيّةً على نحو بديع!".

"عشتروت((11)) تعرف جيدًا المهام التي تُرسَل من أجلها"، أجابتني.

"كم رسول لديك مثلها؟".

"قدر ما أحتاج".

"هل يصعب تعليمهم؟".

"لا يحتاجون إلى تعليم. جميعهم من سلالة مُعيَّنة، لكن أيٌ منهم لا يشبه الآخر. فنشؤهم طبيعيٌ جدًا لحدٌ أنه قد يبدو لك غير معقول".

"هل لي أن أعرفه؟".

"جاءني رسول جديد الليلة الفائتة- من رأسك بينما أنت نائم".

ضحكتُ.

"جميع مَن في هذا العالم يبدو أنه يحب الغموض!" قلت لنفسي. "أنطق بكلمة عرضًا فتوحي بفكرة- وبهذا الشكل تُجسِّدها هي إلى حقيقة صغيرة!".

"إذن فالمخلوق مِلكٌ لي!" هتفتُ.

"على الإطلاق!" أجابتني. "يصبح مِلكًا لنا فقط إذا كانت إرادتنا هي العامل الحاسم في وجوده".

"أها! ميتافيزيقيَّة أيضًا!" قلت لنفسي، واستغرقتُ في الصمت.

"هل لي أن آخذ ما تبقَّى من رغيف الخبز؟" سألتها حينها.

"لن تحتاج إلى المزيد اليوم"، أجابتني.

"غدًا ربما!" كان ردِّي.

نهضَت وخَطَت إلى الباب، قائلةً:

"لن ينفعك في شيء غدًا- لكن يمكنك أخذه إذا شئت".

فتحت الباب، ووقَفَت ممسكةً به. نهضتُ، وتناولتُ الرغيف- لكنني تلكّأت، راغبًا بشدّة في رؤية وجهها.

"هل ينبغي أن أرحل إذن؟" سألتها.

"لا أحد ينام في منزلي ليلتين مُتتالِيَتَين!" أجابتني.

"أشكرك إذن على ضيافتك، ولأودعك!" قلتُ لها، واستدرت للانصراف.

"سيحين وقتٌ سيكون عليك حينها مشاركتي السَّكنَ لعدة نهارات وعدّة ليالي"، غمغَمَت بحزن عبر احتجابها.

"يسعدني طوعًا"، أجبتها.

"لا، ليس طوعًا!".

قلت لنفسي أنها على حقٍّ- لن أكون ضيفها طوعًا مرة ثانيةً! لكن على الفور وبّخني قلبي، ولم أكد أعبر العتبة حتى استدَرتُ مجدّدًا.

كانت تقف في منتصف الغرفة، بردائها الأبيض يستلقي كأمواج مُزبِدة عند قدميها، وبينها طيّات حجاب وجهها: ذلك الذي كان بديعًا وكأنه ليلة غاصّة

بالنجوم. عيناها الرماديَّتان الكبيرتان تتطلَّعان إلى السماء؛ تنساب الدموع على خدَّيها الشاحبين. ذكَّرتني ليس قليلًا بزوجة حفَّار القبور، رغم أن إحداهما بدت كما لو أنها لم تبكِ لآلاف السنين، والأخرى كما لو أنها تبكي أبدًا وراء حجاب وجهها البديع. رغم ذلك شيءٌ ما في العينين ذاتها اللتين تبكيان بدا وكأنه يقول، "قد يستمر البكاء للَّيلَة، لكن الفرحة تأتي في الصباح".

كنت أحنيث رأسي لوهلة، وعلى وشك الركوع لأنشد عفوها، عندما وجدت نفسي، رافعًا بصري في أثناء ذلك، خارج منزل بلا أبواب. خطوت في دوائر حوله، لكن لم أجد مدخلًا له.

توقَّفتُ تحت واحدة من النوافذ، على وشك الصياح عاليًا لأعلن اعترافي النادم، عندما غزا أذنيَّ نحيبٌ مفاجئ، صراخٌ عاوٍ، وتوقَّف قلبي. شيءٌ ما وثبَ خارجًا من النافذة أعلى رأسي وحطَّ ورائي. استدرت، ورأيت قطَّةً رمادية كبيرة، بشعرها واقفًا، تنطلق نحو قاع النهر. سقطتُ بوجهي على الرمال، وبدا أنني أسمع من داخل المنزل البكاء الرقيق لإنسان عرفَ العذاب لكن ليس الندم.

@ART_OF_BOOK

(16)

رَقصَةُ شَنيعَة

نهضتُ لاستئناف رحلتي، وسِرتُ أميالًا كثيرة عبر الصحراء. كنتُ أتوقُ لجبلٍ، أو حتّى صخرة طويلة، من قِمّتها يمكنني أن أتبيَّن، عبر البسيطة الموحشة أو القنوات الجافّة، الطريق المؤدي إلى أملٍ ما على حدود الأرض. مع ذلك، بماذا قد تنفعني رؤية كهذه؟ ما يقبع داخل المرء، وليس ما يقبع وراء مجال رؤيته، هو العامل الحاسم لما سيحلُّ به: ما يعتمل داخله هو الحَدَث. التوقُّع ليس فَهمًا، وإلّا فإن النبوءة الكامنة في الإنسان كانت لتظهر بشكل أسرع على السطح.

كانت الشمس في منتصف الأفق عندما رأيتُ أمامي مُرتَقًى صخريًا مُثلّمًا؛ لكن قبل أن أصِلَه تلاشت رغبتي في صعوده، وتُقتُ بدلًا من ذلك للاستلقاء أرضًا. حينها، كانت الشمس على وشك الغروب، والهواء قد بدأ في الإظلام. عند قدميَّ كانت يمتدُّ بِساطٌ من الطحالب الناعمة شديدة الخضراء، سرير ملك: استلقيت عليه، وبدأ الإرهاق في التلاشي على الفور، وحينها، في اللحظة التي لامست فيها رأسي الأرض، وللمرة الثالثة، تناهى إلى سمعي من تحتي صوت مياه عديدة، تعزف أنغام متقطّعة وتآلفات أثيرية بأحجار قنواتها المدفونة. داومت القيثارة المائية على إرسال أعذب فوضى

من الموسيقى إلى أذنيّ! ماذا كان هاندل((12)) ليبدع بهذه القرقرة الأبدية والقطرات التي تشبه الأجراس، ولازمَتِها المشتركة من الألحان المتداخلة التي تُدمِّر بعضها بعضًا؟

بينما أرقد مُنصِتًا، هامت عيناي صعودًا وهبوطًا على المنحدر الصخري المنتهي بغتةً فوقي، أقرأ على وجهه السِّجلّ الذي يقول إن هناك في الأسفل، منذ عصورٍ خلَت، كان يتدفَّق شلال، مالئًا القنوات التي كانت قادتني إلى قاعدته. تماوجَ قلبي بفكرة ذلك الاصطخاب البديع، حيث ترقص الأمواج معربدةً في سقوطها العاجز، حتى تُراكمَ موسيقاها في زمجرة أرغن واحدة في الأسفل. لكن سرعان ما هَدهَدَتني الينابيع المحتجبة حتى النوم، وتداخَلَت تهويداتها مع أحلامي.

استيقظت قبل طلوع الشمس، وتسلَّقتُ المنحدر بحماس لأرى ما يمتد وراءه. لكن وا أسفاه، لا شيء غير صحراء من أنعم الرمال! ولا أثر متخلِّف عن النهر الذي كان قد اخترق الصخور هبوطًا! كان الدفق المغبَّر قد ملأ مسار النهار حتى مستوى الأرض الممتدة الموحشة! عندما تطلَّعتُ إلى ما ورائي، رأيت أن النهر ينقسم إلى فرعين مع سقوطه، أحدهما الذي أتبع ضفَّته الآن إلى قاع الجرف الصخري والآخر الذي عبرته إلى الغابة الشريرة، الدغل الذي ألمحه الآن بين الفرعين على الأفق البعيد. أمامي وإلى اليسار، امتدَّت الصحراء

أمام عينيّ، لكن بعيدًا إلى اليمين كان بمقدوري رؤية ارتفاعٍ في خطّ السماء، ممّا منحني أملًا بوجود الغابة التي كانت مُضيّفتي قد أرشدتني إليها.

جلستُ أرضًا، وبحثت في جيبي عن نصف الرغيف الذي كنت جلبته معي- ليس لأكله لكن بالأحرى لأفهم ماذا كانت تقصد مُضيّفتي بشأنه. لم يكن الرغيف جديرًا بالغدِ حقًّا: كان انكمش وتصلّب حتّى تحول إلى حجارة! ألقيته بعيدًا، واستأنفت سيري.

مع اقتراب الظهيرة، صادفتُ بضعة أشجار أثل وعرعر، ثم بضعة أشجار تَنُّوب قزمة. مع استمراري في سيري، صادفتني أجَماتُ أكثر غزارة وأشجار تَنُّوب أكبر حجمًا، وفي النهاية أصبحت في غابة من الصنوبر والأشجار كتلك الغابة التي كانت المخلوقات الصغيرة تجد فيها الرُّضّع، وظننتُ أنني كنت عدتُ إلى الناحية البعيدة من تلك الغابة. لكن ماذا يهمُّ "أين" بينما "كل مكان" لا يختلف البتّة عن "اللا مكان!" رغم كل ما أنجزته، لم أصل إلى "أيّ مكان" في هذا العالم! لم أكن حيًّا بعدُ؛ كنتُ أحلم فحسب أنني عشتُ! لم أكن سوى وعيٍ ذي مستقبل! حقًّا لم أكن فيما مضى شيئًا في العالم الذي غادرته، لكنني الآن أدرك الحقيقة! قلت لنفسي إنني إذا تمكّنتُ في هذه الغابة من اقتناص الوميض الخافت للمرآة، فلي أن أنجح في المضيّ بعيدًا، لولا خشية أن يوقعني ذلك في فخّ جديد على حين غفلة، ويعيدني إلى وجودي القديم: هنا قد أتعلّم شيئًا ما

عبر القيام بشيء ما! لم يكن بمقدوري تَحمُّل فكرة العودة، بكل تلك البدايات وعدم إنجاز نهاية واحدة. ستلقى المخلوقات الصغيرة المصير الذي ينتظرها ولا شيء سواه؛ كتلك الساحرة الشنيعة التي لن ألقاها أبدًا فيما يبدو؛ الموتى سينضجون ويقومون بدوني؛ ليس عليّ سوى أن أستيقظ حتى أدرك أنني كنتُ أحلم، وأن كل أسفاري كانت إلى لا مكان! من الأفضل أن أستمرّ وأستمرّ بدلًا من الوصول إلى خاتمة كتلك!

مضيتُ أعمق وأعمق في الغابة: كنتُ مرهقًا، ومن الأفضل أن أستريح فيها.

كانت الأشجار كبيرة الآن، تنتصب بأشكال منتظمة، هندسيّة تقريبًا، بفراغات كبيرة بينها. كانت هناك شجيرات صغيرة، وبمقدوري الرؤية قُدمًا في كل اتجاه. كانت الغابة مثل كنيسة كبيرة، وقورة وصامتة وخاوية؛ ذلك أنني لم أصادف شيئًا يمشي على قدمين أو أربعة ذلك النهار. بين حين آخر، حقًّا، كان شيء سريع حينًا، وآخر بطيء حينًا، يعبر الفُسحة التي يُصادف أن تقع عليها عيناي في تلك اللحظة؛ لكن كان دائمًا على مبعدة، ولا يفعل سوى أن يعزز من شعور البراح والخواء. تناهت إلى سمعي بضعة طيور ورأيتُ وَفرةً من الفراشات، بعضها بألوان رائعة بديعة وتجميعات من الألوان، وبعضها ذات بياض نقي ومُبهر.

عندما وصلت إلى بقعة حيث كانت أشجار الصنوبر

تنتصب متباعدةً بشكل أكبر لتفسح المجال لأجَمات مزدهرة، وعلى أمل أن تكون تلك علامة على مأوى قريب، اتَّخذت الاتجاه الذي تنمو فيه الأزهار بشكل أكثر غزارةً، ذلك أنني كنت توّاقًا لصوت ووجه على أي شاكلة- لأيّ روح حيّة حقًّا، بشرية كانت أم لا، يمكنني فهمهما بشكل ما. يا له من جحيم مرعب، فكّرت، أن يهيم المرء وحيدًا، في وجودٍ أجرد أبدًا لا ينسلخ عن نفسه، وأبدًا لا يوسع حياته لتحتوي حياةً أخرى، بل مُقيّدًا بحبال غرائبه البائسة، ومستلقيًا كسجينٍ أبديّ في سجن كينونته ذاتها! بدأت في إدراك أنه من المستحيل أن يعيش المرء لنفسه تمامًا، إلّا في وجود الآخرين- وهذا، وا أسفاه، ممكن على نحو مرعب! كذلك الشرُّ المتحقّق عبر الخير فحسب! الأنانية ليست سوى عالة على شجرة الحياة! في عالمي القديم كانت لي عادة الغناء وحيدًا؛ هنا لم تغادر غمغمة مترنّمة واحدة شفتيّ! هناك كنت أغنّي دون تفكير؛ هنا أفكّر بلا غناء! هناك لم يكن لديّ قطّ صديقٌ حميم؛ هنا أبحث عن عطف إنسان أحمق حتى! "فقط لو كان لديّ كلب لأمنحه الحب!" تنهّدت، وتأمّلت باستغراب في ذاتي الماضية، التي كانت تُفضّل صحبة كتاب أو قلم على صحبة رجل أو امرأة؛ إلى درجة أنه إذا تجسّد لي مؤلف حكاية أستمتع بقراءتها بذاته، كنت لأتمنّى أن يختفي حتى أعود إلى إكمال الحكاية. كنت أختار الموتى على الأحياء، الفكرة على التفكير! "أيّ إنسان"، قلت الآن، "هو أفضل من أعظم الكتب!"

لم أكن ألقي بالًا لأشقائي وشقيقاتي الأحياء، والآن تُركت بلا حتًى الأموات ليمنحونني العزاء.

تخفَّفَت الغابة أكثر، لكن أشجار الصنوبر غَدَت أكبر، مُرسِلةً لأعلى بجذوعٍ عملاقة، كأعمدة تَنشدُ رفع السماء. ظَهَرَت أشجار أكثر من أنواع أخرى؛ أصبحت الغابة أكثر ثراءً! تسلَّقَت الورود الأشجار الآن، واكتسبت عظمتها المذهلة.

بغتةً، لمحتُ ما بدا أنه منزل عظيم أو قلعة؛ لكن شكله كان غائمًا على نحو عجيب لحدٍّ أنني لم أستطع التَّيقُّن أنه ليس مجرَّد تجميعة عرضية من أشكال الأشجار. مع اقترابي، تماسَكَت خطوطه، لكن لا خطوطه ولا هيكله اكتسب أيَّ وضوح؛ وعندما وقفت أمامه في النهاية؛ ظللتُ متشككًا بشأن طبيعته. منزل أم قلعة للسكن، لم تكن كذلك بالتأكيد؛ ربما كانت مجرد أطلال وقد اختفت تحت اللبلاب والورود! لكنني لم أستطع تبيُّن البِناء المختبئ في الدغل الكثيف، ولا حتًى أصغر بقايا للحائط. مرارًا وتكرارًا بدا لي أنني لا بُدَّ أنظر إلى بِناء، لكنه دائمًا ما يختفي قبل التمعُّن فيه عن قرب. ربما كان الأمر، قلتُ لنفسي، إن اللبلاب قد طوَّق صرحًا هائلًا بالكامل حتى ابتلعه، وأنا فروعه المتداخِلة قد احتفظت بشكل الجوائط التي امتزجت بها! لم يكن لي أن أتيقَّن من أيِّ شيء بشأن المظهر.

أمامي كنت فسحة مستطيلة الشكل- شبح مدخل

باب بلا باب: خطوث عبره، ووجدت نفسي في فسحة كبيرة وكأنها بهو عظيم، أرضيته مغطاة بالعشب والأزهار، وحوائطه وسقفه باللبلاب والكَرْم، متداخلةً مع الورود.

لا يمكن أن أجد مكان أفضل لقضاء الليلة! جمعت كومة من الأوراق الذابلة، وبسطتها في ركن، وألقيت نفسي عليها. تفشَّى في البهو غروب شمس أحمر، كانت ليلة دافئة، وفراشًا مريحًا؛ استلقيتُ مُحدِّقًا في السقف الحيّ، بزخرفته من الفروع والأغصان، وسحابات خُضرته، واللطخات المتلصِّصة لسقف أكثر ارتفاعًا. طافت عيناي في كل هذا كما لو كانتا قد وقعتا في شَرَكٍ، حتى غربت الشمس، وبدأت السماء في التوهُّج المظلم. وحينها تحولت الورود الحمراء إلى الأسود، وسرعان ما غَدَت الصفراء والبيضاء وحدها بادية للعيان. مع اختفائها، حلَّت النجوم محلَّها، متدلِّية في الأوراق وكأنها ياقوت أصفر حيٌّ، تنبض وتلتمع وتومض بألوانٍ كثير: كنتُ مُظَلَّلًا بشجرة من كهف علاء الدين!

ثم اكتشفت أن المكان كان ممتلئًا بالأعشاش، منها داومت رؤوس ضئيلة، يتعذَّر تمييزها بالكاد، على الطقطقة بتغريدة أو اثنتين، ثم الاختفاء مجدَّدًا. لبعض الوقت كانت هناك أصوات حفيف وتقلُّب وصلوات صغيرة؛ ومع ازدياد الظلام حلكةً، سكَنَت الرؤوس الصغيرة، وفي النهاية أبقت كل أمٍّ مُغطَّاة بالريش على فراخها هادئين تحت جناحها،

تلاشت أصوات الأحاديث في الفُرش الصغيرة، وغدَت مِخضَنَة بيوت الرّبّ راقِدةً تحت أمواج النوم. بغتةً، دفعتني بضعة رفرفات لأرفع بصري: انطلقت بومة مارّةً من أمامي. لم أتبيَّن سوى لمحة خاطفة منها، لكنني شعرت عدة مرات بالتلويحات الباردة لجناحيها الصامتَين. لم تتحرك أمّهات الطيور مُجدَّدًا؛ أدركتُ أن البومة تبحث عن الفئران، وليس عن الأطفال.

قُرب منتصف الليل استيقظتُ بالكامل، وقد أثارتني عربدةٌ، لم يكن ضجيجها عاليًا. لم تكن بعيدة؛ كانت قريبةً منّي، لكن واهنة. رغم ذلك، كانت عيناي مخدوعتَين لحدّ أنني لم أتمَكّن من رؤية شيء لوهلة؛ في النهاية عادوا إلى رشدهم.

كنتُ مستلقيًا على الأوراق الذابلة في ركن بهو فخم. أمامي كان حشدًا من رجال بأزياء باهرة ونساء بأردية بديعة، أيُّهم لم يُبدِ أنه يراني. برقصةٍ بعد أخرى جسّدوا على نحو غامض قصة الحياة، لقاءاتها، انفعالاتها، افتراقاتها. كطالب درسَ شكسبير، كنت أعلم شيئًا ما عن كل رقصة لمَّحَ إليها في مسرحياته، وبالتالي تمكّنتُ من فهم كثيرًا ممّا أراه الآن بعض الشيء- رقصة المينويت، رقصة البافان البطيئة، رقصة الترحيب، رقصة الكورانتو الراكضة، رقصة الفولتا القافزة. كان الراقصون يرتدون على موضة قديم قِدَم رقصاتهم.

كان قمرٌ قد ارتفع فيما أنا نائم، ساطعًا عبر السقف

ذي النوافذ التي لا تُحصَى؛ لكن نوره كان متقاطعًا مع ظلال كثيرة لحدّ أنني في البداية لم أتبيَّن شيئًا بالكاد من وجوه الحشد. لم أخفق، رغم ذلك، في إدراك أن هناك شيئًا عجيبًا حيالهم: اعتدلتُ في جلستي لرؤيتهم بشكل أفضل. يا للسماء! هل يمكن أن أسمّيها وجوهًا؟ كانت واجهات لجماجم! عظام متوهِّجة، صلبة، أفكاك جرداء، أنوف مبتورة، أسنان بلا شفاه لم يَعُد بمقدورها الانشغال بأيِّ ابتسامة! بعضها كانت بيضاء، قاتلة؛ مشحوذة حتى أصبحت مومِضة، وأخرى مختفية وراء نخر السوس، محطَّمة ومنفرجة، بلون الطمي الذي بدت فيه توّاقة لأن تُبرَم منذ زمن طويل! الأكثر إفزاعًا من ذلك، أن محاجر العيون لم تكن فارغة؛ في كلٍّ منها كانت عين حيَّة بلا أجفان! في حطام الوجوه هذه، كانت تومض أو تتوهج أو تبرق أعينٌ من كل لون وشكل وتعبير. العين الجميلة، المتباهية، داكنة وبرَّاقة، تنظر بترفُّع على أي ما تقع عليه، كانت الأكثر فظاعةً؛ العين المُحِبّة، المسترخية، الأكثر إثارة للاشمئزاز؛ بينما كانت الأعين الخافتة، الحزينة، الأقل تنوُّعًا في أوضاعها، تعيسة بما لا يوصف، وتأسر القلب رغم الرعب الذي كانت تُحدِّق به.

نهضتُ واندفعتُ بين الأشباح، توّاقًا لفهم شيئًا عن كينونتهم وانتماءاتهم. هل كانوا أرواحًا أم لا، هم وحركاتهم الإيقاعية، سوى تمثيلات وهمية لما قد كان؟ لا بالنظرة ولا بالإيماء، ولا بأوهى انقطاع

في الميزان الموسيقي، أظهروا أنهم مُدرِكون لوجودي؛ لم أكن حاضرًا بالنسبة لهم: إلى أيِّ حَدٍّ كانوا في علاقة ببعضهم البعض؟ بالتأكيد كانوا يرون رفقاءهم كما أراهم! أم أن كل واحد منهم يحلم بنفسه وبالآخرين فحسب؟ هل يدركون كيف يبدون للآخرين... أمواتًا بعيون حيَّة؟ هل يستخدمون وجوههم، ليس للتواصل، ولا لإظهار الأفكار والمشاعر، ولا لمشاركة الوجود مع جيرانهم، لكن ليَظهَروا بما يحبُّون أن يَظهَروا به، ويخفوا حقيقتهم؟ وبجعلِ وجوههم أقنعةً، هل حُرِموا لذلك من تلك الأقنعة، وأدينوا بالمُضيّ في الحياة بلا وجوه إلى أن يعلنوا توبتهم؟

"إلى متى ينبغي عليهم التباهي بانعدام وجوههم في تلك الأعين عديمة الوجوه؟" تساءلتُ. "إلى متى سيدوم العقاب المُرعِب؟ هل سيشرعون في نهاية المطاف في معرفة الحُبِّ والحكمة؟ هل استسلموا بعد للعار الذي لحق بهم؟".

لم أسمع كلمةً واحدة، لم أرَ حركةً واحدة من فمٍ عارٍ واحد. هل كان بسبب الكذب أنهم حُرموا من الكلام؟ بأعينهم كانوا يتحدثون كما لو أنهم يتوقون ليفهمهم أحد: هل هي الحقيقة أم الزيف ذلك الذي تنطق به عيونهم؟ بدوا وأنهم يعرفون أحدهم الآخر: هل يرون جمجمةً جميلة، وأخرى مُقفِرة؟ لا بُدَّ أن هناك فَرقًا؛ ذلك أنهم انخرطوا في تأمُّل الجماجم طويلًا!

لم يكن جسدي يمثّل عقبة أمام أجسادهم: هل أنا مجرد جسد، بينما هم ليسوا سوى أشكال؟ أم أنني لست سوى شكل، وهم أجساد؟ في لحظة يقترب مني واحد من الراقصين، وفي أخرى يكون هو أو هي على الجانب الآخر مني، وحينها يمكنني تبيُّن دون أن أنظر، هل كان رَجُلًا أم امرأة، ذلك الذي مرَّ عبر منزلي.

على كثير من الجماجم كان الشَّعر في موضِعه، وأيًا كان الرداء أو جماله، بدا لعينيَّ مرعبًا على عظام الجبين والصدغين. وفي حالة كهذه، غالبًا ما تبقى الأذن الخارجية أيضًا، ومن طرفها، جوهرة الأذن كما يدعوها سيدني((13))، تتدلّى لؤلؤة أو حجر عقيق أو ماسة مومضة، أو متألّقة، أو متوهِّجة- تحت ليل الخُصلات البنية أو حالكة السواد، أو شروق الشمس ذو التموُّجات الذهبية، أو سطوع القمر ذو الذؤابات الشاحبة، الوَبَريَّة، التي تحجب بعضها البعض- تحزُّ على البياض العاجي أو الأصفر الداكن للعظم العاري. أتطلَّع لأسفل، فأرى مُشط القدم المقبَّب بأناقة؛ أتطلَّع لأعلى، فأرى الكتفين الجسيمين اللذين يسندان زنبرك العنق الممتلئ المستدير- الذابل من منتصفه حتى القصبة المحزَّزة للقحف المحدَودِب.

ازدادت الموسيقى جموحًا، وغدا الرَّقص أسرع وأسرع؛ توهَّجت أعينهم وتوقَّدت، التمعت الجواهر وتلألأت، مُلقيةً بالألوان والنار على التقطيبات

الشاحبة التي تنساب عبر البهو، غازلةً نسيجًا إيقاعيًا شبحيًا في المتاهة المعقَّد للحركة الوفيرة، وحينها توقَّف كلُّ شيء بغتةً، واستدارت كل الأعين نحو نفس البقعة: عند مدخل الباب كانت تقف امرأة، مثالية الشكل، في وقفتها، وفي مظهرها، نظَرَت إلى الجمع كما لو من عرش. إلهة، بينما وقف الراقصون "كمن مُنِعَ لتوِّه"، متجمِّدين في موتٍ جديدٍ بعد رؤية الحياة القاتلة. "أيَّتها الأشياء الميِّتة، أنا أحيا!" قالت نظرتها المزدرية. ثم على الفور، كأوراق استيقظت فيها ريح مباغتةً، استداروا إلى بعضهم البعض، واندمجوا ثانيةً في حركتهم المختلَطة المنغَّمة، بتعبير جديد في عيونهم، تعبير النّاسك الميِّت، وقد امتلأ الآن بمبادلات انتصار مشترك. "أنتِ أيضًا"، بدوا أنهم يقولون، "قريبًا سيصيبك الضعف كما أصابَنا! قريبًا ستتحوَّلين إلى شاكلتنا!" أدرتُ رأسي مُجدَّدًا إلى المرأة- ورأيتُ على جَنْبها ظلًا قاتمًا صغيرًا.

كانت رأت التَّبدُّل في تحديقة الموتى؛ تطلَّعَت لأسفل؛ فَهِمَت العيون الناطقة؛ ضَغَطَت بكلتا يديها البديعتين على الظِّلِّ، أطلَقَت صرخةً مختنقة، وفرَّت هاربة. تحرَّكت الطيور مُخفجِفَةً في أعشاشها، واشتعلت ومضة فرح في عيون الراقصين، عندها هبَّت رياح دافئة، واكتسحت المكان بقوة متزايدة، وأطفأت كل ضوء، لكن القمر الواطئ كان ما يزال يومض في الأفق في "محاولة سقيمة" ليتألَّق،

وانطلق شعاع مُعكّر لكن مُتوهّج من عيون كثيرة، لحدّ أنني رأيث بوضوح ما تلا ذلك. أصبح كل شكل كما لو أنه صورة جليدية، وبدأ في التّداعي إلى شظايا، مُتحطّمًا في الرياح الدافئة. في ندفات ورقية تَقشّرَ اللحم عن عظامه، وتساقط كجليد مُنتِنٍ من تحت أرديته؛ سقَطَت تلك الندفات مرفرفةً على شكل خِرَق وأسمال، وانتصب الهيكل العظمي الأبيض بالكامل، منبعثًا من الرداء واللحم معًا،أجردَ ومهزولًا وسط الحطام الذي تَبَعثَر على الأرضية. انطلقت رعشة مُخَشخِشَة خافتة عبر الجمع العاري؛ زوجًا بعد آخر انطفأت الأعين المنيرة؛ وازداد الظلام حلكةً من حولي مع شعور الوحدة. لوهلة، كانت الأوراق تُكنَس مُرفرفةً في اتجاه واحد جميعها؛ وحينها توقّفَت الرياح، وتهادت البومة صامتةً عبر الليل الصامت.

لم يُصِبني الخوف ولو للحظة واحدة. من الحقيقي أن أيًا من يعبر عتبة أي عالَم، عليه أن يترك الخوف وراءه؛ لكن عن نفسي، لا أستطيع ادّعاء أي دور من جانبي في غيابه. لم تعتمل أي شجاعة واعية داخلي؛ ببساطة، لم أكن خائفًا. لم أدرك لماذا لم أكن خائفًا، ولا من ماذا يجب أن أخاف. لم أخشَ أن أخاف حتّى- وهو الأمر الأكثر خطورةً من بين كل الأخطار.

انطلقتُ خارجًا إلى الغابة، واستأنفتُ رحلتي على الفور. قمر آخر كان في رحلة صعوده، واستدرتُ

بوجهي نحوه.

(17)
مأساةٌ عَجيبة

لم أمضِ عشرَ خطوات حتى لمحتُ جسمًا ذا مظهرٍ عجيب، واقتربت لأتبيَّن ما قد يكونه. اكتشفت أنه عربة متعفِّنة ذات شكل قديم، متهالكة لكن ما زالت تقف على عجلاتها الثقيلة. على كلٍّ من جانبي الدعامة الوسطى، التي ما تزال في موضعها، كان يستلقي هيكلٌ عظميٌّ لحصان؛ من رأسيهما الأبيضين الكالحين ترتفع الألجمة المتيبِّسة إلى يد هيكل الحوذيّ العَظمي الجالس على الجوخ الممزَّق؛ كلا البابين قد تساقَطا؛ في الداخل كان يجلس هيكلين عظميَّين، كلاهما متراجعٌ بظهره في رُكنه.

لكن عندما دقَّقتُ النظر، جَفَلا مستيقظَين، وبقرقعة في العظام، قفز كل منهما إلى الباب المجاور. سقط أحدهما واستلقى أرضًا؛ وقفَ الآخر لوهلة، بِنيتُه تهتزُّ على نحوٍ خطير؛ ثم بصعوبة، ذلك أن مفاصله كانت متصلِّبة، تحرَّك ببطء، ممسكًا بمؤخِّرة العربة، إلى الناحية الأخرى، وعظام الساق النحيل بالكاد تبدو قادرة على حمل وزنها، وهناك، راكعًا بجوار الآخر، حاول رفعه، يكاد يسقط بدوره في محاولته هذه.

نهض الهيكل المُستلقي أخيرًا، كما لو كان بفعل قوة مباغتة، إلى وضع الجلوس. لبضع لحظات أدار جمجمته المصفرَّة يمينًا ويسارًا؛ وبعدها، مُتجاهلًا

جاره، نهض على قدميه عبر الإمساك بالعجلة الخلفية. أوشك على الانتصاب الكامل، ووقف بظهره ناحية الآخر، وكلتا يديه تمسك إحدى ركبتيه. بصعوبة أقل لا تخلو من التواءات، نهض الهيكل الراكع بدوره، وخاطب رفيقه:

"هل تأذّيت يا سيديّ؟" قال، بصوتٍ بدا نائيًا، منطوقٍ ببشاعة كما لو كان ينحرف في طريقه بفعل رياح شبحية.

"نعم، لقد تأذّيتُ"، أجابه الآخر، بنغمة مشابهة لكن أكثر خشونة. "لم تفعل شيء لمساعدتي، وهذه الركبة الملعونة خارجة من موضعها!".

"لقد فعلت ما في وسعي يا سيدي!".

"بلا شك يا سيدتي، ذلك أن الأمر كان مريعًا! اعتقدت أنني لن أجد قدميّ ثانيةً أبدًا! لكن، باركِي روحي يا سيدتي! هل خرَجَت عظامكِ من موضعها أيضًا؟".

ألقت نظرة على نفسها.

"ليس لديّ شيء آخر ليُقيمَني"، أجابته. "لكنك على الأقل لا يمكن أن تشتكي! لكن ماذا يعني هذا بحق السماء؟ هل أحلم؟".

"ربما تكونين تحلمين يا سيدتي... لا يمكنني الجزم؛ لكن ركبتي هذه تحرمني من التوهُم الممتن. أها! أنا أيضًا، أدرك أنه ليس لديّ شيء للمشي داخله

سوى العظام! ليست مناسبة جدًا للرجال، مع ذلك! أتمنّى من الرّبّ ألّا تكون عظامي! كل عظمة فيها تؤلمني أكثر من الأخرى، وهذه الرُّكبة المفكوكة أسوَؤها جميعًا! لا بُدّ أن الفراش كان رطبًا.. وثملث كثيرًا على أن أدرك ذلك!".

"يُحتمل، سيدي آل كوكيين!".

"ماذا! ماذا! تدفعينني للاعتقاد أنني أحلم بدوري... التألُّم وكل شيء! كيف تعرفين اللقب الذي يمنحني إيّاه المعربدون، المستقوون عليَّ؟ لا أتذكّركِ! على أي حال، لا حقَّ لديكِ في التلاعب بي! اسمي... أنا لورد... عار عليكِ! ماذا تُسمّينني عندما... أعني عندما تكونين فائقة؟ لا يمكنني... في هذه اللحظة... عجبًا! ما هو اسمي؟ لا بُدّ أنني كنتُ ثمِلًا جدًا عندما أويتُ إلى الفراش! كثيرًا ما أكون كذلك!".

"نادرًا ما تؤوين إلى فراشي، لحدّ أنني لا أعرف كل ذلك حقًّا يا سيدي؛ لكنني سآخذ بما تقوله حقًّا!".

"آمل ذلك!".

"... إن لم يكن لشيء آخر!".

"متعجرفة! أبدًا لم أكذب عليكِ في حياتي!".

"لم تخبرني بأي شيء سوى الكذبات".

"على شرفي! عجبًا، أبدًا لم أرَ المرأة من قبل!".

"تعرفني بما يكفي لتكذب عليّ يا سيدي!".

"يبدو لي أنني سأبدأ في الحلم أنني قابلتك من قبل، لكن، أقسم، لا يوجد ما أعرفك به! بالنظر إلى ملابسك، مَن له أن يقول مَن أنتِ دون سواك؟ شيءٌ واحد لي أن أقسم عليه... أنني لم أركِ منزوعة الملابس هكذا من قبل! بِحقِّ السماء، لا أتذكّركِ البتّة!".

"يسعدني سماع ذلك: ذكرياتي عنك ليست أقل إثارة للاشمئزاز! صباح طيب يا سيدي!".

استدارت مبتعدةً، عارجةً، مُطقطقةً، لبضع خطوات، ثم توقّفت مُجدّدًا.

"أنتِ بلا قلب تمامًا... تمامًا... كأي امرأة أخرى يا سيدتي! أين لي في هذا المكان الملعون أن أجد خادمتي؟ ما الاسم الملعون الذي اعتَدتُ مناداة الحمقاء به؟".

أدار رأسه الأجرد يمينًا ويسارًا على محوره المطرقع، ممسكًا ما يزال بركبته بكلتا يديه.

"سأكون خادمتك لمرة واحدة يا سيدي"، قالت السيدة، مستديرةً مجدّدًا ناحيته. "... ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟ ليس من السهل معرفة ذلك!".

"اربطي ساقي بالطبع يا حمقاء! ألا ترين أنها خرجت من موضعها تمامًا؟ وداعًا لأيام رقصي!".

تطلّعت من حولها بمحجَرَي عينيها الخاويين ووجدت قطعة من العشب الليفي وبها ربَطت معًا

الأجزاء المتجاورة التي كانت تُشكّل الرُّكبة. عندما انتهت، حرَّكتها مرّتين بعناية على سبيل التجريب.

"اعتدتَ على أن تخطو بشكلٍ مُختلِف يا سيدي!" قالت، بينما تنهض عن ركبته.

"أها؟ ماذا! الآن عندما أنظر إليكِ، يبدو لي أنني اعتدت على بُغضك! أليس كذلك؟".

"بالطبع، سيدي! تبغض أناسًا كثيرين! زوجتك، بالطبع، من بين البقيَّة!".

"أها، أوشك على، أوشك... لكن... لا بُدَّ أنني كنت في مكان ما لزمن طويل! لقد نسيتُ حقًّا... هاكِ! بقعة عُشبك الملعونة، البائسة، تتحطَّم! اعتدنا على المُضيّ معًا كثيرًا... أليس كذلك؟".

"لا أتذكَّر هذا يا سيدي. اللحظات السعيدة الوحيدة التي قضيتها في صُحبتِك، تبعثرت على مدار الأسبوع الأول من زواجنا".

"هل كان الأمر هكذا إذن؟ ها! ها! حسنًا، لقد انتهى كل شيء الآن، أشكر الربّ!".

"أتمنَّى لو أستطيع تصديق ذلك! لماذا كُنَّا نجلس في تلك العربة معًا؟ هذا يثير مخاوفي!".

"أعتقد أننا تطلَّقنا يا سيدتي!".

"بالكاد: ما زلنا معًا!".

"حقيقة حزينة، لكنها قادرة على الشفاء: هكذا تبدو

الغابة إلى حدٍّ ما!".

"أشكُّ! أشكُّ!".

"يؤسفني أنني لا أستطيع التفكير في أيّ مجاملة لإبدائها لكِ... أي دون أن أكذب. بالنظر إلى قوامكِ ولون بشرتكِ فقد عشتِ حياة صعبة منذ رأيتكِ آخر مرة! لا يمكنني بالتأكيد التعزّي تمامًا هكذا مثل جنابك! عذرًا سيدتي! أثق أنكِ لن تَظُنّي أنني أهزّج في حُلم! لا فرق، مع ذلك؛ بين الحلم واليقظة، هما نفس الشيء! مظاهر خادعة فحسب! لا يمكن للمرء التّيقُّن من أيّ شيء، وهذا ليس أفضل من أن يدرك أنه لا يوجد شيء على الإطلاق! أي أحمق يمكنه تعلُّم ذلك من الحياة!".

"علَّمَتنِي، أنا الحمقاء، أنني سأقع في حبّك!".

"لستِ الحمقاء الوحيدة التي قُدِّرَ لها ذلك! دائمًا ما تنخدع النساء ويقعن في حبّي: لقد نسيتُ أنكِ واحدة منهنَّ!".

"لقد أحبَبتُك حقًا يا سيدي -قليلًا- ذات مرة!".

"أها، هنا يظهر خطؤكِ يا سيدتي! كان عليكِ أن تحبيني كثيرًا، أن تحبيني بإخلاص، بوحشية... أن تحبيني بأبدية! وحينها كنت لأسأم منك بشكل أسرع، ولن أبغضك كثيرًا بعدها! لكن لِنَنسَ الماضي! أين نحن؟ المكان هو السؤال! نكون أو لا نكون، ليس السؤال!".

"نحن في العالم الآخر، أفترض!".

"بالتأكيد... لكن في أيِّ عالم آخر أو ما نوع هذا العالم الآخر؟ هذا العالَم لا يمكن أن يكون الجحيم!".

"لا بُدَّ أنه كذلك: يوجد زواج فيه! أنت وأنا ملعونان ببعضنا البعض".

"إذن فأنا لستُ مثل عُطيل، ملعون بسبب امرأة جميلة! أوه، أتذكَّر شكسبير جيدًا يا سيدتي!".

التقَطت فَرعًا مكسورًا كان سقطَ داخل أجَمَة، استنَدَت عليه، وخَطَت مبتعدةً، مُطوِّحةً بجمجمتها الصغيرة.

"أعطيني تلك العصا"، هتف زوجها المتوفَّى؛ "أحتاجها أكثر منكِ".

لم تمنحه إجابةً.

"تنوين إجباري على التوسُّل من أجلها؟".

"على الإطلاق يا سيدي. بل أنوي الاحتفاظ بها"، أجابته، وتابعت مغادرتها البطيئة.

"أعطيها لي على الفور؛ أنوي أخذها! أحتاجها".

"للأسف، أعتقد أنني أحتاجها بدوري!" أجابت السيدة، وقد أسرعت خطواتها قليلًا، بقعقعةٍ أشد حدَّة في مفاصلها وخشخشة أعنف في عظامها.

شرعَ في المشي في إثرها، لكنه أوشك على السقوط: كان عُشب ركبته قد انفجر، وبسَيَّةٍ توقَّف،

قابضًا على ساقه مجدّدًا.

"تعالي واربطيها جيدًا!" كان يفترض أن يصيح متوعّدًا، لكنه همسَ مؤنِّبًا فحسب!

استدارت وتطلّعت إليه.

"تعالي واربطيها على الفور!" قال مُجدّدًا.

خطتْ خطوة أو اثنتين مبتعدةً عنه أكثر.

"أقسم أنني لن ألمسك!" هتف.

"أقسِمْ كما شِئتَ يا سيدي! لا يوجد أحد هنا ليصدقك. لكن، رجاءً، لا تفقد أعصابك، وإلّا فسترتعش وتتحول إلى شظايا، ولن أجد ما يكفي من حبال لربط كل مفاصلك المجنونة".

قفلَت راجعةً، وركعَت بجواره مُجدّدًا- لكن ليس قبل أن تضع العصا موضع النزاع بعيدًا عن متناوله وفي متناول يديها.

في اللحظة التي انتهَت فيها من إعادة ربط المَفصل، قبضَ عليها، معتقدًا على ما يبدو، أنه قد يمسك بشعرها؛ لكن أصابعه المتصلّبة انزلقت على الرأس الأملس.

"هذا مُقرّز!" غمغم، وأمسك بعظمة ذراعها.

"ستكسره!" قالت، رافعةً بصرها من ركبتيه.

"سأكسره إذن!" أجابها، وبدأ في لويها.

"لن أربط ساقك مُجدّدًا إذا انفكّت مُجدّدًا!" هدّدَته.

منحَ ذارعها عصرةً قاسية، لكن لحسن الحظ كانت عظامها في حالة أفضل من عظامه. مدّت يدها الأخرى نحو الفرع المكسور.

"نعم: صِليني بالعصا!" قال عابسًا.

أدارتها بتطويحة شديدة لحدّ أن واحدة من عظام الساق السليمة طقطقت. سقطَ مختنقًا باللعنات. ضحِكَت السيدة.

"الآن سيكون عليك وضع جبيرة دائمًا!"، قالت. "عظامٌ جافّةٌ كهذه لن تنصلح أبدًا!".

"أنتِ شيطانة!" هتف.

"في خدمتك يا سيدي! هل أجلب لك بعض أسلاك العجلات؟ مناسبة، لكن أخشى أنها ثقيلة!".

أدارَ وجهه العظمي جانبًا، ولم يُجِبها، لكنه استلقى وتأوّه. تعجّبتُ أنه لم يتحطّم إلى شظايا مع سقوطه. نهضت السيدة وسارت مبتعدةً- بطريقة لا تخلو من أناقة، فكّرتُ.

"كيف سينتهي هذا؟ قلت لنفسي. "هذان المخلوقان بائسان للغاية حتّى بالنسبة لعالَمي، ولا يمكن أن يكون هذا العالم هو الجحيم؛ ذلك أن المخلوقات الصغيرة تعيش فيه، والنائمون أيضًا! ماذا يعني كل هذا؟ هل يمكن أن تجري الأمور أبدًا كما ينبغي مع الهياكل العظمية؟".

"هذه الكلمات كبيرة جدًا عليك وعليّ: "كلُّ"

أحدها، و"أبدًا" أخرى"، قال صوتٌ بقربي تَعرّفتُ عليه على الفور.

تطلّعتُ من حولي، لكنني لم أستطع رؤية المُتكلّم.

"لستَ في الجحيم"، تابع حديثه. "ولا أنا في الجحيم. لكن هذه الهياكل العظمية في الجحيم!".

قبل أن ينتهي من كلماته، لمحتُ الغراب على غصن شجرة زان، فوق رأسي مباشرةً. سرعان ما غادره وحطَّ على الأرض، ووقف هناك: عجوز المكتبة النحيل، ذو الأنف الطويل والمعطف الطويل.

"الذَّكَر لم يكن أبدًا جنتلمان"، استأنفَ حديثه، "وفي المرحلة العَظمية من الانتكاس في هيكله وحتى جلده، وحتى من هيئته وطرائقه، لا يبدو كجنتلمان. الأنثى أقلُّ جلافةً، ولديها قلب صغير. لكن، مع غياب مُعَوِّقات المجتمع، فإنك تراهما الآن على ما كانا وأصبحا عليه دائمًا!".

"أخبرني، سيد راڤين، إلى ماذا سيؤول مصيرهما"، سألته.

"سنرى"، أجابني. "في زمانهما كانا الزوجين الأكثر وسامةً في البلاط الملكي؛ والآن، حتى بعظامهما الجافّة، يبدو أنهما ينظران إلى سُمعتهما الماضية كملكيّة غير قابلة للتنازل؛ أن يريا وجهيهما، مع ذلك، يمكن أن يساعدهما قليلًا! كانا يشعران أنهما ثريّان جدًا عندما كانت لديهما جيوب، لكنهما بدآ بالفعل في الشعور أنهما مُعوزَين بعض الشيء. اعتاد سيدي

النظر إلى سيدتي كعبء لا قيمة له؛ ذلك أنه سَئمَ من جمالها بعد أن بدّد كل أموالها؛ والآن يحتاج إليها لترقيع مفاصله! هذه التغيُّرات تحمل جذور أمل داخلهما. إلى ذلك، لا يمكنهما الابتعاد عن بعضهما البعض، ولا يريان أحدًا آخر من نوعهما: لا بدَّ أن يصيبهما الإرهاق في نهاية من المطاف من نفورهما المتبادَل، ويبدآن في حبّ بعضها البعض! ذلك أن الحب، وليست الكراهية، يكون أعمق ما يكون عندما يتسرَّب (الحب إلى الكينونة)".

"رأيتُ كثيرين من نوعهم منذ ساعة، في البهو القريب!" قلت له.

"من نوعهم لكن ليس على شاكلتهم"، أجابني. "لسنواتٍ كثيرة لن يرى هذان أيًا ممّا رأيته الليلة الفائتة. أولئك يسبقون هذان بقرون. رأيت أن أولئك بمقدورهم ارتداء شيء معقول على الأقل! صحيح أنهم عاجزون مع ذلك على الاحتفاظ بملابسهم طويلًا كما ينبغي، لكن فقط لشطرٍ من الليل؛ لكنهم يزدادون قدرةً وثباتًا مع الوقت، وشيئًا فشيئًا سيكتسبون وجوهًا؛ ذلك أن كل حبّة من الحقيقة تضيف خيطًا إلى استعراض إنسانيتهم. لا شيء سوى الحقيقة بإمكانه الظهور؛ أيًا كان ما تبدو عليه".

"هل يصدّقون هذا الأمل؟" سألته.

"يحدوهم الأمل حقًا، لكنهم لا يدركون ماهية أمَلهم البتّة؛ مسألة فهمه خارج مستوى إدراكهم بما

لا يُقاس"، أجابني السيد راڤين.

لم يُفاجئني ظهوره غير المتوقَّع بأي شكل. كنتُ مثل طفل، يتساءل باستمرار، ولم يَعُد يندهش من شيء.

"هل أتيت بحثًا عنّي يا سيدي؟" سألته.

"على الإطلاق"، أجابني. "لستُ قلقًا بشأنك. أمثالك يعودون دومًا إلينا".

"أخبرني، رجاءً، من هم أمثالي؟".

"لا يمكنني أن أجعل من صديقي موضوعًا للحديث"، أجابني، بابتسامة.

"لكن عندما ذلك الصديق حاضرًا!" ألححت.

"أرفض الإجابة بتصميم أكبر"، كان ردّه.

"لكن عندما يطرح عليك هذا الصديق الأسئلة!" أصرَرتُ.

"إذن فسأرفض إجابتها"، أجابني.

"لماذا؟".

"لأنه وأنا سنتحدث حينها عن شخصين كما لو كانا شخصًا واحدًا. بَونٌ شاسع بين وعيك بنفسك وبين معرفتي بك!".

تطايَرَت تلابيب معطفه، وارتفَعَت شحمتا أذنه، واعتقدتُ أن تحوُّلًا من النوع الإنساني (Homo) إلى فصيلة الغربان (Corvus) على وشك الحدوث

أمام عينيّ. لكن المعطف انغلقَ مجددًا عليه، وأضاف هو، بلا ترابط بعض الشيء:

"لا تثق أبدًا في هذا العالم بإنسان خدعك مرّةً. إلى ذلك، لا تفعل أبدًا أي شيء قد يطلبه منك".

"سأحاول أن أتذكّر"، أجبته؛ "لكنني قد أنسى!".

"إذن فشرٌ نافعٌ لك سيعقب ذلك".

"وإذا تذكّرتُ؟".

" فشرٌ لا ينفعك، لن يعقب ذلك".

بدا الرجل العجوز وكأنه يغرق في الأرض، وعلى الفور رأيت الغراب على بُعد خطوات منّي، يطير واطئًا ومسرعًا.

(18)

ميّتة أم حيّة؟

تابعتُ سيري، مواجهًا القمر ما زلت، فيما هو، ولم يرتفع بَعدُ، يحدّق مباشرةً في الغابة. لم أتبيَّن سبب هَمِّه، لكنه كان قاتمًا ومنبعجًا، مثل قُرصٍ بالٍ من نحاس قديم، وبدا حزينًا ومتعبًا. ولا سحابة واحدة كانت بقربه لتخفِّف من وحدته، بينما كانت النجوم في غاية السطوع على أن تَصحبَه. "هل سيتسمرُّ هذا للأبد؟" بدا أنه يقول. كان يمضي في طريق وأنا في الآخر، مع ذلك عبر الغابة انطلقنا معًا لمسافة طويلة. لم نتسامر كثيرًا؛ ذلك أن عينيَّ كانتا على الأرض، لكن نظرته المغتمَّة كانت مثبّتةً عليَّ: شعرت بها دون رؤيتها. لزمن طويل كنّا معًا، أنا والقمر، سائرَين جنبًا إلى جنب، هو الألَق الكابي وأنا الظل الحيّ.

شيءٌ على الأرض، تحت شجرة متراميِة الفروع، لفت نظري ببياضه، واستدرت ناحيته. رغم اختفائه وراء الدغل الكثيف، إلا أنه أوحى، مع اقترابي منه، أنه جسد بشري. "هيكل آخرا" قلت لنفسي، فيما أركع وأضع يدي عليه. كان جسدًا بالفعل وليس هيكلًا عظميًا، لكنه جسد أقرب ما يكون للهيكل العظمي. كان يستلقي على جنبه، وفي غاية البرودة- ليست برودة الحجر، لكن برودة تشي بأنه كان حيًا يومًا ما، ولم يَعُد حيًا. كلما تمعّنتُ فيه،

وكلما لامسته، كلما ازداد يقيني بأنه أيُّ شيء خلاف أنه ميّت. للحظة ذهول واحدة، تصوّرتُ أنه واحد من الراقصين الجامحين، سندريلا، ربما، ضلّت طريقها بعيدًا عن البيت، واختفت في الليل العجيب لعالَم خارج البيت! كان الجسد عاريًا بالكامل، وذابلًا بشدّة لحدّ أنني حتى في الظل، تمكّنتُ، بالتدقيق عن قرب، في عدّ كل ضلع على جنب الجسد دون ملامسته. كانت كل عظامه، في الواقع، باديةً للعيان كما لو أنها مُغلّفة بإحكام بجلد مَطّاط رقيق. كانت أسنانه الجميلة لكن المريعة، والمنكشفة قبل الأوان بفعل الشّفَتَين المنكمشتين، تتوهّج بشبحية عبر الظلام. كان شَعرُه أطولَ منه ذاته، كثيفًا، ذا ملمس ناعم، وأسودَ كالليل.

كان جسد امرأة طويلة، جميلة ربما. لكن كيف وصلت إلى هنا؟ ليس بنفسها، وهي بهذه الحالة المتهدّمة بالتأكيد! لا بُدّ أن قواها خارت، فسقطت، واستلقت هناك حتى ماتت من الجوع! لكن حتى مع ذلك، كيف ضَوّت بهذا الشكل؟ وكيف تعرّت هكذا؟ أين المتوحشون الذين كان لهم أن يُجرّدوها من ملابسها ويتركوها؟ وأي وحوش بزيّة كان لها أن تنزع ملابسها؟ أن يترك جسدها كهذا ليس شيئًا رائعًا!

نهضتُ على قدمَيّ، وفكّرتُ. لا ينبغي لي، ولا أستطيع تركها هكذا مُعرّاة ومنبوذة! الاحترام الطبيعي يمنع ذلك. حتّى أردية النساء تستدعي

الاحترام؛ وجسدها يستدعي استحالة أن يترك مكشوفًا. قد تلقي العيون الوقحة بنظرة عليه! وقد تطوّحه المخالب المتوحّشة! أعوامٌ ستمضي قبل أن تدفنها الأمطار الصديقة في الأرض! لكن الأرض كانت صلبة، ومُصمَتة بالجذور المتداخلة، وكل ما أملكه يداي العاريتان فحسب!

في البداية، بدا بوضوح أنها لم تَمُت منذ زمن طويل: لم تكن في جسدها أيّ علامة على التفسُّخ! بل إنه كانت هناك فرصة ضئيلة لإعادتها للحياة، وعليّ أن أتيقّن أنها ميّتة قبل أن أدفنها.

فيما أغادر بهو الغابة، كنت لمحتُ عند المدخل حفنة من ثمار العنب الناضجة، وجلبتها معي، آكلها بينما أسير: تبقّى القليل منها مع ذلك على القصبة، وقد تعيد إليها عصارتها الحياة مجددًا! على أيّ حال، ذلك كان كل ما لديّ لإنقاذها به! كان الفم فاغرًا قليلًا لحسن الحظ؛ لكن الرأس في وضعية صعبة لحدّ أنه، لتحريك الجسد، مرَّرتُ ذراعي تحت الكتف الذي يستلقي عليها، وحينها اكتشفت أن أوراق الصنوبر تحتها كانت دافئة: لا يمكن أن تكون ميّتة في أيّ زمن، وقد تكون حيّةً ما زالت؛ رغم أنني لم أستطع تبيُّن أيّ حركة في قلبها، أو أيّ علامة على تنفُّسها! إحدى اليدين كانت مضمومة بشدّة، تخفي شيئًا صغيرًا داخلها على ما يبدو. عصرتُ ثمرة عنب في فمها، لكن لم يعقب ذلك أي ابتلاع.

حتى أفعل من أجلها كل ما في وسعي، نشرتُ

طبقة سميكة من أوراق الصنوبر والأوراق الجافة، وألقيت بردائي عليها، الدافئ بحرارة جسدي، رفعتها على نصفه، وغطّيتها بنصفه الآخر، وبكمية كبيرة من أوراق الشجر: بذلك قد أنجح في الحفاظ على الدفء القليل المتبقّي فيها، على أمل زيادته عندما ترجع الشمس. ثم جرّبت ثمرة عنب أخرى، لكنني لم أستطع تبيُّن أوهى حركة في الفم أو الحلق.

"الشَّكُّ"، قلت لنفسي. "قد يكون تشجيعًا ضعيفًا على فعل أي شيء، لكنه سبب سيئ لعدم فعل أي شيء". مشدودًا للغاية كان الجلد على عظامها لدرجة أنني لم أجرؤ على إشعال نارٍ بفَرْكِ الحجارة.

انسللتُ على كومة الأوراق، واقتربت منها بقدر ما أستطيع، وأخذتها بين ذراعيّ. لم يعد لديّ الكثير من الحرارة داخلي، لكن ماذا لديّ لأشاركها إيّاه! لذلك، قضيتُ ما بقي من الليل، مؤرّقًا، وتوّاقًا للشمس. بَدَت برودتها وكأنها تُشِعُّ إلى داخلي، لكن لا حرارة كانت تنتقل منّي إليها.

لكن، هل فررتُ من النائمين البديعين، فكّرتُ، كُلٌّ على سريره الفضي "القاتم، المرتَّب"، لأستلقي وحيدًا مع زميلة فِراشٍ كهذه! كنت رفضت مَزِيَّةً رائعة: حتّى أتحمّل مسؤولية مريعة! تحت القمر الحزين، الغارب ببطء، استلقيتُ مع الميّتة، وترقّبتُ بزوغ الفجر.

كان الظلام تلاشى، وبدأ الأفق الشرقي في الانجلاء على نحو قاتم، عندما لمحتُ حركةً، وليس شيئًا يتحرّك بالأحرى- غير بعيدٍ عنّي، وقريبًا من الأرض. كان التموّج الواطئ لأفعى كبيرة، مرّت بي في خط مستقيم. ثم ظهرَ، متجهًا إلى نفس النقطة، ما ظننت أنه أنثى أيل وطفلها الصغير. مجدّدًا بعد برهة، جاء مخلوقان يشبهان صغار الدببة، مع ثلاثة أو أربعة مخلوقات أخرى أصغر حجمًا في إثرها. كان الضوء ينتشر الآن بسرعة متزايدة لحدّ أنه، بعد بضعة دقائق، عندما جاء قطيع من الأحصنة تَخبب مارّةً بي، تمكّنتُ من تبيُّن أنها، رغم أن أكبرها لم يكن أكبر من أصغر خيول الشيتلاند القزمة، حتمًا قد بلَغَت منتهى نموّها، بكمال كبير في شكلها، وموهبة كبيرة في تمكُّنها من طرائق وحركات الأحصنة الكبيرة. كانت من فصائل كثيرة. بدا بعضها نماذج لأحصنة الجرّ، وأخرى لخيول المعارك، والصيد، والسباق. تبعتها ماشية قزمة وأفيال صغيرة.

"لماذا لا أرى الأطفال هنا!" قلت لنفسي. "في اللحظة التي أتحرّر فيها من هذه المرأة البائسة، ينبغي لي أن أذهب لجلبهم!".

إلى أين انطلَقَت تلك المخلوقات؟ مَن استدعاها؟ هل كان هذا هو الخروج الكبير أم مجرد عادة صباحية؟ عليّ أن أنتظر الشمس! حتّى تطلع، ينبغي ألّا أغادر المرأة! وضعتُ يدي على الجسد، ولم يسعني سوى الاعتقاد أنه ازداد دفئًا طفيفًا. ربما

اكتسب قليلًا من الحرارة التي فقدْتها! بالكاد كان بمقدورها توليد أي حرارة! أيّ سبب للأمل داخله كان في طريقه للتلاشي!

بدأ جبين النهار في التوهُّج، وسرعان ما طلعت السماء متلصِّصةً، كما لو كان لترى لأول مرّة عالمًا جديدًا يصطخب. عند مرأى بهائها البريء العظيم، نهضتُ ممتلئًا بالحياة، قويًا في مواجهة الموت. أزلت الوشاح الذي كنت وضعته لحماية الفم والعينين من أوراق الصنوبر الحادة، تطلَّعتُ بشغف لرؤية إن كنت وجدتُ جوهرةً لا تقدَّر بثمن، لكن لا شيء سوى تجويف فارغ.

كان الجسد يستلقي ساكنًا كما وجدته. ثم لأول مرّة، في ضوء النهار، رأيتُ كم كان الوجه مشدودًا وغائرًا، كم كانت العِظام حادّةً تحت الجلد، كيف شكّلَ كل سِنٍّ نفسه عبر الشفتين. كان الرداء البشري باليًا بحق حتى تساقطت خيوطه، لكن ربما كان طير السماء يضع عشَّه في الداخل الآن، رغم أنه لم يستيقظ بَعدُ حتَّى يتحرَّك أو يغنِّي.

لكن الشمس كانت تسطع على وجهها! رتَّبتُ الوشاح من جديد، ووضعت بضعة أوراق عليه بخفَّة، وانطلقت في إثر المخلوقات. كان مسارهم الأساسي مطروقًا بشدّة، ولا بُدَّ أنه كان يُستخدم لزمن طويل، كما هو الحال مع كثير المسارات التي تنضم إليه من الجانبين، وتندمج فيه وتُوسِّعه. كانت الأشجار تتراجع مع تقدُّمي، والعشب يزداد كثافةً.

في تلك اللحظة اختفت الغابة، وظهرَ براحٌ من أجمل خُضرَةٍ مُمكِنة يمتدُّ بعيدًا حتّى الأفق. عبره، على طول حافة الغابة، كان يتدفّق نهر صغير، وإليه كان المسار ينتهي. عند مرأى الماء انبثق داخلي أمل جديد، وضبابي مع ذلك. بدأ المجرى عميقًا في كل موضع، وممتلئًا عن آخره، لكن عرضه لم يَزِد عن بضعة ياردات فحسب. ارتفع من النهر ضباب مزرق، يتلاشى مع صعوده. على الجانب الآخر، في العشب الوفير، كانت ترعى حيوانات صغيرة كثيرة. قضت ليلتها في الغابة على ما يبدو، ثم انطلقت في الصباح ساعيةً إلى الأرض المنبسطة، سابحةً في النهر للوصول إليه. ركعتُ لأرتوي، لكن الماء كان حارًا، ذا مذاق معدني عجيب.

تراجَعتُ واقفًا بسرعة: هنا كان الدفء الذي أبحث عنه- الضرورة الأولى للحياة! أسرعتُ عائدًا إلى مَهمَّتي اليائسة.

دون التفكير مليًا في عُزلتي، فلن يدرك أحدٌ ما قد ينتظرني بعد تخليص هذه المرأة من الموت. "أيًا مَن ستكون"، فكّرتُ مع نفسي، "لن أعود وحيدًا بعدها على الأقل!" كنتُ وجدت لنفسي الآن صُحبَةً بائسة لحدّ أنني أدرك الآن ما هو الأمل. هذه المياه المباركة ستطرد الموت البارد، وتُغرق وحشتي!

حملتها إلى المجرى. رغم طولها، إلّا أنني وجدتها في غاية الخِفّة، كانت عظامها رقيقة جدًا، لا يغطّيها سوى القليل. ازداد أملي قوةً عندما رأيتُ أنها لم

تعد مُتخَشِّبةً لحدِّ أنني استطعت حملها على ذراع واحد، كطفل نائم، مستلقيًا على كتفي. انطلقت بسلاسة، خائفًا من رياح حركتي ذاتها، ومبتهجًا أنه لم يكن هناك سواها.

كانت المياه حارَّةً جدًّا على أن ألقيها في النهر دفعةً واحدة: قد تخيفها الصدمة وتطرد منها الحياة التي لم تُرفرف بعدُ! وضعتها على الضَّفَّة، غمستُ طرف ردائي في الماء، وشرعت في تحميم الشكل المثير للشفقة. كان في غاية الخراب لحدِّ أنه، باستثناء وفرة وسواد شَعرها، كان من المستحيل حتَّى تخمين هل كانت شابَّة أم عجوزًا. كان جفناها منفرجين قليلًا؛ ممَّا منَحَ نظرتها مزيدًا من الموت: كان هناك شِقٌّ في شحب ليلِها، لكنَّ شمسًا لا تسطع من خلاله!

كلما مضيتُ في غسل العظام البائسة، كلما اضمحلَّ أملي بأنها أبدًا ستَّتِشح بالقوة مجددًا، أن هذين الجفنين سيرتفعان يومًا، وتطلُّ منها روحٌ؛ تابعتُ مع ذلك تحميمها، محترسًا ألَّا يبرد جزءٌ بينما أحمِّم آخر؛ وشيئًا فشيئًا أصبح الجسد أكثر دفئًا بكثير، لحدِّ أنني غامَرتُ في نهاية المطاف بتغطيسه في النهر: خطوتُ إلى المجرى وسحبته فيه، ممسكًا بالوجه فوق مستوى الماء، وسامحًا للتيار السريع، الثابت، بالتدفُّق على كلِّ ما عداه. لاحظتُ، لكنني لم أستطع استنتاج أيِّ شيء حيال تلك الحقيقة، أن اليد المضمومة، رغم كل الحرارة، لم تُرخِ قبضتها

أبدًا.

بعد نحو عشر دقائق، أخرجت الجسد من الماء ووضعته على الضِّفّة، جفَّفتُه، وغطّيتُه بقدر ما أستطيع، ثم هرعتُ إلى الغابة لجلب أوراق الشجر.

كان العشب والتربة جافَّين ودافئين؛ وعندما عُدتُ، وجدتُ أن الجسد قد فقد بالكاد أيًا من حرارة المياه التي اكتسبها. نشرت الأوراق فوقه، وهرعت لجلب المزيد- ثم من أجل حمولة ثالثة ورابعة.

أصبح بمقدوري الآن تركه والانطلاق للاستكشاف، على أمل إيجاد مأوى. ركضتُ بمحاذاة المجرى في اتجاه تلال صخرية كنت رأيتها، غير بعيدٍ، في ذلك الاتجاه.

عندما وصلت إليها، اكتشفت أن النهر ينبع بالكامل من صخرة عند قاع أحدها. توهَّمتُ أنه يهبط عبر دَرَجٍ في الداخل، شلَّال مُتدفِّق، عند كل درجة يبحث بجنون عن مَخرَج، لكن فقط عند نهاية الدَّرَج يجد بابًا للهروب.

لم يكن النهر يملأ الفُرجة حيث يتدفق، فزحفت عبرها إلى كهف صغير حيث أدركت أنه لا يهبط باصطخاب مسرعًا عبر دَرَج، بل يصعد بهدوء من الأرض في مؤخّرة الكهف عندَ ما بدا أنه قاعدة لعمود هائل، ويمضي في طريقه في اتجاه واحد، مالئًا بالكامل تقريبًا قناة عميقة، ضيِّقة بعض الشيء. تمعَّنتُ في المكان، واكتشفت أنني، إذا استطعت أن

أجد بضعة أغصان ساقطة طويلة بما يكفي لوضعها بعرض القناة، وكبيرة بما يكفي لتحمل وزنًا ضئيلًا دون أن تنحني كثيرًا، فمقدوري ربما، بأفرع أصغر حجمًا ووفرة من أوراق الشجر، أن أضع عليها فراشًا مريحًا، يبقيه المجرى من تحته دافئًا باستمرار. ثم هرعتُ عائدًا لمعرفة ماذا حدثَ للمرأة.

كانت تستلقي حيث تركتها. لم تكن الحرارة قد أعادت الحياة إليها، لكنها لم تتسبَّب في أي شيء قد يقتل الأمل تمامًا. جمعت بعض الصخور من حول المجرى، ورتَّبتها عند قدميها وعلى جانبيها.

هرعتُ عائدًا إلى الغابة، ولم أبحث طويلًا حتَّى أجد بعض الأغصان الصغيرة الملائمة لغرضي- كانت أغصان زان في أغلبها، أوراقها الصفراء الجافَّة ما زالت تتعلَّق بها. بهذا كله سرعان ما بسطتُ أرضية فراش الجسر على التيَّار. صالبتُ الأغصان بأفرع أصغر حجمًا، وداخلتُ هذه بالغُصَينات، وغطَّيتُها جميعًا في الأوراق والطحالب الجافَّة.

عندما انتهيتُ أخيرًا، بعد بضعة رحلات ليست قليلة إلى الغابة، وبعد أن أنجزت فراشًا دافئًا، جافًّا، طريًّا، حملت الجسد مجددًا ووضعته على الفراش، وأطلقته نحو الكهف. كان في غاية الخفَّة لحدِّ أنني، بين لحظة وأخرى، خشيتُ، عندما وضعته، أن يتكشَّف الأمر عن هيكل عظمي في الواقع؛ وعندما نجحت أخيرًا في وضعه برفق على الجسر غير المجرَّب، كان ارتياحي لزوال ذلك الوهم أكبر

من تخفُّفي من ثِقل الجسد. غطيتُ الجسد بطبقة سميكة أخرى من الأوراق؛ ومحاولًا مُجدَّدًا إطعامها بحبَّة عنب، اكتشفتُ بابتهاجي أن بمقدوري فتح الفم بشكل أوسع قليلًا. استلقت حبَّة العنب داخله مُهملةً حقًّا، لكنني أمَلتُ أن تجد بعض العصارة طريقها إلى الحلق.

بعد ساعة أو اثنتين على الفراش، لم تَعُد باردة. كان دفء الينبوع اخترقَ إطارها البشري- حقًّا لم تكن سوى إطار! كانت دافئة في ملمسها؛ ليس، ربما، بدفء الحياة، لكن بدفء جعلَ من الممكن، إذا كانت حيَّةً، أن تستمرَّ على قيد الحياة. كنت قرأت عن امرأة استلقت في غيبوبة بلا حراك لأسابيع.

في ذلك الكهف، يومًا بعد يوم، ليلةً بعد ليلة، لسبعة أيام وليالي طويلة، كنت أجلس أو أستلقي، أمشي حينًا وأنام حينًا، لكن دومًا أراقب. أنطلق كل صباح وأستحمُّ في المجرى الساخن، وكل صباح أشعر بعدها كما لو أني أكلت وشربت، وهي تجربة منحتني الشجاعة لأشركَها هي أيضًا فيها كل يوم. ذات مرة وأن أفعل ذلك، صُعِقتُ بشكل مريع بسبب ظل لطخة باهتة على وجهها، لكنه اختفى في الصباح التالي، وتابعتُ علاجها- كل صباح، بعد تحميمها، واضعًا حبَّة عنب طازجة في فمها.

كنت أنا أيضًا أتناول حبَّات العنب وثمار العلَّيق الأخرى التي أجدها في الغابة؛ لكنني كنتُ مقتنعًا أنني، باستحمامي يوميًا في ذلك النهر، قد أستغني

عن الطعام تمامًا.

في كل مرّة أنام فيها، كنت أحلم بالعثور على ملاك جريح، عاجز عن الطيران، يبقى معي حتى يقع في حبّي في نهاية المطاف ولا يغادرني أبدًا؛ وفي كل مرّة أستيقظ، كنت أرى، بدلًا من مُحيًا ملائكي بعينين نيّرتَين، ذلك الوجه المتهدّم، الأبيض، الساكن، على الفراش. لكن آدم نفسه، عندما رآها لأول مرة نائمةً، ما كان لينتظر مُتلهِّفًا استيقاظ حواء كما انتظرتُ أنا مراقبًا استيقاظ هذه المرأة. لم يكن آدم يعرف شيئًا عن نفسه، ولا حتّى ربما عن حاجته لنفسٍ أخرى؛ بينما أنا، المتغرِّب عن أقراني البشر، قد تعلّمتُ كيف أحبُّ ما أخسره! لو قُدِّر لِمزقَةِ الأنوثة هذه أن تختفي، فلن يظلَّ داخلي سوى جوعٍ شَرِهٍ للحياة! بل إنني نسيتُ المخلوقات الصغيرة: أمرٌ لا ينبغي أن ينتقص منهم! هنا يرقد ما قد يستيقظ ويصبح امرأة! ما قد يفتح عينيه حقًّا، وينظر من خلالها إليّ!

أدركتُ الآن لأول مرّة ما تعنيه العُزلة- الآن وأنا أحدِّق في تلك التي لم ترَ ولم تسمع، لم تتحرَّك ولم تتكلّم. أدركتُ أن رجلًا بمفرده ليس سوى كائن يُحتمل أن يصير رجلًا- أنه ليس سوى حاجة، وبالتالي إمكانية. وحتى يكون مكتفيًا بذاته، على الكائن أن يكون أبديًا، دودة موجودة بذاتها! مجبولًا على نحو فخيم، لكن الرجل معقَّدٌ على نحو بسيط؛ ينهض من، ويقف على قاعدة الكائنات الحيّة

والهياكل الروحانية الدنيا، لحدّ أنه لا يجد مناخًا، يمنح العزاء لحياته أو يغذيها، أقل ألوهيّةً من ذلك الذي تمنحه الأرواح الأخرى؛ عاجزًا عن التنفُّس سوى في الحيوات الأخرى. فقط عبر استجابة حيوات أخرى يمكنه إنضاج خصاله، أو تطوير فكرة ذاته أو الفردانية التي تُميّزه عن كل "آخر". لو كان كل الرجال متشابهين، فحينها سيتمتّع كل منهم بفردانية حقّة، مؤمنة بوعيه الذاتي، لكن لا يوجد سوى سبب واهٍ لماذا ينبغي أن يوجد رجلان أو ثلاثة على نفس الشاكلة؛ لكن من أجل خلق الفروقات التي تجعل من وحدةٍ كبيرة ومتسامية ممكنة -القادرة وحدها على دفع ملايين البشر للدخول إلى كنيسة مثلًا- فإنه لا غنى عن وجود تأثيرات وردود فعل لا نهائية بما لا يقاس. وحتّى يتحقّق الإنسان بمثالية -أي يكتمل في وصوله للشرط الروحاني للنمو المستمر والكوني، وهو الوضع الذي يرث فيه لا تناهي "أبيه"- عليه أن يتحصّل على معرفة أقرانه من البشر. ولولا أمل فجر الحياة الكامنْ في الشكل البشري بجواري، لكان لي أن أهرب بحثًا عن الصُحبة في البهائم التي ترعى العشب ولا تنطق. أفضل لي أن أنطلق معها -أفضل على نحو لا نهائي- من العيش وحيدًا! لكن مع أوهى احتمالية لامرأة أن تكون صديقتي، فأنا، أكثر المخلوقات بؤسًا، ما زلت رجلًا محتملًا.

(19)

دودة العَلَق البيضاء

استيقظتُ ذات صباح من نومٍ عميق، بألم فظيع في إحدى يدَيّ. كان ظهرها متورِّمًا بشدة، وفي مركز التورم كان جُرح مثلث الشكل، كعضَّة دودة العَلَق. مع تقدُّم النهار، انكمش التورُّم، ومع حلول المساء اختفى الألم تمامًا. بحثت في الكهف، قالبًا كل حَجَر من أي حجم، لكنني لم أكتشف شيئًا قد أتصوَّر أنه قادر على إيذائي.

تتابَعت الأيام ببطء، وما زال الجسد لم يتحرَّك قطُّ، لم يفتح عينيه قطُّ. لا يمكن أن يكون ميِّتًا، ذلك أنه بالتأكيد لم يُظهر أي علامة على التعفُّن، والهواء من حوله كان في غاية النقاء. إلى ذلك، كان بمقدوري تخيُّل أن زوايا العظام الأكثر حدَّةً قد بدأت في الاختفاء، وأن الشكل البشري ازداد استدارةً في كل موضع، والجلد لم يعد يشبه رَقَّ الكتابةً: إذا كان ذلك التغيُّر قد حدث حقًّا، فلا بُدَّ أن الحياة كامنة في الشكل البشري! المدُّ الذي كان انحسر بعيدًا حتى الأبدية، لا بُدَّ أنه بدأ مُجدَّدًا في التدفق! يا لبهجتي، إذا كانت الأمواج الصاعدة لمحيط الحياة تراكم حقًّا، تحت الشكل البديع، العظام التي كانت نبذتها! لعشرين مرَّة في اليوم كنت أبحث عن دليل على التقدُّم، ولعشرين مرَّة في اليوم كانت الشكوك تقتلني- بل واليأس أحيانًا؛ لكن في اللحظة التي

أتذكّرُ فيها حالة المرأة عندما وجدتها، ينتعش الأمل.

كانت أسابيع عديدة انقضت على هذا الحال، عندما نهضتُ ذات ليلة، بعد استلقائي زمنًا طويلًا مستيقظًا، للانطلاق إلى خارج الكهف واستنشاق الهواء الأكثر برودة؛ ذلك أنه، رغم أن الهواء كان متجددًا دومًا في الكهف نتيجة جريان النبع، إلا أن الحرارة كانت خانقة أحيانًا. في الخارج كان القمر مكتملًا، وفي الداخل كان الهواء رائقًا ذا ظلال غامض، وألقيتُ بالطبع نظرة متأمِّلة على كنزي قبل أن أذهب. "نعيمٌ أبدي!" هتفت عاليًا، "هل أرى عينيها حقًّا؟" مدارَين عظيمين، داكنتين كما لو كانتا مشقوقتين من ليلٍ بلا نجوم، ومتألقتين بفعل قَرْط العَتمة، بدتا وكأنهما تُشِعّان وسط البياض المتوهِّج لوجهها. اقتربتُ أكثر متسللًا، قلبي يخفق لحدٍّ أنني خشيتُ أن تُوقظها خفقاته. انحنيت عليها. وأسفاه، كان جفناها مُنغلقين تمامًا! كان الأمل والخيال قد افتعلا توهُّمًا مُتبادَلًا! رغبة قلبي لن تكون أبدًا! استدرتُ مبتعدًا، وألقيت بنفسي على أرضية الكهف، وانتحبت. ثم قلت لنفسي أن عينيها كانتا مفتوحتين قليلًا، والآن وقد اختفى الصدع المريع بعد أن أطلّ منه العدم: فربما كان الأمر أنها فتحتهما لوهلة، ثم استغرَقَت في النوم مُجدَّدًا! ربما كانت مستيقظةً وتبقيهما مُنغلقتين عمدًا! في كلتا الحالتين، فإن الحياة، بشكل أو بآخر، هي حتمًا ما أغلقتهما! شعرتُ بالعزاء، وسرعان ما استغرقتُ في

النوم.

في تلك الليلة تعرّضتُ للعضِّ مُجدّدًا، واستيقظت بعطشٍ ملتهب.

في الصباح بحثت بعناية أكبر، لكن مُجدّدًا بلا طائل. كان الجُرح بنفس الشكل، والتأم، كالمرة السابقة، بحلول المساء. استنتجت من هذا أن مخلوقًا كبيرًا من فصيلة دودة العَلَق كان يخرج بين حين وآخر من النبع الحار. "لكن، إذا كان الدم مُبتغاه"، قلت لنفسي، "وما دمتُ هنا، فليس لي أن أخاف كثيرًا على كنزي!".

في نفس الصباح، عندما وضعت حبّة عنب في فمها، بعد تقشيرها وانتزاع البذور منها كالمعتاد، أبدَت شفتاها حركة واهية تنمُّ عن تقبُّلها لحبَّة العنب، وحينها أدركتُ أنها حيَّة!

أضحى أملي الآن أكبر بكثير لحدّ أنني بدأت في التفكير في رداءها الجديد: لا بُدَّ أن تكون قادرة عن النهوض فور أن تحب! انطلقت لذلك إلى الغابة، للبحث عن المواد التي قد تحقّق ذلك، ولم أكَد أبدأ في البحث حتى استعرَضَت هياكل نسيجيَّة بعينها، كهياكل أوراق الإجاص الشائك، ووجدتها ملائمةً لغرضي. جمعتُ كومة منها، ووضعتها لتجفّ في الشمس، باعدت بين الطبقات المتشابكة، ومن تلك سرعان ما بدأت في تطريز رداءين فضفاضين، أحدهما ليتدلى من خاصرتها، والآخر من كتفيها.

وباستخدام رأس خنجريّ لورقة صَبّار وعِدّة فتائل، نجحت في تخييط ثلاث طبقات من النسيج.

في الأسبوع الذي تلا ذلك، لم تكن هناك أي علامة أخرى باستثناء أنها تتقبّل حبّات العنب بوضوح أكبر. لكن كل العلامات أصبحت أكثر يقينًا حقًّا: كان من الواضح أنها تزداد امتلاءً، وجلدها يزداد صفاءً. مع ذلك، لم تفتح عينيها؛ وكثيرًا ما غزاني الخوف المريع، أن نموّها ليس سوى ذي طبيعة فُطرانيّة بشعة، وأن حبّات العنب القليلة لا يمكن بأي حال أن تكون سببًا فيه.

مجدّدًا تعرّضتُ للعضّ؛ والآن بدأ الشيء، أيًّا كان، في زيارتي على فترات منتظمة تبلغ ثلاثة أيام. عادةً ما يلدغني الآن في العنق أو الذراع، لدغة واحدة لا تتغير كل مرّة، دائمًا بينما أنا نائم، لكن ليس في النهار أبدًا، حتّى وإن كنتُ نائمًا حينها. ساعةً بعد أخرى كنت أستلقي مستيقظًا أترقّبه، لكن أبدًا لم أسمع قدومه، أو أرى علامةً على اقترابه. وأبدًا كذلك، أعتقد، لم أشعر بلدغته. في نهاية المطاف، يئستُ تمامًا من اصطياده، لحدّ أنني لم أعُد أشغل نفسي بالبحث عنها نهارًا، أو الاستلقاء انتظارًا له ليلًا. أدركت من ضعفي المتنامي أنني أفقد دماءً بمعدل خطير؛ روحًا كانت تستجمع القوة لإنقاذي من الوحدة؛ سننطلق بعيدًا معًا، وعليّ أن أستعيد عافيتي بسرعة.

انتهيتُ من الرداءين أخيرًا، ومتأمّلًا عملي اليدوي

برضاء معقول، انتقلتُ إلى تضفير طبقات النسيج لتحويلها إلى نِعال.

استيقظتُ بغتةً ذات ليلة، واهنًا ومنقطع الأنفاس، ومتعطِّشًا للهواء، وكنت نهضت للزحف خارجًا من الكهف، عندما أجبرني حفيف خافت في أوراق الفراش على الإنصات بلا حراك.

"أمسكتُ بالمخلوق الخسيس"، قال صوتٌ ضعيف، بلغتي الأم؛ "أمسكتُ به متلبِّسًا!".

كانت حيَّةً! تكلَّمَت! لم أجرؤ على الاستسلام لنشوتي خشيةَ إفزاعها.

"أي مخلوق؟" همستُ بالكاد.

"المخلوق"، أجابتني، "الذي كان يلدغك".

"ماذا كان؟".

"دودة عَلَق بيضاء كبيرة((14))".

"كبيرة إلى أي حدّ؟" تابعتُ، مجبرًا نفسي على الهدوء.

"طولها ستة أقدام تقريبًا، أعتقد"، أجابتني.

"لقد أنقذتِ حياتي إذن، ربما! لكن كيف استطعتِ لمس ذلك الشيء البشع! كم أنتِ شجاعة!".

"فعلت حقًا!" كان ردّها، وظننتُ أنها ارتعشت قليلًا.

"أين هي؟ ماذا فعلتِ بوحشٍ كهذا؟".

"ألقيتها في النهر".

"أخشى أنها ستعود مجددًا!".

"لا أعتقد أنني أستطيع قتلها، حتى لو عرفتُ كيف! سمعتُك تتأوّه، ونهضت لرؤية ما أقضّ مضجعك؛ وحينها رأيت الشيء المخيف على عنقك، وانتزعته بعيدًا. لكنني لم أستطع إمساكه، وبالكاد تمكّنت من إبعاده عنّي. لم أسمع سوى طرطشته في الماء!".

"سنقتله المرة القادمة!" قلت لها؛ لكن مع ذلك عادَ إليّ وهَني، ونشدت الهواء الطلق، لكنني سقطت أرضًا.

عندما عدتُ إلى وعيي كانت الشمس مُشرِقةً. والسيدة تقف على بُعد خطوات، تتمعّن، في الرداء الأخرق الذي كنت طرّزته لها، بجلال وجمال في آنٍ. كنتُ رأيت تلكما العينين العظيمتين! في الليل كانتا تتألّقان! داكنتين كالظلمة الأولى، لكنها الآن تسطعان بسطوع يفوق النهار! كانت تقف منتصبةً كعمود هائل، تنظر إليّ. خدُها الشاحب لا يدل على أي انفعال، بل تساؤل فحسب. نهضتُ واقفًا.

"علينا أن نرحل!" قلت لها. "دودة العلَق البيضاء...".

توقفتُ؛ كانت ابتسامة عجيبة أضاءت مُحيّاها الجميل بالكامل.

"هل وجدتني هناك؟" سألتني، مشيرةً إلى الكهف.

"لا، لقد جلبتكِ إلى هناك"، أجبتها.

"جلبتني؟".

"نعم".

"من أين؟".

"من الغابة".

"ماذا فعلت بملابسي... وجواهري؟".

"لم يكن معكِ شيء عندما وجدتكِ".

"إذن لماذا لم تتركني؟".

"لأنني كنت آمل أنكِ لست ميّتة".

"ولماذا قد تهتم بهذا؟".

"لأنني كنت وحيدًا جدًا، وأردتُ أن تبقي على قيد الحياة".

"كان الأولَى أن تبقيني لأنك مفتونٌ بجمالي!" قالت، بازدراء متباهٍ.

أثارت كلماتها ونظرتها امتعاضي.

"لم يكن هناك أيّ جمال مُتبقٍّ فيكِ حينها"، قلت.

"لماذا، إذن، لم تتركني وشأني؟".

"لأنكِ كنتِ على شاكلتي".

"على شاكلتك؟" هتفت، بنغمة ازدراء مطلق.

"ظننتُ هذا، لكنني أرى الآن أنني مخطئ!".

"أشفقتَ عليّ بلا شك!".

"أبدًا لم تستحق امرأة شفقةً أكبر، ولا أيّ شعور آخر أقل!".

بتعبير هو خليط من الألم والهوان والغضب الذي لا يوصف، استدارت مبتعدةً عنّي ووقفت صامتةً. استلقى الليل عديم النجوم عميقًا في خلجان عينيها: كراهيةً لذلك الذي أعاد بهاءها مذبوحًا. اختفى ضوء الحياة منهما.

"إن كُنتَ أخفقتَ في إيقاظي من الموت، ماذا كنت لتفعل حينها؟" سألتني بغتةً بلا حراك.

"كنت سأدفن ذلك الجسد".

"تدفنه! ماذا؟ كنتَ ستدفن هذا؟" هتفت، ملقيةً بنظرات خاطفةً عليّ بغضبٍ أبيض، ومطوّحةً بذراعيها، بعينيها تطلقان سهامًا من صواعق باردة.

"لا؛ لم أكن رأيت هذا! هذا الذي أعادته إليكِ أسابيع مُضنية من الترقُّب والرعاية"، أجبتُها. أمام امرأة كهذه ينبغي أن أكون واضحًا! "لو كنتُ رأيتُ أوهى علامة على التفسُّخ، لكنتُ دفنتكِ على الفور".

"أحمق!" هتفت، "لم أكن سوى في غيبوبة- بحق صموئيل! يا له من قدَر! اذهب واجلب المتوحشة التي اقترضت منها هذا الرداء البشع".

"لقد صنعته من أجلك. إنه بشع، لكنه أفضل ما استطعت".

شبَت على قدميها حتى وصَلَت إلى منتهى طولها.

"منذ متى وأنا فاقدة الحِسّ؟" سألَت. "لا يمكن لامرأة حتّى أن تصنع ذلك الرداء في يوم واحد!".

"وليس في عشرين يومًا"، أجبتها، "بل في ثلاثين يومًا تقريبًا!".

"أها! كم من الوقت تزعم أنني استلقيت فاقدةً للوعي؟ أجِبني على الفور".

"لا يسعني القول منذ متى كنتِ رقدتِ عندما وجدتك، لكن لم يتبقَّ حينها شيءٌ منك سوى الجلد والعظم: كان هذا منذ أكثر من ثلاثة أشهر. كان شَعرُكِ جميلًا حقًّا، ولا شيء سواه! فعلت كل ما أستطيع فعله".

"يا شَعري المسكين!" قالت، وجلَبَت حفنةً منه من ورائها. "سيتطلَّب الأمر عنايةً أكثر من ثلاثة أشهر حتى أعيدك إلى الحياة مُجدَّدًا! أعتقد أن عليَّ أن أشكرك، رغم أنني لا أستطيع القول إننيْ ممتنَّة!".

"لا داعي لذلك، سيدتي: كنت سأفعل نفس الأمر لأيِّ امرأة- نعم، أو لأيِّ رجل أيضًا".

"لماذا لما يتشابك شعري؟" قالت، فيما ترِبَّت عليه.

"دائمًا ما كان ينساب في التيَّار".

"كيف؟ ماذا تعني؟".

"لم أكن أستطيع إعادتك إلى الحياة إلَّا عبر

تحميمك في النهر الساخن كل صباح".

أبدت ارتجافة امتعاض، ووقفت لبرهة بتحديقتها مثبّتة على الماء المندفع. ثم استدارت إليّ:

"علينا أن نفهم بعضنا بعضًا!" قالت."لقد فعلتِ بي اثنين من أسوأ الخطايا- أجبرتني على الحياة، وأنزلت بيَ العار: ولا يمكنني العفو عن أيّهما!".

رفعت يدها اليسرى، وطوّحت بها كما لو كانت لطردي. شعرتُ بشيء بارد كالجليد يصعقني على جبيني. عندما استعدت وعيي، كنت على الأرض، أرتعش مبتلًا.

@ART_OF_BOOK

(20)

اختفَت! لكن كيف؟

نهضتُ، وتطلّعتُ من حولي بقلبٍ خادر. لوهلة لم أستطع رؤيتها: اختفَت، والوحدة قد عادت إليّ كالسحاب في أعقاب المطر! هي مَن أعدتُها من حافّة القبر، مَن فرّت منّي، وهجرتني تاركةً لي الوحشة! لم أجرؤ على البقاء للحظة واحدة في هذه الوحدة الشنيعة. هل أسأتُ إليها حقًّا؟ لا بُدّ لي من تكريس حياتي حتّى أشاركها الحِفل الذي أجبرتُها على استعادته!

لمحتُها تمشي مُسرِعةً على العشب، مبتعدةً عن النهر، غطستُ في النهر من أجل وداعٍ شافٍ، وانطلقتُ في إثرها. كانت الزيارة الأخيرة لدودة العَلَق وصاعقة المرأة قد أضعفتاني، لكن قوّتي كانت تنتعش من جديد، وتمكّنت من إبقائها في مجال نظري دون صعوبة.

"هل هذه هي النهاية، إذن؟" قلتُ بينما أمضي، وترنّمَ قلبي بأنشودة حزينة. لاحقني غضبها، عيناها الكارهتان.كان بإمكاني فهم سخطها من فرضي الحياة عليها، لكن هل آذيتها بخلاف ذلك؟ لماذا أثرتُ اشمئزازها منّي؟ هل يمكن للعفّة مُجسّدةً أن تمتعض من الخدمة الصادقة؟ كيف يمكن لأكثر النساء حكمةً، الواعية بكل أفعالي، أن تضمر لي أدنى شعور بالإجحاف المُخزي؟ أيّ تبجيل دفعني

لعدم لَمسها! كأب مع ابنته التي ماتت أمها، طالما حملتها ورعيتها! هل ضاع كل جهدي، كل أملي اليائس من أجل الجحود فحسب؟ "لا"، أجبت نفسي؛ "حتمًا للجَمَالِ قلبٌ! مهما كان مختفيًا في الأعماق، لا بُدَّ أنه هناك! كلما كان مدفونًا بعمق أكبر، كلما استيقظ أقوى وأكثر صِدقًا في قبره البديع! وإيقاظ ذلك القلب هو عَطاءٌ من أجلها، أفضل من أسعد الحيوات! كان له أن يمنحها حياةً أسمى، وأكثر نُبلًا!".

كانت تهبط منحدرًا سهلًا أمامي، سائرةً قُدمًا باستقامة وثبات كإنسان يعلم أين هو، وعندها انتبهتُ إلى أنها كانت تزيد المسافةً بُعدًا بيننا. استجمعت قواي حتى فاضت داخلي. امتلأت عروقي بحياة متجدِّدة! بدا جسدي وكأنه أصبح أثيريًا، وسائرًا كرياح منسابة، وسرعان ما نجحتُ في اللحاق بها.

أبدًا لم تنظر وراءها. مسرعةً كانت تتحرك، كإلهة إغريقية، لكن بلا تعجُّل. كنت على بعد ثلاث ياردات منها، عندما استدارت بحدَّة، لكن برشاقة لم تنقطع، ووقفت. لم تُظهر أيَّ وهن أو استحرار. لم يكن شحوبها اصفرارًا، بل بياضًا مطلقًا؛ كانت أنفاسها متأنِّيةً وعميقة. بدت عيناها وأنهما تملآن السماء، وتمنح الضياء للعالم. كانت الظهيرة تقترب، لكن شعورٌ استولى عليَّ بليلٍ عظيم، فيه تتعملق النجوم بفعل ندى خَفيٍّ.

"لماذا تتبعني؟" سألتني، بهدوء ممتزج ببعض الحدّة، كما لو كانت لم ترَني من قبل.

"عشت طويلًا"، أجبتها، "على أمل عينيك وحده، لحدّ أنني حتمًا أتوق لرؤيتهما مجدّدًا!".

"لن تفلت من العقاب!" قالت ببرود. "آمرك أن تتوقّف حيث أنت".

"لن أغادرك قبل أن أراكِ في مكان آمن"، أجبتها.

"إذن فتحمّل العواقب"، قالت، واستأنفت خطواتها المنزلقة السريعة.

لكن بينما تستدير ألقت عليّ نظرة خاطفة، وتصلّبتُ في مكاني كما لو أن رُمحًا قد اخترقني. أخفق ازدراؤها: كانت لتقتلني بجمالها فحسب على أيّ حال!

استعاد اليأس عزيمتي؛ انكسر السحر؛ ركضتُ، ولحقتُ بها.

"ارحميني!" هتفت.

لم تُلقِ بالًا. تبعتها كطفل تتظاهر أمُّه بهجره. "سأكون لكِ عبدًا"، قلت، ووضعتُ يدي على ذراعها.

استدارت كما لو أن حيّةً قد لدغتها. تراجعتُ أمام وهج عينيها، لكنني لم أستطع إبعاد عينيّ.

"ارحميني"، هتفتُ مجدّدًا.

استأنفت سيرها.

مشيث في إثرها طوال النهار. ارتفعت الشمس في قلب السماء، بدت وكأنها تلكأت قليلًا في سمتها، ثم هبطت في الجانب الآخر. لم تتلكأ هي لوهلة، ولا توقفتُ عن السير في إثرها. أبدًا لم تُدر رأسها، ولم تتراخَ خطوتها.

هبطت الشمس، وطلغ الليل. ظللتُ على مقربة منها: إذا اختفت عن نظري لحظةً، ستختفي للأبد!

سِرنا طوال النهار على أجَمَات العشب الكثيفة: توقّفَت بغتةً، وألقت بنفسها عليها. كان هناك بعض الضوء ما يزال لأتبيّن أنها كانت مرهقةً تمامًا. وقفتُ وراءها، وحملقتُ فيها من علٍ لوهلة.

هل وقعتُ في حبّها؟ كنت أعلم أنها ليست خيّرة! هل أبغضتها؟ لم يكن بمقدوري مغادرتها! ركعتُ بجوارها.

"ارحل! إيّاك وأن تلمسني"، هتَفَت.

استلقى ذراعيها على العشب على جنبَيها كما لو كانت مشلولة.

انغلق ذراعيها حول عنقي بغتةً، جامدَين كطَوقٍ حديدي. سحَبَت وجهي لأسفل نحو وجهها، وتشبّثَت شفتاها بخدّي. سرَت لَدغَةُ ألم في موضع ما عبر جسدي، ورجّتني بعنف. انقطعت أنفاسي تمامًا. شيئًا فشيئًا، تلاشى الألم. حلّ محله إرهاقٌ ناعس، واستولت عليّ لَذّة غامضة كالحلم، ثم لا أدري ما حدث بعدها.

أفقت بغتةً تمامًا. كان القمر على مبعدة قليلة أعلى الأفق، لكنه لا ينشر أيَّ وهج؛ لم يكن سوى شيء أبيض في قلب سواد حالِكٍ. استشرى ألم شديد في خدّي؛ وضعتُ يدي عليه، ووجدتُ بقعة مبتلّة. آلمَني عنقي: فيه أيضًا كانت بقعة مبتلّة! تنهّدتُ ببطء، وشعرتُ بإرهاق شديد. أدَرتُ نظري بخمول فيما حولي- ورأيتُ ما آلَ إليه ضوء القمر: كان متجمّعًا حول السيدة! كانت تقف في قلب هالة متلألئة! نهضتُ وخطوتُ نحوها مذهولًا.

"قف!" هتفَت بنَغمةٍ آمِرَة، كما لو كنت كلبًا مشاكسًا. "اتبعني خطوة واحدة أخرى إذا كنت تجرؤ!".

"سأفعل!" غَمغَمتُ، بجَهدٍ متألم.

"ضَع قدمك داخل أبواب مدينتي، وسيرجمك أبناء شعبي؛ ذلك أنهم لا يحبُّون الشّحّاذين!".

كنتُ أصمَّ على أن أسمع كلماتها. ضعيفًا كالماء، ونصف مستيقظ، لم أدرك أنني تحرّكتُ، لكن المَسافة بيننا غدَت أقل. اتَّخذَت خطوةً للوراء، رفعت ذراعها اليسرى، وباليد المضموم بَدَت وأنها تضربني على جبيني. استقبلتها كما لو كانت ضربة من مطرقة حديدية، وسقطت أرضًا.

اندفعتُ واقفًا، باردًا ومبتلًا، لكن قويًا ورائق العقل. هل أنعشتني الضربة؟ لم تكن خلّفت جرحًا ولا ألمًا! لكن لماذا أنا مبتلٌ؟ لم أستلقِ طويلًا بالتأكيد؛ ذلك أن القمر لم يكن أعلى!

وقفَت السيدة على بعد خطوات، بظهرها ناحيتي. كانت تقوم بأمرٍ ما، لم أستطِع تمييز ما هو. ثم عبر توهُّجها المفاجئ أدركتُ أنها كانت تنتزع ملابسها، ووقفَت بيضاء تحت القمر المذهول. وقفَت لبرهة- ثم أقْعَت للأمام.

انطلق شعاعٌ أبيض مبتعدًا في مسار مسحوب بسرعة. في نفس اللحظة، استعاد القمر عافيته، متألقًا بسطوع كامل، ورأيت أن الشعاع كان شيئًا ذا جسد طويل، يندفع بوثبات قويَّة، واطئة، على العشب. بدا وأن لَطخات داكنة تهرع كينابيع على ظهره، كان الأمر كما لو أنه يفزُّ على طول حافَّة الغابة، محاولًا اصطياد ظلال الأوراق.

"يا إله الرحمات!" هتفتُ، "هل ينطلق المخلوق المريع إلى المدينة التي طواها الليل؟" ثم بدا لي أنني أسمع من بعيد الانشقاقَ المباغت وتفشِّي صرخات الرعب، بينما يتقافز الوحش الشاحب من منزل إلى منزل، يمزِّق ويذبح.

فيما أحدِّق في إثره مصعوقًا بالخوف، من ورائه، كسهمٍ خاطف، وصامت مع ذلك، انطلق مخلوق كبير ثانٍ، أبيض بنقاء. كان مساره يتَّجه مباشرةً نحو البقعة التي كانت السيدة سقطت فيها، ثم استلقت، كما ظننت. التصق لساني بسقف فمي. اندفعتُ قُدمًا للحاق بالوحش. لكنه في لحظة تجاوزَ البقعة التي كنت أقصدها.

"من الأفضل"، فكّرتُ، "ألّا أصيح عاليًا: إذا نهَضَت، فقد ينقضُّ الوحش عليها!".

لكن عندما وصلت إلى المكان، لم تكن السيدة هناك؛ فقط الملابس التي كانت أسقطتها كانت تستلقي مُعتمةً في ضوء القمر.

وقفتُ مُحدِّقًا في إثر الوحش الثاني. كان ينهب الأرض بسرعة أكبر من سابقه- في قفزات طويلة، مستوية، سطحية: التجسيد الحي للسرعة التي لا تنضب. اقتفى أثر الخط الذي كان الوحش الأول اتَّخذه، وراقبته وهو يضمحلُّ شيئًا فشيئًا، حتى اختفى على البُعدِ الضبابي.

لكن أين كانت السيدة؟ هل فاجأها الوحش الأول، زاحفًا من فوقها بصمت مطلق؟ لم أسمع أيَّة صرخات! ولم يتوفَّر له وقت لابتلاعها! هل اختطفها في اندفاعه ربما، ثم حملها إلى عرينه؟ لكن حينها لن يسمح له حِمله بالانطلاق بتلك السرعة! وحتمًا كنت لأراه يحمل شيئًا ما!

بدأت شكوك مريعة في الاستيقاظ داخلي. بعد بحثٍ مُضنٍ لكن بلا طائل، انطلقتُ في إثر الحيوانين.

(21)
الأمُ الهارِبَة

بينما أمضي قُدمًا مسرعًا، انثالت سحابة على القمر، ومن الظُّلمة الرمادية انبثق بغتةً شكل بَشَريٌ أبيض لامرأة، تحتضن طفلًا على صدرها، وتتمايل للأمام بينما تركض. كانت على خطّ يتوازى مع خطّي، لكنها لم تلمحني مع إسراعها قُدمًا، والرعب والخوف باديان في كل حركة من سرعتها المنطلقة.

"إنها مُطارَدة!" قلت لنفسي. "مُتصيِّدٌ ما في هذا الليل المريع يلاحقها!".

أن أقتفي أثرها سيزيد من خوفها؛ لذلك خطوتُ إلى طريقها لإيقاف من يتعقَّبها.

بينما أقف لوهلة لأبحث عنها عبر الغبش، جاءت من ورائي اندفاعة سريعة، بخُطى خفيفة، وقبل أن أستدير، اندفع شيءٌ فوق رأسي، وضربني بحدَّة على جبيني، وطرحني أرضًا. نهضتُ من فوري، لكن كل ما رأيته من مُهاجِمي كان بياضًا متلاشيًا. ركضتُ في إثر الوحش، بالدماء تتقاطر من جبيني؛ لكنني لم أمضِ بضع خطوات، حتَّى مزَّقت صرخةُ يأسٍ الليلَ المرتعش. زدتُ من سرعتي، رغم أنه لم يسعني سوى الخوف أن الأوان قد فات.

بعد دقيقة أو اثنتين لمحتُ شكلًا أبيضَ واطئًا يقترب منّي عبر ضوء القمر الضبابي. لا بُدَّ أنه

وحش آخر، اعتقدتُ ذلك بادئ الأمر؛ ذلك أنه اقترب ببطء، زاحفًا تقريبًا، بقفزات عجيبة، متخبّطة، كما لو كان مخلوقٌ يعتصره الألم! التحيتُ عن طريقه، وانتظرت. مع اقترابه، رأيت أنه كان يمضي على ثلاثة سيقان، رافعًا مخلبه الأيسر الأمامي عن الأرض. كانت لديه رُقَطٌ داكنة، بيضاوية، كثيرة على جلد أبيض ناصع، ويصحبه صوت اندفاع واطئ، وكأنه صوت ماء يسقط على العشب. بينما يمضي بجواري، رأيتُ شيئًا يتدفّق من المخلب المرفوع.

"إنه دَم!" قلت لنفسي، "محارب أكثر استعدادًا منّي قد أصابَ الوحش!" لكن، رغم غرابة ذلك، استولت عليّ شفقةٌ بسبب مرأى المخلوق المعذَّب، لحدّ أنني لم أكن لأضربه بفأس لو توفَّر في يدي. في تتابع منقطع من القفزات العرجاء اختفى عن نظري، ودماؤه، كما يبدو، ما تزال تنساب في تيار صغير، داومَ على التدفُّق منسابًا ببطء عبر العشب بجواري. "إذا استمرّ النزيف بهذا الشكل"، فكّرت، "فسريعًا سيكون عاجزًا عن الإيذاء!".

تابعتُ طريقي؛ ذلك أنني قد أكون مفيدًا للمرأة بشكلٍ ما، وآملًا كذلك أن أرى مُنقِذَها.

لمحتها على مسافة قصيرة، جالسةً على العشب، وطفلها في حِجرها.

"هل بإمكاني فعل أي شيء من أجلكِ؟" سألتها.

فور أن سمعت صوتي، جفَلت بعنف، وقبل أن

تنهض، ارتميث على الأرض.

"لا داعي للخوف"، قلت لها. "كنت أقتفي أثر الوحش عندما وجدتِ لحسن الحظ حاميًا أقرب! مرّ بي منذ لحظات بقدمه تنزف كثيرًا لحدّ أنه مات الآن بالتأكيد!".

"يراودني أمل ضئيل في ذلك!" أجابتني، مرتعشةً. "هل تعرف وحش مَن هو؟".

راودتني الآن شكوك عجيبة بعينها، لكنني أجبتها أنني لا أعرف شيئًا عن الوحش، وسألتها عمّا آل إليه مصير مُحاربها.

"أي محارب؟" أجابتني. "لم أرَ أيّ محارب".

"إذن كيف تأتّى للوحش أن يتألّم؟".

"ضربتُ قدمه بحجر- بأقوى ما أستطيع. ألم تسمعه يصرخ؟".

"حسنًا، أنتِ امرأة شجاعة!" أجبتها. "اعتقدتُ أنكِ أنتِ مَن صرخت!".

"كانت النَّمِرة".

"أبدًا لم أسمع صوتًا كهذا من حلق حيوان! كان كصرخة امرأة في عذاب!".

"بُحّ صوتي؛ لم أستطع أن أصرخ لإنقاذ رضيعتي! عندما رأيتُ الفم البشع على العنق الأبيض الصغير لمحبوبتي، التقطتُ حجارة وسحقتُ قدمها

العرجاء".

"أخبريني أكثر عن المخلوق"، قلت لها؛ "أنا غريب في هذه الأنحاء".

"ستعرف الكثير عنها سريعًا إذا ذهبت إلى بوليكا!" أجابتني. "الآن، عليّ ألّا أعود إلى هناك أبدًا!".

"نعم، سأذهب إلى بوليكا"، قلت لها، "لرؤية الأميرة".

"انتبِه لنفسك؛ قد يكون من الأفضل ألّا تذهب! لكن ربما تجد ما تبحث عنه! الأميرة امرأة من نوع نادر جدًا!".

تناهت إلى سمعي حركة خافتة. كانت السحب الآن تتجمّع في طبقات سميكة جدًا على القمر لحدّ أنني بالكاد تمكّنتُ من رؤية مُرافقتي؛ كنت أخشى أن تنهض لتفرّ منّي.

"حقيقةً لا أمثّل لكِ أيّ خطر من أيّ نوع"، قلت لها. "أي قسَم تودّين أن أقسِمَه؟".

"أعرف من طريقة كلامك أنك لستَ واحدًا من أبناء شعب بوليكا"، أجابتني؛ "سأثق بك! لستُ واحدةً منهم كذلك، ولا يمكنني أن أكون: لا يثقون في إنسان أبدًا- فقط لو أتمكّن من رؤيتك! لكن صوتك يعجبني! ها هي محبوبتي نائمة! لم يؤذِها الوحشُ البغيض! نعم: إنها رضيعتي ما كانت تطلبه!" تابعَت حديثها، محتضنةً الطفلة. "وبعدها ستمزّق

أمّها إلى شظايا حتى تحملها بعيدًا! يقول البعض إن الأميرة لديها نَمِرتان بيضاوان"، أضافت: "أعرف واحدة منهما فقط- ذات الرُّقط. الجميع يعرفونها! عندما تسمع الأميرة عن رضيع، تُرسل تلك النَّمِرة على الفور لامتصاص دمائه، وبعدها يموت أو يكبر ويصبح أحمق. كنتُ لأنجح في الهروب برضيعتي، لكن الأميرة كانت بعيدة عن بيتها، واعتقدتُ أن بمقدوري تحاشيها. لكن لا بُدّ أنها كانت في طريق عودتها في صحبة البهيمة، وتقاطع طريقي مع طريقها. سمعتُ شمشمة النَّمرة ورائي، وركضت... أوه، أيُّ ركض! لكن محبوبتي لن تموت! لا توجد علامة عليها!".

"إلى أين تأخذينها؟".

"إلى حيث لا يعرف أحد أبدًا!".

"لماذا الأميرة بهذه القسوة؟".

"هناك نبوءة قديمة تقول إن طفلًا سيكون سببًا في موتها؛ لذلك لا تقبل أبدًا بأي عرض للزواج، يقولون".

"لكن ماذا سيكون مصير بلادها إذا قتلت كل الرُّضّع؟".

"إنها لا تهتمُّ البتّة ببلادها. ترسل الساحرات في الأنحاء لتعليم النساء تعاويذ لإبعاد الرُّضّع، ومنحهم أشياء مريعة لأكلها. يقول البعض إنها متحالفة مع "الظِّلّ" لوضع نهاية للعِرْق بأكمله. في الليل نسمع

البهيمة الباحثة عن الرضع، ونستلقي مستيقظين ومرتجفين. يمكنها على الفور تحديد المنزل الذي سيجيء منه رضيع، وترقد عند الباب، تتربّص لتدخل إليه. توجد كلمات تحمل القوة لطردها بعيدًا، فقط لا تنجح دائمًا- لكنني أجلس هنا أتحدث، وقد تكون البهيمة قد وصلت إلى البيت بالفعل، وحينها سترسل سيدتها بالأخرى في إثرنا".

أنهت حديثها حينها، ونهضت في عجلة.

"لا أعتقد أنها ستصل أبدًا إلى البيت. دعيني أحمل الرضيعة عنكِ!"، قلت لها، ونهضت بدوري.

لم تجبني بأي كلمة، وعندما مددتُ يدي لأخذها، لم تفعل سوى أن ضمّتها إلى صدرها أكثر.

"لا يسعني التفكير"، قلت، سائرًا بجوارها، "كيف يمكن للوحش أن ينزف كثيرًا هكذا!".

"خُذ بنصيحتي، ولا تقترب من القصر"، أجابتني. "تظهر أصوات داخله ليلًا كما لو أن الموتى يحاولون أن يصرخوا، لكنهم يعجزون عن فتح أفواههم!".

ودّعتني وداعًا خاطفًا ومباغتًا. كان من الواضح أنها لا ترغب في صحبتي؛ لذلك وقفتُ ساكنًا، وسمعتُ وقْع خطواتها يبتعد متلاشيًا على العشب.

(22)
بوليكا

كنت فقدتُ كل فكرة عن موقعي، سائرًا في الأنحاء بنفاد صبر مطلق، وعاجزًا، عندما وجدتُ نفسي بغتةً في مسار النّمِرة، تخوض في الدم متدفقًا من مخلبها. كان يجري بمحاذاة عقبيَّ بقوة غديرٍ صغيرٍ؛ انتزعتُ قدميَّ منه بسرعة بسبب شكوكٍ ضبابية في عقلي بشأن دَمِ مَن قد يكون. لكنني ظللتُ على مقربةٍ من صوته، سائرًا على جانب التيار، ذلك أنه سيرشدني حتمًا إلى بوليكا.

سرعان ما بدأت في التفكير، رغم ذلك، أنه لا توجد نَمِرة، ولا فيل، ولا حيوان أضخم موجود قبل الإنسان في عالَمي، بمقدوره الإبقاء على شلّال متدفق كهذا من الدماء، ما لم ينفتح كل شريان في جسده، ثم ينطلق نظامه الضخم في ملء أوردته من الحقول والبحيرات والغابات بنفس سرعة إفراغها: لا يمكن أن يكون دمًا! غمستُ إصبعي فيه، وعلى الفور اقتنعت أنه لم يكن دمًا. في الواقع، كيفما وصل إلى هنا، كان هسيسًا ناعمًا لنُهَيرٍ من الماء يجري، دون قناة، على العشب! لكن رغم عذوبة أنشودته، لم أجرؤ على شربه؛ تابعت المشي قُدمًا، باحثًا عن الضوء، ومُنصتًا للصوت المألوف الذي لم يُسمع لأزمنة طويلة؛ ذلك أن صوت النبع الساخن كان في غاية الغرابة. مجرد تبليل قدمي فيه، رغم

ذلك، أنعشني كثيرًا، لحدّ أنني تابعتُ طريقي بلا إرهاق حتى بدأ الظلام في التلاشي، وأدركتُ أن الشمس كانت تقترب. بعد بضعة دقائق، كان بإمكاني أن أتبيّن، أمام الهالة الشاحبة، الأبراج العالية لمدينة... قديمة قِدَم الزمن نفسه على ما يبدو. ثم أخفضتُ بصري لإلقاء نظرة على الغدير.

كان اختفى. كنت لاحظت حقًا قبل وقت طويل أن صوته يزداد خفوتًا، لكنه توقف في نهاية المطاف على أن ألاحظه. تطلّعتُ ورائي: كان العشب في مسار الغدير يمتدّ منحنيًا على مجرى تدفُّقه، عليه تتناثر وتتألق بِرَك صغيرة. في اتجاه المدينة، لم يكن له أثر. وقُرب الموضع الذي أقف فيه، لا بُدّ أن دفق نافورته قد انقطع على الأقل.

حول المدينة كانت بساتين، مُترعة بصنوف شتّى من الخضروات، بالكاد تعرّفتُ على أيّها. لم أرَ أيّ مياه، أو أزهار، أو علامة على وجود حيوانات. كانت البساتين قريبة بشدّة من الحوائط، لكن تفصل بينهما أكوام ضخمة من الحصى الصغير والفضلات المُلقاة من الأبراج المُحصّنة.

خطوتُ إلى أقرب بوابة، ووجدتها مواربة، بلا أيّ تأمين، بلا حارس أو خفير. بالنظر إلى مفصّلاتها، كان من الواضح أنه لا يمكن فتحها أو غلقها أكثر من ذلك. مارًا عبرها، تطلّعتُ عبر شارع عتيق طويل. كان صامتًا تمامًا، وبالكاد تظهر أيَ علامةٍ على الحياة فيه. هل حملتني قدماي إلى مدينة ميّتة؟ استدرتُ

وانطلقت خارجًا مجددًا، ومضيت بمشقّة عبر أكوام الغبار، وعبرت طرقًا كثيرة، يؤدي كل منها إلى بوابة: لن أدلف مجددًا من أيّ بوابة حتى أرى حركة لقاطني المدينة.

لماذا جئت إلى هنا؟ ما الذي كنت أتوقّع أو آمل أن أجده؟ ماذا انتويت أن أفعل؟

عليّ أن أرى، ولو لمرّة واحدة أخرى، المرأة التي كنت أعدتها للحياة! لم أكن راغبًا في مرافقتها؛ ذلك أنها أيقظت داخلي شكوكًا مريعة، والصّداقة، ناهيك عن الحب، كانت أمرًا مستحيلًا بيننا! لكن حضورها كان له تأثير عجيب عليّ، وفي حضورها عليّ أن أقاوم، وفي نفس الوقت أحلّل ذلك التأثير! ما يبدو عصيًا على التفسير فيها، حتمًا سيبهجني أن أنفذ إليه: أن أفهم شيئًا عن وضع كينونتها سيعني أن ألقي نظرةً على عجائب لا يمكن لخيالي حتّى أن يتصوّرها! في هذا كنت في غاية الجرأة؛ ذلك أنه ينبغي للرجل، في سبيل المعرفة، أن يتجاوز الإغواء إلى إرادته المحضة! إلى ذلك، كنت أرجعت للوجود قوّةً شريرة كانت على وشك الفناء، وكنت بالتالي، مهما اعترضت على ذلك، مسؤولًا عن أي مصائب قد تتبع ذلك! كنت عرفت أنها عدوّة للأطفال: قد تُمثّل خطرًا على المخلوقات الصغيرة! بدافع الأمل في اكتشاف أي شيء عن تاريخهم كان أن رحلت عنهم؛ في ذلك لم يصادفني إلا بصيص من النور: عليّ أن اعرف المزيد؛ عليّ أن أتعلّم كيف أحميهم!

سمعتُ أخيرًا جلبة خافتة في المكان، خطوتُ عبر البوابة التالية، ومن هناك سِرتُ عبر شارع ضيّق على جانبيه تصطفُّ منازل طويلةٌ وصولًا إلى ميدان صغير، حيث جلستُ عند قاعدة عمود كبير ذي مخلوق بشع يشبه الوطواط على قمته. لم يمرَّ وقت طويل قبل أن يجيء عدّةُ قاطنين للمدينة متسكّعين أمامي. تحدّثتُ إلى أحدهم: لم يمنحني سوى تحديقة وقحة وكلمة أكثر وقاحة، وتابع سيره.

نهضتُ وانطلقت عبر شارع ضيّق إثر آخر، يمتلئ شيئًا فشيئًا بالمتبطّلين، ولم يدهشني أنني لم أرَ أيّ أطفال. بعد ذلك بوقت قصير، قُرب واحدة من البوابات، صادفتُ مجموعة من الرجال الشباب ذكّروني بالعمالقة الأشرار بعض الشيء. التفّوا حولي مُحدّقين، وشرعوا في دفعي ومزاحمتي، ثم في إلقاء أشياء عليّ. تحمّلتُ قدر ما أستطيع، راغبًا في ألّا أثير عداوات في المكان الذي أرغب في المُقام فيه لبعض الوقت. أكثر من مرّة استنجدتُ بالعابرين الذين تصوّرتُ أنهم ذوو مظهر خيِّر بعض الشيء، لكن أحدًا لم يتوقف للإنصات إليّ. كنتُ أبدو فقيرًا: وبالنسبة لمواطني بوليكا، كما لكلاب المنازل، فإن الفقر جريمة! فُرِضَت ضريبةٌ على العاهات الجسدية والمرض؛ ولا قانون لأميرتهم يعلو على قانون أن يجعلوا الفقر خادمًا للثروة.

تمكّنتُ من الفرار في النهاية، ولم يتبعني أيُّهم إلى ما وراء البوابة. رغم ذلك، التقط حارس مُتثاقِلٌ،

كان يجلس بجوار البوابة ويأكل كسرة خبز. حجرًا لرميه في إثري، ولحسن الحظ، بحماسه الأحمق، لم يرمِ الحجر، بل كسرة الخبز. أخذتها، ولم يجرؤ على محاولة استرجاعها: وراء حوائط المدينة كانوا جميعًا جبناء بلا استثناء. انطلقت مبتعدًا عدة مئات من الياردات، ألقيت بنفسي أرضًا، وأكلت الخبز، واستغرقت في النوم الهانئ على العشب، حيث جدَّدت أشعة الشمس من قواي.

كان الليل قد حلَّ عندما استيقظت. نظرَ القمر إليَّ من علٍ بحميمية، وكأنه يتباهى بمعرفته القديمة لي. كان في غاية الإشراق، وهو نفس القمر، فكَّرتُ، الذي رافقني في أهوال ليلتي الأولى في ذلك العالم العجيب. هبَّت ريح باردة من البوابة، جالبةً معها رائحةً خبيثةً؛ لكنها لم تُشعرني بالبرد؛ ذلك أن الشمس كانت ملأتني بالدفء. تسلَّلتُ مُجدَّدًا إلى المدينة. وجدتُ الجِفنة، التي كانت حينها في العراء، قد جثمت في الزوايا للهروب من الهبَّات المُرجِفة.

كنتُ أسير ببطء عبر الشارع الضَّيِّق الطويل، عندما تقافزَ أمامي مباشرةً، شيء أبيض هائل، عابرًا إيَّاه، بومضة واحدة في ضوء القمر، ثم اختفى. استدرتُ إلى الفُرجة التالية، توَّاقًا لرؤيته مجدَّدًا.

كانت زقاقًا ضيقًا بشدَّة، لحدِّ أنه بالكاد يمكن المرور منه، لكنه قادني إلى شارع أكثر اتساعًا. في اللحظة التي دلفت فيها إلى هذا الأخير، رأيتُ على

الجانب المقابل، في الظل، المخلوق الذي كنت أقتفي أثره، يتبع بدوره شيئًا يشبه الكلب ظننته إنسانًا. كان يتلفّت، بين لحظة وأخرى، من فوق كتفه، ليلقي بنظرات خاطفة على الحيوان وراءه، لكنه لم يتحدّث إليه، ولا حاول إبعاده. في موضعٍ اضطرَّ فيه لعبور بقعة من ضوء القمر رأيت أنه لم يخلق أيَّ ظل، وهو نفسه لم يكن سوى ظلٍّ مسطّح، ذي بُعدَين. كان، رغم ذلك، ظلًّا مُصمَتًا؛ ذلك أنه لا يُعتِم فحسب أي جسم على الجانب الآخر منه، بل يجعله، في الحقيقة، غيرَ مرئيّ. في الظلّ كان هو أكثر اسودادًا من الظّلّ. بدا في ضوء القمر كما لو أنه يرتدي ظِلَّه فوق جسده؛ ذلك أن نتفةً منه لم تكن تتحرك بجواره أو تحته، فيما الحيوان المتلألئ، الذي اقترب بشدّة من عقبَيه وكأنه الظل الأبيض لسواده، والذي أرى الآن أنه كان نَمِرةً، تجرُّ ظلَّها المنزلق أسود على الأرض بجانبها. عندما خرجا معًا من الظّلّ إلى ضوء القمر ازداد "الظّلُّ" سوادًا، وومض الحيوان متوهجًا. كنتُ في تلك اللحظة أسير بمحاذاتهما على الجانب المقابل، قدمَاي العاريتان تقرعان الأحجار المنبسطة: أبدًا لم تُدِر النَمِرة رأسها ولا ارتجَفَت أذناها؛ بينما ألقى "الظّلُّ" نظرة واحدة عليّ فيما يبدو، ذلك أنني لمحتُ بشكل خاطف خطًا مستقيمًا حادًا، لكنني أخفقت في رؤية جانب وجهه. في تلك اللحظة، وصلت إليّ الرياح وهبّت خلالي: ارتعشت من رأسي إلى قدميّ، وتخبّط قلبي بين جدران صدري، كحصاة في

خُشخَيشة طفل.

@ART_OF_BOOK

(23)

امرأةٌ من بوليكا

انتحيتُ جانبًا إلى زقاق، وأويتُ إلى قنطرة صغيرة. توقَّفتُ تحتها وتطلَّعتُ إلى ضوء القمر الذي ملأ الزقاق. في نفس اللحظة جاءت امرأة متسلِّلةً في إثري، استدارت، مرتشعةً، وتطلَّعَت إلى الخارج بدورها. مرَّت بعض ثواني؛ ثم ظهرت نَمِرةٌ ضخمة، جلدها الأبيض مُرقَّط بلَطخات كثيرة، منطلقةٌ عبر القنطرة. التصقت بي المرأة، وامتلأ قلبي بالشفقة. أحطتها بذراعيَّ.

"إذا جاءَ الوحش سأمسك به"، قلت لها، "وعليكِ أنتِ أن تهربي".

"شكرًا!" غمغمَت.

"هل رأيتِه من قبل؟" سألتها.

"عِدَّة مرَّات"، أجابتني، مرتعشةً ما زالت. "إنها حيوان أليف للأميرة. أنت غريب، وإلَّا كنت لتتعرَّف عليها!".

"أنا غريب حقًّا"، أجبتها. "لكن هل يُسمح لها، إذن، أن تكون طليقة؟".

"يُبقونها في قفص، فمها مُكمَّم، وقدماها في قفازات من جلد التماسيح. إنها مُسلسلة أيضًا؛ لكنها كثيرًا ما تخرج من القفص، وتمتصُّ دماء أيِّ طفل

تمسك به. لحسن الحظ لا توجد أمّهات كثيرة في بوليكا!".

حينها انفجَرَت دموعها.

"أتمنّى لو أنني في البيت!" قالت منتحبةً. "عادت الأميرة في الليلة الفائتة فحسب، وها هي النَّمِرة مطلقة السراح بالفعل! كيف لي أن أصل في منزلي؟ إنها تطاردني أنا، أدركُ! ستستلقي عند بابي، تترقَّب وصولي! لكنني حمقاء بتحدُّثي إلى غريب!".

"ليس كل الغرباء أشرارًا!" قلت لها. "لن تمسك بك البهيمة حتى تنتهي منّي، وحينها ستكونين في الداخل. أنتِ محظوظة أن لديك منزلًا تذهبين إليه! أيّة رياح مُريعة هذه!".

"أوصِلْني إلى بيتي آمنةً، وسأمنحك ملجئًا منها"، أجابتني. "لكن علينا أن ننتظر قليلًا!".

طرحتُ عليها أسئلة كثيرة. أخبرتني أن أبناء الشعب لا يفعلون أي شيء باستثناء الحفر بحثًا عن الأحجار الثمينة في أقبيتهم. كانوا أثرياء ويحصلون على كل شيء يحتاجونه من المدن الأخرى.

"لماذا؟" سألتها.

"لأنه من العار أن تعمل"، أجابتني. "الجميع في بوليكا يدرك ذلك!".

سألتها كيف أنهم أثرياء في حين لا يجني أيّهم مالًا. أجابتني أن أجدادهم قد ادّخروا الكثير من

أجلهم، ولم ينفقوه أبدًا. كانوا عندما يحتاجون أموالًا؛ يبيعون بعضًا من جواهرهم.

"لكن لا بُدَّ أن هناك بعض الفقراء!" قلت لها.

"أعتقد ذلك، لكننا لا نفكر أبدًا في أمثال هؤلاء. عندما يصبح أحدنا فقيرًا، ننساه تمامًا. هكذا نبقى أثرياء. نريد أن نكون أثرياء دومًا".

"لكن عندما تستخرجون كلَّ أحجاركم الثمينة وتبيعونها، ستضطرون إلى الأنفاق من أموالكم؛ وحينها لن يتبقَّى لديكم شيء!".

"لدينا الكثير جدًا منها، وما يزال هناك الكثير جدًا منها في الأرض، لحَدَّ أن ذلك اليوم لن يأتي أبدًا"، أجابتني.

"لنفترض أن شعبًا من الغرباء هاجموكم، وسلبوا كل ما لديكم!".

"لا يجرؤ شعب من الغرباء على ذلك؛ جميعهم يخافون أميرتنا بشكل مريع. إنها مَن تُبقينا آمنين وأحرارًا وأثرياء!".

بين لحظة وأخرى فيما تتحدث، كانت تتوقَّف وتتطلَّع وراءها.

سألتها لماذا يحمل شعبها كل هذه الكراهية للغرباء. أجابتني أن وجود الغرباء يُدنِّس المدينة.

"لماذا؟" سألتها.

"لأننا أكثر قِدَمًا ونُبلًا من أيّة أمّة أخرى. لذلك"، أضافت، "دائمًا ما نطرد الغرباء من المدينة قبل حلول الليل".

"كيف، إذن، ستأخذينني إلى منزلك؟"، سألتها.

"سأضع استثناءً من أجلك"، أجابتني.

"ألا يوجد موضع في المدينة لإيواء الغرباء؟".

"مكان كهذا كان ليُهدم حتمًا، ويُحرق صاحبه. كيف لنا أن نحافظ على النقاء إلّا عبر إبقاء الوضيعين على مسافة معقولة؟ الكرامة مسألة دقيقة جدًّا!".

أخبرتني أن أميرتهم تحكمهم منذ آلاف السنين؛ وأنها تتمتّع بسلطة على الهواء والماء، والتراب كذلك- وعلى النار أيضًا ربما؛ لحدّ أنه بإمكانها فعل ما يحلو لها، وأنه لا أحد يعلو عليها.

عندما أصبحت أخيرًا على استعداد لأخذ المخاطرة، اتّخذنا طريقنا عبر الأزقّة والممرات الضيّقة، ووصلنا إلى باب منزلها دون أن نصادف مخلوقًا حيًا واحدًا. كان في شارع أوسع، بين منزلين طويلين، في نهاية درَج ضيق، متحدِّر، صعَدَتْ عليه ببطء، وأنا في إثرها. قبل أن نصل إلى نهاية الدّرَج، مع ذلك، بدت أنها فزعت من شيء ما، وقطعت باقي الدرجات في قفزة واحدة: فور أن وصلت أنا إلى الباب، أغلق في وجهي، ووقفت ذاهلًا على بسطة الدّرَج، حيث كان طولها كافيًا، بين البابين المتقابلَين للمنزلين، لاستلقاء رجل بالغ.

مرهقًا، وخشية أن أدنّس بوليكا بوجودي، انتهزت الفرصة واستلقيت في ذلك المأوى، رغم بؤسه.

(24)

النَّمِرة البَيضاء

عند أسفل الدَّرَج امتدَّ الشارع الغارق في ضوء القمر، وكان بإمكاني سماع الرياح الفاسدة، غير المُرحَّبة، تهبُّ في الأسفل. ولا نفسٌ منها دلفَ إلى ملجئي، كنتُ أهيِّئ نفسي للراحة، عندما انفتحت عياني بغتةً، لأرى رأس المخلوق المتلألئ الذي كنت رأيته يلاحق "الظِّلَّ"، يصعد لتوِّه على آخر درجة قُبالتي! في اللحظة التي لمَحَت فيها النَّمِرة عينيّ، توقَّفَت وبدأت في التراجع، بذيلها منتصبًا. انتفضتُ واقفًا؛ وعليه، بلا مجال للاستدارة، ألقت بنفسها للخلف، وانقلَبَت، وصارعت بقدميها، وفي لحظة كانت تدحرج هابطةً الدَّرج ثم اختفَت. تَبعتها إلى الأسفل، وتطلَّعتُ عبر الشارع يمينًا يسارًا. لم أرها بأي شكل، فقفلتُ راجعًا إلى سريري القاسي.

كان هناك، إذن، مخلوقان شرِّيران يجوسان في أنحاء المدينة، أحدهما بِرُقَط والآخر بدون! لم أكن ميَّالًا للمخاطرة كثيرًا من أجل أيِّ رجل أو امرأة في بوليكا، لكن حياة طفل قد تستحق التضحية بحياة بائسة كحياتي، وعزمتُ على مراقبة ذلك الباب طوال الليل.

في تلك اللحظة سمعتُ رتاج الباب يتحرَّك، بطيئًا، بطيئًا: رفعت بصري، ورأيت الباب مواربًا، ثم نهضتُ وانسللتُ بخفَّة عبره. وراءه كانت تقف، ليست المرأة

التي كنت صادقتها، بل امرأة الصحراء الملتفعة. بلا كلمة قادتني إلى حجرة خاوية مرصوفة بالحجارة، وأشارت إلى بِساط على الأرضية. لففتُ نفس فيه، واستلقيت أرضًا مجددًا. أغلَقت باب الحجرة، وسمعتُ الباب الخارجي ينفتح وينغلق ثانيةً. لم يكن هناك ضوء باستثناء ما يأتي من الهواء المشبع بنور القمر.

بينما أستلقي مؤرَّقًا، بدأت في سماع أنين مكتوم. استمرَّ لفترة ليست قليلة، ثم جاءني بكاء طفل، متبوعًا بصرخة مريعة. نهضتُ مندفعًا وانطلقت إلى الممر: من باب آخر فيه جاءت النَّمِرة البيضاء برضيع حديث الولادة في فمها، تحمله وكأنه شِبل من صُلبها. ارتميث عليها، وأجبرتها على ترك الطفل، الذي سقط على الألواح الحجرية بعويل مثير للشفقة.

مع الصرخة ظهرت المرأة الملتفعة. خَطَت من فوقنا، البهيمة وأنا، حيث كنّا نستلقي نتعارك في الممر الضيق، تناولَت الطفل، وحملته بعيدًا. عادت، وانتزعتني من الحيوان، ثم فتحت الباب ودفعتني برفق للخروج منه. ثم خَطَت النَّمِرة في إثري.

"لقد خذلتني هي أيضًا!" فكّرتُ؛ "تخلَّت عنّي إلى البهيمة لتحقق راحة بالها! لكن حتمًا سنتعارك بشأن هذا!".

ركضتُ هابطًا الدَّرج، خائفًا أن تنقضَ النَّمِرة

على ظهري، لكنها تبعتني بهدوء. عند نهاية الدَّرج استدرتُ لأمسك بها، لكنها وثبت من فوق رأسي؛ وعندما استدرتُ مجدَّدًا لمواجهتها، كانت جاثمة عند قدميّ! انحنيتُ ومسّدتُ على جلدها الأبيض الجميل؛ استجابت لي بلَعْق قدمَيّ العاريتين بلسانها الجاف الصلب. ثم ربّتُّ عليها ولاطفتُها، بئر من الإشفاق انفجر في قلبي: قد تكون غادِرةً حقًّا، لكن إذا رفضتُ كل عرضٍ للحب خشية أنه مصطنع، فكيف لي أن أجد أبدًا الحب الأصيل الذي حتمًا يوجد في موضع ما في كل عالَم؟

نهضتُ، ثم نهَضَت هي، ووقَفَت بجواري.

سقط جسم هائل وارتطم بصوت مكتوم حادٍّ في منتصف الشارع، على بُعد خطواتٍ منّا. هرعتُ ناحيته، ووجدتُ كتلة عجينية، بشكل يكفي لتبيُّن أنه جسد امرأة. لا بُدَّ أنه أُلقيَ من نافذة مجاورة! تطلّعتُ من حولي: كان "الظِّلُّ" يسير على الجانب الآخر من الشارع، بالنَّمِرة البيضاء وقد تركتني ومَضَت في إثره مجددًا.

تبعتهما وتخطّيتهما، مصلّيًا في قلبي ألّا تكون النّمِرة تحت إمرته ربما. عندما اقتربتُ منهما، مع ذلك، استدارت وانقضَّت عليّ بزمجرة بشعةٍ، لحدِّ أنني تراجعتُ غريزيًّا: على الفور عادت إلى موضعها وراء "الظِّلّ". مجدّدًا اقتربتُ منهما ومجددًا انقضَّت عليّ، وعيناها تتوهّجان كأحجار زمرّد حيّة. أجريتُ التجربة مرة أخر واحدة: فنهشتني وكأنها كلب

وعضّتني. استسلم قلبي، وأطلقتُ صرخةً؛ عليه تطلع المخلوق حوله بنظرةٍ تعني بوضوح. "لماذا تجبرني على فِعل ذلك؟".

استدرتُ مبتعدًا غاضبًا من نفسي: كُنتُ أخسر في كل مرّة منذ وطأت أقدامي هذا المكان! رغم حلول الليل، عليّ أن أنطلق مباشرةً إلى القصر! من الميدان الذي كنت رأيته- عاليًا فوق قلب المدينة، محاطًا بدفاعات كثيرة، كان يبدو قلعةً أكثر من كونه قصرًا.

لكنني وجدتُ تحصيناته، كما هو الحال مع تحصينات المدينة، مهجورة تمامًا، ومهدّمة جزئيًا. كان من الواضح أنها لم تُستخدم طوال قرون! كان للقصر بوابات قوية، وشيء يشبه الجسر المتحرّك يصل إليها من فوق هوّة صخرية؛ لكنها كانت تنتصب مفتوحة، وكان من الصعب تخيُّل أن المياه قد شغلت أبدًا الخواء الأجوف أمامها. كان كل شيء ساكنًا لحدّ أن النوم بدا وأنه يخترق هياكلها؛ ممّا جعل ضوء القمر ذاته يبدو مستيقظًا على نحو ناشز. عليّ أن أدخل كلصّ مُتسلّل، أو أن أحطّم الصمت الذي أحال فكرة وجود أيّ صوت شيئًا مرعبًا.

ككلبٍ منبوذ سرتُ أسير بمحاذاة الحوائط، عندما صادفتُ فُرجةً ذات مقعد حجري: آويتُ إليها هربًا من الرياح، وتمدّدتُ، ورغم البرد سرعان ما استغرقتُ في النوم.

أيقظني شيءٌ يتقافز فوقي، ويلعق وجهي بلسان

خشن لحيوان سنّوريّ، "إنها النّمِرة البيضاء!" فكّرت. "لقد عادت لامتصاص دمائي! لكن لماذا لا تمتصُّها؟ سيُكلِّفني الدفاع أكثر من الاستسلام حتمًا!"؛ لذلك استلقيتُ ساكنًا، مترقّبًا دفقة ألم. لكن الوخزة لم تأتِ؛ بل بدأ دفء بهيج في الانتشار عبر جسدي. متمدّدًا على ظهري، التصقت بي قدرَ ما تستطيع، وحرارة جسدها تخترق جسدي ببطء، وأنفاسها، التي لم تكن تشبه أنفاس أي بهيمة وحشية، تلفُّ رأسي ووجهي بغطاء حميمي. استولى عليَّ يقينٌ مطلق أن نِيَّتها نحوي كانت خيِّرة. استدرتُ كصبي ناعس، وألقيتُ بذراعيَّ حولها، وغرقتُ في غيبوبة عميقة.

عندما بدأت في الاستفاقة، تخيّلتُ أنني أستلقي مستدفئًا ومرتاحًا في فراشي. "هل يُعقل أنني في بيتي؟" فكّرتُ. بدت روائح البستان التي أعرفها جيدًا وكأنها تتسرّب إليّ. دعكتُ عينيّ، وتطلّعتُ من حولي: كنت أستلقي على حجارة جرداء في قلب مدينة بغيضة!

اندفعتُ ناهضًا من المقعد. هل كان رفيق فراشي نمرة حقًّا، أم أنه لم يكن سوى حُلم؟ كانت غادرتني لتوّها؛ ذلك أن دفء جسدها ما يزال معي بَعد!

غادرتُ الفُرجة بأملٍ جديد، قويّ وضبابيّ مع ذلك. أمر واحد فحسب كان واضحًا لي: عليّ أن أجد الأميرة! بالتأكيد لديّ قوّة تُضاهيها، إن لم تكن تَفوقها! ألم أنقذ حياتها، وألم تستمر على قيد الحياة

على حساب حيويتي؟ منحتني الفكرة الشجاعة لمواجهتها، أيًا ما قد "تكون".

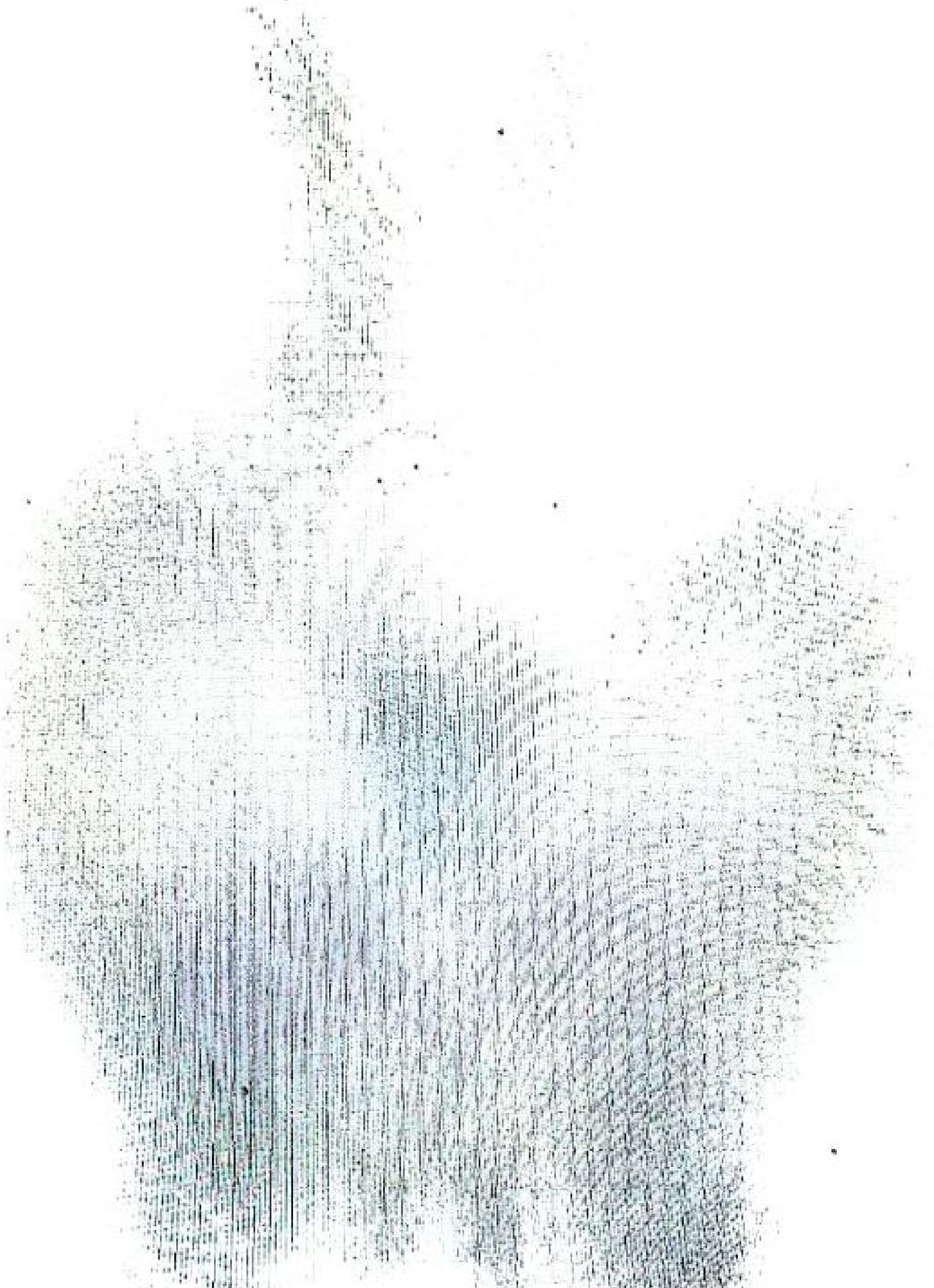

(25)
الأميرة

بعد أن أتممتُ دورة كاملة حول القلعة، وصلتُ أخيرًا إلى البوابات المفتوحة، وعبرتُ خندقًا مائيًا يشبه الوهدة، ثم وجدتُ نفسي في ساحة ممهَّدة، تتناثر فيها على مسافات منتظمة أشجار سامقة تشبه أشجار الحَور. في المركز كانت شجرة أطول من البقية، فروعها، بالقرب من قمَّتها، منبسطة قليلًا وتمنحها مظهرًا يشبه النخيل. بين تلك الجذوع الهائلة لمحتُ القصر، الذي كان ذا طراز غريب بالنسبة لي، لكنه يوحي بأصل هنديّ. كان عريضًا وواطئًا، بأبراج عالية عند الزوايا، وقُبَّة ضخمة واحدة في المنتصف، ترتفع من السقف حتّى منتصف ارتفاع الأبراج. كان المدخل الرئيسي في منتصف الواجهة الأمامية- قوس واطئ يشبه نصف إهليج. لم أرَ أي إنسان، كانت الأبواب تنتصب مفتوحة على اتّساعها، ودلفت بلا عائق إلى بهو كبير، على شكل قوس بيضاوي متطاول. قُرب أحد الجوانب كان ينتصب قفص، فيه تجثم، برأسها على مخالبها، نُمرة هائلة الحجم، مسلسلة بطوق من الصُلب، وفمها مُكمَّم ومخالبها ملفوفة بلفاع. كانت بيضاء ذات رُقَطٍ داكنة بيضاوية، وتستلقي مُحدِّقةً بعينيها مفتوحتين على اتّساعها، ذات بؤبؤين على شكل زورق، وقزحتين خضراوين كبيرتين. بدا

أنها تراقبني، لكنني لم ألمح أي مُقلة، ولا ساق، ولا شارب يتحرَّك، وامتدَّ ذيلها وراءها متصلِّبًا كقضيب حديدي. لم أستطع تبيُّن إن كانت حيَّةً أم لا.

من هذا الرواق كان يتفرَّع ممرَّان؛ سلكتُ أحدهما، ووجدته يتفرَّع إلى مزيد من الممرات، جميعها ضيِّقة ومنحرفة. في موضع بالكاد يسمح بمرور شخصين، صادفني خادم. جَفلَ في رعب، لكنه، بعد أن تفحَّصني جيدًا، استجمع شجاعته، وانتفخ بالعنجهية، وسألني عن شأني.

"أن أرى الأميرة"، أجبته.

"مسألة محتملة! لكنني لم أرَ جلالتها هذا الصباح أنا نفسي!".

أمسكته من مؤخَّرة عنقه، وهَزَزتُه، وقلت، "خذني إليها على الفور، وإلَّا سأجُرُّكَ معي حتَّى نجدها. ستعرف كيف يستقبل خَدَمها زائريها".

منحني نظرةً، وبدأ في جذبي وكأنه كلب رجل أعمى، واقتادني بهذه الطريقة إلى مطبخ كبير، حيث الكثير من الخدم، المنشغلون بتراخٍ، والمستيقظون بالكاد. توقَّعت أن ينقضُّوا عليَّ ويدفعونني إلى الخارج، لكنهم حدَّقوا بدلًا من ذلك، بأعين مُتسعة- ليس فيَّ، لكن في شيءٍ ورائي، وازدادوا رعبًا في تحديقتهم. أدرتُ رأسي، ورأيتُ النَّمرة البيضاء، تنظر إليهم بطريقة لها أن تزرع الخوف في قلوبٍ أكثر شجاعةً.

في تلك اللحظة، رغم ذلك، بدأ أحدهم، بعد أن رأى ربما أن الهجوم ليس وشيكًا، في انتشال نفسه من الخوف؛ استدرت إليه، وحرّرتُ الخادم من قبضتي.

"خُذني إلى الأميرة"، قلت له.

"لم تغادر غرفتها، مولاي"، أجابني.

"أبلغها أنني هنا، أنتظر الاجتماع معها".

"هلّا أبلغتني باسمك، مولاي؟"

"أخبِرْها أن الشخص الذي يعرف دودة العَلَق البيضاء يرغب في رؤيتها".

"ستقتلني إذا نقلت هذه الرسالة: لا ينبغي لي. لا أجرؤ".

"ترفض إذن؟".

ألقى نظرة على مُرافقي، وانصرف.

استمرَّ الآخرون في التحديق، خائفين بشدَّة من الثَّمِرة، لحدّ عجزهم عن انتزاع أعينهم منها. استدرتُ إلى المخلوقة البديعة، حيث تقف، خَطمها قد هبط إلى كاحلي، أبيض كالحليب، بهاءٌ دافئٌ في المكان الموحش، ثم انحنيتُ وربّتُّ عليها. رفعَت بصرها إليَّ؛ حركة رأسها فحسب كانت كافية لتفريقهم في كل الاتجاهات. نهَضَت على قدميها الخلفيتين، ووضعت مخالبها على كتفيَّ؛ ألقيتُ بذراعيَّ حولها. انتصبت أذناها، وأفلتتني، ثم غابت عن الأنظار في لحظة.

عاد الرجل الذي كنتُ أرسلته إلى الأميرة.

"اتبعني رجاءً، سيدي"، قال لي.

خفقَ قلبي بقوة، كما لو كان يتهيّأ للمواجهة. تبعته عبر ممرّات كثيرة، وفي النهاية أدخلني إلى غرفة في غاية الاتّساع والقتامة لحدّ أنني لم أستطع تبيُّن جدرانها. بقعة وحيدة على الأرضية كانت تعكس ضوءًا خافتًا، لكن كل ما حول البقعة كان أسودَ. رفعتُ بصري ورأيت على ارتفاع شاهق تجويفًا إهليجيًا، على حوافه تبَدّت فواصل بين كُتل من الرخام الأسود. كان الضوء على الأرضية يكشف بالقرب عن ألواح من نفس المادة. اكتشفتُ لاحقًا أن الجدار المقوّس البيضاوي كان كذلك من الرخام الأسود، ما جعله يمتصُّ الضوء الخافت الذي يصل إليه. كان السقف هو النصف الطويل من الانحناء البيضاوي، والتجويف الذي يقع فيه يرتكز على واحدة من بُؤَر القوس البيضاوي الممتد حتى الأرض. توهّمتُ أنني رأيت خطوط مُحمرّة، لكن عندما تفحّصتها، اختفَت على الفور.

بغتةً، انتصب شكلٌ متألّق في قلب الظلام، مومضًا بالبهاء على كل جانب. على رداء ناعم أبيض، تدفّق شعرها كالشّلال، أسود كالرّخام الذي تساقط عليه. كانت عيناها ذات سواد مضيء؛ وذراعاها وقدماها كالعاج الأبيض الدافئ. ألقت عليّ التحية بابتسامة فتاة، وفي الوجه، والهيئة، وحركات الجسد- بَدَت

أنها لم تطأ عتبة الأنوثة المكتملة إلّا الآن. "وأسفاه"، فكّرت، "أحمقَ كان اعتقادي في مُهلِكَتي! هل يمكن أن تكون هذه هي المرأة التي أنقذتها- تلك التي صعقتني، ازدرتني، هجرتني؟". وقفتُ محملقًا فيها منبثقةً من الظلام؛ ووقَفَت هي تحدّق فيه، كما لو كانت تبحث عنّي.

اختفت. "لن تعترف بي!" فكّرت. لكن في اللحظة التالية سطَعَت عيناها خارجةً من الظلام إلى عينيّ مباشرةً. كانت لمحتني وخَطَت نحوي.

"لقد وجدتني أخيرًا!"، قالت، واضعةً يدها على كتفي. "كنتُ على يقين أنك ستجدني!".

ارتجف جسدي بمشاعر متناقضة، لا قدرة لديّ لتحليلها. كنتُ مجذوبًا ومطرودًا في آن: كل شعور يتبدّى كالآخر.

"أنت ترتجف!" قالت. "هذا المكان بارد جدًا عليك! تعالَ".

وقفتُ صامتًا: كانت صعقتني حتى الخَرَس بجمالها؛ أسرتني بعذوبتها حتى عجزتُ عن الكلام.

تناوَلَت يدي، وسحبتني إلى بقعة الضوء، وسطَعَت مُجدّدًا عليّ. ثم وقَفَت قُبالتي.

"ازددتَ شفرةً منذ آخر مرّة رأيتك فيها"، قال لي.

"هذا تقريبًا أول سقف يؤويني تحته منذ غادرتني"، أجبتها.

"مَن صاحب السقف الآخر؟".

"لا أعرف اسم المرأة".

"يسعدني معرفتها! غريزة الضيافة ليست في غاية القوّة لدى أبناء شعبي!" تناوَلَت يدي مجدّدًا، وقادتني عبر الظلام لخطوات كثيرة إلى ستارة من السواد. خلفها يقبع دَرَجٌ أبيض، صعَدَت بي عليه إلى حجرة بديعة.

"لا بُدَّ أنك تفتقد النهر المتدفّق الساخن!" قالت. "لكن هناك مغطس في الزاوية بلا ديدان عَلَق بيضاء! على طرف فِراشِك ستجد رداءً. عندما تهبط، سأكون في الغرفة التي على يسارك عند أسفل الدَّرج".

وقفتُ فيما تُغادرني، ملقيًا بالاتهام على ظنوني: كيف تصوَّرتُ أن هذه المرأة البديعة شيء شرِّير، تلك التي تصرَّفَت معي كشقيقة؟ لكن من أين جاء هذا التحوّل العجيب فيها؟ هجرتني بضربة صاعقة؛ ثم استقبلتني بعناق تقريبًا! كانت صبَّت عليّ اللعنات؛ ثم تخبرني الآن أنها كانت على يقين أنني سأبحث عنها وأجدها! هل كانت تدرك شكوكي بشأنها- كم أنا في حاجة إلى تفسيرات! لكن هل بمقدورها تفسير أيّ شيء؟ هل أستطيع تصديقها إن فعلت؟ أمّا بالنسبة لضيافتها، فأنا أستحقُّها ولي أن أقبلها-على الأقل حتى أصل إلى حكم نهائي بشأنها.

هل يمكن لجمالٍ كهذا الذي رأيته، وشرٍّ كهذا الذي

أثار شكوكي، أن يتواجدا في نفس الشخص؟ إذا أمكنهما ذلك، فكيف يُعقل؟ عاجزًا عن الإجابة عن السؤال الأول، يجب أن أدع الأخير ينتظر.

صافيًا كالبلّور، كان الماء في المغطس الأبيض الهائل يُرسل بومضات متلألئة من الزاوية حيث يستقر غائصًا في الأرضية الرخامية، وبدا أنه يدعوني إلى عناقه. باستثناء النبع الساخن، والشربتان في كوخ المرأة المُلتفعة، والبِرَك على آثار الثّمِرة المجروحة، لم أرَ أيّة مياه منذ غادرتُ بيتي: بدا حينها كشيء سماوي. غطستُ فيه بكامل جسدي.

امتلأ عقلي على الفور برائحة عجيبة ومُرهفة، ورغم ذلك لم أحبّها البتّة. أثارت شكوكي في الأميرة مُجدّدًا: هل سمّمَت الماء؟ هل سَحَرته؟ هل كانت تعمل على إيذائي بأي شكل؟ وكيف يوجد ماء في القصر ولا توجد قطرة واحدة في المدينة؟ تذكّرتُ المخلب المُنسحق للثّمِرة، واندفعتُ خارجًا من المغطس.

في ماذا كنتُ أستحمّ؟ مُجدّدًا رأيتُ الأم الهاربة، مجدّدًا سمعتُ العواء، مجددًا رأيتُ البهيمة العرجاء. لكن ماذا يهمّ من أين يتدفّق الماء؟ أليس ماءً عذبًا؟ أليس نفس الماء الذي يُفرزه نبات السّلوى من قلبه، ويخزّنه من أجل المسافر المُتعب؟ يجيء الماء دائمًا من السماء: فماذا يهمّ في أيّ بئر يتجمّع، أو في أيّ نبع يتفجّر؟ لكنني لم أدلف إلى المغطس ثانيةً.

ارتديتُ رداء الصوف الأبيض، المطرَّز عند العنق والحواف، الذي استلقى جاهزًا من أجلي، ونزلتُ الدّرَج إلى الغرفة التي كانت مُضيِّفتي قد أرشدتني إليها. كانت من المرمر بالكامل، وبلا نافذة واحدة: كان الضوء يخترق كل شيء، وميض هادئ، لؤلؤيّ، أكثر من كونه سطوعًا. أشكال مُبهَمة من الظلال ترفرف على الجدران والقبة الواطئة، كسحب أمطار هاربة تحت سماء زرقاء- رمادية.

كانت الأميرة تقف في انتظاري، برداء مُطرَّز بحلقات ودوائر ومربعات ومُعيَّنات فضِّيَّة، متقاربة- وكأنها مبعوث الفضّة. انساب الرداء من عنقها وأخفى قدمها، لكنّ كُمَّيه الطويلين المفتوحين تركا ذراعيها عاريَتين.

في الغرفة كانت مائدة من العاج، تحمل كعكات وفواكه، وإبريق عاجيٌّ من الحليب، وإبريق كريستالي من النبيذ ذو لون ورديٍّ شاحب، وقرص خبز أبيض.

"هنا لا نقتل حتى نأكل"، قالت؛ "لكنني أعتقد أنك ستحبُّ ما يمكنني تقديمه لك".

أخبرتها أنني لا أتوق إلى شيء أفضل ممَّا أراه أمامي. جلسَت على أريكة بجوار المائدة، وأومأت لي للجلوس بجوارها.

صبّت لي ملء وعاء من الحليب، وسألتني، وهي تعطيني رغيف الخبز، أن أكسر منه ما أحبه. ثم

ملأت من جرّة النبيذ كأسين من الفضة ذاتَي زخارف بديعة بشكل عجيب.

"أبدًا لم تحتسِ نبيذًا كهذا!" قالت لي.

احتسيته، وتساءلت: لا بُدّ أن كل زهرة في هيبلا وهيميثُوس((15)) قد أرسلت شبحها لنفخ الروح في هذا النبيذ!

"والآن ستكون قادرًا على الإنصات"، تابَعتْ حديثها، "عليّ أن أفعل ما في وسعي لأساعدك على فَهمي. طبيعة كُلٍّ منّا، رغم ذلك، مختلفتان بشدّة، لحدّ أن ذلك قد لا يكون سهلًا. لا يعيش الرجال والنساء إلّا ليموتوا؛ لكننا، ولسنا سوى قِلّة، نعيش لنستمر في العيش. الهرَم هو رعبٌ بالنسبة لك؛ لكنه رغبة عزيزة بالنسبة لي: كلما تقدّمنا في العمر، كلما اقتربنا من الكمال. كمالُكَ شيء بائس، يأتي سريعًا، ولا يدوم سوى برهة؛ بينما كمالنا نضوجٌ لا ينتهي. لم أنضج بعد، وقد عشتُ آلافًا من أعوامك- كم عامًا، لم أهتم لأعرف أبدًا. الأبدية غير قابلة للقياس.

"عشاقٌ كثيرون تاقوا إليّ؛ لم أحبّ أيّهم: لم يتوقوا سوى إلى استعبادي؛ تاقوا إليّ تمامًا كما يتوق رجال مدينتي إلى الجواهر الثمينة. عندما وجدتني، وجدتُ أنا رجلًا! امتحنتك؛ واجتزتَ الامتحان؛ كان حبّك أصيلًا! لكنه، رغم ذلك، بعيد عن المثالية... بعيد عن الحبّ الذي أريده. أحببتني بصدق، لكن ليس بحبٍّ صادق. كانت شفقةً، وليس حبًا. ماذا

تُقدِّم امرأةٌ من أيِّ عالَم مقابل الحبّ بدافع الشفقة؟ هكذا كان حُبّك، بغيضًا في عينيّ. أدرك أنك، إذا رأيتَ ما أنا عليه، ستحبّني -تمامًا كالبقية- من أجل الامتلاك والاستحواذ: لا أرغب في أيٍّ منهما! أبحث عن حبٍّ غير ذلك! أبحث عن حبٍّ يعيش أطول من اليأس، ويغلب اللا مبالاة، والكراهية، والازدراء! لذلك ارتديتُ قناع القسوة، والاحتقار، والجحود. عندما غادرتُكَ، كنت أظهرتُ من نفسي ما سيمنعك على الأقل من ملاحقتي بدافع الشفقة: لم أعُد في حاجةٍ إليك! لكن عليك أن تُرضي رغبتي أو تطلق سراحي- أثبِت أنّكَ لا تُقدَّر بثمن أو أنك بلا قيمة! حتّى تروي جوع حُبٍّ؛ عليك أن تمضي في إثري، ولا تنتظر شيئًا، لا تتوقّع امتنانًا، ولا حتّى شفقة في المقابل! اتبعني وجِدني، وارضَ بمجرَّد الحضور، بأوهى تسامُح! أنا، ولستَ أنت، مَن أخفَقتُ؛ أعلن استسلامي في هذا السِّجال".

نظَرَت إليّ برقّة، وأخفَت وجهها في يديها. لكنني لمحتُ ومضةً وبريقًا وراء الرِّقّة، ولم أصدِّقها. كشفَت نفسها من أجل ضمان استعبادي؛ لم تفعل سوى أن سحَرَتني.

"أميرتي الجميلة"، قلتُ. "اسمحي لي أن أفهم كيف وصل بكِ الأمر إلى هذه المحنة الشيطانية".

"هناك أشياء لا أستطيع تفسيرها"، أجابتني، "حتّى تصبح قادرًا على فهمها بنفسك... وهو ما سيحدث فقط عندما يتحقق كمال الحُبّ. أشياء كثيرة

محجوبة عنك لحدّ أنه لا يمكنك حتّى أن تتمنّى معرفتها؛ لكن بمقدورك طرح أيّ سؤال، يمكنني إجابته بشكل ما.

كنتُ انطلقتُ لزيارة ناحية من ممالكِي يحتلُّها شعبٌ هَمجيٌ من الأقزام، أقوياء ومتوحشين، أعداء للقانون والنظام، معارضين لكل شكل من التقدُّم... عِرقٌ شرير. انطلقت بمفردي، لا أخشى شيئًا، متجاهِلةً لأبسط ضرورات الحيطة. لم أكن أدرك أنه على النبع الساخن الذي عثرتَ عليّ بجواره، كانت امرأة بعينها، ليست في قوّتي بالتأكيد، ولا تتمتع بالخلود، قد ألقت عليّ ما تسمُّونه باللعنة... وهي ليست سوى تهييجٍ لقوةٍ، طبيعية بقدر أيّ قُوّة أخرى، لكنها تعمل في الأصل خارج مدى إدراك الفانين الذين بمقدورهم الانتفاع بها.

انطلقتُ في رحلتي، ووصلتُ إلى النبع، وتهيَّأتُ لعبوره...".

أظلم خدُّها بفعل ظِلٍّ من الارتباك والحيرة: تفهَّمتُ الأمر لكن لم أبدِ أيّ إشارة على ذلك. توقَّفَت لوهلة فحسب، ثم تابعَت:

"... تعرف من تفاصيل ذلك بعض الشيء! لكن أثناء الفعل نفسه، استولى عليّ بردٌ لا يوصف. أدركتُ على الفور طبيعة الهجوم، وأنه لن يؤثر عليّ إلّا لحظيًا. ثم بقوة الإرادة وحدها جررتُ نفسي إلى الغابة... ولا أعرف ما حدث بعد ذلك حتّى رأيتك

نائمًا، ورأيتُ الدودةَ البَشِعةَ على عنقك. زحفتُ إلى الخارج، انتزعت الوحش منك، ووضعتُ شفتيّ على الجرح. بدأتَ في الاستيقاظ؛ ودفنت أنا نفسي بين الأوراق".

نَهَضَت، عيناها تسطعان كما لم تسطع أعينٌ بشرية من قبل، ثم ألقت بذراعيها عاليًا فوق رأسها.

"ما صنعته من أجلي هو لك!" هتَفَت. "سأكافئك كما لم تفعل امرأة من قبل! قوّتي، جمالي، حُبّي، طَوْعُ يدك: خذهم".

سقَطَت راكِعَةً بجواري، وألقت بذراعيها حول ركبتيّ، ونظَرَت إلى وجهي.

حينها لاحظتُ لأول مرّة أنها ترتدي قفازًا واهيًا كبيرًا في يدها اليسرى. في عين عقلي رأيتُ الشَّعرَ والمخالب تحته، لكنني أدركتُ أنها يدٌ مضمومة بقوّة... ربما كانت مرضوضةً بشدّة. نظرتُ إلى اليد الأخرى: كانت جميلةً كما ينبغي لليد أن تكون، وشعرت أنني، إذا لم أنفر منها، فحتمًا سأقع في حبها. وحتّى لا أعبث بمشاعر قاهرة، أشحتُ بعينيّ بعيدًا.

جفَلَت واقفةً على قدميها. جلستُ بلا حراك، ونظري للأسفل.

"في نظري قد تكون صادقةً!" قال خُيَلائي. لوهلة كنتُ فريسةَ الإغواء بأن أحبّ كذبة.

شعرتُ برائحة، ليست ألطف دفقات الأثير، تغمر جسدي... رفعت بصري. كانت تقف منتصبةً أمامي، تلوِّح بذراعيها البديعتين على نحو غامض.

زمجرةٌ مُرعبة دفعت قلبي للانتفاض والاصطدام بجدران قفصه. ارتعش المرمر وكأنه على وشك الانتفاض والتشظّي. ارتجفَت الأميرة بجلاء.

"كان نبيذي في غاية القُوَّة بالنسبة لك!" قالت، بصوت متهدِّج؛ "لم يكن ينبغي أن أمنحك شربةً كاملة! انطلق واخلُد للنوم الآن، وعندما تستيقظ اسألني ما تريد. سأذهب معك... تعال".

فيما هي تتقدَّمني صاعدةً الدَّرَج:

"لا عجب أن الزمجرة قد أفزعتك!" قالت. "أفزعتني أنا أيضًا، أعترف: خشيتُ لوهلة أنها قد فرَّت. لكن هذا مستحيل".

بدا لي أن الزمجرة، رغم ذلك -لا يسعني القول لماذا- قد صدرت عن النَّمِرة "البيضاء"، وأنني كنت المقصود بها، وليست الأميرة.

بابتسامة غادرَتني عند باب غرفتي، لكن فيما تستدير قرأتُ الخوف على وجهها الجميل.

(26)

مَعرَكةٌ مَلَكيّة

ألقيتُ بنفسي على الفِراش، وبدأتُ أقلّب في عقلي الحكاية التي أخبرتني بها. كانت كشفَت عن نفسها ساهيةً، وبكلمة متهوّرة واحدة فحسب، أزالت جزءًا من الحيرة التي أحاطت بالحالة التي وجدتُها فيها في الغابة! النِمرة تَثِبُ عاليًا؛ الأميرةُ تستلقي مُنهَكةً على الضَّفَّة: النبع الجاري كان أذاب اعتزازها بذاتها! حكايتها عن الغرض من رحلتها كشفَت عن الخطر الذي يتربّص بالمخلوقات الصغيرة: كنتُ أنقذت حياة عدوّهم الرهيب!

لم أكد أصل إلى هذا الاستنتاج حتّى استغرقت في النوم. ربما لم يكن النبيذ الرائع بريئًا تمامًا.

عندما فتحت عينيّ كان الظلام قد حلّ. ألقى مصباحٌ، يتدلّى من السقف، بضوءٍ صافٍ، وخافت مع ذلك، عبر الحجرة. احتواني استرخاء متكاسل لذيذ. شعرت بأنني أطفو، بعيدًا عن الأرض، إلى قلب بحر الشفق. الوجود أضحى لذّةً في ذاته. لم أشعر بأيّ ألم. كنت أموت بالتأكيد!

لا ألم! لكن أيّة انبجاسة من الألم الفاني كانت تلك! أيّة وخزة مُسقِمة! انطلقت مباشرةً عبر قلبي! مُجدّدًا! تلك الحِدّة ذاتها! وكذلك السّقَم! لم أستطع تحريك يدي لأضعها على قلبي؛ شيءٌ ما أبقاها

خائرة!

كان الألم يتلاشى، لكن جسدي بأكمله بدا مشلولًا. استولى عليّ شيءٌ شريرا شيءٌ بغيض! تُقتُ إلى المقاومة، لم أستطع الوصول إلى بدايتها حتّى. عانت إرادتي، لكن بلا طائل، حتى تثبت نفسها. أقلعتُ عن المحاولات واستلقيت خاملًا. ثم أصبحت واعيًا بيدٍ ناعمة على وجهي، تضغط برأسي على الوسادة، وحِملٍ ثقيل يستلقي فوقي.

بدأتُ في التنفُّس بحُريَّة أكبر؛ انزاح الوزن من على صدري؛ فتحتُ عينيّ.

كانت الأميرة تقف فوقي على الفراش، تتطلَّع غبر الغرفة، وكأنها تحلم. كانت عيناها رائقتين وهادئتين. فمها وقد اتَّخذ مظهر رغبة مُشبَعة؛ مسَحَت من عليه أثرًا من الأحمر.

لاحظَت تحديقتي، انحنَت، وضربتني على العينين بمنديل في يدها؛ كان الأمر كسحب حافَّة سكين عبرهما، وللحظة أو اثنتين كنت أعمى.

تناهى إلى سمعي صوتٌ ثقيل مكتوم، كما لحيوان كبير خفيف الأقدام يهبط بقفزة صغيرة. فتحت عينيّ، ورأيتُ الأرجحة الهائلة لذيلٍ طويل فيما يختفي عبر الباب الموارب. اندفعتُ في إثره.

اختفى المخلوق تمامًا. انطلقت نازلًا الدَّرَج، ثم إلى بهو المرمر. كان القمر عاليًا، والمكان يشبه قلبَ قمرٍ شاحب، بيَّضته الشمس. لم تكن الأميرة هناك. عليّ

أن أجدها: في حضوزها قد أستطيع حماية نفسي؛ بدونه سأكون عاجزًا تمامًا! كنتُ حيوانًا دجينًا تتغذّى عليه؛ نافورة بشرية لعطش شيطاني! أظهَرَت لي معروفًا حتى تستخدمني بسهولة أكبر! لم تكن عيناي اليَقِظَتان تخشاها، لكنهما سرعان ما تنغلقان وسرعان ما تظهر هي! عندما لا أراها، أشعر بها في كل مكان، ذلك أنها قد تكون في أيِّ مكان- ربما تنتظرني الآن في كهف نوم سرِّيٍّ ما! فقط بعينيَّ عليها، يمكنني الشعور بالأمان منها!

كان الظلام حالكًا خارج بهو المرمر، واضطررتُ لتحسُّس طريقي بيديَّ وقدميَّ. في النهاية لامستُ ستارة، أزحتها جانبًا، ودلفتُ إلى البهو الأسود. هناك وجدتُ جَمعًا صامتًا كبيرًا. لم أرَ أو أستطع تخيُّل لماذا أو كيف كان مرئيًا؛ ذلك أن الجدران، والأرضية، والسقف، كانت مستترة فيما بدا سوادًا لا نهائيًا، سوادًا أقتمَ من سواد الليالي عديمة الأقمار والنجوم، مع ذلك كان بمقدور عينيَّ، وإن كان على نحو ضبابي، تبيُّن بضعة أفراد في الحشد يتداخلون مع الظلام ويرسمون حدوده، بل ومحاطين به. بدا الأمر كما لو أن عينيَّ لن تعودا كما كانتا أبدًا. اعتصرتهما ثم نظرتُ ونظرتُ، لكن ما أراه لم يَزدَد تمايزًا. كان الظلام يتداخل مع الشكل، والصمت وحركة غير محدّدة يستوليان على المساحة الواسعة. لم أرَ سوى رقصة ضبابية، مشوّشة، تمتلئ بإيماءات متكررة بأشكال غير معروفة لي. حينًا

تظهر امرأة، بعينين وقورتين تطِلّان من جمجمة؛ وحينًا شكل بشري مُسلَّح على ظهر هيكل عظمي لحصان؛ أو واحد بعد آخر من الأشباح الكامنة البشعة. لم أستطع تتبُّع أيّ نظام، لكن مجرَّد علاقة ضبابية بين التيارات والاستدارات المختلطة والمتقاطعة. إذا تهيّأ لي أنني تعرَّفتُ على شكل وإيقاع رقصة، فسرعان ما تنقطع، ويسود التشوُّش. ومع الألوان المتبدِّلة للأشكال الأكثر ثباتًا في الظاهر، تتداخل وفرةٌ من الظلال، مُستقلَّةً على ما يبدو عن أصولها؛ ذلك أن كل شكل كان يتحرَّك في إثرِ ظلِّه المنطلق ذي الإرادة الحرَّة. بحثتُ في كل مكان عن الأميرة، لكن عبر أرجاء المشهد المتداخل المتغيِّر بجنون، لم أستطع رؤيتها أو اكتشاف أيّ علامة على وجودها. أين هي؟ ماذا "لا تفعل" الآن ربما؟ لم يلحظني أحدٌ فينا أهيم هنا وهناك باحثًا عنها. في النهاية، فاقدًا الأمل، استدرتُ لأبحث في موضع آخر، ووصلتُ، متلمِّسًا طريقي، إلى فرجة بستارٍ تؤدي إلى دهليز.

تحت ضوء القمر الخافت، كان قفص النَّمِرة ساحةً لما بدا أنه معركة يائسة، وصامتة مع ذلك. شكلان مختلفان بشدَّة، بشريٌّ وبهيميٌّ، في اختلاط متشابك من الأجساد والأطراف، كانا تلوِّيًا وتصارُعًا في عناق حميم. لم تنقضِ سوى لحظة واحدة حتمًا قبل أن أرى النَّمِرة تخرج من القفص. فيما أسرع في إثرها ألقيت بنظرة خاطفة ورائي: هناك كانت النَّمِرة

الأخرى في القفص، جاثمة بلا حراك كما رأيتها أول مرة.

كان القمر، عاليًا في منتصف السماء، يسطع باستدارة وصفاء؛ "الظِّلُّ" الذي رأيته الليلة الفائتة، يسير عبر الأشجار نحو البوَّابة؛ وفي إثره تمضي النَّمِرة، هازَّةً ذيلها. مضيث في إثرهما، على بعد خطوات، صامتًا كصمتهم، ولم يُدرِ أيُّهما نظره. عبر البوابة المفتوحة انطلقنا هابطين إلى المدينة، التي تستلقي بهدوء تحت ضياء القمر. كان وجه القمر ما يزال ساكنًا جدًا، وبدا سكونه هذا كسكون الترقُّب.

اتَّخذ "الظِّلُّ" طريقه مباشرةً إلى الدَّرَج الذي كنت استلقيث في نهايته الليلة الفائتة. بلا توقُّف انطلق صاعدًا وتبِعَته النَّمِرة. أسرعث خطاي، لكنني، بعد وهلة، سمعتُ صرخة رعب، ثم سقوط شيءٍ غضٍّ وثقيل بيني وبين الدَّرَج، وعند قدميَّ استقرَّ جَسَدٌ، مسوَدٌّ ومنسحق بشكل مرعب، لكن كان من الممكن إدراك أنه جسد المرأة التي كانت قادتني إلى المنزل ثم طردتني. فيما أقف متحجِّرًا من الرعب، ظهرت النَّمِرة المرقَّطة تتقافز نازِلَةً الدَّرج برضيع في فمها. اندفعث للإمساك بها قبل أن تستدير حول قدميَّ؛ لكن في تلك اللحظة، من ورائي، انطلَقَت النَّمِرة البيضاء، كقضيب هائل من الفضة المتوهِّجة، عبر نور القمر، وأمسكَت النَّمِرة المُرقَّطة من عنقها. أسقَطَت الطفل؛ أمسكث به، ووقفث لأشهد المعركة بينهما.

أيُّ مشهد كان! حينًا تعلو هذه وحينًا تلك، الاثنتان حريصتان جدًا على ألَّا تُصدرا أي ضجيج بخلاف هدير واطئ، أو صرخة ناشجة، أو زمجرة كراهية. يتبعها تشابُك أسرع للمخالب، بينما تصارع كلتاهما، ناهشتين ودافعتين وساحبتين، من أجل موطئ قدم على حجارة الأرضية! كانت النمِرة المرقَّطة أكبر من البيضاء، وكنتُ قَلِقًا على صديقتي؛ لكنني سرعان ما رأيت، رغم أن أيَّتهما لم تكن أكثر قوةً أو حماسًا من الأخرى، أن النِّمِرة البيضاء أكثر صمودًا وتحمُّلًا. أبدًا لم تُرخِ قبضتها على عنق الأخرى. من الحَلْق المُرقَّط انبعث في النهاية عواء ألم، يتبدَّل بتتابُعاتٍ مختنقة سريعة، وصولًا إلى ذروة "كريشندو" طويلة وكأنها نواحُ امرأةٍ بلَغَ مُنتهاه. أرخَت النِّمِرة البيضاء فكَّيها؛ انسحَبَت النِّمِرة المُرَقَّطة، ونهَضَت على قدميها الخلفيتين. ومنتصبةً في نور القمر كانت تقف الأميرة، واندفاعة متشابكة من الظلال تحيط ببياضها، ورَقَطات النمرة تتزاحم، وتتسارع، وتفرُّ لتستقر في عينيها، حيث اندمجت معًا واختفت. بينما تداخلت القِلَّة الباقية، المتباطئة والمتأخِّرة، مع سحابة شعرها المسترسِل، تاركةً إيَّاها ساطعةً كالقمر، بعد أن يتدفق من على قرصه الفضي فيلقٌ من الأبخرة الضئيلة، هاربةً من الرياح. لكن أسفل العمود الأبيض لعنقها، كان خيط من الدماء ما زال يتقاطر من كل جُرح خلَّفته أسنان غريمتها المريعة. استدارت مبتعدةً، واتَّخذت

بضعة خطوات بمشيَة هيكات((16))، وسقطت، ثم غطّتها الرَّقطات مُجدّدًا، وقفزت في قفزة طويلة واحدة.

استدارت النَّمِرة البيضاء أيضًا، ووثبت عليّ، جذَبَت ذراعيّ جانبًا، وأمسَكت بالطِّفل في سقوطه، ثم انطلَقت به عبر الشارع في اتّجاه البوّابة.

(27)

النّافورةُ الصّامِتة

استدَرتُ وتبِعتُ النَّمِرة المُرقَّطة، ولم أقتنص سوى نظرة واحدة عليها وهي تنهب مطلع التلّ إلى بوابة القصر. عندما وصلتُ إلى بهو المدخل، كانت الأميرة ترتدي الرداء الذي كانت تركته على الأرضية. توقَّفت الدماء عن التدفُّق من جُروحها، بعد أن جفَّت بفعل رياح رحلتها.

عندما رأتني، عبرت ومَضةُ غَضبٍ وجهَها، وأدارت رأسها جانبًا. ثم، بابتسامة مُجهَضة، نظرت إليّ وقالت:

"لقد صادفتُ حادثةً صغيرة فحسب! بعد أن سمعتُ أن المرأة- القطّة كانت في المدينة مجددًا، انطلقتُ لإبعادها. لكنها كانت بصحبة واحد من مخلوقاتها البشعة: وثب عليّ، وأنشب مخالبه في عنقي قبل أن أتمكّن من هزيمته!".

أبدت ارتعاشةً، ولم يسعني سوى الإشفاق عليها، رغم علمي بأنها تكذب؛ ذلك أن جروحها كانت حقيقية، وذكّرني وجهها بكيف كانت تبدو في الكهف. بدأ قلبي في تقريعي؛ ذلك أنني لم أقدِّم لها العون في معركتها، وأعتقد أنني أبديتُ الإشفاق الذي شعرتُ به.

"طفل أحمق!" قالت، بابتسامة مُجهَضة أخرى،

"حتمًا لا تبكي! انتظرني هنا؛ سأذهب إلى البهو الأسود للحظات. أريدك أن تجلب لي شيئًا من أجل خدوشي".

لكنني تبعتها عن قرب؛ خشية أن تبتعد عن نظري.

في اللحظة التي دلَفَت فيها الأميرة إلى البهو، تناهى إلى سمعي صوت طنين كما لو كان لأصوات واطئة كثيرة، وجزءًا بعد آخر، بدأ الجمع في الاستضاءة على نحو متبدِّل، كما لو كان عبر شعاع ينطلق من بُقعة إلى أخرى. جماعةً بعد أخرى كانت تسطع وتضيء ما حولها، ثم تغرق عائدةً إلى الضبابية المهينة، في حين يتألَّق جزء آخر من الصُّحبة المتَّسعة على الفور.

بعض الأفعال التي كانت تقع عندما تضاء بهذا الشكل، لم تكن غريبةً عليَّ بالكامل؛ كنتُ وسطهم ذات مرة، أو تطلَّعتُ إليهم على الأقل، وكذلك فعلت الأميرة: التي أرى أنها حاضرة مع كلِّ واحد منهم الآن. الراقصون ذوو رؤوس الجماجم يمشون على العشب في بهو الغابة: هناك كانت الأميرة تراقبهم عند الباب! نشبت المعركة في الغابة الشرِّيرة: هناك كانت الأميرة تشعل فتيلها! مع ذلك كنت وراءها وبقربها دائمًا، وهي واقفة بلا حراك، رأسها مُنحَنٍ على صدرها. استمرّت الغمغمة المتداخِلَة، واللَّغط المتشابك للألوان والأشكال؛ وما زال الشعاع ينطلق متبدِّلًا وكاشفًا. استقرّ في نهاية الأمر على الحفرة في براح أرض الخلنج، وهناك كانت الأميرة، تسير

جيئةً وذهابًا، تحاول بلا طائل طيّ الضباب حول جسدها! ثم جفلتُ لما رأيته: خطا قيّمُ المكتبة العجوز نحوها، ثم وقف لوهلة ينظر إليها؛ سقَطَت أرضًا؛ تخلّت أطرافها عنها وفرّت؛ اختفى جسدها.

تردّدَت صرخة وحشية في الأرجاء، وبسقوط طيفها، الذي كان يقف حتّى الآن كتمثال في مواجهتي، سقَطَت الأميرة نفسها بتثاقُلٍ على الأرض، واستلقَت ساكنةً. استدرتُ على الفور وابتعدتُ عن المكان: لن أسعى مُجدّدًا لاستردادها! وفيما أقف مرتجفًا بجوار القفص، أدركتُ أنني، في القوس البيضاوي الأسود ذاك، كنتُ في واقع الأمر داخل عقل الأميرة! رأيتُ ذيل النَّمِرة يرتعش ارتعاشة أخيرة.

بينما أحاول ما زِلتُ استجماعَ شتات نفسي، سمعتُ صوت الأميرة بجواري.

"تعال الآن"، قالت: "سأريك ما أريدك أن تفعله لأجلي".

تقدّمتني إلى الباحة، تبعتُها في انصياع ذاهل.

كان القمر يقترب من سَفته، وبَدَت فِضّته أكثر إشراقًا من ذهب الشمس الغائبة. قادتني عبر الأشجار إلى أطولها، الشجرة التي في المنتصف. لم تكن كالبقيّة؛ ذلك أن فروعها، مُجتمعةً بأطرافها عند القمة، كانت تصنع أجَمة تشبه قُمع التَّثوب عند النظر إليها من الأسفل. وقفت الأميرة تحتها مباشرةً،

مُحدِّقةً لأعلى، وقالت، كما لو كانت تتحدث مع نفسها:

"على قمة تلك الشجرة تَنبُت زهرةٌ صغيرة يمكنها شفاء خدوشي على الفور! بمقدوري التحوُّل إلى حمامة لوهلة ثم جلبها، لكنني أرى أفعى صغيرة في الأوراق قد تؤذي لدغتها الحمامة بأكثر ممَّا تؤذيني عضَّة نَمِرة! كم أبغض تلك المرأة- القطّة!".

استدارت إليّ مسرعة، قائلةً بواحدة من ابتساماتها شديدة العذوبة:

"هل يمكنك التَّسلُّق؟".

اختَفَت الابتسامة مع السؤال المقتضب، واتَّخذ وجهها شكل الحزن والمعاناة. كان عليَّ أن أتركها لمعاناتها، لكن الطريقة التي وضعت بها يدها على عنقها الجريح مزَّقت قلبي.

تأمَّلتُ الشجرة. كانت النتوءات منتشرة عاليًا حتى الأفرع، وكأنها آثار أوراق ساقطة من نخلة.

"يمكنني تسلُّق تلك الشجرة"، أجبتها.

"ليس بقدمك العارية!" كان ردّها.

في عَجلتي لاقتفاء أثر النَّمِرة المختفية، كنت نسيتُ خُفِّي في غرفتي.

"لا يهم"، قلت لها؛ "طالما سِرتُ حافيًا".

مجدَّدًا تطلعتُ إلى الشجرة، وانطلقت عيناي

تهيمان صعودًا على الجذع حتى تاه بصري بين الأفرع. كان القمر يسطع بزَبَدٍ فضّيٍ يتناثر على ساق الشجرة المُثلَّم، وهبّت رياح خافتة تنطلق عبر القمة بصوت يشبه الخرير، كما لو كان ماءً يتساقط بنعومة على ماء. اقتربتُ من الشجرة لأبدأ رحلة صعودي. أوقفتني الأميرة.

"لن أسمح لك أن تبدأ التسلُّق بقدمك الحافية!" أصرّت. "سقطة من القمة ستقتلك!".

"وكذلك لدغة من الأفعى!" أجبتها، غير مُصدِّقٍ، أعترف، أنه توجد أيُّ أفعى.

"الأفعى لن تؤذيك أنت!" أجابتني. "انتظر لحظة".

مزّقَت من ردائها الحاشيتَين الواسعتين اللتين تلتقيان في المقدّمة، وراكعةً على ركبة واحدة، ألبستني واحدة على قدمي اليسرى، والأخرى على قدمي اليمنى، ثم ربطتهم حول كل ساقٍ بأشرطة مزخرفة ثخينة.

"لقد تركتِ الحوافَّ مُتدلّيةً يا أميرتي!" قلت لها.

"لا أحمل شيئًا أقطعها به، لكنها ليست طويلة بما يكفي لتتشابك"، أجابتني.

استدرتُ إلى الشجرة، وبدأتُ التسلُّق.

لم يكن البرد في بوليكا، الآن بعد غروب الشمس، شديدًا كما في مواضع أخرى بعينها في البلاد... حول كوخ حفّار القبور على الأخص؛ مع ذلك بعد أن

تسلقت مسافة قليلًا، بدأتُ في الشعور ببرد شديد، يزداد حدّةً مع صعودي، ووصل إلى منتهاه عندما أصبحت بين الأفرع. ثم ارتجفتُ، وبدا أنني فقدتُ السيطرة على يديَّ وقدميَّ.

لم تكن هناك أيّة رياح تقريبًا، ولم تتمايل الأفرع بتاتًا، مع ذلك، فيما أقترب من القمة، أصبحتُ واعيًا باهتزاز عجيب في الشجرة: كل فرع أضعُ قدمي عليه أو أمسك به، يبدو وأنه على وشك التداعي. عندما ارتفع رأسي فوق الأفرع قُرب القِمَّة، وبدأتُ في البحث تحت ضوء القمر عن الزهرة المنشودة، في تلك اللحظة وجدتُ نفسي مبتلًا من رأسي إلى قدميَّ. بعدها، كما لو أنني غطستُ في مياه عاصفة، قُذِفتُ بعيدًا بعنف، وشعرت بنفسي أغرق. أطوَّح لأعلى وأسفل، يمينًا ويسارًا، أدحرج مرارا وتكرارًا، أتوقَّف، أدحرج في الناحية الأخرى مُجدّدًا، وأُطوَّح عاليًا مجدّدًا، كنت أغرق أوطأ وأوطأ. لاهثًا ومُغرغرًا ومختنقًا، شعرتُ في النهاية أنني وصلتُ إلى قاعٍ صلب.

"لقد أخبرتك بهذا!" نعق صوتٌ في أذني.

@ART_OF_BOOK

(28)

أنا مكتوم

فَرَكتُ عينيَّ لإخراج الماء منها، ثم رأيتُ الغُراب على حافَّة حوض حجري ضخم. بالضوء البارد للفجر منعكسًا على ريشه اللامع، كان يقف هادئًا يتطلَّع إليَّ من علٍ. كنتُ مستلقيًا على ظهري في الماء، ثم استندتُ على مِرفقي لأرفع وجهي فوق سطحه. كنتُ في حوض نافورة كبيرة شيَّدها أبي في منتصف حديقة المنزل. عاليًا من فوقي، تألَّقَ العمود السميك، اللامع كالصُّلب، منطلقًا، باندفاعة صاعدة جارفة، إلى مائة قدم في الهواء، لينبسط على شكل زهرة من الزَّبَد.

ملدوغًا ببرودة ما قاله الغراب، قلته له، "لم تخبرني بشيء!".

"أخبرتك ألَّا تفعل أي شيء يطلبه منك مَن لا تثق فيه!".

"هراء! كيف لفانٍ أن يتذكَّر ذلك؟".

"أؤكِّد لك، لن تنسى عواقب نسيان ذلك!" أجابني السيد رافين، الذي كان يقف منحنيًا على حافَّة الحوض، ثم مدَّ يده ناحيتي.

أمسكتُ بها، وعلى الفور أصبحت بجواره على المرج، يتقاطر الماء منِّي وينساب.

"عليك أن تُبدِّل ملابسك في الحال!" قال لي. "البلل لن يشي بالمكان الذي جئتَ منه... رغم أن حادثة كهذه غير معتادة، ولها متاعبها في هذا العالم!".

كان غرابًا مُجدَّدًا، يسير، بجوٍّ من الفخامة في خطواته، نحو المنزل، الذي انتصب بابه مفتوحًا.

"ليس لديَّ ما أرتديه!"، قلت ضاحكًا؛ ذلك أنني طوَّحتُ بردائي حتى أتسلَّق الشجرة.

"منذ زمن طويل لم أبدِّل ريشة واحدة!" قال الغراب.

في المنزل لم يبدُ أن أحدًا كان مستيقظًا. خطوتُ إلى غرفتي، وارتديتُ مَبذلًا، ونزلتُ إلى المكتبة.

فيما أدلف، ظهر قَيِّم المكتبة خارجًا من الخزانة. ألقيت بنفسي على أريكة. سحبَ السيد رافين مقعدًا إلى جانبي وجلس عليه. لدقيقة أو اثنتين لم يتحدث كلانا. كنتُ أول من كسر الصمت.

"ماذا يعني كل هذا؟" سألته.

"سؤال جيد!" أجابني: "لا يعلم أيّ أحدٍ ما يكونه أيّ شيء؛ لا يمكن للرجل سوى معرفة ما يعنيه الشيء! وهذا يعتمد على كيف يستفيد من ذلك الشيء".

"لم أستفد من أيّ شيء بعد!".

"ليس كثيرًا؛ لكنك تعرف الحقيقة، وهذا ليس هيِّنًا! يستغرق معظم الناس أكثر من أعمارهم ليعرفوا

أنهم لا يعرفون شيئًا، ولينجزوا أقلَّ من هذا! على الأقل لم تكن بلا رغبة لتكون مفيدًا!".

"أردتُ فعل شيء من أجل الأطفال... المخلوقات الصغيرة العزيزة، أقصد".

"أعرف ما فعلته... لكنك سلكتَ الطريق الخطأ!".

"لم أكن أعرف الطريق الصحيح".

"هذا حقيقي أيضًا... لكن عليكَ لوم نفسك على ذلك".

"أنا على استعداد لتصديق أيِّ ما تخبرني به... فور أن أفهم ما يعنيه".

"لو كنتَ قبلتَ دعوتنا، لكان لك أن تعرف الطريق الصحيح. عندما لا يحقق الرجل شيئًا حيث "يكون"، فعليه أن يذهب بعيدًا حتى يجد مَهمَّته".

"ذهبتُ بعيدًا حقًّا، ولم أصل إلى شيء؛ ذلك أنني لم أجد مَهمَّتي! غادرتُ الأطفال لأتعلَّم كيف أخدمهم، لكنني لم أتعلَّم سوى الخطر الذي يواجههم".

"عندما كنتَ معهم، كنتَ حيث يمكنك مساعدتهم: غادرتَ مهمَّتك لتبحث عنها! لا بُدَّ أن تكون رجلًا حكيمًا لتدرك متى ترحل؛ بينما قد يدرك الأحمق أن عليه العودة على الفور!".

"هل تعني، سيدي، أنه كان بمقدوري فعل شيء للمخلوقات الصغيرة ببقائي معهم؟".

"هل علّمتهم أي شيء برحيلك عنهم؟".

"لا؛ لكن كيف كان لي أن أعلّمهم؟ لم أعرف من أين أبدأ. إلى ذلك، كانوا يسبقونني كثيرًا!".

هذا حقيقي. لكنك لم تكن قصبةً لتقيسهم بها! بالتأكيد، إذا عرفوا ما تعرفه حقًّا، وليس ما كان لك أن تعرفه، فيسبقونك حقًّا- حتى يغيبوا عن الأنظار! لكنك رأيت أنهم لم يكونوا يكبرون، أو يكبرون ببطء شديد، لحَدِّ أنهم لم يتوصّلوا بَعدُ إلى فكرة النمو! كانوا خائفين من النمو! أبدًا لم تكن قد رأيتَ أطفالًا يظلّون أطفالًا!".

"لكنني بالتأكيد لم أملك القوة لجعلهم يكبرون!".

"كان بمقدورك أن تزيل بعض العوائق التي تقف في طريق نموّهم!".

"ما هي؟ لا أعرفها. اعتقدت حينها أن الأمر بسبب نقص الماء ربما!".

"بالطبع هو كذلك! ليس لديهم شيء ليبكوا به!".

"كان ليسعدني أن أبقيهم بعيدين عن الحاجة لأي شيء لهذا الغرض!".

"بلا شك كنت ستفعل... غاية كل مُحِبّي الخير الأغبياء! عجبًا، سيد ڤين، لكن لولا النحيب وسفك المياه، فإن عالَمك لم يكن ليصبح جديرًا بالإنقاذ أبدًا. تعترف أنك ظننتَ أن الماء ربما هو ما ينقصهم: لماذا لم تحفر لهم بئرًا أو اثنين؟".

"لم يخطر على بالي أبدًا!".

"ولا عندما خطرت أصوات المياه تحت الأرض على أذنك؟".

"أعتقد أنني فكّرتُ في ذلك مرّةً واحدة. لكنني كنت أخشى عليهم من العمالقة. هذا ما جعلني أتحمّل الكثير جدًا من المتوحّشين أنا نفسي!".

"لقد أوشكتَ حقًّا على تعليم المخلوقات الصغيرة النبيلة أن يخافوا من المنتفخين الأغبياء! رغم أنهم أطعموك، وواسوكَ، وعبدوك، طوال الوقت لم تفعل سوى أن تكون عبدًا للبشر البهيميِّين! منحتَ أحبّاءَكَ هيئةَ الجبان كبطلٍ لهم! بالكاد كان بإمكانك إيقاع ظُلمٍ أكبر من ذلك بهم! منحوكَ قلوبهم؛ أنت مدينٌ لهم بروحك! كان لك أن تنجح الآن في أن تجعل من المنتفخين قاطعي أخشاب وجالبي ماء إلى المخلوقات الصغيرة!".

"أخشى أن ما تقوله صحيح، سيد راڤين! لكنني كنتُ خائف حقًّا أن مزيدًا من المعرفة قد يؤذيهم... يجعلهم أقلّ براءةً، أقلّ حسنًا".

"لم يمنحوكَ أي سبب لتحمُّل هذا الخوف!".

"أليست المعرفة القليلة شيئًا خطيرًا؟".

"هذه واحدة من الأكاذيب المحبوبة في عالَمك! أليست أعظم معرفة للرّجل أكثر من "قليلًا"؟ هل هي خطيرة لذلك؟ التوهُّم أن المعرفة في حدّ

ذاتها شيء عظيم، سيجعل أيّ درجة من المعرفة أكثر خطورةً من أيّ مقدار من الجهل. أن تعرف كل الأشياء لن يؤدي إلى العظمة".

"على الأقل كان بدافع حبّي لهم، وليس بدافع الجبن، أنني خدمت العمالقة!"

"بالتأكيد. لكن كان عليك أن تخدم المخلوقات الصغيرة، وليس العمالقة! كان عليك أن تمنح المخلوقات الصغيرة الماء؛ وحينها كانوا ليضعوا العمالقة في وضعهم الحقيقي. بينما تتمكّن أنت ذاتك من إجبار العمالقة على إزالة ثُلثي أشجار فاكهتهم القاسية لإفساح المكان للمخلوقات الصغيرة الرقيقة! لقد أضعتَ فرصتك مع العُشّاق، سيد ڤين! تأمّلتَ في شأنهم بدلًا من مساعدتهم!".

(29)

القطّة الفارسيّة

جلستُ في صمتٍ وخزي. ما قاله كان حقيقيًا: لم أكن رفيقًا حكيمًا للمخلوقات الصغيرة.

استأنف السيد راڤين حديثه:

"كما أنك أسأتَ، في نفس الوقت، إلى المخلوقات الغبيّة ذاتها. بالنسبة لهم فإن العبودية كانت لتُعتبر تقدُّمًا. في أعينهم فإن حفنة الدروس تلك التي كان بمقدورك تقديمها لهم بعصا من أشجارهم ذاتها، هي شيء ثمين".

"لم أدرك أنهم جُبناء!".

"أيُّ فَرقٍ يُشكّله هذا؟ الرجل الذي يبني أفعاله على جُبن رَجُلٍ آخر، جبان هو ذاته، بل أسوأ من ذلك أخشى! كانت المخلوقات الصغيرة لتتمكّن الآن من حماية أنفسها من الأميرة، ناهيك عن العمالقة. طالما كانوا ملائمين لذلك، بدلًا من سخريتهم من العمالقة فحسب! لكن الآن، عبر علاقتك معها...".

"أمقتُها!" هتفتُ.

"هل أبلغتها أنّك تمقتُها؟".

كنتُ مكتومًا وصامتًا مُجدّدًا.

"ولا حتى كنتَ مخلصًا في نظرها! لكن أنصِتْ! أخشى أن أحدهم قد لاحقنا من النافورة!".

"لم أرَ أيّ مخلوقٍ حَيّ! باستثناء قِطّة ذات مظهر مُخزٍ انطلَقت إلى داخل الشجيرات".

"تلك كانت قطّةً فارسيّةً عظيمة -مُبتَلّة وقَذِرَة بشدّة رغم ذلك، على أن تبدو على حقيقتها- أبشعَ من الخِزي بكثيرا".

"ماذا تعني سيد راقين؟" هتفتُ، وقد استولى على حلقي رعبٌ من نوع جديد. "كانت هناك قطّة زرقاء جميلة تهيم في أرجاء المنزل، لكنها فرّت عندما سَمِعَت صوت الماء! هل يمكن أنها انطلقت في إثر سمكة ذهبية؟".

"سنرى!" أجابني قيّمُ المكتبة. "أعلم القليل عن أنواع القطط المختلفة، وهناك في الغرفة ما سيكشف لنا عن حقيقة هذه القطّة، أو يثبت أنني مخطئ بشأنها".

نهضَ، وخطا إلى باب الخزانة، وجلبها منها المجلَّد المشوَّه، وجلسَ مُجدّدًا بجواري. حدّقتُ في الكتاب في يده: كان كتابًا سليمًا، كاملًا ومتينًا!

"أين كان نصفه الآخر؟" قلتُ متلهِّفًا.

"عالِقٌ في مكتبتي"، أجابني.

أمسكتُ لساني. سؤال واحد آخر لن يكون سوى غرقٍ في بحرٍ لا قرار له، وربما ينفد الوقت!

"اسمع"، قال لي: "سأقرأ مقطعًا شعريًا أو اثنين. لدينا مخلوق أظنُّ أنه بالكاد سيستمتع بقراءته!".

فتحَ الرَّقَّ، وقلَّبَ ورقة أو اثنتين. كان الرَّقُّ حائِلَ اللون بسبب القِدَم، وعلى الورقة الأولى ظهرت بقعة داكنة احتلَّت ثُلثيها. قلَّبَ هذه الورقة أيضًا ببطء، وبدا أنه يبحث عن فقرة مُعيَّنة فيما يظهر أنه قصيدة متَّصِلَة. في موضع ما في منتصف الكتاب شرَعَ في القراءة.

لكن ما يلي يمثّل لا ما قرأه، بل الانطباع الذي خلقته قراءته داخلي فحسب. بدت القصيدة وكأنها بلغةٍ لم أسمعها من قبل قَطُّ، ومع ذلك أفهمها تمامًا، رغم أنه لا يمكنني كتابة الكلمات، أو تحديد معناها سوى بتقريب ضعيف. هذه الشذرات، إذن، هي التي اتَّخَذَت أشكالًا من بين ما قرأه واخترقت عقلي في نهاية المطاف:

"لكن إذا وجدتُ رجلًا بمقدوره أن يصدّق

ليس ما رآه، ولا ما شعرَ به، لكنه أدرك مع ذلك،

منه سأجني جوهر المسألة وأتلقَّى

الثّبات والشكل، والملمس والمظهر

وحينها سأتّشح بالنظير الحقيقي

للفكرة التي شقّت روحها".

قلَّبَ الورقة وقرأ مُجدّدًا:

"في داخلي كانت كل امرأة. كان لي سلطانٌ

على روح كل رجل حيّ

كما لم تعرف أيّ امرأة ذات ميرات

كما لم تستطع امرأة قطّ،

اجتزت كل النساء، أنا، المرأة،

جاوزتهنّ في التحليق عاليًا، في الغرق، في الحكم؛
في الأبهاء والعروش.

ذلك أنني، رغم أنه لم يرني ولم يسمعني

ولا لامَسَت يَدُه إصبعًا لي،

وأبدًا لم تُثِر أنفاسي

شعرةً فيه، بمقدوري تقييد عقله وعزيمته

بقيودٍ راسخة لا يمكن للموت انتزاعها

ولا الحياة، رغم أن الأمل مؤجَّل للأبد".

توقَّف مُجدَّدًا، قلَّبَ ورقة أخرى وقرأ:

"ذلك أنني استلقيت بجانبه، شيئًا عديم الجسد؛

لم أتنفَّس، لم أرَ، لم أشعر، مجرد فكرة

وجعلته يقع في حبي بتوقٍ

دفعه للتساؤل... هل كان لا شيء

أم شيئًا بلا اسم، ذلك الذي انتزعه بنفسه

من ثنايا نفسه، ذلك أنني شدوت

بأغنيةٍ بلا صوتٍ في روحه

استلقيتُ كشيء عديم القلب على قلبه،

مانحةً إيّاه لا شيء بينما منحني

كينونته كاملةً ليلبسني رداءً بشريًا مكتملًا:

حتّى أندفع إلى حواسّه ربما،

وهكذا تسللتُ إلى عقله الحيّ،

"أوه، مَن كانت حبًا غازيًا سواي!

مَن اعتلى عرش قلب رجلٍ سواي!

بكينونة مرئية، بصرخة ابتهاج

أستيقظ، وتخفق اختلاجة الحياة عبري مندفعةً!".

ارتفع نواح قِطَّةٍ عجيبٌ ومُنفِّر في موضع ما في الغرفة. استندتُ على مرفقي وحدّقتُ ناظرًا حولي، لكنني لم أر شيئًا.

قلّب السيد راڤين عدة أوراق، وتابع:

"بغتةً استيقظتُ، جاهلةً بالخوف الشبحي

الذي يمسك بي، ليس كأفعى تلتف حولي،

لكن كضباب نديّ، متعفّن، وموحش،

يملأ أرجاء القلب، والروح، والصدر والعقل

كينونتي تستلقي بلا حراك في شك سقيم

لا أجرؤ على سؤال كيف وصل الرعب إلى هنا.

أدرك ماضيّ بأكمله، لكن ليس لحظتي الراهنة؛

لا أفهم ما أنا، ولا أين أنا؛

أدرك أين كنت، على جبيني أشعر ما زلت

بلمسة ما لم يَعُد هناك!

كنت خَدِرَة، ميّتة، بيأسٍ حيّ مع ذلك؛

حياةً سحقت حياةً بالجزّ والالتهام!

أنني كنت ملكةً، هذا ما أدركه جيدًا

وأنني ارتديت بهاءً على رأسي ذات يومٍ

ولا حتّى ظلامٌ ميث كان بمقدور إطفاء بريقه،

ومثله على عنقي وذراعَيّ وزناري؛

وأعلن الرجال عن ضوءٍ سفحته عيناي المغلقتان

قتلَ الماسة في زنزانتها الفضّيّة".

مجدّدًا، سمعتُ الصرخة البشعة لألَمٍ قِططيّ. مجدّدًا نظرت، لكنني لم أرَ شكلًا ولا حركةً. بدا السيد راقين وكأنه أنصت لوهلة، لكنه قلّبَ عدة صفحات أخرى، واستأنف:

"مُبتلًا ببشاعة، شَعري ذو المسحة الذهبية

لوّثَ يدَيّ الجميلتين: وحتى أجزّهُ بسرعةٍ

كان عليّ أن أتخلّى عن كل أحجار ياقوتي؛ وأن أحفر بحثًا عن أخرى جديدة.

لم ترها عينٌ، ولم يرتدِها معصَمٌ!

ومن أجل شربة ماء من سرجٍ شُربٍ،

من أجل نَفَسٍ أزرق واحد، تخلَّيتُ عن زُمُرُّدَتي الزرقاء!

لا، بل تخلَّيتُ عن أحجار عقيقي من أجل جلباب،

رداء فتاة مزارعة، خشن لكن نظيف:

كان كَفَني يتعفَّن! سمعتُ ديكًا

يصيح باشتهاء على الأكَمَة الخضراء

فوق كفني. وضعيفًا بفعل الفراغ بيننا

جاء جوابٌ كسخرية شبحية".

مرةً أخرى ارتفع النواح البهيميّ.

"أعتقد أن أمرًا كريهًا يحدث في الغرفة!" قال قَيِّمُ المكتبة، ملقيًا بنظرة خاطفة حوله؛ لكنه سرعان ما قلَّبَ ورقة أو اثنتين، وقرأ مُجدَّدًا:

"ذلك أنني استحممتُ في الحليب وسَقْطِ العسل،

في الأمطار التي نثرتها الورود، ولم تلمس الأرض أيضًا،

وأضحيتُ مدهونةً بسنبل الطيب ذي مسحة العنبر؛

أبدًا لم أعرف وحمة ميلاد،

ولا شامةً، ولا ندبة ألم، ولا قلق مجاعة؛

أبدًا لم تَنمُ على جسدي شعرةٌ واحدة زائدة.

هاربةً من البياض البارد، اعتدتُ الجلوس وحدي،

ليس في الشمس؛ ذلك أنني أخاف ضوءها مانح السُّمار،

لكن شعاعها يستلقي من حولي

عبر مرايا ساطعة تتلاعب بقدرتها؛

لذلك أستحمُّ في ضوء قمر ليس ساطعًا جدًّا،

وجلدي أمنحه ببطء مسحة اللون العاجيّ.

لكن الآن، كل ما حولي كان مظلمًا، مظلمًا حتى النُّخاع!

وعيناي لم تُطلِقَا حتّى وميضًا شبحيًا؛

وغرَقَت أصابعي في عجينٍ عبر جلدٍ عجينيٍّ؛

واستلقى جسدي مُترنِّحًا بالموت في جريش

من الرعب الموحل...".

بصرخةٍ مُرعبة، وفراؤها المندّى يحدِّق كلفائف متكاثفة، وذيلها سمكيٌّ كحبل غليظ، وعيناها تبرقان كالعقيق الأخضر، ومخالبها الممدودة تلتصق فيما بينها حتى يمكنها التقدُّم متعثِّرةً على البساط، هرَعَت قطّةٌ بيضاء ضخمة من موضع ما، واتَّجهَت نحو المدخنة. سريعًا كالأفكار، ألقى قيِّم المكتبة بالمخطوطة بينها وبين المدفأة. جثَمَت على الفور، واستقرَّت عيناها على الكتاب. لكن صوته استمرَّ كما

لو يقرأ ما يزال، وعيناه أيضًا مستقرّتان على الكتاب:

"أوه، العالَمان! مُتّحدان على نحوٍ عجيب،

ومع ذلك تفصل بينهما مساحات شاسعة!

أوه، لو كنتُ عشت بلا جسدٍ، وحيدةً

وأبقيتُ على قلبي آمنًا من الحواس المدنّسة،

حينها كنتُ لأفرّ من القرح والوخز،

من الموت- في- الحياة، وأنين المأساة الذي لا ينتهي!".

عند هذه الكلمات، انفجر نفس العواء، صراخ الألم المتطاول، من القطة، لحدّ أننا سَدَدنا آذاننا. عندما توقّفَت، خطا السيد راڤين إلى المدفأة، أمسك الكتاب، وواقفًا بين المخلوق والمدفأة، أشار بإصبعه إليها لوهلة. استلقَت هي في سكون مطلق. تناولَ العصا نصف المحترقة من المدفأة، ورسم بها علامة ما على الأرضية، ثم أعاد المخطوط إلى مكانه، بنظرة بَدَت أنها تقول، "الآن أخضعناها، أعتقد!"، وعائدًا إلى القطة، وقف بجوارها وقال، بصوت وقور هادئ:

"ليليث، عندما أتيتِ إلى هنا في طريقك إلى إرادتك الشرّيرة، لم تفكّري مَليًا في يَدَيْ مَن تُسلِّمين نفسك! سيد ڤين، عندما خلقني الربّ -ليس من عدَم، كما يقول الحمقى، بل من مجده اللانهائي ذاته- جلب إليّ بهاءً ملائكيًا ليكون زوجتي: ها

هي تستلقي! ذلك أن فكرتها الأولى كانت القوة؛ اعتبرَت وجودها بجواري عبوديَّةً، وأنجَبت الأطفال من أجله، ذلك الذي منحها كينونتها. أنجبت طفلة واحدة حقًّا؛ ثم، منتفخةً بتوهُّم أنها قد خلقتها، أرادت منّي أن أخرَّ وأعبدها! لكنها، وقد رأت أنني لا أحمل سوى الحب والشرف، وأنني أبدًا لن أطيعها أو أعبدها، أسالت دماءها للهروب منّي، وفرَّت إلى جيشٍ من الغرباء، وسرعان ما أوقعت في شباكها قلب "الظِّلِّ" العظيم، الذي أصبح عبدًا لها، وأعملَ إرادتها، ثم نصَّبَها ملكةً على الجحيم. كيف الأمر معها الآن، تعرف هي جيدًا، وأعرف أنا كذلك. تخشى طفلةً جسدها الوحيدة وتمقتها، وتودُّ لو قتلتها، مطالبةً بحقٍّ، هو كذبة في حقيقة الأمر، في ما أرسله الرَّبُّ عبرها إلى عالمه الجديد. عن الخَلْق، لا تعرف شيئًا أكثر من البلَّورة التي تتَّخذ شكلها المُقدَّر أو الدودة التي تصنع دودتين عندما تنشطر إلى نصفين. أشرُّ مخلوقات الرَّبِّ، تحيا على دماء وحيوات وأرواح الرجال. تستنزف وتذبح، لكنها عاجزة عن الإفناء من أجل الخلق".

كانت القطة تستلقي بلا حراك، عيناها الزُّمُرُّديَّتان تستقرَّان متوهِّجتَين على الرجل: وعيناه عليهما تراقبانهما حتى لا تفلتان من عينيه.

"ثم منحني الرَّبُّ زوجةً أخرى -ليست ملاكًا بل امرأة- هي بالنسبة لهذه كالنور للظلام".

أطلقَت القطةُ صريرًا بشعًا، وبدأت في التضخُّم.

استمرَّ نموُّها أكثر وأكثر. في النهاية أطلَقَت النَّمِرة المُرقَّطة زمجرةً جعلت المنزل يرتجف. اندفعتُ واقفًا. لا أعتقد أن السيد راڤين قد جَفَلَ حتَّى بجفنيه.

"لم تكن سوى غيرتها تتحدث"، قال، "غيرة تشتعل ذاتيًا، مهزومة وعقيمة؛ ذلك أنه ها أنا، سيدها الذي لن تتخذه زوجًا! بينما "حوَّائي" تعيش ما زالت، للأبد آمل! ابنتها الممقوتة تعيش أيضًا، لكن فيما يتجاوز إدراكها الشرير، لتصبح يومًا ما تحسبه دمارها؛ ذلك أنه حتى ليليث ستُنقذ على يد ذُرِّيَّتها. بينما تنتشي هي فرحًا لأن زوجتي أغرقتني ونفسها في اليأس، وحمَّلَتني بعِزقٍ لا ينتهي من البؤساء؛ لكن حوَّائي نادمة، والآن أضحت جميلة كما لم تكن أي امرأة أو ملاك قطُّ، رغم أن عالَم معاناتها وأنينها ليس سوى احتضان أطفال أبينا. أنا أيضًا تُبتُ، ونلتُ البركة. أنتِ، ليليث، لم تُعلِني توبتَكِ بعد؛ لكن لزامًا عليكِ. أخبريني، هل "الظِّلُّ" العظيم جميل الطلعة؟ هل تدركين إلى متى ستظلِّين أنتِ نفسكِ جميلة؟ أجيبيني إن كنتِ تعلمين".

ثم أدركتُ في نهاية المطاف أن السيد راڤين هو آدم في حقيقة الأمر، الرجل العجوز والجديد؛ وأن زوجته، التي تخدم في منزل الموتى، هي حوَّاء، أمنا جميعًا، سيدة أورشليم الجديدة.

هبَّت النَّمِرة؛ وبدأت رَقطاتها في الوميض والفرار، ثم انتصبت الأميرة في النهاية متألقةً بهيئتها

المثالية.

"أنا جميلة... وخالِدَة!" قالت، وبَدَت كما ينبغي لإلهةٍ أن تكون.

"كأجمة تحترق، وتُستنفد"، أجاب ذلك الذي كان زوجها يومًا. "ما هذا تحت يدكِ اليمنى؟".

ذلك أن ذراعها كان يستلقي عبر صدرها، ويدها تضغط على جنبها.

التوى وجهها الجميل بفعل دفقة ألم سريعة، سرعان ما تلاشت.

"ليست سوى رُقعَةِ نَمِرَة تتلكأ! سريعًا ستتبع تلك التي صرفتُها"، أجابت.

"أنتِ جميلة لأن الربَّ خلقكِ، لكنكِ عبدة للخطيئة: انزعي يدكِ من جنبِكِ".

أزاحت يدها، وبينما تُسقِطُها، نظَرَت إلى عينيه باهتياجٍ ذاوٍ لا يعرف الاستسلام.

حملقَ لوهلة في الرُّقطة.

"ليست على نَمِرة؛ بل في امرأة!" قال. "ولن تغادركِ حتى تأكل جسدك وصولًا إلى قلبك، ويتسرَّب جمالكِ منكِ عبر الجرح المفتوح!".

منحته نظرةً خاطفةً ناكسةً، وارتجَفَت.

"ليليث"، قال آدم، وقد تبدّلَت نبرته إلى تضرُّع رقيق، "أنصتي إليّ، وأعلني توبتك، وهو "الرَّبُّ" مَن

صنعكِ سيطهرُكِ!".

عادت يدها مرتعشةً إلى جنبها، غدا وجهها قاتمًا. أطلَقت صرخة إنسان تلاشى من داخله كل أمل. تحوّلت الصرخة إلى عواء. استلقت تتلوّى على الأرض، نَمِرةً غارقةً في الرُّقَط.

"الشَّرُ الذي استغرقتِ فيه بكلّيّتِكِ"، تابعَ آدم، "لن يمكنكِ أبدًا تحقيقه يا ليليث، ذلك أن الخير وليس الشر هو الكون. قد تستمرُّ المعركة بينهما لأزمنة لا نهائية، لكنها حتمًا ستنتهي: ماذا سيكون مصيرك عندما يتلاشى الزمن في فجر الصباح الأبدي؟ توبي، أتوسَّل إليكِ؛ توبي، وكُوني ملاك الرَّبِّ مُجدّدًا!".

نهَضت، وقفت منتصبةً، امرأةً من جديد، وقالت:

"لن أتوب. سأشرب دماء طفلتك". كانت عيناي مستقرَّتَين على الأميرة؛ لكن عندما يتحدَّث آدم، أديرهما إليه: كان يقف متطاولًا فوقها؛ حينها، تبدَّل شكل مُحيّاه، وغدا صوته مريعًا.

"اركعي!" هتف. "وإلّا، بالقوة الممنوحة لي، سأذيب عظامك ذاتها".

ارتَمَت على الأرض، تضاءلت وتضاءلت، حتى أصبحت مُجدّدًا قِطّةً رماديّة. قبضَ عليها آدم من جلدِ عنقها، وحملها إلى الحجرة السريَّة، ثم ألقاها فيها. رسمَ شكلًا عجيبًا على عتبة الباب، وأغلق الباب، ثم أقفل رتاجه.

بعدها، عادَ إلى جانبي، قيّم المكتبة العجوز، باديَ الحزن والتعب، ماسحًا دموعه من عينيه خلسةً.

(30)

آدم يُفسِّر

"علينا أن نبقى حذرين"، قال لي، "وإلَّا فإنها ستغلبنا. بمقدورها خداع "المختار" ذاته!".

"كيف لنا أن نكون حَذِرين؟" سألته.

"بكل طريقة مُمكِنة"، أجابني. "إنها تخاف طفلتها؛ ولذلك تبغضها، وفي هذا المنزل فهي في طريقها لتدميرها. ذلك أن ميلاد الأطفال في نظرها ما هو إلَّا موتٌ لآبائهم، وكل جيل جديد هو عدوٌّ لسابقه. ترى ابنتها كقناة مفتوحة ينساب فيها خلودها -الذي تعتبره كامنًا فيها رغم ذلك- سريعًا ومتلاشيًا، وحتَّى تُعوِّض تَبدُّده، فمنذ لحظة ميلادها تقريبًا وهي تلاحقها بعداوة مطلقة. لكن نتيجة دسائسها حتى الآن، في الأرض التي تزعم ملكيتها، كانت أن ظهَرَت مستعمرة من الأطفال، في أعينهم، فإن تلك الابنة هي القلب والرأس والجناحين الضامَّين. تاقت حوَّائي إلى الطفلة، وكانت على استعداد لأن تكون أمَّها التي أنجبتها، لكننا كنَّا غير مؤهَّلين لتنشئتها: حملَت إلى البرِّيَّة، ولعصور لم نعرف شيئًا عن مصيرها، لكنها وجدت عناية ربَّانية، وملائكة صغارًا كرفقاء لعبها؛ لم تجد الرعاية الحقَّة حتى وجدت رضيعًا في الغابة، وحينها استيقظ فيها قلب الأمِّ. من ذلك الحين وهي تعثر على طفل بعد آخر، أطفال كثيرين، لكن قلبها لم يمتلئ بعد. عائلتها هي

مَهمَّتها الفاتنة، وأبدًا لم يجد الأطفال أمًا أفضل. لم تجذبها كثيرًا سُلطَتها عليهم، لكنها كانت تجهل هذه السلطة، وأبدًا لم تظهر إلى السطح باستثناء عند الاحتراس والخدمة. نسِيَت ذلك الزمن الذي عاشت فيه بدونهم، لحدّ أنها باتت تظن أنها جاءت من الغابة هي ذاتها، كأول فرد في العائلة الكبيرة".

"لقد أنقذتْ حياتها عدوَّتهم؛ لذلك فأنت مدين بحياتك لها ولهم. كانت الأميرة في طريقها لتدميرهم، لكن بينما تعبر ذلك النبع، سقَطَت فريسة للانتقام، وكانت لتموت لولا أنك هرعتَ لنجدتها. فعلتَ حقًّا، وكان لها أن تطيح هائجةً بين المخلوقات الصغيرة، لو كانت جَرُؤَت وعبَرَت النبع مجددًا. لكن مع ذلك يوجد طريق إلى مستعمرة المُباركين الصغار عبر عالم الأبعاد الثلاثة؛ لكنها، وعبر ذبح جسدها السابق، كانت حرَمَت نفسها من ذلك الطريق، وباستثناء أن تتلامس جسديًا مع إنسان من ذلك العالم، لا يمكنها دخوله ثانيةً. ثم جئتَ أنت ومنحتها الفرصة: أبدًا، في أعوامها الطويلة، لم تسنح لها فرصة كهذا. كانت يدها، بأوهى لمسة، على إحدى قدميك الهامستين، في كل خطوة في صعودك. في تلك الحجرة الصغيرة، تترقّب هي الآن، وتنتظر مغادرتها في أقرب وقت".

"لا يمكنها أن تعرف أيّ شيء بشأن الباب! لا يمكنها على الأقل معرفة كيف تفتحها!" قلتُ، لكن قلبي لم يكن بثقة كلماتي.

"اصمت! اصمت!" همس قيّمُ المكتبة، بيدٍ مرفوعة "يمكنها السماع عبر أي شيء! يجب أن تنطلق على الفور إلى كوخ زوجتي. سأبقى هنا لمراقبتها".

"دعني أذهب إلى المخلوقات الصغيرة!" هتفت.

"حذارِ من هذا، سيد ڤين. اذهب إلى زوجتي، وافعل ما تأمرك به".

لم تبدُ نصيحته منطقيّةً: لماذا التّعجُل لنصادف تأخيرًا لا ينتهي؟ إذا لم يكن لحماية الأطفال، فلماذا أرحل في الأصل؟ وا أسفاه، مع كل هذا، ما زلت أؤمن به بما يكفي لأطرح عليه الأسئلة فحسب، لكن ليس لإطاعة أوامره.

"أخبرني أولًا، سيد راڤين"، سألته"، لماذا، من بين كل الأماكن، حبستُها هناك بالتحديد؟ في الليلة التي هربتُ فيها من منزلك، وصلتُ على الفور إلى تلك الحجرة السريّة!".

"الحجرة السرية ليست أقرب إلى كوخنا، وليس أبعد عنه، من أيّ أو كل مكان آخر".

"لكن"، أجبته، وقد وجدتُ صعوبة في الاقتناع بما لا يمكنني فهمه، "كيف إذن أنك، عندما ترغب، تأخذ من نفس ذلك الباب كتابًا كاملًا في حين لا أرى أو أتلمّس سوى جزءٍ واحدٍ منه فحسب؟ الجزء الآخر، كما أخبرتني، عالق في مكتبك: عندما تضعه مُجدَّدًا على الرَّفّ، ألن يعلق فيه مُجدّدًا؟ ألا يستقر المكانان إذن، اللذان يوجد فيهما جزآن من نفس المجلَّد في

نفس اللحظة، قريبين من بعضهما؟ أم أن نصف الكتاب موجود في حيّز أو موضع ما، بينما الآخر خارج الحيّز، أو في اللا مكان؟".

"يؤسفني أنني لا أستطيع تفسير الأمر لك"، أجابني، "لكنك لا تتمتع بأيّ استعداد لفهمه. ليس الأمر أن الظاهرة غير قابلة للتفسير بالنسبة لك، لكن طبيعتها ذاتها غير معقولة في نظرك. أنا نفسي أعقلها بالكاد. في نفس الوقت تمرُّ دائمًا بأمور لا تفهمها فحسب لكن لا يمكنك فهمها. تظنُّ أنك تفهمها، لكن فهمك لها ما هو إلا كينونتك وقد اعتادت عليها، وبالتالي لم تَعُد تُفاجِئك. تَقبلها، ليس لأنك تفهمها، لكن لأن عليك قبولها: إنها موجودة، وليس بمقدورك تجنُّبها! الحقيقة هي، أن لا أحد يفهم أيّ شيء؛ وعندما يدرك أنه لا يفهم، فهذه هي الخطوة المترنِّحة الأولى- ليس نحو الفهم، لكن نحو القدرة على الفهم يومًا ما. وهناك أمور أنت لستَ معتادًا عليها، وبالتالي لا تتوهَّم أنك تفهمها. ليس في مقدوري ولا في مقدور أيّ إنسان مساعدتك على فهمها؛ لكن بمقدوري، ربما، مساعدتك قليلًا حتى تؤمن!".

خطا إلى باب الحجرة السرّيّة، وأطلق صفيرًا واطئًا، ثم وقف منصتًا. بعد برهة، سمعتُ، أو توهَّمتُ أنني سمعت، طنينًا خافتًا لأجنحة، ومتطلِّعًا لأعلى، رأيت حمامة بيضاء تجثم لثانية على قمَّة الأرفف فوق البورتريه، ثم هبطت إلى كتف السيد

راڤين، وأمالت رأسها على خدّه. عبر حركات رأسيهما فحسب كان بإمكاني تبيّن أنهما يتحادثان معًا؛ لم أسمع شيئًا. ولم أكد أبعد عينيّ عنهما، حتّى اختفَت الحمامة بغتةً، وعاد السيد راڤين إلى مقعده.

"لماذا أطلقتَ صفيرًا؟" سألته. "بالتأكيد الصوت هنا ليس نفسه الصوت هناك!".

"أنتَ على حق"، أجابني. "أطلقتُ صفيرًا حتى تدرك أنني ناديتها. ليس الصفير، لكن ما يعنيه الصفير هو ما وصل إليها. ليس أمامنا دقيقة لتضييعها: عليك أن تذهب!".

"سأنطلق على الفور!" أجبته، وخطوتُ نحو الباب.

"ستبيت ليلتك في نُزُلي!" قال، ليس، ليس كسؤال، لكن بنبرة لا تخلو من سلطَة.

"قلبي مع الأطفال"، أجبته. "لكن إذا كنتَ مُصرًّا...".

"أصلًا لا يمكنك فعل شيء آخر. سأرافقك حتى المرآة، وأودّعك هناك".

نهضَ واقفًا. ثم سمعنا ارتطام مفاجئ في الحجرة السريّة. من الواضح أن النَّمِرة كانت طوّحت بنفسها على الباب الثقيل. نظرتُ إلى مُرافقي.

"هيّا؛ هيّا!" قال.

قبل أن نصل إلى الباب، جاءت في إثرنا صرخة عواء، مختلطةً بقعقعة مخالب تخمش في البلُّوط

الصلب. تردّدتُ، واستدرتُ نصف استدارة.

"التفكير في أنها تقبع هناك بمفردها"، غمغمتُ، "... بذلك الجرح المريع!".

"لا شيء سيغلق ذلك الجرح"، أجابني، بتَنهدَة. "يجب أن ينخر حتى قلبها! الفناء ذاته ليس موتًا للشرّ. الخير الوحيد حيث يوجد الشرُّ، هو الميّت الشرير. الأشياء الشريرة يجب أن تحيا بشرِّها إلى أن تختار أن تكون خيِّرة. هذا وحده ما يذبح الشر".

أمسكت لساني حتى استولى علينا صوتٌ لم أستطع فهمه.

"إذا نجَحَت في التحرُّر من أسرِها!" هتفت.

"أسرع!" أجابني. "سأسرع نازلًا في اللحظة التي ترحل فيها، بعد أن أشقلب المرايا".

ركضنا، ووصلنا إلى الحجرة الخشبية لاهثَي الأنفاس. أمسك السيد راڤين بالسلاسل وعدّلَ الساتر الشمسي. ثم ضبط المرايا بنسبها الصحيحة، وخطا بجواري أمام المرآة المنتصبة. بعدها على الفور رأيت السلسلة الجبلية تنبثق من بين الضباب.

من بيننا، مباعدًا إيّانا إلى الجانبين، انطلق بصرخة شيطان، الجسد الهائل للنَّمِرة المرقَّطة. قفَزَت عبر المرآة كما لو كان عبر نافذة مفتوحة، واندفَعَت على الفور في قفزات واطئة، متناسقة، سريعة.

ألقيتُ بنظرة ارتياع على مُرافقي، ووثبتُ عبر

المرآة لملاحقتها. خطا في إثري بهدوء.

"لا حاجة بك إلى الركض"، صاح فيّ، "لا يمكنك مجاراتها. هذا هو طريقنا".

بينما يتحدث، استدار إلى الاتجاه المقابل.

"لديها سحر على أطراف أصابعها أكثر ممّا قد أهتمُّ بمعرفته!" أضاف بهدوء.

"علينا أن نفعل ما في وسعنا!"، قلت وتابعتُ الركض، لكن شاعرًا بالغثيان فيما أراها تتضاءل على البعد، توقّفتُ وعدتُ إليه.

"بلا شك"، أجابني. "لكن زوجتي قد حذّرَت مارا، وستقوم بدورها؛ عليك أن تنام أولًا: لقد وعدتني!".

"ولا أنوي الحنث به. لكن الأكيد أن النوم ليس أول ما علينا فعله! الأكيد، الأكيد، أن الفعل يسبق الراحة!".

"لا يمكن للرجل فعل شيء ما لم يكن جاهزًا لفعله.اسمع! ألم أخبرك أن مارا ستقوم بدورها؟".

نظرتُ إلى حيث أشار ورأيتُ لطخةً بيضاء تتحرّك بزاوية حدّة متقاطعة مع الخطّ الذي اتّخذته النّمِرة المرقّطة.

"ها هي!" هتف. "النّمِرة المرقّطة قوية، لكن البيضاء أقوى!".

"لقد رأيتهما تتعاركان: ولم تَبدُ المعركة حاسمة

بشأن هذا".

"كيف يمكن لهاتين العينين اللتين لم تناما أبدًا أن تعرف؟ الأميرة لم تعترف بالهزيمة -أبدًا لا تفعل- لكنها فرّت. عندما تعترف بضياع آخر أمل، عندما يُصعب عليها حقًّا أن ترفس مناخس((17))، فإن نهارها سيبدأ في الطلوع! هيًا؛ هيًا! مَن يُعجِزه التّصرُّف عليه بالإسراع إلى النوم".

(31)

حفّار القبور وحِصانه العتيق

وقفتُ وراقبتُ آخر وهجٍ للنَّمِرة البيضاء وهو يتلاشى بعيدًا، ثم استدرت لأتبع مرشدي، لكن على مضض. ماذا بإمكاني أن أفعل بالنوم؟ بالتأكيد المنطق هو نفسه في كل العوالِم، وأي منطق قد يدعو للاستغراق في النوم مع الموتى، في حين تقتضي الساعة رجلًا حيًا؟ إلى ذلك، لن أجد مَن يوقظني، وكيف لي أن أضمن الاستيقاظ مبكرًا، أو الاستيقاظ على الإطلاق؟ مع النائمين في ذلك المنزل ينزلق الصباح إلى الظهيرة، والظهيرة إلى الليل، فيما يظلُّون جاثمين بلا حراك! غمغمت، لكنني تبعته؛ ذلك أنني لا أعرف ماذا أفعل غير ذلك.

تابع قيِّم المكتبة سَيرَه في صمت، وسرتُ صامتًا مثله. انساب الزمان والمكان وراءنا. غربت الشمس، بدأ الظلام يحلُّ، وشعرتُ في الهواء بالبرد المنتشر لحجرة الموت. غرق قلبي أكثر وأكثر. بدأ الشكل البشري النحيل، ذو المعطف الطويل، يغيب عن نظري، وفي النهاية لم يَعُد بمقدوري سماع خطواته المخفخِفة عبر أرض الخلنج. لكنني سمعتُ بدلًا من ذلك الرفرفة البطيئة لجناحي الغراب؛ وبين لحظة وأخرى، كانت تصعد يراعة حينًا، وحينًا فراشة متوهِّجة إلى الهواء المظلم.

ثم ظهر القمر، عابرًا الأفق البعيد ببطء.

"أنت مُرهَق، أليس كذلك، سيد فين؟" قال الغراب، وقد حطَّ على حجر. "يجب أن تتعرَّف على الحصان الذي سيحملك في الصباح!".

أطلق صفيرًا عجيبًا من منقاره الأسود الطويل. ظهَرَت لطخة على وجه القمر نصف المرتفع. إلى أذنيَّ تناهت حينها نقرات حوافر سريعة، تَخبب بنعومة، وبعد دقيقة أو اثنتين، من قرص القمر ذاته، رعدَ الحصان المريع هابطًا. كان عُرفه يتطاير وراءه كنهاية موجةٍ تحارب الرياح، وتتحطَّم على البحر برذاذٍ غُباريّ، وسياط ذيله يداوم على تعمية عين الشمس. بدا بارتفاع تسع عشرة قبضة، بعظام ضخمة، وجِلدٍ مشدود، وعضلات قاسية- سلالة قد يختارها الموت المقدَّس ذاته للركوب وإعمال الذبح! بدا القمر وأنه يحرسه بخشوع، في ضوءه المخيف بدا هيكلًا عظميًا، مشدودًا بحبال متراخية. بضخامته المرعبة، كان يتحرَّك بخفَّة حشرة مُجنَّحة. مع اقترابه، تراخت سرعته، وانزلق عُرفه وذيله مستقرَّين على جسده.

لم أكن مجرَّد عاشقٍ للأحصنة، بل أعشق كل حصان أراه. أبدًا لم أنفق أموالًا سوى على الأحصنة، وأبدًا لم أبع حصانًا. أيقظ مرأى هذا الحصان الهائل، المرعب في مظهره، داخلي- توقًا لامتلاكه. كان جشعًا محضًا، لا، بل طمعًا متعفِّنًا، شيء شرِّير في كل العوالم. لا أعني أنه كان بإمكاني سرقته، لكن كنت لأشتريه إن استطعت، أيًا كان مكانه الملائم.

وضعتُ يديَّ عليه، ومسّدتُ على العظام الناتئة التي تُحدِّبُ جلدًا ناعمًا ورقيقًا، ولامعًا كالحرير... لامعًا لحدّ أن القمر ذاته انعكس عليه؛ لاطفتُ أذنيه ذاتَي النهايات المستدقّة، همستُ بكلماتٍ في أذنه، وأطلقت في منخريه الأحمرين أنفاس حياة رجل. أطلق في أنفي بالمقابل أنفاس حياة حصان، وأحببنا بعضنا البعض. أيّ عينين كانت لديه! رقيقتين وزرقاوين كأعين الأموات، وراء كل منهما قطعة فحم متوهّجة! كان الغراب، بجناحيه نصف مفرودين، ينظر إليّ مبتهجًا بالحب الذي أمارسه مع حصانه البديع.

"هذا حسن! كُن صديقًا له"، قال. "سيحملك طوال الطريق غدًا! الآن علينا أن نسرع إلى البيت!".

تحوَّلت رغبتي لركوب الحصان إلى حماسة مُتَّقِدة.

"ألا يمكنني امتطاؤه الآن، سيد راقين؟" هتفت.

"بالتأكيد!" أجابني. "امتطِه، واركض به حتى البيت".

أحنى الحصان رأسه على كتفي بعطف. أحطتُ عرفه بيديّ وبسطته على عنقه، بعونٍ من عظامه الناتئة.

"له أن يسبق أيّ نمرة في العالم!" هتفت.

"ليس الأمر هكذا في الليل"، أجابني الغراب؛ "الطريق وعر. لكن هيّا؛ الخسارة الآن ستكون مكسبًا

لاحقًا! الانتظار أصعب من الركض، لكن مكافأته أكبر. انطلق يا بنيّ... مباشرةً إلى الكوخ، سأصل إلى هناك فور أن تصل. سيطرب قلب زوجتي عندما ترى ابنها على ذلك الحصان!".

جلستُ صامتًا. وقفَ الحصان ككتلة من الرخام.

"لماذا تتلكأ؟" سألني الغراب.

"أتوقُ كثيرًا لملاحقة النَّمِرة"، أجبته، "بالكاد أمسك نفسي!".

"لقد وعدتني!".

"يبدو أن دَيْني للمخلوقات الصغيرة، أعترف، أكبر ممّا يربطني بك".

"استسلم للإغواء وستجلب عليهم الأذى... وعلى نفسك أيضًا".

"ماذا يهمُّ ذلك لي؟ أحبّهم؛ والحبُّ لا يخلق شرًا أبدًا. سأذهب".

لكن الحقيقة كانت أنني نسيتُ الأطفال، ووقعتُ في غرام الحصان.

ومَضَت الأعين عبر الظلام، وأدركت أن آدم كان يقف بشكله الحقيقي بجواري. أدركتُ أيضًا من صوته أنه كان يكبح ازدراءً قويًا تجاهي.

"سيد ڤين"، قال لي، "هل تعرف لماذا لم تُنجز أي شيء ذا قيمة حتّى الآن؟".

"لأنني كنتُ أحمق"، أجبته.

"في ماذا؟".

"في كل شيء".

"ما هو في رأيك أغبى فعل قمتَ به؟".

"إعادة الأميرة إلى الحياة؛ كان ينبغي عليَّ تركها لمصيرها فحسب".

"لا، الآن تتحدَّث بحماقة! لم يكن بمقدورك فعل سوى ما فعلته، جاهلًا بأنها كانت شريرة! لكنك لم تُعد أيَّ إنسان إلى الحياة! كيف يمكنك ذلك، وأنت نفسك ميِّت؟".

"أنا ميِّت؟" هتفت.

"نعم"، أجابني"، وستظل ميِّتًا، ما دمت ترفض أن تموت".

"عدنا إلى الألغاز القديمة!" أجبته بامتعاض.

"اقتنع بكلامي، واذهب إلى البيت معي"، تابع حديثه برفق. "أكبر الأشياء حماقة، الشيء الأحمق الوحيد تقريبًا الذي فعلته، هو فرارك من موتانا".

نخستُ أضلع الحصان، فانطلق كرياح مباغتة. منحته تربيتةً على جانب عنقه، فحادَ عن طريقه بانحناءة حادّة، (قريبًا من الأرض، كقطّة تخمش وهي تطارد فأرًا)، مائلًا على جنبه حتى اكتسح غرفه قمم الخلنج.

عبر الظلام، سمعتُ أجنحة الغراب. خمس رفرفات سريعة سمعتها، ثم حطَّ على رأس الحصان. ألجمَ الحصان على الفور حارثًا الأرض بأقدامه.

"سيد فين"، نعقَ الغراب، "ماذا تظنُّ أنك فاعل! مرَّتين بالفعل أصابك الشرُّ... مرَّةً بسبب الخوف، وأخرى بسبب الطَّيش؛ حنث الوعد أسوأ كثيرًا؛ إنه جريمة".

"المخلوقات الصغيرة في خطر مريع، وقد جلبته عليهم!" هتفت. "لكن في الحقيقة لن أحنث بوعدي لك. سأعود، وأقضي في منزلك أيَّة ليالٍ... أيَّ أيام... أيَّة سنوات تُحبُّ".

"سأقول مرةً أخرى، ستصيبهم بالأذى وليس الخير إن رحلت الليلة"، قال مُلحًا.

لكن شعورًا زائفًا بالقوة، شعورًا لا يحمل أيَّ أساس، يرتعش فحسب داخلي مُستمَدًا من قوة الحصان، كان، للأسف، قد جعلني في غاية الحمق على أنصت لأي شيء يقوله الغراب!

"هل ستنتزع مني آخر فرصة لإصلاح أخطائي؟" هتفت. "لا مهرب هذه المرَّة" إنها مسؤوليتي، وسأذهب، حتى لو هلكت من أجل ذلك!".

"اذهب، إذن، أيُّها الصبي الأحمق، أجابني، بغضبٍ في نعيقه. "خُذ الحصان، وانطلق نحو الفشل! أو ربما نحو الهوان!".

نشرَ جناحيه وطار بعيدًا. تحسست الأضلع النحيلة من تحتي مجددًا.

"في إثر النَمِرة المرقَّطة!" همست في أذنه.

أدار رأسه يمينًا ويسارًا، متشممًا الهواء؛ ثم جَفلَ، وانطلق لعدة خطوات بطيئة، مترددة. أسرع في مشيته بغتةً؛ ثم شرعَ في الخَبب، وبعد لحظات قليلة كانت سرعته مهولة. بدا أنه يرى في الظلام؛ أبدًا لم يتعثَّر، ولا مرَّة ترنَّح، ولا مرة تَردَّد. جلست كما لو كنت على حافَّة موجة. شعرتُ تحتي بتلاعُب كلِّ عضلة: كانت مفاصله في غاية المرونة، وكل حركة يبديها تنزلق بنعومة إلى التي تليها، لحدِّ أنني أبدًا لم أرتجّ. حملته سرعته المتزايدة قُدمًا حتى أوشك أن يطير أكثر من كونه يعدو. كانت الرياح تصادفنا وتمرُّ بنا كإعصار.

عبر الحفرة الشِّرِّيرة انطلقنا كسهم اندفع من قوسه. ولا وحش واحد رفع عنقه؛ جميعها كانت تعرف تلك الحوافر التي ترعد فوق رؤوسها! اندفعنا صاعدين التلال، ثم نازلين منحدراتها واحدًا بعد آخر؛ لم ينحرف مبتعدًا على الهوّات الصخرية في قاع النهر؛ تجاوزها بخببه الهائج، المريع. كان القمر في منتصف السماء، يحدِّق بقلق وقور في محيَّاه الشاحب. مبتهجًا بقوة جوادي وبزهو حياتي، جلست كملك منطلقًا في طريقي.

مع اقترابنا من منتصف القنوات الكثيرة، وحصاني

بين كل لحظة وأخرى يتجاوز إحداها وأحيانًا اثنتين بخطوة واحدة، وبين حين آخر يستجمع نفسه لقفزة هائلة، كان القمر قد وصل إلى سمتِ قوسه. ثم جاء العجب والرعب: بدأ في الهبوط متدحرجًا كصرّة في عجلة الحظ تديرها الآلهة، هبطَ أسرع وأسرع. مثل قمر عالَمنا، كان هذا القمر ذا وجه بشري، حينًا يكون جبينه العريض في الأعلى، وحينًا ذقنه فيما يتدحرج هابطًا. حدّقتُ مذهولًا.

عبر الوهاد انطلق عواء الذئاب. بدأ خوفٌ بشع في غزو المواضع الخاوية في قلبي؛ كانت ثقتي في انحسار. حافظَ الحصان على سرعته المتقدّمة، بأذنيه مائلتَين للأمام، والمنخرين التوّاقين ينتشيان بمجرى الرياح الذي خلقها. لكن هناك كان القمر يتقافز كعجلة عربة قديمة على تلِّ السماء، بنذير سوء مريع! وصلَ في تدحرجه أخيرًا إلى حافة الأفق واختفى، حاملًا كل الضوء معه.

كان الجواد الهائل على وشك تجاوز قناة ضحلة واسعة عندما وقعنا فريسةً لشباك الظلام. سقط رأسه؛ وحمل اندفاعه جسدَه العاجز قُدمًا قليلًا، لكنه سقط متكوّمًا على الحافّة، وحيث سقط استقرَّ خامدًا. نهضتُ، جثوتُ بجواره، وتحسّستُ جميع جسده. لم أستطع إيجاد عَظمَةٍ واحدة مكسورة، لكنه لم يَعُد حصانًا. جلستُ على الجسد، ودفنتُ وجهي في يديّ.

(32)

العشّاق والمنتفخون

تَزايَدَ البردُ جِدَّةً في الليل. تجمَّد الجسد تحتي. اقترَبَت صرخات الذئاب؛ تناهى إلى سمعي وقع لَبداتِ أقدامها على الأرض الصخرية؛ ولهاثها المتسارع يملأ الهواء. عبر الظلام، رأيتُ الأعين المتوهِّجة الكثيرة؛ نصف الدائرة التي شكَّلَتها حولي. حانَ أجلي! اندفعت واقفًا. وا أسفاه، لا أحمل عصا حتَّى.

جاءت مندفعةً، أعينها تومض بهياج الجشع، وحلوقها السوداء مفتوحةً على اتِّساعها لالتهامي. وقفتُ يائسًا أنتظرها. بعد برهة تلكَّأت عند الحصان، ثم وصَلَت إليَّ.

بصوتٍ سريع لكن صامت، حطَّت سحابة من الأعين الخضراء على قطيع الذئاب. انقضَّت الرؤوس التي تحملها على الذئاب بصرخة أضعف لكن أكثر شراسةً من زمجرة الذئاب العاوية، مع الصرخة تعرَّفتُ عليها: كانت القطط، يقودها قِطٌّ رماديٌّ عملاق. لم أتمكَّن من رؤية شيء منه سوى عينيه، ومع ذلك تعرَّفتُ عليه... وكذلك على لونه وضخامته. تلت ذلك معركة شنيعة، وصلت إليَّ أصداؤها فحسب طوال الليل. كان لي أن أفرَّ هاربًا؛ ذلك أنها معركة كانت ستقتلني حتمًا! لكن إلى أين أفرّ؟ خطوتي الأولى ستكون سقوطًا وأعدائي من

كلا النوعين بمقدورها رؤيتي واقتفاء رائحتي في الظلام!

بغتةً لم أعُد أسمع العواء، وازداد المواء شراسةً. ثم جاءني وقْع لباد الحوافر الخافت، وأدركت حينها نتيجة المعركة: لقد هزمت القطط الذئاب! بعد برهة كانت الأسنان الحادّة تنهش في ساقيّ؛ وبعد برهة أخرى كانت جميع القطط تعلوني كشلال حيّ، تعَضُّ ما استطاعت من جسدي، وتخدشني في أيّ موضع وكل موضع. تشبّثَ حشدٌ بجسدي؛ كنت عاجزًا عن الهروب. انقضَضتُ على الحشد البغيض بجنون، وبكل إصبع متشبّعًا بغريزة الدمار. انتزعتها بعيدًا عنّي، أمسكتُ بخناقها بلا طائل: عندما أطوّحها بعيدًا، كانت تتشبّث بيدي كالقُرادة. دهستها بأقدامي، غرست أصابعي في أعينها، عضضتها بفكّين أقوى من فكوكها، لكن لم أستطع التخلُّص من قطة واحدة. بلا توقف، داوَمت على اكتشاف مساحات خاوية لعضّات جديدة؛ كانت تشدُّ جلدي بكمّاشات ممتدّة ذات انحناءات مريعة تبرزُ من مخالب مقبوضة؛ كانت تهسّ وتبصق في وجهي... لكن أبدًا لم تلمسه، حتّى وصلتُ إلى ذروة يأسي وألقيت بنفسي على الأرض، وحينها تخلّت عن جسدي، واندفعت نحو وجهي. نهضتُ واقفًا، وعلى الفور تركته، لتنشغل مُجدّدًا بساقيّ. بآلام شديدة انتزعتُ نفسي منها وركضتُ، غير مبالٍ إلى أين، شاقًّا الظلام الحالك. رافقتني في سَيلٍ

يحيط بي، محتكّةً بي حينًا، وقافزةً عليّ حينًا، لكن لم تَعُد تُعذّبني. عندما أسقط، وهو ما حدث كثيرًا، كانت تمهلني زمنًا للنهوض؛ وعندما أتباطأ في خطوتي خشية السقوط، كانت تندفع مجدّدًا على ساقيّ. طوال تلك الليلة البائسة داومت القطط على إبقائي راكضًا... لكنها قادتني عبر طريق منبسط بعض الشيء، ذلك أنني لم أتعثّر بأيّة وهاد، وعبرت الغابة الشريرة دون أن أراها، تاركًا إيّاها ورائي في الظلام. عندما طلعَ الصباح أخيرًا، كنت وراء القنوات، على حافة وادي البساتين. في ابتهاجي، كنت لأعقد صداقة مع جلّادِيني، لكنني لم أرَ قِطّة واحدة حولي. ألقيت بنفسي على الطحالب الجافّة، واستغرقت في النوم سريعًا.

أيقظتني ركلة، لأجد نفسي مُقيّد القدم والساق، في عبودية العمالقة من جديد!

"أيوجد أفضل من هذا؟" قلت لنفسي. "لمن غيرهم يجب أن أنتمي؟" ثم ضحكت في نشوة ازدراء للذات. أوقفت ركلة ثانية بهجتي الزائفة؛ وبمساعدة مُتكرّرة من اثنين من آسريّ، نجحت في الوقوف على قدميّ.

ستةٌ منهم كانوا يحيطون بي. فكّوا الحبل الذي كان يربط ساقيّ معًا، وأوثقوا حبلًا بكل منهما، وجرّوني بعيدًا. كنت أسير قدر ما أستطيع، لكنما مع سحبهم المتكرّر للحبلين معًا، كنت أسقط في كل مرّة؛ حينها يركلونني دائمًا مجدّدًا. أخذوني مباشرة

إلى عملي القديم، ربطوا حبال ساقيّ بشجرة، فكّوا وثاق ذراعيّ، ووضعوا حجر الصوان البغيض في يدي اليسرى. ثم أقعوا جالسين وأمطروني بوابل من الفواكه والأحجار، لكنهم لم يصيبوني إلّا نادرًا. لو استطعتُ تحرير ساقيّ، والإمساك بعصا لمحتُها على بعد بضعة أمتار منّي، فسيكون بمقدوري إسقاط السّتّة جميعًا! "لكن المخلوقات الصغيرة ستأتي ليلًا!" قلت لنفسي، وشعرت بالعزاء.

عملتُ طوال النهار بكدّ. عندما حلّ الظلام، ربطوا يديّ، وتركوني مثبّتًا بالشجرة. نمتُ جيدًا، لكنني كنت أستيقظ كثيرًا، في كل مرة من حلم الاستلقاء في قلب كومة من الأطفال. مع حلول الصباح ظهر أعدائي مجدّدًا، جالبين ركلاتهم وصُحبتهم البهيميّة.

اقتربت الظهيرة، وكنت موشكًا على الإغماء من التعب والجوع، عندما سمعتُ جلبةً مفاجئة في غابة الأجَمة، تلاها انفجار لضحكات كالأجراس عزيزة جدًّا على قلبي. أطلقتُ صرخة فرح وترحيب عالية. على الفور ارتفع صراخ كما لو كان لأفيال رضيعة، صهيل كما لو كان لصغار الجياد، وخوار كما لو كان لصغار العجول، وعبر الأجَمات جاء حشد المخلوقات الصغيرة، على أحصنة ضئيلة، على أفيال صغيرة، على بَهْمة متقازمة؛ لكن الضجيج كان يأتي من الراكبين، وليس الحيوانات. متداخِلًا مع الممتطين سار أكبر الصبيان والفتيات حجمًا، وبينهم امرأة تحتضن رضيعًا في ذراعيها. اندفع العمالقة واقفين

على أقدامهم التي تشبه جذوع الشجر، لكن على الفور قابلتهم عاصفة من الأحجار الحادّة، أطلقت الأحصنة سيقانها؛ انتصبت الدِّببة واحتضنتهم من خواصرهم؛ ألقت الأفيال بخراطيمها حول أعناقهم، وأسقطتهم أرضًا، ودهستهم بطريقة لا بُدّ قدّموا مثلها لكنهم لم يتلقَّوها من قبل قطُّ. بعد لحظة كانت حبالي محلولة، وأنا بين أذرع المخلوقات الصغيرة التي لا تُحصى. لم أرَ أيًّا من العمالقة لبعض الوقت.

أجلسوني، ثم جاءت لونا، وبلا كلمة واحدة شرَعَت في إطعامي بأشهى ثمار الفواكه الحمراء والصفراء. جلستُ وأكلت، والمستعمرة بأكملها تحرسني حتى فرَغتُ. ثم جلبوا اثنين من أكبر أفيالهم، ووضعوهما جنبًا إلى جنب، وربطوا خرطوميهما وذيلهما معًا بإحكام. كان بمقدور المخلوقين الوديعين فكّ ذيليهما بهزّة واحدة، وحلُّ خرطومَيهما عبر إرخائهما ببساطة، لكن الذيلين والخرطومين ظلّا كما نظَّمها سادة الفيلَين الصغار، وكان من الواضح أن الفيلين يدركان أن عليهما الإبقاء على جسديهما متوازيين. نهضت واقفًا، وألقيت بنفسي على الفراغ بين ظهريهما؛ وحينها استند الحيوانان الحكيمان على بعضهما البعض، دافعَين ذلك الذي يبعدهما عن بعض، وهيّئا لي هودجًا مريحًا. كانت ساقاي تبرزان حقًّا إلى ما وراء ذيلهما، لكن رأسي استقرّ مرتاحًا على أذن كل منهما. ثم اصطفّ بعض من الأطفال الأصغر حجمًا، كحرّاس، في صف وراء ظهرَي

حامِلِيني؛ تشكَّلت قافلة من الجمع بأكمله؛ وبدأ الموكب في التحرُّك.

لم أحاول تخمين إلى أين كانوا يحملوني؛ استسلمت لبهجتهم، سعيدًا قدر سعادتهم، مثرثرين ومتضاحكين ولاعبين بخدعٍ لا تنتهي، لكن في اللحظة التي رأوا فيها أنني على وشك النوم، غدوا صامتين كقُضاة.

استيقظت: فتحت عينيَّ لأجد في استقبالهما زمجرة موسيقية مفاجئة.

كنّا نمضي عبر الغابة التي يجدون فيها الرُّضَّع، والتي تمتدُّ، كما كنت ظننت، على طول الطريق من الوادي إلى النبع الساخن.

جلَسَت فتاة مُتَمِمَةٌ بقدمها الضئيلة قريبًا من وجهي، وتطلَّعَت إليَّ بتودُّدٍ لبرهة، ثم تحدَّثَت، وبدا البقية وكأنهم يترقَّبون كلماتها:

"لدينا "التماثا" إلى الملك"، قالت.

"ما هذا يا عزيزتي؟" سألتها.

"أغلق عينيك للحظة"، أجابتني.

"بالتأكيد سأفعل! ها أنا أغلقها!" أجبتها، وأغلقتُ عينيّ تمامًا.

"لا، لا! ليس قبل أن أقول لك!" هتفت.

فتحتهما مُجدّدًا، وتحدثنا وضحكنا معًا لساعة

كاملة.

"أغلق عينيك!" قالت بغتةً.

أغلقتُ عينيّ وأبقيتهما مغلقتين، وقف الفيلان ساكنين. سمعتُ ركضًا، حفيفًا خافتًا، ثم صمت... ذلك أنه في هذا العالم كان من الممكن سماع الصمت.

"افتح عينيك" صاح عشرون صوتًا على بعد خطوات في نفس اللحظة، لكن عندما أطعتهم، لم أرَ حولي أي مخلوق سوى الفيلين اللذين يحملانني. أدركت أن الأطفال قد نجحوا في الاختفاء ببراعة- كانوا تعلّموا ذلك من العمالقة؛ لكن عندما اعتدلت ناهضًا، متطلّعًا من حولي في الغابة البراح الخالية من الشجيرات، لم أتبيّن يدًا ولا عقِبًا، كنت أحدّق في "الاندهاش الخاوي".

كانت الشمس غاربة، والظلام يحلُّ بسرعة، مع ذلك بدأ حشدٌ من الطيور في التغريد في تلك اللحظة. استلقيتُ منصتًا، ومتيقّنًا، إذا تركتهم وشأنهم، أن المختبئين سيظهرون سريعًا من جديد.

تصاعد التغريد وتحوّل إلى عاصفة صغيرة من أصوات الطيور. حتمًا للأطفال علاقة بهذا! "لكن كيف نجحوا في دفع الطيور إلى التغريد؟"، قلت لنفسي فيما أستلقي مُنصتًا. مع ذلك، وفور أن تطلّعتُ عاليًا إلى الشجرة التي كان الفيلان يقفان تحتها، تراءى لي أنني لمحتُ حركة صغيرة بين

الأوراق، وتطلَّعتُ بإمعان أكبر. ظهَرَت لَطخات بيضاء مباغتة في الدغل القاتم، خفتت الموسيقى، تماوَجَت عاصفة من الضحك الطفولي عبر الهواء، وانتشرت اللَّطخات البيضاء في كل اتجاه: كانت الأشجار تغصُّ بالأطفال! بابتهاج جامح بدؤوا في الهبوط، بعضهم يتساقط من غُصن إلى آخر بسرعة شديدة لحدِّ أنني بالكاد استوعبت تساقطهم. تركتُ هودَجي، وأصبحتُ على الفور محاطًا بهم- هدفًا لكل قذائف مرحهم المبتهج. بهدوء وقور ابتعد الفيلان إلى مهجعهما.

"لكن"، قلت، عندما هدأ اصطخابهم السعيد لوهلة، "لماذا لم أسمعكم من قبل أبدًا تغرِّدون كالطيور؟ حتَّى عندما ظننتُ أنكم مصدر التغريد، بالكاد كان بإمكاني التصديق!".

"آها"، قال واحد من بين الأكثر جموحًا، "لكننا لم نكن طيورًا قبل ذلك! كنَّا مخلوقات- ركض، وليست مخلوقات- طيران! كانت لدينا أماكن اختباء في الأجَمَات فيما مضى؛ لكن عندما وصلنا إلى غابة بلا أجَمَات، لم نجد سوى الأشجار لبناء أعشاشنا عليها! عندما بنينا الأعشاش، أصبحنا طيورًا، وعندما أصبحنا طيورًا، صرنا نفعل ما تفعله الطيور! طلبنا منها تعليمنا أشكال ضجيجهم، وعلَّمونا بالفعل، والآن نحن طيور بحق! تعالَ وألقِ نظرة على عشِّي. ليس كبيرًا بما يكفي ملكًا، لكنه كبير ما يكفي لأن يراني الملك فيه!".

أخبرته أنني لا أستطيع تسلُّق شجرة بدون الشمس تريني الطريق؛ عندما تشرق، سأحاول.

"الملوك نادرًا ما يكون لديهم أجنحة!" أضفت.

"الملك! الملك!" هتف أحدهم، "ولا يمتلك أيُّنا أجنحةً- أشياء حمقاء مملّة! الأذرع والسيقان أفضل".

"هذا صحيح. يمكنني التسلُّق بلا أجنحة- وحمل القشّ في فمي لأبني العشّ به أيضًا!".

"نعم! نعم!" أجابني، وانطلق مبتعدًا ماصًّا إبهامه.

بعد وهلة، سمعته ينادي صائحًا من عُشّه، عاليًا جدًّا على شجرة جوز هائلة الحجم.

"عاليًا من جديد، يا ملك! ليلة حلوة! "أنا أنام"!".

ولم أسمعه ثانيةً حتى أيقظني في الصباح.

(33)

حكاية لونا

استلقيت بجوار شجرة، وواحدًا بعد آخر أو في مجموعات صغيرة، كان الأطفال يغادرونني ويتسلّقون الأشجار إلى أعشاشهم، دائمًا ما يكونون في غاية الإرهاق ليلًا وفي غاية الاسترخاء صباحًا، لحدّ أنهم يجدون نفس البهجة في الخلود إلى النوم والاستيقاظ مُجدّدًا. فيما أستلقي أنا مستيقظًا، رغم إرهاقي: لم تكن لونا قالت لي "ليلة طيبة"، وكنتُ على يقين أنها ستأتي.

كنت صُعقتُ، في اللحظة التي رأيتها فيها، من تشابُهها مع الأميرة، ولم أشكّ أنها ابنة مَن أخبرني آدم أنها أمُّها؛ لكن في لونا كان الجمال المُغوي الليليث قد تَخفّف بفعل شيء من الطفولية، وتعمّق بفعل حسّ الأمومة. "ربما كانت مشغولة"، قلت لنفسي، "بطفل المرأة التي صادفتُها وهي تفرُّ!" التي لم تكن، كما أخبرتني هي من قبل، أمًّا بما يكفي.

جاءت أخيرًا، جلست بجانبي، وبعد لحظات من الابتهاج الصامت، الذي عبّرت عنه على الأخص عبر تمسيد وجهي ويديّ، شرَعَت في إخباري بكل شيء حدث منذ رحلتُ عنهم. ظهر القمر بينما نتحادث، وبين حين وآخر، عبر أوراق الشجر، كان يضيء، لبرهة مرتعشة، وجهها الجميل- الممتلئ بالأفكار، والحذب الذي وجد خلاصه ومجده في

الحبّ. أيّة طفلة كان لها أن تولد من أمّ كتلك- من امرأة كتلك ومن أميرة كتلك، كان ذلك عصيًا على الفهم؛ لكن حينها، ولسعادتي، كان لديها أبوان، أو بالأحرى، ثلاثة! انجذَبَت إلى قلبي بسبب ما وجدتُه من شبهٍ بها داخلي، وأحببتها، لكمالِها الذي أوشكَت على بلوغه، ولطفولتها التي لم تنقضِ مع ذلك. أدرك الآن أنني كنتُ أحبّها عندما غادرتها، وأن الأمل في رؤيتها مجدّدًا كان عزائي الوحيد. كل كلمة نطَقَت بها بَدَت وأنها تتجه مباشرةً إلى قلبي، وأنها، كالحقيقة المطلقة نفسها، تزيده نقاءً.

حكَت لي أنني بعد رحيلي عن وادي البساتين، بدأ العمالقة في التصديق بوجود جيرانهم أكثر قليلًا، وأصبحوا بالتالي أكثر عدوانية نحوهم. أحيانًا ما كانت المخلوقات الصغيرة تراهم يطرقون الأرض باهتياج، باحثين عن الأطفال أو عن علامة على وجودهم، بينما الأطفال يقفون بالفعل بجوارهم، ويتضاحكون على غضبهم الأحمق. لكن سرعان ما اتّخذ عداءهم شكلًا أكثر عمليةً: بدؤوا في تدمير الأشجار التي تقتات المخلوقات الصغيرة على ثمارها. وهو ما دفع أمّهم الكبرى إلى التفكير في فعلٍ مضادّ. بعد أن وضعت أذكى الأطفال للتنصُّت ليلًا، علِمَت أن العمالقة يعتقدون أنني أختبئ في مكان قريب ما، وأنني أنوي، فور أن أستعيد قواي، أن آتي في الظلام وأقتلهم بينما هم نائمين.

عليه، خَلصت إلى أن الطريقة الوحيدة لإيقاف

الدمار تتمثّل في منحهم سببًا للاعتقاد أنهم هجروا مكانهم. لا بُدّ للمخلوقات الصغيرة أن ترتحل إلى الغابة- خارج مدى العمالقة، لكن ليس بعيدًا عن أشجار الفواكه، التي ينبغي لهم زيارتها ليلًا! كان الاعتراض على الخُطّة، أن الغابة بالكاد تضم أجمَات صغيرة لإيوائهم- أو الاختفاء فيها عند الضرورة.

لكنها فكّرَت أنه حيث تكون الطيور، فإنه يمكن للمخلوقات الصغيرة أن تجد مُقامًا. كانوا يحملون تعاطفًا محمومًا تجاه كل أشكال الحياة، وبمقدورهم التعلُّم من أكثر المخلوقات وحشيّةً: فلماذا لا يلتجئون من البرد ومن أعدائهم في قمم الأشجار؟ لماذا، بعد استلقائهم طويلًا في الأجَمَة الواطئة، لا ينشدون الخضرة السامقة؟ لماذا لا يبنون أعشاشًا لا تحتاج إلى اغتراف الحُفر؟ كل ما تستطيع الطيور فعله، بإمكان المخلوقات الصغيرة تعلُّمه... باستثناء الطيران بالطبع!

تحدّثَت إليهم بشأن المسألة، وأنصتوا إليها موافقين. كان بإمكانهم الآن تسلُّق الأشجار، وكثيرًا ما راقبوا الطيور وهي تبني أعشاشها! لا تبدو أشجار الغابة شريرة، رغم ضخامتها! تنتصب عاليًا أقرب كثيرًا إلى السماء من أشجار العمالقة، وتنشر أذرعها -وبعضها تمدّ فروعها إلى الأسفل حتى- كما لو كانت تدعو الأطفال للصعود والعيش عليها! وعلى قمّة أطول شجرة، ربما يكتشفون ذلك الطائر الذي يضع بيضات الرُّضع، ويجلس عليها حتى تنضج،

ثم يلقيها إلى الأسفل لتفقس ويخرج منها الصغار! نعم؛ سيشيِّدون منازل نومهم على الأشجار، حيث لا يمكن لأيِّ عملاق رؤيتهم، ذلك أنه أبدًا لا يطوِّح أحدهم برأسه الغبي للوراء وينظر لأعلى! حينها سيتأكَّد العمالقة الأشرار أنهم رحلوا عن الأرض، ثم تجمع المخلوقات الصغيرة ثمارها من التفاح والكمثرى والتين والسابوديلا والدُّرّاق فيما هم نائمون.

هكذا كان تفكير العُشّاق. وافقوا على اقتراح لونا بحماس... وكان نتيجة ذلك أنهم سريعًا ما اتَّخذوا قمم الأشجار موطنًا لهم، تمامًا كالطيور، وأن العمالقة استنتجوا ليس بعد وقت طويل أنهم أرعبوا الأطفال ودفعوهم للخروج من الأرض... وعليه نَسوا أشجارهم، وتوقَّفوا ثانيةً على التصديق بوجود جيرانهم الصغار.

سألتني لونا إن لم أكن لاحظتُ أن كثير من الأطفال قد كبروا وازداد حجمهم. أجبتها أنني لم ألاحظ، لكن بإمكاني تصديق ذلك. أكَّدتْ لي أن الأمر هكذا، لكنها قالت أن دليلًا بعينه على نموِّ عقولهم أيضًا منذ هجرتهم إلى الأعلى، قد خفَّف من وقع الصدمة التي أحدثها الاكتشاف فيها.

في الساعة الأخيرة من الغسق القصير، ولاحقًا عندما يسطع القمر، كان ينطلقون نازلين إلى الوادي، ويجمعون ثمار فواكه تكفيهم في اليوم التالي؛ ذلك أن العمالقة لا يخرجون أبدًا إلى الغسق: كان بالنسبة

لهم ظلامًا. وإلى ذلك كانوا يمقتون القمر: ولو استطاعوا، لأطفؤوا ضياءه. لكن سرعان ما اكتشفت المخلوقات الصغيرة أن الفواكه التي يجمعونها ليلًا لا تكون طيّبة على الإطلاق في النهار التالي؛ وبالتالي ظهَرَت مسألة إذا لم يكن من الأفضل، بدلًا من التظاهر بالرحيل عن الأرض، أن يدفعوا العمالقة الأشرار أنفسهم للرحيل عنها.

كانوا يستكشفون الغابة بالفعل، قالت لي، ويتعرَّفون على الحيوانات فيها، مع معظمها شخصيًا. مُطَّلعين بذلك على قوَّة وحكمة ووادعة بعضها، وعلى سرعة وانصياع حيوانات أخرى كثيرة، حتى يستطيعوا تأمين عونها ضد العمالقة، وبأساليب عطوفة، عابثة، أصبح أغلبها أكثر من مجرد أصدقاء بالنسبة لهم، كأن يخاطبوا الحصان أو الفيل بالفيل الشقيق أو الشقيقة، أو الحصان الشقيق أو الشقيقة، حتى سريعًا ما أصبح لكل منها اسمٌ شخصيٌ. استغرق الأمر منهم وقتًا أطول قبل أن يخاطبوا الذئب بالشقيق أو الشقيقة، لكن هذا جاء لاحقًا، وفي أحد الأيام سَمِعَت أحد الأطفال الصغار يصيح، "آه، شقيقتي الأفعى!" مناديًا على ثعبان لدغه بينما يلاعبه بعنف شديد. معظم الأطفال لم يكونوا يتعاملون مع يرقات الدِّيدان بأي شكل، باستثناء مراقبة تغيُّراتها؛ لكن عندما تخرج يرقانة في نهاية المطاف من عُزلتها بأجنحة، كان الجميع يخاطبها على الفور بالفراشة الشقيقة، مباركين لها

على تحوُّلها النهائي -ذلك أنهم استخدموا كلمة تعني شيئًا من قبيل "التوبة"- واعتبروا ذلك شيئًا مقدَّسًا على ما يبدو.

ذات ليلة غارقة في ضوء القمر، كانوا في طريقهم إلى جمع ثمار الفواكه، عندما صادفوا امرأة تجلس على الأرض برضيع في حِجرها... المرأة التي كنتُ قابلتها في طريقي إلى بوليكا. ظنُّوا أنها عملاقة قد سرقت أحد رُضَّعهم؛ ذلك أنهم يعتبرون الرُّضَّع جميعًا مِلكًا لهم. ممتلئين بالغضب، انقضُّوا عليها محتشدين، وأوسعوها ضربًا بطريقة طفولية عجيبة. كانت على وشك الفرار، عندما طرحها أحد الصِّبية أرضًا وتشبَّث بقدميها. بعد أن أفاقت، تعرَّفت في مُهاجميها على الأطفال الذين كانت تنشد ضيافتهم، وعلى الفور تنازَلَت عن الرضيعة. ظهَرَت لونا، وحملتها بعيدًا في حضنها.

لكن في حين أن المرأة لاحَظَت في ضربهم لها أنهم كانوا منتبهين ألَّا يؤذوا الطفلة، لاحظت المخلوقات الصغيرة بدورها، فيما هي تُسلِّمهم الطفلة، أنها كانت تحتضنها وتُقبِّلها، تمامًا كما تودُّ المخلوقات الصغيرة أن تفعل، وخلصوا إلى استنتاج أنها لا بُدَّ عملاقة من نفس نوع العملاق الطَّيِّب. لذلك، وفور أن رحلت لونا بالرضيعة، جلبوا ثمرة الفواكه إلى الأم، وشرعوا في منحها كل أشكال الاهتمام الطفولي.

كانت المرأة في حيرة بشأن إلى أين تلجأ، متهيِّبةً

من العودة إلى المدينة؛ لأن الأميرة كانت حتمًا لتكتشف مَن أصاب نِمرتها بالعرج؛ مبتهجةً بعطف الأناس الصغار، قرّرت أن تبقى معهم في الوقت الحالي: لن تُصادِف أيّ متاعب مع طفلتها، وقد تجد طريقةً ما للعودة إلى زوجها، الثريّ بالأموال والجواهر، والذي نادرًا جدًا ما يعاملها بقسوة.

هنا عليّ أن أكمل، بالتخمين جزئيًا، ما أخبرتني به لونا عن المرأة. كبقيّة ساكِني بوليكا، كانت مدركةً للأسطورة التي تقول إن الأميرة تعيش في رعب من ميلاد طفلة مُقدّرة لتدميرها. كانوا جميعًا جاهلين، رغم ذلك، بالوسائل المريعة التي كانت تحافظ بها على شبابها وجمالها؛ وأن حالتها الجسدية المتدهورة تتطلّب استخدام أكبر لهذه الوسائل، رأوا في الزيادة الظاهرية لعدائها تجاه الأطفال علامةً على أنها رأت نهايتها تقترب. منحهم هذا، رغم أن أحدًا منهم لم يحلم بأيّ محاولة ضدها، أملًا بالتغيير.

ثم انبثقت في عقل المرأة فكرة العمل على تحقيق النبوءة المبهمة، أو استخدام الأسطورة من أجل عودتها إلى زوجها على الأقل. ذلك أنه ماذا يبدو أكثر معقوليةً ممّا ألقاه المصير المتكهّن به في هؤلاء الأطفال أنفسهم؟ كانوا شجعانًا على نحوٍ عجيب، بينما أهل بوليكا جبناء، يعيشون في رعب مُخزٍ من الحيوانات! إذا استطاعت أن تثير في المخلوقات الصغيرة طموح الاستيلاء على المدينة، فيمكنها حينها، في معمعة الهجوم، الهروب من الجيش

الصغير، والوصول إلى منزلها دون أن يتعرَّف عليها أحد، ثم تختبئ هناك، منتظرةً ما تُسفر عن الأمور!

وإذا نجح الأطفال في طرد العمالقة، فحينها ستبدأ على الفور، فيما يزالوا هم متوهِّجين بالانتصار، في زرع الهدف الأسمى داخلهم! من ناحية المزاج، ليسوا مستعدِّين للحرب بالطبع؛ بالكاد يتعاركون، وأبدًا لم يحاربوا؛ يحبّون كل شيء حيّ، ويمقتون الأذى أو المعاناة. رغم ذلك، كان من السهل التأثير عليهم، وبمقدورهم بالتأكيد تعلُّم أي مناورة ضمن حدود قُوَّتهم! على الفور وضَعت بعضهم الأصغر حجمًا في رمي الحجارة على الأهداف؛ وسريعًا ما انخرطوا جميعًا في اللعبة الجديدة، حتى أتقنوها تمامًا.

كانت النتيجة العمليَّة الأولى هي استخدامهم للحجارة في إنقاذي. أثناء جمعهم للفواكه، وجدوني نائمًا، ذهبوا إلى البيت، عقدوا مجلسًا، ثم جاؤوا في اليوم التالي بأفيالهم وأحصنتهم، وتغلَّبوا على حرَّاسي القليلين من العمالقة، وحملوني بعيدًا. مبتهجين بانتصارهم، كان الصبيان الأصغر حجمًا مزهوِّين بطفولية، بينما الأكبر أقلَّ تباهيًا، في حين لم تكن الفتيات، رغم أن عيونهن كانت أكثر تألقًا، ثرثارات كالعادة. منح كل هذا امرأة بوليكا الحماس بلا شك.

تحدثنا طوال الليل تقريبًا، عن نموِّ الأطفال في الأغلب، وعمَّا قد يعنيه هذا. وأمام قدرة لونا على

التعرُّف على حقيقة طالما كنتُ مدركًا لها؛ بدأتُ الآن في الشعور بالذهول تجاه حكمتها العملية. ربما لو كنتُ طفلًا أنا نفسي، لكنت اندهشتُ بقدرٍ أقل.

كان الصباح ما يزال بعيدًا عندما تناهت إلى سمعي رفرفةٌ وتدافُعٌ واهٍ. استندتُ على مرفقي، وعندما تطلَّعت إلى ما حولي، رأيتُ مخلوقاتٍ صغيرة كثيرة تهبط من أعشاشها. اختفَت، وبعد لحظات غدا كل شيء ساكنًا مجدَّدًا.

"ماذا يفعلون؟".

"يعتقدون"، أجابتني لونا، "أن العمالقة، بغبائهم، سيفتِّشون الغابة، فانطلقوا لجمع الحجارة لاستقبالهم بها. الأحجار ليست وفيرة في الغابة، لذلك تفرَّقوا بعيدًا لجمع كمية مناسبة منها. سيحملونها إلى أعشاشهم، ومن الأشجار يهاجمون العمالقة عند اقترابهم. وحيث أنهم يعرفون عاداتهم، فهم لا يتوقَّعون وصولهم قبل الصباح. وعند وصولهم، سيكون ذلك افتتاحًا لحرب الطرد والإبعاد: أحد الشعبين لا بُدَّ أن يرحل. يصعب للغاية، رغم ذلك، توقع النتيجة. لا ننوي قتلهم في الحقيقة؛ إلى ذلك فجماجمهم سميكة جدًا لحدّ أنه لا يسعني التفكير أننا نستطيع قتلهم! ليس أن القتل سيؤذيهم كثيرًا، الحياة داخلهم خافتة جدًا! وإذا قتلنا أحدهم، فإن عملاقته لن تتذكَّره لأكثر من ثلاثة أيام!".

"هل الأطفال بارعون جدًا في رمي الحجارة إذن

لدرجة أن تنجح المسألة ربما؟".

"انتظر حتى تراهم"، أجابتني، بلمسة زهو. "لكنني لم أخبرك بعدُ"، تابعت حديثها، "عن أمر غريب حدث في الليلة قبل الفائتة! كنّا وصلنا إلى البيت بعد جمع فاكهتنا، واستغرقنا في النوم في أعشاشنا، عندما أيقظنا ضجيج مريع لوحوش تتقاتل. كان القمر ساطعًا، وفي لحظة التمعت أشجارنا بالعيون الصغيرة المحدّقة، تُراقب نَمِرتين عملاقتين، إحداهما بيضاء تمامًا، والأخرى مغطاة بزُقط سوداء، تُنهكان وتُمزّقان بعضها البعض بأسنانهما ومخالبهما العصيّة على العدّ. بالنظر إلى ظهرها، لا بُدّ أن المخلوقة المرقّطة كانت تتسلق شجرة عندما انقضّت عليها الأخرى. عندما رأيتهما لأول وهلة، كانتا تحت شجرتي بالضبط، تتدحرجان فوق بعضهما البعض. هبطتُ إلى آخر فرع قُرب الأرض، ورأيتهما بوضوح تام. كان الأطفال مستمتعين بالمشهد، بعضهم يشجّع البيضاء، وآخرون يشجعون المرقّطة؛ ذلك أننا أبدًا لم نرَ وحوشًا كهذه من قبل، واعتقدنا أنهما كانتا تلهوان فحسب. لكن شيئًا فشيئًا أوشكت الزمجرة والهدير على التوقّف، ورأيتُ أنها كانتا متحمّستين بشكلٍ قاتل، وكل واحدة تتمنّى من قلبها ألّا تترك الأخرى إلّا وهي عاجزة عن تسلّق الأشجار. لكن عندما رأى الأطفال الدماء تتدفّق من أجنابها وحلوقها، ماذا تظنّ أنهم فعلوا؟ أسرعوا نازلين لمواساتهما، وتجمّعوا في حشدٍ كبير حول

المخلوقتين المريعتين، وشرعوا في التربيت عليهما وتمسيدهما. ثم هبطتُ أنا أيضًا؛ ذلك أنهم كانوا مستغرقين جدًا على أن يسمعوا ندائي عليهم؛ لكن قبل أن أصل إليهم، توقفت النمِرة البيضاء عن التعارُك، ووثبَت بينهم بصرخة شنيعة لحدّ أنهم تقافزوا هاربين إلى الأشجار كالطيور. قبل أن أعود إلى شجرتي، كان البهيمتين الفظيعتين قد تشابكتا مجدَّدًا بأسنانهما ومخالبهما. تفوَّقت البيضاء حينها؛ وفرّت المُرقَّطة بأسرع ما يمكنها، ثم جاءت البيضاء وجثَمَت أسفل شجرتي. لكن بعد دقيقة أو اثنتين نهَضَت مُجدَّدًا، وخَطَت في الأنحاء كما لو كانت تعتقد أن المُرقَّطة ربما تختبئ في موضع ما. كنت أستيقظ كثيرًا، وأراها في كل مرَّة أتطلّع من حولي. في الصباح رحلَت مبتعدة".

"أعرف كلا البهيمَتَين"، قلتُ. "المُرقَّطة بهيمة شرِّيرة. تمقت الأطفال، وعلى استعداد لقتلهم جميعًا. لكن البيضاء تحبُهم. ركَضَت بينهم لإخافتهم وإبعادهم فحسب، خشية أن تمسك المُرقَّطة بأحدهم. لا حاجة لأحد أن يخاف من البيضاء!".

عند ذلك كانت المخلوقات الصغيرة في طريق عودتها، بكثيرٍ من الصخب؛ ذلك أنهم لا يبالون بالبقاء هادئين الآن وقد انخرطوا في حرب مفتوحة مع العمالقة، ومحمّلين بالحجارة الجيّدة. صعدوا إلى أعشاشهم مجدّدًا، بصعوبة رغم ذلك بسبب أحمالهم، وفي غضون دقيقة كانوا مستغرقين في

النوم. انسحبت لونا إلى شجرتها. استلقيت حيث أنا، ونمت بشكل أفضل، الآن وأنا على يقين أن الثمرة البيضاء كانت ما تزال في موضع ما في الغابة.

استيقظت بُعيدَ طلوع الشمس، واستلقيت متأملًا. انقضت ساعتان، وحينها بدأ العمالقة في الظهور حقًا، في جماعات شاردة من ثلاثة أو أربعة، حتى أحصيت ما يفوق المائة منهم. كان الأطفال ما يزالوا نائمين، والصياح عليهم سيجذب انتباه العمالقة: سأبقى هادئًا ما داموا لم يكتشفوا وجودي. لكن في النهاية جاء أحدهم يتخبَّط ناحيتي، تعثَّر، سقط، ثم نهض على قدميه مُجدَّدًا. ظننت أنه مرَّ بي ولم يلحظني، لكنه بدأ في البحث من حوله. اندفعت واقفًا، وضربته في منتصف جسده الضخم. أيقظت الزمجرة التي أطلقها الأطفال، وهبَّت على الفور عاصفة من بوابل الأحجار، لم يصبني منها أيّ حجر، ولم يخطئ أيّ حجر العملاق. سقط وتمدَّد على الأرض. اقترب آخرون، واتَّسع نطاق العاصفة، وكل مخلوق حسير النظر يصبح، فور أن يدخل نطاق الشجرة المتمترسة، هدفًا لأحجار متداخلة. بعد لحظات قصيرة، أصبح جميع العمالقة تقريبًا جاثمين، وارتفعت أنشودة طيور حماسية، مبتهجة، من قمم الأشجار الخمسين.

جاءت أفيال كثيرة مسرعة، وبدأ الأطفال في النزول من الأشجار كالقردة، وفي لحظة كان كل فيل يحمل ثلاثةً أو أربعةً منهم على ظهره، وبحمله

هذا يبدأ في المشي فوق العمالقة، الذين كانوا مستلقين ومصطخبين. بعد أن نفد صبرها في نهاية المطاف من ضجيجهم، منحتهم الأفيال بضعة ضربات بخراطيمها وتركتهم.

ظلّ العمالقة الأشرار حتى حلول الليل حيث كانوا قد سقطوا أرضًا، صامتين، بلا حراك. في الصباح التالي اختفوا جميعًا، ولم يرَ الأطفال أيًا منهم. نزحوا إلى الجانب الآخر من وادي البساتين، ولم يجرؤوا بعدها أبدًا على دخول الغابة.

@ART_OF_BOOK

(34)

الاستعداد

بعد تحقيق الانتصار، بدأت امرأة بوليكا في التحدث عن المدينة، وتحدثت كثيرًا عن دفاعها الأعزل، عن شرور أميرتها، عن خنوع ساكِنيها. لأيام طويلة لم يثرثر الأطفال سوى عن بوليكا، رغم أنه لم تكن لديهم أيّ فكرة عمّا تعنيه كلمة "مدينة"، ثم أدركتُ لأول مرة نيّة المرأة، لكن ليس دوافعها مع ذلك.

فكرة الاستيلاء على المكان، بَدَت جذّابة للغاية في عينَي لونا... وفي عينيَّ أيضًا. كان الأطفال الآن يزيدون من تدريباتهم بسرعة، لحدّ أنني لم أعُد أرى عقبات حقيقة أمام النجاح في المهمّة. ذلك أنه في ليليث المريعة... المرأة والنَّمِرة، كنت على دراية بنقطة ضعف واحدة، هلاكها عبر ابنتها، إلى جانب التأثير التي تحمله النبوءة القديمة على المواطنين: حتمًا مع أيّ ما يمكن تسميته بالمخاطرة في هذه المهمّة، فهي تستحق المغامرة! بعد نجاحهم -ومَن له أن يشكّك في نجاحهم؟- ألن تتحوّل المخلوقات الصغيرة سريعًا، من حشد من الأطفال، إلى شعب شابٍّ، ستحقّق حكومتهم وتأثيرهم الاستقامة والصلاح ولا شيء غيرهما؟ ألن يحكموا الأشرار بقبضة من حديد، ألن يكونوا خلاصًا وتوبةً للأمّة؟

في نفس الوقت، عليّ أن أعترف أنني لست بلا

آراء ذات منافع شخصية، لستُ بلا طموح في مشاركتي في المهمة. كان الأمر فحسب، كما يبدو لي، أن لونا ستتخذ مكانها على العرش الذي كان لأمّها، وبالطبيعي أنها ستجعلني وزيرها وحارسها. بالنسبة لي، سأقضي حياتي في خدمتها؛ وبيننا، ماذا يعجزنا أن نقيم، في القلب منها المخلوقات الصغيرة، دولةً نبيلة؟

أعترف أيضًا بحلم أحمق تمامًا يدور عن بدء التجارة في الجواهر بين العالَمين، وهو حلم مستحيل لحسن الحظّ، وإلى ذلك، لن يجلب سوى الأذى لكلاهما.

متذكِّرًا مناشدة آدم، اقترحتُ على لونا أن عثورنا على الماء قد يسرِّع من نموّ المخلوقات الصغيرة. رأت هي أنه من الحكمة، رغم ذلك، أن نترك هذه المسألة حاليًا؛ ذلك أننا لا نعرف آثاره المحتملة الأولى. وإلى ذلك، مع مرور الوقت، سيعرِّضهم ذلك إلى ضرورات جديدة بالتأكيد.

"هم ما هم عليه بدونه!" قالت: "عندما نستولي على المدينة، سنبحث حينها عن الماء!".

بدأنا بالتالي، ومضينا قُدُمًا في استعداداتنا، مراجعين باستمرار القوّات والسرايا المُبتهجة. بذلت لونا جلّ اهتمامها للمؤن، بينما انشغلت أنا بتدريب الجنود الصغار، وتمرينهم على رمي الحجارة، وتعليمهم استخدام أسلحة أخرى كذلك،

وفعلتُ ما في وسعي لأجعل منهم محاربين بحق. تمثَّلت الصعوبة الأكبر في جمعهم حول رايتهم في لحظة إطلاق النداء. كان معظمهم مسلَّحًا بالمقاليع، وبعض من الصبيان الأكبر حجمًا بالأقواس والسهام. كانت الفتيات يحملن رِماح الصَّبَّار القوية كالصُّلب والحادَّة كالإبرة، مثبَّتة على عصيان طويلة... أسلحة مُرعِبة بعض الشيء. تمثَّلَت مهمَّتهن الرئيسية في إطلاق هذه الرماح حيث أنهن كنَّ صغيرات على أن يقاتلن.

كانت لونا ذات قد كبرت بدرجة كبيرة، لكن لم تَبدُ واعية بذلك: طالما ما كانت، وما زالت، أطولهم قامةً! كما أن شَعرها ازداد طولًا كثيرًا، وأوشكت على أن تصبح امرأة، لكنها أبدًا لم تفقد جمال الطفولة. عندما تقابلنا لأول مرة بعد انفصالنا الطويل، وضَعت طفلها أرضًا، ثم أحاطت عنقي بذراعيها، وتشبَّثت بي صامتةً، وجهها يتألق بالسعادة: بكى الطفل ناشجًا؛ هرَعت إليه، وضمَّته إلى صدرها على الفور. عندما أراها مع أي صغير نزق، عنيد أو مشاكس، تجعلني أفكِّر فيها كجَدَّة عطوف. بدا لي أنني أعرفها منذ أزمنة طويلة -دائمًا- قبل أن يبدأ الزمن! بالكاد كنت أتذكَّر أمِّي، لكن في عين عقلي أصبحت الآن تشبه لونا؛ وإذا حدث وتخيَّلتُ شقيقةً أو طفلةً، فدائمًا ما تحمل في عين قلبي وجه لونا! كل خيالاتي كانت تتجه نحوها؛ كانت زوجة قلبي! نادرًا ما كانت تبحث عنِّي، لكن دائمًا تقريبًا ما تهرع

إلى صوتي فور خروجه من فمي. فيما أفعله أو أفكّر، دائمًا ما أرجع إليها، وأبتهج عندما أدرك، رغم إنجازها لأعمالها باستقلالية مطلقة، أنها في البيت في جانبي أغلب الوقت. أبدًا لم تهمل من أجلي أصغر الأطفال، ولم يكن حبّي سوى دافعٍ لتعزيز حسّي بالمسؤولية. بدا حُبّي لها وإنجازي لمهامّي، ليس شيئًا واحدًا، بل غير قابلين للانفصال. ربما تقترح شيئًا ما لأفعله؛ ربما تسألني ما يجب عليها فعله؛ لكنها أبدًا لم تفترض أنني أفوقها في حبّي أو اهتمامي تجاه أيّ شيء باستثناء ما يتوجّب فعله. كان حبّها يغرقني... ليس عبر الملاطفات والمعانقات، لكن عبر ما يشبه إدراكًا لا يمكنني مقارنته بشيءٍ سوى إخلاص حيوان سماوي.

لم أخبرها بأيّ شيء بشأن أمّها.

كانت الغابة ممتلئة بالطيور، التي بدا بهاء ريشها، رغم أنه لم يأخذ شيئًا من تغريدها، وكأنه يعوّض تقريبًا غياب الزهور- التي لا يمكن بالطبع أن تنمو بدون ماء. كانت ريشاتها العظيمة في كل مكان في أرجاء الغابة، وخطرَ على قلبي أن أصنع منها رداءً من أجل لونا. فيما أجمعها، وأحزمها في صفوف متداخلة، كانت تراقبني بتقدير واضح لاختياري وتنظيمي، أبدًا لا تسأل ماذا كنت أخيط، لكنها تنتظر بوضوح نتيجة عملي. انتهيتُ منه في أسبوع أو اثنين- دثار فضفاض طويل، يُثبّت عن العنق والخاصرة، بفتحتين للذراعين.

نهضتُ وألبستها إيّاه. نهضَت، نزَعته، ثم ألقته عند قدمَيّ- لم يكن ملائمًا لها، أعتقد. وضعتُه مجدَّدًا على كتفيها، وأريتها من أين تُخرِج ذراعيها. ابتسمَت، ونظرت إلى الريشات قليلًا ومسّدتها- ثم نزعته مجددًا ووضعته أرضًا، بجوارها هذه المرّة. عندما غادَرَتني، حمَلَته معها، ولم أره ثانيةً لبضعة أيام. في النهاية جاءت إليّ ذات صباح مرتديةً إياه، وتحمل رداءً آخر كانت طرَّزته على نفس الشاكلة، لكن من أوراق مخضرَّة، جافَّة وعريضة. كانت له قوة الجِلد تقريبًا، ومظهر دِرعٍ من الحراشف. ارتديتُه على الفور، واعتدنا بعدها على ارتداء هذين الرّداءَين متى امتطينا الأحصنة.

ذلك أنه، على أطراف الغابة، ظهرَ ذات يوم جيشٌ من أحصنة كاملة النمو، وسرعان ما عقدنا معها، حيث أنها لم تجفل البتّة من مخلوقات ذات مظهر شديد الاختلاف عن مظهرها، صداقةً طيبةً، ودرَّبتُ اثنين من أفضلها من أجلي أنا ولونا. بعد اعتيادها ركوب الأحصنة الصغيرة، كان بهجتها عظيمة عندما تطلَّعَت لأول مرة من ظهر حيوان من النوع العملاق؛ وبدا الحصان متباهيًا بالحِمل الذي يقلُّه. كنّا ندرِّبها كل يوم حتى نلنا ثقتها بما يكفي لتطيعنا على الفور ولا تخشى شيئًا؛ بعدها كُنّا دائمًا ما نمتطيها في المسيرات والاستعراضات.

بدَت لي المهمّة أحيانًا طائشة ونزقة، لكن ثقة امرأة بوليكا، حقيقيةً كانت أم مصطنعةً، دائمًا ما

Page ... / ... (34) ...

تغلّبت على تردُّدي. كانت تُصرّ على أن سحر الأمير سيقف عاجزًا أمام الأطفال؛ وبالنسبة لأيّ قوة قد تحشدها، فإن حلفاءنا من الحيوانات وحدها سيضمنون تفوُّقنا: كانت هي ذاتها، قالت، مستعدّةً، بنبوت طويل، لمواجهة أيّ رجلين من بوليكا. اعترَفَت بخوفٍ ليس قليل من النّمرة، لكنني كنتُ مستعدًا لها. تراجعتُ، رغم ذلك، عن حمل جميع الأطفال معنا.

"ألن يكون من الأفضل"، قلت، "أن تظلّي في الغابة مع رضيعك وأصغر المخلوقات الصغيرة؟".

أجابتني أنها تعتمد كثيرًا على الانطباع الذي سيخلقه مرآهم لدى النساء، وخاصةً الأمّهات.

"عندما يَرينَ حبّات القلب"، قالت، "ستنخلع قلوبهن من الإشفاق، ويجب أن أكون هناك لتشجيعهن على اتّخاذ موقف! إذا كانت هناك بقيّة من جسارة في المدينة، فهي قابعة بين النساء!".

"لا ينبغي لكِ إثقال نفسك"، قلت للونا، "بأيٍّ من الأطفال؛ ستكونين مطلوبة في كل مكان!".

ذلك أنه كان هناك رضيعين بخلاف رضيع المرأة، وحتى على ظهر الحصان كانت تحمل واحدًا دائمًا تقريبًا بين ذراعيها.

"لا أتذكّر أنني أبدًا كنتُ بلا طفل لأعتني به"، أجابتني. "لكن عندما نصل إلى المدينة، سيكون الأمر كما تحبّ!".

أشعرتني ثقتها، في ذلك الذي كان أخفق ذات مرَّة بشكل مهين جدًا، بالخزي. لكنني لم أبدأ ذلك التحرُّك، ولم أحمل أي سبب لمعارضته؛ لم يكن أمامي خيار، لكن ينبغي لي تقديم أفضل عون في مقدوري! ذلك أنني كنتُ على استعداد للحياة أو الموت مع لونا. أخجلني تواضعها وكذلك ثقتها، وبذلتُ نفسي بكل قلبي من أجل مراميها.

في طريقنا الذي يمتدُّ عبر أرض منبسطة معشوشبة، لم نكن في حاجة إلى طعام للأحصنة، أو البقرتين اللتين ستصحبانا من أجل الرُّضَّع؛ لكن كان لا بُدَّ من توفير مؤونة للأفيال. صحيح أن العشب كان مناسبًا لها كما للحيوانات الأخرى، لكنه كان قصيرًا، وبخراطيمها الطويلة المستدقَّة لم يكن في مقدورها انتزاع ما يكفي لوجبة واحدة. لذلك أطلقنا المستعمرة بأكملها لجمع العشب وصنع التِّبن، الذي يمكن للأفيال نفسها أن تحمل كميةً كافيةً منه تدوم لبضعة أيام، مع ما يمكننا جمعه من جديد في كل مرَّة نتوقَّف فيها. من أجل الدُّببة اختزنَّا ثمار الجوز، ومن أجل أنفسنا جفَّفنا وفرةً من ثمار الفواكه. كنَّا قد اصطدنا وروَّضنا مزيدًا من الأحصنة الكبيرة، وبعد تحميلها والأفيال بتلك المؤن، صرنا على أهبة الاستعداد للانطلاق.

ثم عقدنا أنا ولونا استعراضًا عسكريًا، وألقيت في الجمع خطبةً قصيرة. بدأتُ في إخبارهم كيف أنني تعلَّمت الكثير عنهم، وأدركتُ من أين جاؤوا. "لم نأتِ

من أيِّ مكان"، قاطعوني زاعقين: "نحن هنا!".

أخبرتهم أن كلَّ واحد منهم له أمٌّ بعينها، كأمِّ الرضيع الأخير؛ أنني أعتقد أنهم جلبوا من بوليكا عندما كانوا صغيرين جدًا على أن يتذكّروا ذلك الآن؛ أن الأميرة الشّرّيرة هناك مرتعبةٌ للغاية من الأطفال، وأنها قرّرت لذلك القضاء عليهم، أن أمّهاتهم اضطررن لإبعادهم وتركهم حيث لا يمكنها إيجادهم؛ وأننا الآن ذاهبون إلى بوليكا، لإيجاد أمّهاتهم، وإنقاذهن من العملاقة الشرّيرة.

"لكن عليَّ أن أخبركم"، تابعتُ حديثي، "أن الخطر سيكون بانتظارنا؛ ذلك أننا، كما تعرفون، قد نضطرُّ للقتال بضراوة للاستيلاء على المدينة".

"يمكننا القتال! نحن مستعدُّون!" هتف الصبيان.

"نعم، يمكنكم" أجبتهم، "وأعرف أنك ستفعلون: أمّهاتكم يستحققنَ القتال من أجلهن! لكن لا تنسوا، عليكم أن تبقوا معًا".

"نعم، نعم؛ سنهتمُّ ببعضنا البعض"، أجابوني. "لا أحد سيلمس أيًا منّا سوى أمّه ذاتها لا غيرا".

"عليكم، جميعًا، أن تنفّذوا على الفور ما يأمركم به ضباطكم!".

"سنفعل، سنفعل! الآن نحن جاهزون تمامًا دعنا ننطلق!".

"شيء آخر عليكم ألّا تنسوه أبدًا"، أضفت: "عندما

تضربون، تأكّدوا أنها ضربة جسورة لا تخطئ هدفها؛ عندما تطلقون سهمًا، اسحبوه حتى رأسكم؛ عندما ترمون بحجارة، ارموها بقوّة واستقامة".

"هذا ما سنفعله!" هتفوا بصيحات مبتهجة، مقدامة.

"ربما تصابون!".

"لا نُلقي بالًا لهذا! أليس كذلك، يا فتيان؟".

"أبدًا، أبدًا!".

"بعضكم من المحتمل جدًا أن يُقتل!" قلت لهم.

"لا أمانع في أن أقتل!" هتف واحد من أرقّ الفتيان الأصغر حجمًا: كان يمتطي ثورًا صغيرًا جميلًا يخبب ويتقافز كحصان.

"ولا أنا، ولا أنا!" انطلقت الصيحات من كل الأجناب.

ثم تحدّثت لونا، مَلِكتهُم وأمهم وشقيقتهم جميعًا، من فوق حصانها الكبير بجواري:

"سأبذل حياتي"، قالت، "لأستعيد أمّي! لها أن تقتلني إذا شاءت! سأقبّلها فحسب ثم أموت!".

"لننطلق يا فتيان!" هتفت فتاة. "سنذهب إلى أمهاتنا!".

سرت وخزة ألم في قلبي. لكنني لا أستطيع التراجع؛ سيقتل ذلك معنويات المخلوقات الصغيرة!

(35)

المخلوقات الصغيرة في بوليكا

باكرًا في الصباح انطلقنا، راسمين، بين السَّماء الزرقاء والعشب الأخضر، استعراضًا فروسيًا على الأرض المنبسطة الواسعة. سنسافر طوال الصباح وبقيَّة الظهيرة، ثم نتابع ليلًا، ونستريح النهار التالي، ثم نبدأ مُجدَّدًا في الشَّفق الشاحب. في هذا الجزء الأخير من رحلتنا سنتفرَّق حتى نصل إلى المدينة مع تباشير الصباح، ونصبح جاهزين داخل أبوابها عند اكتشاف أمرنا.

بدا كما لو أن جميع قاطني الغابة يهاجرون معنا. حشدٌ من الطيور كانت تطير أمامنا، متخيِّلةً نفسها، بلا شك، أنها تقود الفيلق؛ جماعات هائلة من الفراشات والحشرات الأخرى تتلاعب فوق رؤوسنا؛ وجيش من المخلوقات ذوات الأربع تتبعنا. غادرتنا هذه الأخيرة، جميعها تقريبًا، عندما حلَّ الليل؛ لكن الطيور والفراشات، والدبابير واليعاسيب، استمرَّت معنا حتى بوابات المدينة.

توقَّفنا ونمنا هنيئًا طوال الظهيرة: كان ذلك زحفنا الحقيقي الأول، لكن أحدًا منَّا لم يصبه الإرهاق. في الليل كنَّا ننطلق أسرع؛ لأنه كان أكثر برودةً. كثيرون استغرقوا في النوم على ظهور بهائمهم، واستيقظوا في الصباح في غاية الانتعاش. لم يتعثَّر أحد أو يسقط. كان البعض يمتطي دِببةً شعثاء، متثاقلة،

لكنها لم تَقِلَّ سرعةً عن الأفيال. كان آخرون يركبون أنواع مختلفة من الغزلان، وكان لهم أن يتسابقوا معًا طوال الطريق لو لم أمنعهم. أولئك الذين فوق كومات التّبن على ظهور الأفيال، عاجزين عن رؤية الحيوانات تحتهم، كانوا يداومون على التحدث إليها فيما هم مستيقظون. سمعت رفيقًا صغيرًا منهم، فور أن توقفنا لتناول الطعام، وهو يخرج بعض التّبن لمنحه للحيوان، يتواصل هكذا مع "بهيمته الحبيبة":

"عزيزي ذو الأنف الطويل، أحاول الآن الخروج من جبل التّبن، وسريعًا سأصل إليك: كُنْ صبورًا؛ أنا قادم! سريعًا جدًا سترسل بأنفك للبحث عنّي، وحينها ستُقبّلني كما تفعل الأفيال الطيبة، هذا ما ستفعله!".

في نفس الليلة انفجرت جعجعةٌ من أبواق الأفيال، وصهيل الأحصنة، وتقليد الأطفال، وهو ما قتل كل صمتٍ من حولنا، وحيث أننا لا ندرك بعد كم اقتربت المدينة، سريعًا ما أسكتُّهم خشية أن يكشف الضخب عن اقترابنا.

بغتةً، ذات صباح، طلعت الشمس والمدينة، معًا على ما يبدو. في أعين الأطفال تبدّت الحوائط ككتلة هائلة من الصخور فحسب، لكن عندما أخبرتهم أن الداخل كان ممتلئًا بأعشاش الأحجار، رأيت الهلع والامتعاض يغزوان قلوبهم؛ ذلك أنه لأول مرة في حياتهم يعرفون الخوف على ما أعتقد... وقد عاش كثير منهم حيواتٍ صغيرة طويلة- بدا

المكان لهم شزّيزًا: كيف لهم أن يجدوا أمّهاتهم في مكان كهذا؟ لكنهم تابعوا طريقهم بشجاعة؛ ذلك أنهم كانوا يثقون في لونا، وفيّ أيضًا، رغم أنها ثقة لا أستحقُّها كثيرًا.

انطلقنا تحت القنطرة الرّنّانة. حتمًا لم تعرف أحجار أرضيتها القديمة قرع حوافر كهذا، ولا وقع مخالب وأقدام كهذا قطّ! جفلَت الأحصنة وبَدَت مرعوبةً من صدى خطواتها؛ توقّف بعضها لوهلة، واندفع بعضها بجموح ودار في أرجاء المكان؛ لكن سرعان ما هدأت وتابعت طريقها. ارتجف بعضٌ من المخلوقات الصغيرة، ثم سكنوا جميعًا سكون الموت. ضمّت الفتيات الثلاثة الرُّضّع في أذرعهن أكثر. الجميع باستثناء الدُّبَة والفراشات أظهر الخوف.

على وجه المرأة استقرّ هاجس قاتم؛ ولا حتّى أنا نجوت من هذا الخوف العام؛ ذلك أن الجيش بأكمله كان بين يديّ وضميري: أنا من جلبته إلى الخطر الذي يحوّم بظلاله الآن! لكنني كنت -مدعومًا بفكرة المملكة القادمة للمخلوقات الصغيرة- مع العمالقة الأشرار عبيدًا فيها، والحيوانات أحبّاءها وأصدقاءها المطيعين! وا أسفاه، أنا من حَلُمَ بهذا، لم أتعلّم أنا نفسي معنى الطاعة! عنادٌ خائن، مخادع كان قادني على رأس جيش الأبرياء ذلك! لم أكن سوى عبدًا، تمامًا كأي ملك في العالم الذي كنت غادرته، ملك لا يفعل ولا يرغب في فعل سوى ما يسعده! لكن لونا

كانت تقود بجانبي كطفلة حقًا، ولذلك كانت امرأة حرّة... هادئة، صامتة، متيقّظة، بلا ذرّة خوف!

كنّا تقريبًا في قلب المدينة قبل أن يدرك أيٌّ من قاطنيها وجودنا. لكن الآن بدأت النوافذ في الانفتاح، وبرزت منها رؤوس ناعسة. كل وجه كان ينظر في البداية بتحديقة كابية ذات تفاجئ بلا اندهاش، تحوّلت، فور أن لمح المحدّقون الحيوانات، إلى نظرة ارتياع. على الرغم من خوفهم، مع ذلك، عندما رأوا أن غُزاتهم كانوا من الأطفال في مجملهم، جاءت النساء هارعات عبر الشوارع، وتبعهن الرجال. لكنهم لم يبتعدوا عن منازلهم لبعض الوقت، تاركين فسحةً في منتصف الطريق؛ ذلك أنهم لم يجرؤوا على الاقتراب من الحيوانات.

في النهاية، ألقى صبي، بدا في الخامسة من عمره تقريبًا، ممتلئًا بفكرة أمّه، وبعد أن رأى في الحشد امرأة انجذب إلى وجهها، بنفسه عليها من فوق ظَبيه، وتعلّق بعنقها؛ ولم تتباطأ هي في ردّ أحضانه وقبلاته. لكن يد رجل وُضعت على كتفها، وأمسكت بالطفل من عنقه. على الفور رَمت فتاةٌ برمحها الحادّ في ذراع الرجل. أطلق على الفور عواءً وحشيًا، وتلقّى على الفور طعنات من قبل طفلين أو ثلاثة آخرين، ثم فرّ صارخًا.

"ليسوا سوى عمالقة أشرار!" قالت لونا، وعيناها تومضان فيما تقود حصانها ضد عملاق ذي طول غير عادي، لكنه، بعد أن شعر باستثارة الرجولة

الضئيلة داخله، وقفَ حاجزًا طريقها بثبوت. لم يجرؤ على تحمُّل الاصطدام، بل انسلَّ جانبًا، وفي اللحظة التالية سقط أرضًا، بعد رجمه بأحجار كثيرة. خطا رجل ضخم آخر بغتةً، متجنِّبًا ضربتي، بكلام لا يُفهم منه شيئًا سوى وقاحته، بيني وبين الصبي الذي يقود خلفي. قال له الصبي أن يخاطب الملك؛ ضرب العملاق حصانه الصغير على الرأس بمطرقة، فسقط أرضًا. قبل أن يضرب الوحش مجدَّدًا، رغم ذلك، أركعه أحد الأفيال وراءه، ودهسه حتَّى لم يَعُد قادرًا على النهوض إلَّا بعد أن مرَّت عليه مئات الأقدام، وعبره الجيش بأكمله.

لكن عند مرأى كل هؤلاء الناس، أيّ سحابة من الغمّ غشيت وجه لونا! بالكاد كانت أي واحدة منهن ذات مظهر يُبهج النظر! كيف لأحبّائها أن يجدوا أمّهاتهم بين نساء كهذه؟

لم نكد نتوقَّف في الميدان المركزي، حتَّى شبَّت فتاتان في عجلة ملتاعة، بأخبار أن اثنين من الصبيان قد حُملا بعيدًا من قِبل بعض النساء. استدرنا على الفور واكتشفنا كذلك أن المرأة التي عقدنا صداقةً معها قد اختفت مع طفلها.

لكن في نفس اللحظة لمحنا نمرةً بيضاء تندفع ناحيتنا عبر زقاق ضيِّق يؤدي من الميدان إلى القصر. لم تكن المخلوقات الصغيرة نسيت معركة النمرتين في الغابة: بدا بعضهم مرعوبًا، وبدأت صفوفهم في الاضطراب، لكنهم تذكَّروا الأوامر التي

أصدرتها لهم، ووقفوا ثابتين.

توقّفنا لرؤية النتيجة؛ عندما قفز صبي صغير، يُدعى أودو، مشهور بسرعته وشجاعته، كان سمعني أتحدّث عن طيبة النِّمرة البيضاء، من على ظهر دُبّه، الذي مشى متثاقلًا في إثره، وهرع إلى لقائها. تراجَعَت النِّمرة؛ خشيةَ أن تطيح به أرضًا، على نحو مفاجئ جدًا لحد أنها بدأت في الانقلاب مرّةً تلو الأخرى: عندما نجحت في الوقوف على أقدامها مجددًا وجَدَت الطفل على ظهرها. مَن يمكنه التشكيك في تطويع شعبٍ رأى قنفذًا من العدو يسيطر على حيوان طالما عاشوا في رعبٍ يومي منه؟ واثقين من تأثير ذلك على الجيش بأكمله، انطلقنا قُدمًا.

عندما وقفنا عند المنزل الذي قادنا مُرشدانا إليه، سمعنا صرخةً؛ وثبتُ مُترجِّلًا، واندفعت نحو الباب. خطا حصاني وأزاحني جانبًا بخَطمه، ثم استدار، وبدأ في ضرب الباب بحوافره، عندما جاء أودو الصغير على ظهر النِّمرة، وعند مرآها وقف ساكنًا، يرتعش. لكنها هي أيضًا كانت سمعت الصرخة، ومتناسيةً الطفل على ظهرها، اندفعت نحو الباب؛ اصطدم به الصبي بعنف، وسقط فاقدًا الوعي. قبل أن أتمكّن من الوصول إليه، أخذته لونا بين ذراعيها، وفور أن أفاق، وضعته على ظهر دُبّه، الذي كان يمشي في إثره ما يزال.

ألقت النِّمرة بنفسها على الباب للمرة الثالثة، تداعى

أخيرًا، واندفَعَت هي إلى الداخل. مضينا في إثرها، لكنها كانت قد اختفَت. صعدنا درَجًا مسرعين، وبحثنا في أرجاء المنزل، لكن لم نجد أحدًا. عند هبوطنا مجدَّدًا، لمَحنا بابًا تحت الدَّرَج، ودلفنا إلى متاهة من الحفريات. لم نمضِ بعيدًا رغم ذلك، حتى قابلنا النَّمِرة مع الطفل الذي نبحث عنه على ظهرها.

أخبرنا أن المرأة التي ظنَّها أمه ألقته في حفرة، قائلةً أنها ستمنحه إلى النَّمِرة. لكن النَّمِرة كانت خيِّرة، وأخرجته من الحفرة.

في بحثنا عن الصبي الآخر، دلفنا إلى المنزل التالي بسهولة أكبر، لكننا اكتشفنا، وا أسفاه، أننا تأخَّرنا كثيرًا: واحد من المتوحِّشين كان قد قتل الأسير الصغير! لكن لونا وجدت العَزاء عندما عَلِمت أيُّهما كان، ذلك أنها طالما تنبأت أنه سيكبر ليصبح عملاقًا شريرًا، وقد أنقذه الموت من ذلك المصير البشع. انقضَّت النَّمِرة على قاتِله، نشبت مخالبها في عنقه، وجرَّته إلى الشارع، ومضت به في إثر لونا، كقطَّة بفأر هائل بين فكَّيها.

"لنرحل عن هذا المكان البشع"، قالت لونا؛ "لا توجد أمّهات هنا! هذا الشعب لا يستحق التحرُّر".

أسقطت النَّمِرة حِملها، واندفَعَت إلى الحشد، يمينًا ويسارًا، مفرِّقةً إيّاه. صرخ العبيد وهرعوا، متعثِّرين فوق بعضهم البعض في أكوام.

عندما عدنا إلى جيشنا، وجدناه كما تركناه، منتصبًا

بنظام وجاهزية.

لكنني كنتُ بعيدًا عن الاطمئنان: لم تُبدِ الأميرة أيَّ إشارة، وربما تدبِّر لشيء لا نعلمه! يجب أن تستمر المراقبة والحراسة طوال الليل!

كانت المخلوقات الصغيرة شديدةَ الصَّلابة لحدِّ أنه بمقدورها الاستراحة في أيِّ مكان: أمرناهم أن يستلقوا مع حيواناتها حيث هم، وأن يناموا حتَّى نستدعيهم. في دقيقة واحدة كانوا على الأرض، وفي أخرى صدحت موسيقى نومهم، صوتٌ كالماء فوق العشب، أو كريح خافتة بين أوراق الشجر. نامت حيواناتهم بخفَّةٍ أكبر، على حافَّة الاستيقاظ في أيِّ لحظة. كان الفتيان والفتيات الأكبر حجمًا يسيرون بخفَّة هنا وهناك بين الحشد الحالم. غدا كل شيء ساكنًا؛ بدا المكان الشيطاني بأكمله في غاية الهدوء.

(36)

الأمّ والابنة

كانت لونا في غاية الاشمئزاز من هذا الشّعب، من نسائه على الأخصّ، لحدّ أنها أرادت الرحيل عن المكان بأسرع ما يمكن؛ بينما راودني أنا، على النقيض من ذلك، شعورًا في غاية القوة أن رحيلنا لن يؤدي سوى الإخفاق عن عمدٍ في حين كان النجاح ممكنًا؛ بل وسيؤدي إلى إضعاف قلوب المخلوقات الصغيرة، وجَلْب خطرٍ عظيمٍ عليهم. إذا تراجعنا، فمن المؤكّد أن الأميرة لن تتورّع عن مهاجمتنا! لكن إذا واجهناها، فإن أمل النبوءة يقف في صفّنا! لا بُدّ أن تتواجه الأم والابنة: ربما ينجح جمال لونا في الاستيلاء على قلب ليليث! وإذا هدّدَت بالعنف، فينبغي أن أحولَ بينهما! إذا وجدتُ أنني لا أملك أي قوة أخرى ضدها؛ فأنا على استعداد لأن أضربها بلا شفقة على اليد المضمومة! أعرف أنها هالكة: والأغلب أن هلاكها مقدّرٌ أن يأتي على أيدينا!

جاهلًا ما زلتُ بموقفها تجاه الأميرة، عرضتُ على لونا الموقف كما بدا لي. وافقَت فورًا على مصاحبتي إلى القصر.

من قمّة أحد أبراج المدينة السامقة، كانت الأميرة، في الصباح الباكر فيما المدينة ما تزال نائمة، قد لمحت اقتراب جيش المخلوقات الصغيرة. أيقظ المشهد فيها رعبًا مهيمنًا: أخفقت في مسعاها

لتدميرهم، وها هم ينقضّون عليها! النبوءة على وشك أن تتحقّق!

بعدما استجمعت شتات نفسها، نزلَت إلى البهو الأسود، وجلس في الزاوية الشمالية من القوس البيضاوي، تحت الفُرجة في السقف.

ذلك أنه يجب أن تفكّر! لكن ما تدعوه "تفكيرًا" يتطلّب وعيًا صافيًا بنفسها، ليس بما هي عليه، لكن بما اختارت أن تعتقد أنها عليه، ولمساعدتها في تحقيق هذا الوعي، كانت قد علّقت، محتجبةً في ظلام البهو، مرآة لاستقبال شعاع الشمس بأكمله منعكسًا من شخصها. من أجل رؤية "نفسها" الناتجة عن بهاء جمالها، جلَسَت تنتظر شمس الظهيرة.

ظلالٌ كثيرة كانت تتحرّك حولها في الظلام، لكن رغم كثرتها، بعين داخلية كانت لديها، لمحت واحدًا فحسب، لكنها رفضت النظر إليه. قريبًا من أسفل المرآة انتصب "الظلّ" الذي كان يرافق خطواتها، لكنها، منصرفةً لذاتها، لم تره.

سقطت المدينة؛ انكمش ساكنوها في رعب، عسكرت المخلوقات الصغيرة وخيّالتها العجائبية في الميدان؛ سطعت الشمس على الأميرة، ولبضع دقائق رأت ذاتها غارقةً في البهاء والمجد. انقضَت الرؤية لكن الأميرة استمرّت في الجلوس. حلّ الليل، وأحاط الظلام بالمرآة وأغرقها، ومع ذلك لم تتحرّك الأميرة. ظلامٌ يغصّ بالظلال كان يتمرّغ في القصر،

ارتعش الخَدَم وارتجفوا، لكنهم لم يجرؤوا على مغادرته بسبب حيوانات المخلوقات الصغيرة، الليل بطوله جلست الأميرة بلا حراك: لا بُدَّ أن ترى جمالها ثانيةً! لا بُدَّ أن تحاول التفكير ثانيةً! لكن الشجاعة والإرادة قد سئما منها، ولم يعودا يرغبان في المقام داخلها.

في الصباح، اخترنا اثنا عشرًا من أطول وأشجع الصبيان للذهاب معنا إلى القصر. انطلقنا بجيادنا الكبيرة، وهم بأحصنتهم وأفيالهم الصغيرة.

كانت الأميرة تنتظر ضياء الشمس ليمنحها بهجة وجودها. كان مدُّ الضوء يزحف عبر شاطئ السماء، لكن حتّى وقفت الشمس فوق رؤوسنا، لم يدخل شعاع واحد إلى البهو الأسود.

ارتفعت الشمس أمام أعيننا، ثم ارتقت مسرعةً. وفيما نصعد المنحدر إلى القصر، كانت هي تصعد قُبّة بهوه المهيب. ألقت بأنظارها على مركزه- وبضياء مفاجئ ومضت الأميرة على صورة ذاتها. لكنها فزعت واقفةً بصرخة يأس: وا أسفاه على بياضها! غطّت اللّطخة نصف جنبها، وأصبح أسودَ كالزُحام من حولها! قبضت على ردائها، وسقطت عائدةً إلى كرسيّها. انساب "الظِّلُّ" خارجًا، ورأته يرحل.

وجدنا البوابة مفتوحةً كالمعتاد، وعبرنا الغيضة الممهدة المؤدية صعودًا إلى باب القصر، ودلفنا إلى

الدهليز. هناك في قفصها كانت النّمِرة المُرقّطة جاثمةً، نائمة على ما يبدو أو فارقتها الحياة. توقّفت المخلوقات الصغيرة لوهلة لإلقاء نظرة عليها. وثبَت باهتياجٍ على قضبان القفص. شبّت الأحصنة ثم غاصت؛ تراجَعَت الأفيال خطوةً. في اللحظة التالية سقَطَت متراخيةً، وتلوَّت في سوراتٍ مرتعشة، ثم جثمت بلا حراك. تابعنا طريقنا إلى البهو الكبير.

كانت الأميرة ما تزال تجلس متراجعةً على كُرسيِّها في قلب عمود ضوء الشمس، عندما وصل إلى سمعها وَقعُ حوافر الأحصنة على أحجار البلاط. جَفَلَت، أرهفت سمعها، وهزَّت رأسها: أبدًا لم يُسمع صوتٌ كهذا في قصرها! ضغَطَت بيدها على جَنبها، وشهَقَت. اقتربت قعقعة الحيوانات أكثر وأكثر؛ دلفت إلى البهو ذاته؛ أشكالٌ متحرِّكة ليست ظلالًا كانت تقترب منها عبر الظلام!

رأينا أمامنا امرأةً، بهيّة، متألقة، تتمركز في الظلام. وثبت لونا مُترجِّلةً من حصانها، واندفَعت إليها. قفزتُ من حصاني وتبعتُ لنا.

"أمّي! أمّي!" هتفت، وتردَّد صدى صوتها الرائق، البديع، في خواء البهو.

ارتجَفَت الأميرة؛ غدا وجهها أسود تقريبًا من الكراهية، التقى حاجباها على جبينها. نهَضَت، انتصبت واقفةً.

"أمّي! أمّي!" هتفت لونا مُجدّدًا، ووثبت على

الشدّة، وطوّحت بذراعيها حول الأميرة.

لحظة واحدة وأصل إليهما! لكن في تلك اللحظة رأيث لونا ترتفع عاليًا، وتصطدم بالأرض الرخامية. أوه، صوت سقوطها المريع! عند قدميّ سقطت، واستلقت ساكنة. جلست الأميرة بابتسامةٍ شيطانة.

جثوث على ركبتيّ بجوار لونا، رفعتها عن الأحجار وضممتها إلى صدري. بكراهية ممتعِضة ألقيتُ نظرة خاطفة على الأميرة؛ أجابتني بأعذب ابتساماتها. وددتُ لو أنقضُ عليها، وأمسك بعنقها وأخنقها، لكن حبُّ الطفلة كان أقوى من كراهية الأم، وعانقتُ أكثر حِملي الثمين. تدلّى ذراعاها بعجزٍ، تقاطَرَت دماؤها على يديّ، وتساقَطت على الأرض بطرطشات صغيرة بطيئة، ناعمة.

اشتمَّت الأحصنة الدماء... حصاني أولًا، ثم الأحصنة الصغيرة. شبَّ حصاني، مرتعشًا وهائج العينين، استدار واندفع بعماء إلى آخر البهو المظلم، مع الأحصنة الصغيرة في إثره. انتصبَ حصان لونا يحدّق في سيدته، يرتعش جسدها بأكمله. طوّح الفتيان بأنفسهم من على ظهور أحصنتهم، واندفعوا مع حصاني، غير مدركين للحائط الأسود أمامهم، مصطدمين به ومتفرّقين إلى شظايا. خطت الأفيال إلى قاع الشدّة، وتوقّفت تخبط بأقدامها باهتياج، انقضّت المخلوقات الصغيرة على الشدّة، ووقفت مرتعبة؛ كانت الأميرة تجلس متراجعةً في كرسيّها، بوجهٍ يشبه وجوه الموت، بالعينين فحسب حيّتين؛

تتوهَّجان بالشَّرّ. عادت مُجدَّدًا إلى الذبول والخراب اللذين وجدتها بهما في الغابة، وكان جنبها كما لو أن يدًا واسمة هائلة قد التصقت به. لكن لونا لم ترَ شيئًا، ولم أرَ أنا سوى لونا.

"أمّي! أمّي!" تنهَّدَت، وانقطعت أنفاسها.

حملتها إلى الباحة: سطعَت الشمس على الوجه الأبيض والظِّلِّ المثير للشفقة لابتسامة شبحية. تدلَّى رأسها للخلف. كانت "ميِّتةً كالتراب".

نسيتُ المخلوقات الصغيرة، نسيتُ الأميرة القاتلة، نسيتُ الجسد بين ذراعيّ، وهِمتُ بعيدًا منتظرًا استيقاظ لونا. كانت الأبواب والنوافذ مزدحمةً بوجوهٍ وحشية تنظر إليّ ساخرةً، لكن لا تجرؤ على التكلُّم، ذلك أنها رأت النَّمِرة البيضاء ورائي، تُدلّي رأسها قريبًا من عَقِبيّ. أبعدتها بقدمي. توقَّفَت لوهلة، ثم تبعتني مجدَّدًا.

وصلتُ إلى الميدان: اختفى الجيش الصغير! أجفلني خواؤه! أين هي المخلوقات الصغيرة، مخلوقاتها الصغيرة؟ ضيَّعتُ أطفالها! حدَّقتُ عاجزًا من حولي، مشيتُ متعثِّرًا إلى العمود الكبير، وارتميتُ على قاعدته.

لكن بينما أجلس مُحدِّقًا في المُحيّا الساكن، بدا وكأنه ابتسمَ ابتسامة حيّةً لحظيّةً. أبدًا لم أشُكّ أنه توهُّم، مع ذلك صدَّقتُ ما قالته: سأراها حيّةً قريبًا! لم تكن هي، بل أنا من ضاع، وهي من ستجدني!

نهضتُ لأمضي في إثر المخلوقات الصغيرة، وبحثتُ غريزيًّا عن البوابة التي كنّا دلفنا عبرها. تطلّعتُ من حولي، لكنني لم أرَ أثرًا للثّمرة.

كان الشارع يمتلئ سريعًا بحشد مهتاج. رأوني أحمل الجسد الميّت، لكن لبعض الوقت لم يجرؤوا على مهاجمتي. لكن قبل أن أصل إلى البوابة، واتتهُم الشجاعة. بدأت النساء في مضايقتي؛ تابعتُ طريقي لا مباليًا. اقترب رجل من جِملي المقدّس: بركلة ألقيته بعيدًا يعوي. لكن الحشد ضيّق عليّ، وخائفًا أن الميّتة لم تَعُد تحتمل أيَّ أذًى آخر، ضممتُ كنزي إلى صدري أكثر، وحرّرتُ ذراعي اليمنى. في تلك اللحظة، مع ذلك، ارتفع صخبٌ في الشارع ورائي؛ تفرّق الحشد؛ وعبره جاءت المخلوقات الصغيرة التي كنت تركتها في القصر. عشرةٌ منهم كانوا على ظهور أربعة من الأفيال، على ظهر الفيلين الآخرين كانت تستلقي الأميرة، مقيّدة اليدين والقدمين، وساكنة تمامًا، باستثناء أن عينيها كانتا تدوران في محجريهما الكبيرين. كان المخلوقين الصغيرين الآخرين يمضيان وراءها على حصان لونا. بين كل حين وآخر كانت الحيوانات الحكيمة التي تحملهم تلقي بخراطيمها للخلف وتتحسّس حبالها.

سرتُ في مقدّمتهم، وخرجنا من المدينة. يا لها من نهاية للآمال التي دخلتُ بها إلى المكان الشّرّير! أسرْنا الأمير الشّرّيرة، وفقدنا ملكتنا المحبوبة! غدَت حياتي جرداء، وقلبي خاويًا.

(37)
الظِّلُّ

أثارتني همهمة ابتهاج من رفقائي: كانوا قد لمحوا أقرانهم على البُعد! انطلق الاثنان اللذان على حصان لونا للَّحاق بهم. استقبلتهما صيحة متماوجة كتحيَّة، سرعان ما تلاشت. مع اقترابنا، وصلنا صوت نحيبهم وكأنه انكسار موجات صغيرة.

عندما أصبحت بينهم، رأيت أن أمرًا خطيرًا قد حلَّ بهم: على وجوههم الطفولية كانت النظرة المنهكة التي خلَّفها رعبٌ عجيب. لا يمكن لأيِّ حزن معقول أن يخلق هذا التغيُّر. التفَّ حولي بعضهم ببطء، ومدُّوا أذرعهم لتناول حِملي. منحتهم إيَّاه؛ اليأس الرقيق الذي استقبلوه به، جعل قلبي يتماوج من الشفقة في وسط وحشته ذاتها. بلا طائل كان نحيبهم على أمِّهم الملكة؛ بلا طائل جاهدوا ليستخرجوا منها اعترافًا بحبهم؛ بلا طائل قبَّلوها ولاطفوها فيما يحملونها بعيدًا: لكنها لم تستيقظ! على كل جانب كان واحدًا منهم يحمل ذراعًا، يربِّت عليه برفق؛ وكثيرون اقتربوا قدر إمكانهم، ووضعوا أذرعهم تحت جسدها؛ ومَن لم يستَطِع منهم، ازدحم حول الحاملين. في بقعة حيث ينمو العشب على نحو أكثر كثافةً ونعومةً وضعوها أرضًا، وهناك اجتمعت كل المخلوقات تنتحب.

خارج الحشد كانت تقف الأفيال، وأنا بقربها، أحدِّق

في لونا من فوق الرؤوس الصغيرة الكثيرة بيننا. لمحَ مَن بجواري الأميرة وحدّق مرتعشًا. كان أودو أول مَن تكلَّم.

"لقد رأيتُ هذه المرأة من قبل!" همس في أذن جاره. "إنها مَن كانت تتقاتل مع النَّمِرة البيضاء، في الليلة التي أيقظانا فيها بصراخهما!".

"هراء!" أجابه رفيقه. "تلك كانت بهيمة متوحِّشة، ذات رُقَط!".

"انظر إلى عينيها!" أصرَّ أودو. "أعرف أنها عملاقة شرِّيرة، لكنها بهيمة متوحشّة أيضًا. أعرف أنها البهيمة المُرقَّطة!".

اقترب الآخر خطوةً؛ سحبه أودو للخلف بحدَّة.

"لا تنظر إليها!" هتف، متراجعًا، ومبهورًا مع ذلك بالتَّوق الممتلئ بالكراهية في عينيها. "ستأكلك حيًا في لحظة! كان ظلَّها! إنها الأميرة الشرِّيرة!".

"هذا لا يمكن! يقولون إنها كانت جميلة!".

"إنها الأميرة حقًّا!" قاطعتْ حديثهما. "جعلها الشرُّ قبيحةً!".

سمِعَت حديثنا، ويا لها من نظرة كانت نظرتها!

"كان هروبي خطأً كبيرًا!" قال أودو متفكِّرًا.

"لماذا فررتم؟" سألته. "توقَّعتُ أن أجدكم حيث تركتكم!".

لم يجبني على الفوز.

"لا أعرف ما الذي جعلني أركض"، أجابني آخر. "كنتُ مرعوبًا!".

"كان بسبب رجل جاء هابطًا عبر التلّ من القصر"، قال ثالث.

"لماذا فزعتم منه؟".

"لا أعرف".

"لم يكن رَجُلًا"، قال أودو؛ "كان ظلًّا؛ لم يكن له قوام!".

"أخبرني المزيد عنه".

"جاء هابطًا عبر التلِّ أسودَ جِدًّا، يمشي كعملاق شِرِّير، لكن منبسط ومُمتدّ. لم يكن سوى سَوادٍ. ارتعبنا لحظة. رأيناه، لكننا لم نفرّ هاربين، وقفنا وراقبنا. تقدّمَ نحونا كما لو كان سيمشي فوقنا. لكن قبل أن يصل إلينا، بدأ في التمدُّد والتمدُّد، ثم التضخُّم أكثر وأكثر لحدّ أنه اختفى من نظرنا، ولم نَعُد نراه، ثم صار فوقنا!".

"ماذا تعني بذلك؟".

"كان ينتشر بسواده بيننا، ولم نكن قادرين على رؤية بعضنا البعض، ثم أصبح داخلنا".

"كيف أدركت أنه كان داخلكم؟".

"جعلني مختلفًا تمامًا. شعرتُ أنني شرِّير. لم أعُد

أودو... ليس أودو الذي أعرفه. أردتُ أن أمزّق سوزو إربًا... ليس بالضبط، لكنْ شيئًا يشبه هذا!".

استدارَ إلى سوزو واحتضنه.

"لم يكن أنا يا سوزو"، قال متنهّدًا. "حقًّا، في أعماقه، كان أودو، الذي يحبّك دائمًا! ثم ظهر أودو، وطرح "الشقيّ" أرضًا. شعرتُ بالغثيان، وقلت لنفسي لا بُدّ أن أقتل نفسي لأفلت من السواد. ثم تعالت ضحكة مريعة كانت سَمِعَت ما أفكّر به، وجعَلَت الهواء يرتعش من حولي. ثم فررتُ هاربًا أعتقد، ولم أدرك أنني فررتُ حتّى وجدت نفسي أركض، بأقصى سرعة أستطيعها، والبقية أيضًا كانوا يركضون. كان بإمكاني التوقُّف، لكن لم أفكّر في ذلك حتى خرجتُ من البوابة إلى العشب. ثم أدركتُ أنني كنت أفرُّ هاربًا من ظلٍّ يرغب في أن يكون أنا ولم يكن أنا، وأنني كنت أودو الذي يحب سوزو. كان الظِّلُّ هو من اقتحمني، وأبغضني من داخلي؛ لم تكن ذاتي الحقيقية! والآن أدرك أنه لم يكن ينبغي لي الهروب! لكنني لم أدرك ما كنت أفعله حقًّا حتى انتهيت منه! كان ذلك من فعل ساقيّ، أعتقد: أصابهما الرعب، ونَسِيَتاني، وركَضَتا هاربتَين! ساقَان شقيّتان! هذه! وهذه!".

هكذا انتهى أودو من حديثه، بركلة لكلٍّ من ساقيه الشقيّتين.

"ماذا كان مصير الظِّلّ؟" سألته.

"لا أعرف"، أجابني. "أعتقد أنه ذهب إلى بيته في الليل حيث لا يوجد قمر".

راودني عجبٌ بشأن أين اختفت لونا، وساقطًا على العشب، أخذتُ الشيء الميّت في حجري، وهمستُ في أذنه، "أين أنتِ يا لونا؟" أجيبِك!" لكن شفتاه لم تصدر أي إجابة. قبّلتهما، ليستا باردتين تمامًا، وضعت الجسد ثانيةً على الأرض، وعيّنتُ حارسًا عليه، ثم نهضتُ لأقدّم الأمان لشعب لونا أثناء الليل.

قبل أن تغرب الشمس، كنت وضعتُ حارسًا على الأميرة خارج المعسكر، وحرّاسًا حوله: منتويًا أن أسير حوله طوال الليل، أمرتُ بقية الجيش أن تخلد للنوم. استلقوا على العشب واستغرقوا في النوم سريعًا.

عندما طلع القمر لمحتُ شيئًا أبيض؛ كان النَّمِرة. كانت تنسلُّ بصمتٍ حول المعسكر النائم، ورأيتها تمرُّ ثلاث مرّات بين الأميرة والمخلوقات الصغيرة. وعندها جعلت الحارس الوحيد يستلقي مع الآخرين، وتمدّدتُ بدوري بجوار جسد لونا.

@ART_OF_BOOK

(38)

مَنزِلُ العَلقم

في الصباح بدأنا في التحرُّك، وانطلقنا في اتجاه الغابة بأسرع ما يمكننا. امتطيتُ حصان لونا، حاملًا جسدها. كنت أنوي تسليمه إلى أبيها؛ حتى يمنحه فراشًا في حجرة موتاه! وإذا لم يفعل، وبعد أن أتيقَّن أنها لن تستيقظ، سأظلُّ أراقبه في الصحراء حتى يذوي من التعفُّن! لكنني أعتقد أنه سيفعل، ذلك أنها قد ماتت منذ زمن طويل حتمًا! وا أسفاه، كم كنت أودُّ ألَّا أخزي نفسي أمامه بكل هذا العلقم داخلي!

إلى آدم عليَّ أن آخذ ليليث أيضًا. لا سُلطَة لديَّ لأدفعها للتوبة! وبالكاد لديَّ حقٌّ لقتلها، وحقٌّ أقلُّ بكثير لإطلاق سراحها إلى العالم! وحتمًا لستُ جديرًا بأيِّ شكل لأن أكون سجَّانها الأبدي!

مرةً تلو أخرى، على طول الطريق، كنتُ أعرض عليها الطعام؛ لكنها لا تجيبني سوى بنظرة كراهية شرهة. داومت عيناها الهائجتان على الدوران في محجريهما جيئةً وذهابًا، وأبدًا لم تنغلقا، أعتقد، حتى وصلنا إلى الناحية الأخرى من النبع الساخن. بعد ذلك لم تُفتَحا أبدًا حتى وصلنا إلى منزل العلقم.

ذات مساء، بينما نُعسكِر لقضاء الليلة، رأيتُ فتاة صغيرة تتجه نحوها وهرعتُ لمنع الكارثة. لكن

قبل أن أتمكّن من الوصول إليهما، كانت الطفلة قد وضعت شيئًا على شفتي الأميرة، وأطلقت صرخة ألم.

"أرجوك، يا ملك"، تأوّهت، "امتصّ إصبعي. العملاقة الشّرّيرة صنعت ثقبًا فيها!".

مصصتُ الإصبع المتمتم.

"حسنًا الآن!" هتفَت، وبعد دقيقة كانت تحمل ثمرة فاكهة ثانية إلى فمِ شَرِهٍ لطعام غير هذا. لكنها هذه المرّة انتزعت يدها بعيدًا بسرعة، وسقطت الثمرة على الأرض. اسم الطفلة كان لوفا.

في اليوم التالي عبرنا النبع الساخن. مجددًا على أرضها، كانت المخلوقات الصغيرة في غاية الابتهاج. لكن أعشاشهم كانت على مسافة بعيدة، وفي ذلك اليوم لم ننطلق أبعد من تلّ اللبلاب، حيث كنت قرّرتُ، بسبب ثمار عنبه، أن نقضي الليلة فيه. عندما رأوا العناقيد الضخمة، أدركوا على الفور أنها شيء طيّب، وهرعوا إليها، والتهموها بنهم، وبعد لحظات استغرقوا في النوم سريعًا جميعهم على الأرض الخضراء وفي الغابة المحيطة بالبهو. آملًا أن أرى الرقصة ثانيةً، ومتوقّعًا أن يطول نوم المخلوقات الصغيرة، جعلتهم يتركون مساحة واسعة في المنتصف. استلقيتُ بينهم، مع لونا بجانبي، لكنني لم أنم.

جاء الليل، وظهرت الفرقة هناك بغتةً. كنت أساءل

نفسي ما إذا كانوا، ليلةً بعد أخرى، سيستمرُّون في رقصهم حتّى الأبدية، وما إذا كان ترفّعي فحسب هو ما يمنعني من الانضمام إليهم، عندما تفتّحت عيون الأطفال، واندفعوا واقفين، مستيقظين بالكامل. على الفور أمسك كل واحد منهم براقص، وانطلقوا بعيدًا، متقافزين ووائبين. بدا أن الأشباح تراهم وترحّب بهم: ربما كانت تعلم طوال الوقت بأمر المخلوقات الصغيرة؛ ذلك أنها نفسها طالما كانت في طريق العودة إلى الطفولة! على أيّ حال، حتمًا ستجلب وثباتهم البريئة، قلتُ لنفسي، الانتعاش للأرواح المرهقة التي لم يَعُد لديها، وقد انتزع حاضرها وغدا مستقبلها قاتمًا، أي حياة باستثناء ظلِّ ماضيها المتلاشي. بخدع مرحة كثيرة، لكن بلا أي خدعة وقحة، ابتهج الأطفال، وإن كانوا تسبَّبوا أحيانًا في تنافرٍ لحظيٍّ في إيقاع الرقص، لكن الأشباح المسكينة، التي لم يكن لديها شيء يمنحها الابتسام، لم تظهر أيّ ضيق.

لكن قُبيل انبلاج الصبح، جفلتُ برؤية الأميرة-العَظمَة عند مدخل القاعة، عيناها مفتوحتان ومتوهّجتان، اللطخة المخيفة سوداء على جنبها. وقفتْ لوهلة، ثم خطَت بخِفّة، كما لو كانت تودُّ الانضمام إلى الرقصة. اندفعتُ واقفًا. انبعثت صرخة خوفٍ شنيعة من الأطفال، واختفت الأنوار. لكن القمر الواطئ أطلّ ناظرًا، ورأيتهم يتشبّثون ببعضهم البعض. اختفت الأشباح... لم تعُد مرئية على الأقل.

كانت الأميرة قد اختفت أيضًا. اندفعتُ إلى البقعة حيث كنت تركتها: كانت تستلقي بعينين مغلقتين، كما لو أنها لم تتحرّك قطّ. عدتُ إلى البهو. كانت المخلوقات الصغيرة على الأرضية، تهيأ نفسها للنوم.

في الصباح التالي، مع انطلاقنا، لمحنا هيكلين عظميَّين يتحرَّكان في أجمة قريبة. تشتَّت المخلوقات الصغيرة، وهرَعت إليهما. تبعتهما، ورغم أنهما يسيران الآن بأريحية، بلا كسور أو ضمادات، تعرَّفتُ فيهما على الزوجين الذي كنتُ رأيتهما في تلك الأنحاء. عقدَ الأطفال صداقةً معهما على الفور، ممسكين بأذرعهما، وممسّدين على عظام أصابعهما الطويلة، وكان من الواضح أن المخلوقين البائسين استقبلا اهتمامهم بعطف ومودّة. بدا الاثنان على علاقة طيبة ببعضهما البعض. كان حرمانهما المشترك قد جمع بينهما! خسارة كل شيء كانت بداية حياة جديدة لكليهما!

بعد انتباهها إلى أنّهما قد جمعا حفنة من الأعشاب، وأنهما يبحثان عن المزيد -لتدليك عظامهما بها ربما؛ ذلك أنه بأيّ طريق آخر يمكن لأيّ غذاء الوصول إلى أجهزة جسديهما البدائية جدًا؟- وبعد أن تفحّصتها جيدًا، بدأت المخلوقات الصغيرة في جمع أعشاب من نفس الأنواع، وملأت بها أيدي الهيكلين الممدودة لأخذها. ودّع الهيكلان المخلوقاتِ الصغيرةَ، على وعدٍ بالمجيء ورؤيتهم ثانيةً، ثم استأنفا رحلتهما، قائلين لبعضهما البعض إنهما أبدًا

لم يدركا أن شعبًا لطيفًا هكذا يعيش في نفس الغابة.

عندما وصلنا إلى قرية الأعشاش، بقيتُ معهم ليلةً واحدةً، للتأكُّد من استقرارهم مُجدَّدًا؛ ذلك أن لونا ما تزال تبدو ميِّتة تمامًا، ولم أرَ حاجةً للتعجُّل.

لم تكن الأميرة قد أكلت أيّ شيء، وظلّت عيناها مغلقتين؛ خشيةَ أن تموت قبل أن نصل إلى نهاية رحلتنا، ذهبتُ إليها في الليل، ووضعت ذراعي العاري على شفتيها. عضّته باهتياج شديد لحدّ أنني صرخت. كيف أفلتُّ منها، لا أعرف، لكنني وجدتُ نفسي مستلقيًا بعيدًا عن متناول يديها. كان الصباح قد حلَّ حينها، وعلى الفور شرعتُ في ارتحالنا.

بعد أن اخترتُ اثني عشرَ مخلوقًا صغيرًا، ليس من بين الأكبر والأقوى، لكن من بين الأعذب والأكثر ابتهاجًا، وضعتهم على ستة أفيال، واخترتُ اثنين من "الحمقى" الحُكماء، كما يدعوهم الأطفال، لحمل الأميرة. كان عليّ رغم ذلك امتطاء حِصانِ لونا، وحمل جسدها ملفوفًا في ردائها الأسود أمامي. سلكتُ أقصر طريق ممكن في رأيي، عبر الفرع الأيسر من قاع النهر، إلى اتجاه منزل العلقم، حيث كنت آمل أن أعرف أفضل طريقة لعبور الفرع الأوسع والأكثر وعورةً، ولتجنُّب حوض الوحوش: كنت أخشى الأول على الأفيال، والأخيرة على الأطفال.

قضيتُ ليلةً مريعةً على الطريق، وقضيتُ الثالثة في الصحراء بين فرعَي النهر الميْت.

كنّا أوقفنا الأفيال في مكان محتجب، وهناك تركنا الأميرة تنزلق بينها، لتستلقي على التراب حتى الصباح. بَدَت ميْتةً بالكامل، لكن لم أعتقد أنها كذلك. استلقيتُ على مقربةٍ منها، بجسد لونا على جانبي الآخر؛ وبذلك أمكنني مراقبة الميْتة والخطيرة في نفس الوقت. كان القمر في منتصف هبوطه نحو الغرب، قمر شاحب، متأمِّل، مُرقِّطًا الصحراء بالظلام. انخسفَ بغتةً، وظلَّ مرئيًا، لكنه لم يعد يرسل بأي ضوء: حجاب سميك، وشفاف كان يغطّي جماله السقيم، وبدا مهمومًا. انزاح الحجاب إلى الجانب قليلًا، ورأيت حافّته متباينةً مع صفاء القمر... الحدّ المثلّم لجناح يشبه الخُفَّاش، مُمزَّق ومعقوف. هبَّت ريح باردة بلسعة حارقة، وكانت ليليث جاثمةً فوقي. يداها ما تزال مقيّدتَين، لكن بأسنانها انتزعت من على كتفيَّ الرداء الذي صنعته لونا من أجلي، ثم غرزتها في لحمي. استلقيتُ كالمشلول.

كانت الحياة ذاتها وكأنها تتدفَّق مني إليها، عندها تذكّرتُ، وضربتها على اليد. رفَعَت رأسها بصرخة مغرغرة، وشعرتُ بارتجافها. طوَّحتُها بعيدًا عنّي، واندفعتُ واقفًا.

كانت على ركبتيها، تتأرجح جيئةً وذهابًا. احتوتنا دفقةً أخرى من البرد ذي اللذعات الحارة، سطع القمر رائقًا، ورأيتُ وجهها... هزيلًا وشبحيًا، وملطّخًا

بالأحمر.

"ابقَيْ أرضًا، أيَّتها الشيطانة!" هتفتُ.

"إلى أين تأخذني؟" سألتني، بصوتٍ صدى مكتوم من داخل قبر.

"إلى زوجك الأول"، أجبتها.

"سيقتلني!" قالت متأوِّهةً.

"على الأقل سينزعك من يديَّ!".

"أعطِني ابنتي"، صرَخت بغتةً، صارَّةً أسنانها.

"أبدًا! هلاكك اقترب أخيرًا!".

"فُكَّ قيدي وارحمني!" تأوَّهت. "أنا في عذاب. الحبال تنغرز في لحمي".

"لا أجرؤ. انبطحي!" قلت لها.

ألقت بنفسها على الأرض كقطعة خشب.

قضينا بقيَّة الليل في سلام، وفي الصباح بَدَت مَيْتةً مُجدَّدًا.

قبل أن يحلَّ المساء لمحنا منزل العَلقَم، وفي اللحظة التالية خطا واحد من الأفيال إلى محاذاة حصاني.

"عذرًا أيُّها الملك، هل أنت ذاهب إلى ذلك القصر؟" همس واحد من المخلوقات الصغيرة كان يمتطي عنق الفيل.

"سأذهب إليه حقًّا! سنقضي ليلتنا هناك"، أجبته.

"أوه، أرجوك، لا تفعل! لا بُدَّ أنه المكان الذي تعيش فيه المرأة- القِطَّة!".

"إذا رأيتها، فحتمًا لن تناديها بهذا الاسم!".

"لا يراها أحدٌ أبدًا: لقد فقدت وجهها! وانقلب رأسها ودار".

"تخفي وجهها عن الأناس الأغبياء، الساخطين! مَن عَلَّمكَ أن تناديها بالمرأة- القِطَّة؟".

"سمعتُ العمالقة الأشرار ينادونها كهذا".

"ماذا يقولون بشأنها؟".

"أنَّ لديها مخالب في أصابعها".

"هذا غير صحيح. أعرف السيدة. قضيتُ ليلةً في منزلها".

"لكن ربما كان لديها مخالب في أصابعها! ربما رأيتَ قدميها حقًّا، لكن بمخالبها مثنيَّة ومختفية تحت وسائدها!".

"إذن فربما تظنُّ أن لديَّ مخالب في أصابعي؟".

"أوه، لا؛ هذا لا يمكن! أنت طيِّب!".

"ربما أخبرك العمالقة بهذا أيضًا!" تابعت القول.

"لا ينبغي لنا تصديقهم بشأنك!".

"هل العمالقة طيِّبون؟".

"لا؛ إنهم يحبّون الكذب".

"إذن فلماذا تصدّقهم بشأنها؟ أعرف أن السيّدة طيّبة؛ وليس لديها مخالب".

"أرجوك لماذا أنت متأكد أنها طيّبة؟".

"لماذا أنت متأكد أنني طيّب؟".

تابعتُ مسيري، بينما انتظر هو رفقاءه، وأخبرهم بما قلته.

أسرعوا في إثري، وعندما ظهروا أمامي:

"لن آخذكم إلى منزلها ما لم أكن متيقّنًا أنها طيّبة"، قلت لهم.

"نعلم أنك لن تفعل"، أجابوني.

"إذا كان لي أن أفعل شيئًا يفزعكم... فماذا ستقولون؟".

"البهائم تفزعنا أحيانًا في بداية الأمر، لكنها لا تؤذينا أبدًا!" أجاب أحدهم.

"كان هذا قبل أن نعرفهم حقًّا!" أضاف آخر.

"هكذا الأمر!" أجبته. "عندما ترون المرأة في الكوخ، ستعرفون أنها طيّبة. ربما تتعجّبون مما تفعله، لكنها دائمًا طيّبة. أعرفها أفضل ممّا تعرفونني. لن تؤذيكم، ولكن إذا فعلت...".

"آها، لست متأكّدًا من ذلك، أيّها الملك العزيز!".

"أنا على يقين أنها لن تكون قاسية معكم أبدًا، حتى وإن آذتكم!".

غرقوا في الصمت لوهلة.

"لستُ خائفًا أبدًا من أتأذى... قليلًا... كثيرًا جدًا!" هتفَ أودو. "لكنني لا أحبُ الخربشات في الظلام! يقول العمالقة أن المرأة- القِطّة لديها أقدام بمخالب في أرجاء منزلها!".

"سآخذ الأميرة إليها"، قلت لهم.

"لماذا؟".

"لأنها صديقتها".

"كيف يمكن أن تكون طيّبة إذن؟".

" ليتل تمبلداون صديق للأميرة"، أجبته، "وكذلك لوفا... رأيتُ كليهما، أكثر من مرّة، يحاولان إطعامهما بثمار العنب!".

"ليتل تمبلداون طيّب! لوفا طيّبة جدًا!".

"لذلك هما أصدقاؤها".

"هل ستمنحها المرأة- القِطّة... أقصد المرأة التي ليست المرأة- القِطّة، والتي لا تحمل مخالب في أصابعها- ثمارَ العنب أيضًا؟".

"من المحتمل أكثر أن تمنحها خربشات!".

"لماذا؟ تقول إنها صديقتها!".

"بسبب هذا تحديدًا... الصديق هو ما يمنحنا ما نحتاجه، والأميرة في حاجة ماسّة إلى خربشات قاسية".

غرقوا في الصمت مجددًا.

"إذا كان أيُّكم خائفًا"، قلت لهم، "يمكنه العودة إلى البيت؛ لن أمنعكم. لكنني لا أستطيع اصطحاب أيًا من يصدِّق العمالقة أكثر منِّي، أو من يدعو سيدة صالحة بالمرأة- القطّة!".

"أرجوك أيُّها الملك"، قال أحدهم، "أنا خائف جدًا من أن أخاف!".

"يا فتى"، أجبته، "لا ضرر في أن تكون خائفًا. الضرر الوحيد يقع عندما تفعل ما يمليه عليك الخوف. الخوف ليس سيدك! اضحك في وجهه وسيفرُّ بعيدًا".

"ها هي... عند الباب تنتظرنا!" هتف أحدهم، ووضع يديه على عينيه.

"كم هي قبيحة!" هتف آخر، وفعل نفس الشيء.

"أنتم لا ترونها"، قلت لهم؛ "وجهها محجوب!".

"ليس لديها وجه!" أجابوني.

"لديها وجه جميل جدًا. رأيته ذات مرة. إنه بنفس جمال وجه لونا في الحقيقة!" أضفت بتنهدة.

"إذن لماذا تخفيه؟".

"أظنُّ أنني أعرف: على أيِّ حال، لديها سبب وجيه لتفعل ذلك!".

"لا أحبُّ المرأة- القِطَّة! إنها مرعِبة!".

"لا يمكنك أن تحبَّ، ولا ينبغي لك أن تكره ما لا تراه أبدًا. مُجدَّدًا أقول لك، لا تنادِها بالمرأة- القطَّة!".

"بماذا ندعوها إذن، أرجوك؟".

"السيدة مارا".

"هذا اسم جميل!" قالت فتاةٌ. "سأدعوها "السيدة مارا"، وحينها ربما تُريني وجهها الجميل!".

كانت مارا، متَّشِحَة وملتفعة بالأبيض، تقف حقًّا عند مدخل الباب لاستقبالنا.

"أخيرًا!" قالت. "طالت ساعة ليليث كثيرًا، لكنها حلَّت! كل شيء يجيء في نهاية المطاف. آلاف السنين انتظرتُ... وليس بلا طائل!".

تقدَّمَت نحوي، تناول كِنزي من ذراعيَّ، وحملته إلى المنزل، ثم عادت، وأخذت الأميرة. ارتجفت ليليث، لكنها لم تُبدِ مقاومة. جثمَت البهائم عند الباب. تبِعنا مُضيِّفتنا، والمخلوقات الصغيرة بادية التجهُّم والتهيُّب. وضَعَت الأميرة على مقعد متهالِك عند أحد جوانب الغرفة، ثم فكَّت قيدها، واستدارت إلينا.

"سيد فين"، قالت لي، "وأنتم، أيَّتها المخلوقات الصغيرة، أشكركم! هذه المرأة لن تستسلم أمام

التدابير المتساهلة، أشد قسوةً يجب أن أكون. عليّ أن أفعل ما في وسعي لأجبرها على التوبة".

شرَعَت المخلوقات الصغيرة رقيقة القلب في البكاء بلوعة.

"هل ستؤذينها كثيرًا، سيدتي مارا؟" قالت الفتاة التي ذكرتها لتوّي، واضعةً يدها الدافئة الصغيرة في يدي.

"نعم، أخشى أنه عليّ ذلك، أخشى أنها ستجبرني على ذلك!" أجابتها مارا. "سيكون من القسوة أن أؤذيها قليلًا. سأضطر حينها إلى فعل كل شيء من جديد، لكن بشكل أسوأ".

"هل يمكنني أن أقف معها؟".

"لا، يا طفلتي. إنها لا تحبّ أحدًا؛ ولذلك لا يمكن أن تكون مع أحد. هناك "الواحد" الذي سيكون معها، لكنها لن تكون "معه"".

"هل سيكون "الظِّلُّ" الذي جاء هابطًا التلّ معها؟".

""الظِّلُّ" العظيم سيكون داخلها، أخشى ذلك، لكنه لا يستطيع أن يكون معها، أو مع أيّ أحد. ستعرف أنني بجانبها، لكن ذلك لن يمنحها العزاء".

"هل ستخربشينها بشدّة؟" سألها أودو، مقتربًا منها، وواضعًا يده في يدها. "أرجوكي، لا تجعلي العصير الأحمر يخرج منها!".

أمسكت به، وأدارت ظهرها نحو بقيّتنا، ثم أزاحت

اللفاع عن وجهها، ورفعته عن الأرض بذراعيها حتّى يستطيع رؤيتها.

كما لو كان وجهه مرآةً، رأيتُ فيه ما رآه. حدّق لوهلة، انفرج فمه الصغير قليلًا؛ ثم ظهر اندهاش سماويّ على مُحيّاه، وسريعًا ما تحوّل إلى ابتهاج شديد. طوال دقيقة كان يمعن النظر منتشيًا، ثم أنزَلَته على الأرض. ومع ذلك استمرّ في التطلُّع إليها رافعًا بصره، ضائعًا في التأمُّلات... وبعدها هرعَ إلينا بوجه نبيٍّ أدرك نعيمًا يعجز عن وصفه. أعادت مارا ترتيب لفاعها، واستدارت إلى الأطفال الآخرين.

"عليكم أن تأكلوا وتشربوا قبل أن تخلدوا للنوم"، قالت لهم. "قطعتم رحلة طويلة!".

وضَعَت خبز منزلها أمامهم، وإبريقًا من الماء البارد. أبدًا لم يَرَوا خبزًا من قبل، وذلك الخبز كان صلبًا وجافًّا، لكنهم تناولوه بلا إشارة واحدة على النفور. أبدًا لم يروا ماءً حياتهم، لكنهم شربوه بلا تردُّد، واحدًا بعد آخر كانوا يرفعون أبصارهم من الشَّربة بوجوهٍ من الاندهاش السعيد. ثم قادت أصغرهم حجمًا، وانطلق البقيّةُ محتشدين في إثرها. بيديها الرقيقتين ذاتهما، أخبروني لاحقًا، وضعتهم في الفراش على أرضيّة العلّيّة.

(39)
تِلك الليلةُ

كانت ليلتهم مضطربة، وفي النهار قدّموا وصفًا عجيبًا لها. سواءٌ كان خوف نومهم قد تداخلَ مع يقظتهم، أو أن خوف يقظتهم قد امتزج مع أحلامهم، ففي اليقظة والنوم على السواء أبدًا لم يستريحوا في ليلتهم. طوال الليل شيءٌ عجيب بدا وأنه يحدث في المنزل... شيءٌ صامت، شيءٌ مريع، شيءٌ لم يكن لهم أن يعرفوه. أبدًا لم يستيقظ صوتٌ، كان الظلام متَّحِدًا مع الصمت، والصمت كان الرعب.

حدثَ أن مَلأت ريحٌ مخيفةٌ المنزل، وهزَّته من الداخل، أخبروني، لحدِّ أنه ارتعش وارتجف كحصانٍ يهزُّ نفسه؛ لكنها كانت ريحًا صامتة لم تصدر أنَّةً واحدةً في حجرتهم، ورحلت كنحيب بلا صوت.

استغرقوا في النوم. لكنهم استيقظوا مُجدَّدًا بإجفال عظيم. اعتقدوا أن المنزل ممتلئٌ بمياهٍ كتلك التي كان يشربونها. جاءت من الأسفل، وتصاعَدَت حتى ملأت العلّيّة إلى سقفها. لكنها لم تصدر صوتًا أكثر ممَّا أصدرته الرياح، وعندما انزاحت، استغرقوا ثانيةً في نوم جافٍّ ودافئ.

في المرّة التالية التي استيقظوا فيها، كان الهواء، أخبروني، في الداخل والخارج، غاصًا بالقطط. احتشدت لأعلى وأسفل، طولًا وعرضًا، في كل

موضع في أرجاء الغرفة. شعروا بمخالبها تحاول اختراق المنامات التي كانت السيدة مارا قد ألبستهم إيَّاها، لكنها لم تستطع، وفي الصباح لم يكن أيٌّ منهم يحمل خدشًا واحدًا. عبر الظلام بغتةً، جاء الصوت الوحيد الذي سمعوه طوال تلك الليل... عواء بعيد للقِطَّة- الجَدَّة- الكبرى في الصحراء: لا بُدَّ أنها كانت تنادي صغارها، قالوا لأنفسهم؛ ذلك أن القطط توقَّفَت في تلك اللحظة، وغدا كل شيء ساكنًا. استغرقوا في النوم مُجدَّدًا، ولم يستيقظوا حتَّى طلَعَت الشمس.

تلك كانت الحكاية التي رواها الأطفال عمَّا قاسوه في ليلتهم. لكنني كنتُ مع المرأة المحتجبة والأميرة طوال الليلة: رأيتُ شيئًا ممَّا حدث فحسب، ومعظمه شعرتُ به فحسب، وكان هناك المزيد ممَّا تعجز العين عن رؤيته، وبالكاد يستطيع القلب فهمه.

فور أن غادرَت مارا الغرفة مع الأطفال، لمحت عيناي النَّمِرة البيضاء: ظننتُ أننا تركناها وراءنا، لكن ها هي، منكمشةً في أحد الأركان. من الواضح أنها كانت في رعب قاتل ممَّا قد تراه. انتصب مصباح على سطح المدفأة العالي، وحينًا كانت الغرفة تبدو ممتلئة بظلال المصباح، وحينًا بأشكال سحابية. كانت الأمير مستلقية على الكرسيّ العريض بجوار الحائط، وبدت أنها أبدًا لم تُحرِّك يدًا أو قدمًا. كان انتظارًا مُرعِبًا.

عندما عادت مارا، جرّت الكرسيّ بليليث فوقه إلى

منتصف الغرفة، ثم جلست قبالتي، على الجانب الآخر من المدفأة. بيننا تتوهج نار صغيرة.

شيء مريع كان على وشك الحدوث! التمظهرات السحابية تومض وترتعش. مخلوق فضائي مثل عظاءةٍ عمياء جاء يزحف خارجًا من بينها، عبرَ الأرضية الحجرية، ثم تسلل إلى النار. كنّا جالسين بلا حراك. اقترب ذلك الشيء أكثر.

لكن الساعات مرّت، واقترب منتصف الليل، ولم يحدث أيّ تغيُّر. كانت الليلة في غاية السكون. ولم يشقَّ الصمت أيّ صوت، ولا حتّى خشخشة النار، ولا قعقعة لوح أو عارضة خشب. بين الحين والآخر كنت أشعر بما يشبه الفوران، لكن هل كان في الأرض أم في الهواء أم في المياه تحت الأرض، هل كان في جسدي أم في روحي... هل كان في أيّ موضع، لم أتبيّن. استولى عليّ شعورٌ مريعٌ بأن محاكمتي تقترب. لكنني لم أكن خائفًا؛ ذلك أنني لم أعُد أبالي بشيء سوى بالمسألة التي يجب أن تتمّ.

حلَّ منتصف الليل بغتةً. نهضت المرأة المُلتفعة، استدارت نحو الكرسيّ، وببطء حلّت اللفائف التي تخفي وجهها: تساقطت على الأرض، وخطت هي من فوقها. كانت قدمَا الأميرة في اتجاه المدفأة؛ تقدّمت مارا نحو رأسها، واستدارت، ثم وقفت وراءه. حينها رأيتُ وجهها. كان بديعًا بما لا يوصف... أبيض وحزينًا، حزينًا في القلب والروح، لكن ليس تعيسًا، وأدركتُ حينها أنه لا يمكن أن يكون تعيسًا

أبدًا. كانت الدموع تجري متساقطةً على خدّيها: مسَحتها بردائها، غدا مُحيّاها ساكِنًا للغاية، وتوقّفت عن البكاء. ولولا الإشفاق الذي يملأ كل قسمة في تعبيراتها، لبَدَت في غاية القسوة. وضعت يدها على رأس الأميرة... على الشَّعر الذي نما إلى أطراف الجبين، ثم انحنت وأطلقت أنفاسها على الطُّرّة الشاحبة. ارتجف الجسد.

"هل ستنصرفين عن الأشياء الشرّيرة التي طويلًا ما ارتكبتِها؟".

لم تُجِب الأميرة. ألقَت مارا السؤال ثانيةً، بنفس النغمة الناعمة، المُستميلَة.

لم تكن هناك أيّ علامة على الإنصات. نطَقَت بالكلمات لمرّةٍ ثالثة.

ثم فتحت الجثة فمها وأجابت، كلماتها وكأنها تؤطّر نفسها بشيءٍ غير الصوت. لا أستطيع تحديده أكثر: لم تكن أصواتًا، ومع ذلك كانت كلماتٍ بالنسبة لي.

"لن أنصرف عنها"، قالت. "سأكون نفسي وليس أخرى!".

"وا أسفاه، أنتِ أخرى الآن، ولستِ نفسك! ألن تكوني نفسكِ الحقيقية؟".

"سأكون ما أعنيه "بنفسي" الآن".

"إذا استعدتِ نفسك، هل ستفعلين ما في وسعك

لإصلاح المأساة التي كنتِ سببًا فيها؟".

"سأفعل ما تمليه طبيعتي".

"لا تدركين طبيعتك: طبيعتك خيِّرة، وما تفعلينه شرًّا".

"سأفعل ما تحبّه "نفسي"... ما تشتهيه "نفسي"".

"هل ستفعلين ما ينزعك إليه "الظِّلُّ"، ذلك الذي يُظلِّل نفسك؟".

"سأفعل ما سأفعله".

"لقد قتلتِ ابنتك يا ليليث!".

"قتلتُ آلافًا. إنها مِلكي!".

"أبدًا لم تكن مِلككِ كما أنت مملوكة لنفسٍ أخرى".

"لستُ مِلكًا لنفسٍ أخرى؛ أنا مِلك نفسي، وابنتي مِلكي!".

"إذن، وا أسفاه، حانت ساعتك!".

"لا أبالي. أنا ما أنا عليه؛ لا يمكن لأحد نزع نفسي منّي!".

"لستِ "النّفس" التي تتوهّمينها".

"ما دمتُ أشعر بنفسي كما أحبُّ أن أظن بنفسي، فلا أبالي. يكفيني أن أكون لنفسي كما أحبُّ أن أكون. ما أختاره ليبدو لنفسي يجعلني مَن أنا. فكرتي الذاتية تجعلني أنا؛ فكرتي عن نفسي هي أنا.

لن تجعلني نفسُ أخرى "أنا"!".

"لكنَّ آخَرَ صنَعَكِ، ويمكنه إجبارك على رؤية ما فعلتِه بنفسك. لن تكوني قادرة على النظر إلى نفسك بعد الآن إلّا كما يراكِ هو! لن تجدي الإشباع طويلًا في فكرتك عن نفسك. وفي هذه اللحظة أنتِ مدركة للتغيُّر القادم!".

"لم يصنعني أحد أبدًا. أتحدّى تلك القوّة أن تفنيني بعد أن كنت امرأة حرّة! أنتِ عَبدَتُه، وأتحدّاكِ! ربما تكونين قادرة على تعذيبي... لا أعرف، لكنكِ لن تجبريني على أي شيء ضد إرادتي!".

"إجبار كهذا سيكون بلا قيمة. لكن هناك ضوء يمضي أعمق من الإرادة، ضوء ينير الظلام وراءها: ضوء بمقدوره تغيير إرادتك، بمقدوره أن يجعلها إرادتك حقًّا وليست إرادةَ آخَر... ليست إرادة "الظّلّ". في المخلوقة يمكن للإرادة الخالقة أن تنساب، وتمنحها الخلاص بالتالي!".

"هذا الضوء لن يدخلني؛ أمقته! ارحلي يا عَبدَة!".

"لستُ عَبدة؛ ذلك أنني أحبُّ ذلك الضوء، وكذلك الإرادة الأعمق التي خلقت إرادتي. لا يوجد عبدٌ سوى المخلوق الذي "يريد" ضد إرادة خالق. مَن هي العبدة سوى تلك التي تصيح "أنا حُرّة"، مع ذلك لا تستطيع الامتناع عن الوجود!".

"تتحدثين بالحماقة من قلبٍ خائف! تتوهّمين أنني تحت طوعك: أتحدّاكِ! أقف بنفسي أمامك! ما أختار

أن أكونه، لا يمكنك تغييره. لن أكون ما تظنينه فيَّ... ما تقولين إنني أكونه!".

"أنا آسفة: حتمًا ستعانين!".

"لكن سأكون حرّة!".

"وحدها مَن تصنع الأحرار حرّة، مَن لا تحبّ الحرية لن تخلق سوى عبيدٍ؛ هي ذاتها عبدة. كل حياة، كل إرادة، كل قلبٍ ظهرَ تحت نظركِ، سعيتِ لإخضاعه: أنتِ عبدة لكل عبدٍ صنعتِه... عبدة لدرجة أنك لا تدركين ذلك! انظري إلى نفسك ذاتها!".

انتزعت يدها من رأس الأميرة، وخطَت خطوتين للوراء مبتعدةً عنها.

استولى على المنزل وجودٌ صامتٌ كما لو كان لهيبًا هادئًا... نفس الوجود، أفترض، الذي ظنّه الأطفال ريحًا صامتةً. استدرتُ لا إراديًا نحو المدفأة: كانت نيرانها وهجًا ساكنًا صغيرًا بلا حراك. لكنني رأيتُ الشيء- الدودة يخرج منها زاحفًا، ساخنًا حتى ابيضَّ، نيّرًا كفضّةٍ مشتعلة، القلب الحي للنار الأولى. على طول الأرضية زحفَ حتى الكرسيّ، ببطءٍ شديد، ومع ذلك، ببطءٍ أكبر تسلّقه، واستقرَّ، كما لو كان رافضًا أن يبتعد أكثر، عند قدمَي الأميرة. نهضتُ واقتربت. كانت مارا تقف بلا حراك، كما لو أنها تنتظر حدثًا معروفًا مسبقًا. استمرّ الشيء اللامع في زحفه إلى قدمٍ عظميةٍ جرداء: لم تُظهر أيّ ألم، ولا احترق الكرسيّ حيث كانت الدودة قد استقرّت.

ببطء، ببطء شديد، واصلت الدودة انسلالها على طول ردائها حتَّى وصلت إلى صدرها، وعنده اختفت بين طيّات الرداء.

كان وجه الأميرة يستلقي هادئًا كالحجارة، والجفنان مغلقين كما لو على عينين ميتتين، لبضع دقائق لم يحدث شيء. في النهاية، على الجلد الجاف، الذي يشبه الرَّقّ، بدأت تظهر قطرات كما لو كانت لندى في غاية النقاء، بعد لحظة تعاظَمت إلى ما يشبه لآلئ الصغيرة، وانسابت معًا، وبدأت في الانصباب في تيّارات. اندفعت قُدمًا لانتزاع الدودة من الصدر الذاوي البائس، وسحقها بقدمي. لكن مارا، أم الأحزان، خطَت بيننا، وأزاحت الحواف المغلَقة للرداء: لم تكن هناك أفعى... لا أثر حارق، كان المخلوق قد اخترق مركز اللطخة السوداء، واجتاز المفاصل والنخاع وصولًا إلى أفكار ونوايا القلب. أبدت الأميرة ارتجافة تَلوُ مُعوَجّةً واحدة، وأدركتُ حينها أن الدودة كانت في حجرة الأميرة السريَّة.

"إنها ترى نفسها الآن!" قالت مارا، ووضعت يدها على ذراعي، ثم سحبتني ثلاث خطوات عن الكُرسي.

بغتةً، انحنى جسد الأميرة لأعلى متقوِّسًا، ثم اندفعت إلى الأرضية ووقفت منتصبةً. جعلني الرعب في عينيها أرتجف خشية أن تنفتح عيناها، وتسحقني نظرتهما. انتفخ صدرها وغاص، لكنه لم يطلق أنفاسًا. تدلّى شعرها وتقطّر، انتصب من رأسها

وأطلق شرارات، تهدَّل مُجددًا، وصبَّ عرق عذابها على الأرضية.

أوشكتُ على إلقاء ذراعيّ حولها، لكن مارا أوقفتني.

"لا يمكنك الاقتراب منها"، قالت. "إنها نائية عنّا، بعيدًا في جحيم وعيها بذاتها. نار الكون الجوهرية تشعُّ داخلها بمعرفة الخير والشر، معرفة ما تكونه. ترى الآن أخيرًا الخير الذي لا تكونه، والشرَّ الذي تكونه. تدرك أنها ذاتها النار التي تحترق فيها، لكنها لا تدرك أن نور الحياة يقع في القلب من تلك النار. ألمها الحقيقي هو أنها ما هي عليه. لا تَخف من أجلها؛ ليست منبوذة. لم أترك طريقة أخرى أخفَّ وطأةً من أجل مساعدتها. انتظِرْ وراقِبْ".

ربما ظللتُ واقفًا هكذا لخمس دقائق أو خمسة أعوام... لم أتبيَّن، لكنها ارتمت في النهاية على وجهها.

خطَت مارا إليها، ووقفت تتطلَّع إليها. تساقَطت دمعات كبيرة من عينيها على المرأة التي أبدًا لم تبكِ، ولم يكن لها أن تبكي.

"هل ستغيّرين طريقتك؟" قالت في النهاية.

"لماذا صنعني هكذا؟" قالت ليليث لاهثةً. "كنتُ لأصنع نفسي... أوه، مختلفةً تمامًا! أنا سعيدة لأنه هو من صنعني ولم أصنع نفسي! هو وحده من يستحقُّ اللوم على ما أكونه! أبدًا لم أكن لأصنع شيئًا

حقيرًا كهذا! كانت تلك غايته حتى أدركها وأكون بائسةً! لن أصنعَ بعد الآن!".

"أفنِي نفسكِ إذن"، قالت مارا.

"وا أسفاه، لا أستطيع! تدركين ذلك، وتسخرين منّي! كم من مرّةٍ عانيتُ لأتلاشى، لكنّ الجبّار أبقى على كينونتي! ألعنه! ليقتُلني الآن!".

خرَجَت الكلمات في انبجاسات كما لو كانت من نافورة محتضرة.

"لو لم يصنعك"، قالت مارا، برفق وببطء، "لم ليكن في مقدورك أن تبغضي أيَّ شيء. لكنه لم يصنعك على هذه الشاكلة. أنتِ مَن جعلتِ نفسك ما أنتِ عليه. كوني مبتهجةً: بمقدوره خلقك من جديد".

"لن يُعاد خلقي!".

"لن يبدِّلَكِ؛ سيعيدكِ فقط إلى ما كنتِ عليه".

"لن أكون صنيعته أبدًا".

"ألستِ مستعدّةً إلى إصلاحِ ما جعلتِه خطأً؟".

استلقت صامتةً. بدا أن معاناتها قد انحسرت.

"إذا كنتِ مستعدّة، ضعي نفسك مجدّدًا على الكرسي".

"لن أفعل"، أجابت، دافعةً بكلماتها قسرًا عبر أسنانها المضمومة.

بدا وأن ريحًا قد استيقظت داخل المنزل، هابّةً بلا

صوت أو أثر، ومياهٌ بدأت في الارتفاع بلا ثنيّات في تموّجاتها، ولا تشنّجات في تصاعدِها. كانت باردة، لكن لم تسبّب الخدَر. محتجبةً وصامتةً جاءت. لم تضرب أيًا من حواسي، ومع ذلك أدركتُ تصاعدها. رأيتها ترتفع وتحملها طافيةً. برفقٍ حملَتها، عاجزةً عن المقاومة، ووضعتها، أو تركتها بالأحرى، على الكُرسيّ. ثم انحسرت بسرعة مجدّدًا.

انطلق صراع الفكر من جديد، بالاتّهامات والاعتذارات، والهياج المتلاقي. كانت روح ليليث تستلقي أمام عذاب الضوء الباطني، المتغلغل، النقي. شرَعَت في الأنين، وإطلاق تنهُّدات عميقة، ثم في غمغمة كما لو كانت تعقد حديثًا مع ذاتٍ إلهية: الملِكة فيها لم تَعُد مكتملة، انقسمت ضد ذاتها. حينًا تبتهج كما لو كانت انتصرت على ألدّ أعدائها، ثم تنتحب، وحينًا تتلوّى كما لو كانت تعانق صديقًا تمقتهُ روحها، ثم تضحك كشيطان. في النهاية شرَعَت في سرد حكاية عن نفسها، بلغة في غاية الغرابة، وبأشكال في غاية الضبابية، لحدّ أنني لم أتبيّن منها سوى شذرات متقطّعة. مع ذلك، بدت اللغة وكأنها الصورة البدائية للغة أعرفها جيدًا، بأشكال تنتمي لأحلامٍ راودتني ذات مرة، لكنها عصيّة على التذكُّر. بين حين وآخر، كان من الظاهر أن الحكاية تلامس أشياء كان آدم قرأها من المخطوط المفصول، وغالبًا ما تُوردُ إشارات خاطفة إلى تأثيرات وقُوى، ورذائل أيضًا، لم يسعني سوى

أن أتشكّك... كنتُ جاهلاً بها.

توقّفَت، ومُجدّدًا ظهرَ الرعب في شعرها، الشرر تارةً والانبجاس تارةً أخرى. أرسلتُ نظرةً متوسّلة إلى مارا.

"تلك، وا أسفاه، ليست دموع الندم!" قالت. "الدموع الصادقة تتجمّع في العيون. لكن هذه أكثر مرارةً بكثير، وليست خيّرةً. احتقار الذات ليس حزنًا. ومع ذلك فيه خير، ذلك أنه يعني خطوةً في اتجاه البيت، وبين ذراعَي الأب ينسى الابن الضال الذات التي يمقتها. وفور أن يصبح مع أبيه، لا تعُود نفسه ذات أهميّة. هكذا سيكون الأمر معها".

اقترَبَت منها وقالت:

"هل ستردّين ما انتزعتِه ظلمًا؟".

"لم أنتزع شيئًا"، أجابت الأميرة، نابذةً كلماتها رغم الألم، "لا يحِقّ لي انتزاعه. قوتي على الانتزاع تثبت حقّي".

غادرتها مارا.

شيئًا فشيئًا تزايدت روحي وعيًا بظلام غير مرئي، شيء أكثر فظاعةً من أيّ شيء آخر لم يجعل نفسه محسوسًا بعد. عدَمٌ مريع، لا وجودَ إيجابيَّ طواها. شعرتُ بلمسة حدّ كينونته، ذلك الذي لم "يَكُن" بعدُ، ولوهلة شبحية تراءى لي أنني وحيدٌ مع الموت المطلق! لم يكن غياب كل شيء ما شعرتُ به، بل

حضور اللا شيء. اندفعت الأميرة ذاتها من الكُرسيّ إلى الأرض بصيحة مريرة وخارقة. كان ارتداد الكينونة من الفناء.

"الرحمة"، صرخت، "مزِّقي قلبي من جسدي، لكن دعيني أعِش!".

مع تلك الكلمات حلَّ عليها -وعلينا أيضًا، نحن مَن نراقب معها- السُّكونُ المطلق كما لو كان سكونَ ليلةِ صيف. كانت المعاناة قد وصلت إلى حافَّة كأس حياتها، ثم أفرغتها يدًا! رفَعَت رأسها، شرَعَت في النهوض، وتطلَّعَت من حولها. بعد لحظة، وقفت منتصبةً، يحيطها حِشْ المنتصرين: كانت ربحت المعركة! بشجاعة واجهت أعداءها الروحانيّين، وانسحبوا مهزومين! رفعت ذراعها الذَّاوية فوق رأسها، أغنية انتصار غير مُقدَّس في حلقها. استقرّت عيناها بغتةً في تحديقة شبحية. ماذا كانت ترى؟

تطلَّعتْ، ورأيتْ: أمامها، على مرآة سماوية غير مرئية، انتصب انعكاس ذاتها، وبجوارهِ شكلٌ ذو جمالٍ ساطع. ارتجفَت، وتداعَت مُجدَّدًا على الأرض عاجزةً. أدرَكَت حينها النَّفسَ التي أراد الرَّبُّ لها أن تكونها، والأخرى التي صارَتها.

استلقت بقية الليل هامدةً تمامًا.

مع الفجر الرمادي متوهِّجًا في الغرفة، نهَضَت، استدارت نحو مارا، قالت، بخنوع ذي كبرياء، "لقد انتصرتِ. دعيني أنطلق إلى البريّة وأنُح على

نفسي".

أدركت مارا أن استسلامها لم يكن مصطنعًا، ولا حقيقيًا. تطلّعت إليها لوهلة، وأجابتها:

"ابدئي، إذن، وضعي الصواب مكان الخطأ".

"لا أعرف كيف"، أجابتها، بنظرة من يتوقّع ويخشى الإجابة.

"افتحي يديك، وأطلقي سراح ما يقبع فيها".

بدا وأن رفضًا مهتاجًا يناضل من أجل المرور، لكنها أبقته سجينًا.

"لا أستطيع"، قالت. "لم أغد أملك القوة. افتحيها من أجلي".

مدّت اليد الآثمة. كانت مخلبًا أكثر من كونها يدًا. بدا أنها عاجزة عن فتحها حقًّا.

لم تنظر مارا إليها حتى.

"عليكِ أن تفتحيها بنفسك"، قالت بهدوء.

"أخبرتكِ أنني لا أستطيع!".

"تستطيعين إذا أردتِ... ليس على الفور بالطبع، لكن عبر كدّ مثابر. ما ارتكبتِه، لا تتمنين بعدُ أن ينقضي... لا تنوين بعدُ إصلاحه!".

"تظنين هذا، لأقُل لكِ"، أجابت الأميرة بلمسة عجرفة"، "لكنني أعرف أنني لا أستطيع فتح يدي!".

"أعرفكِ أفضل ممَّا تعرفين نفسك، وأعلم أنكِ تستطيعين. كثيرًا ما فتحتِها قليلًا، لا يمكنكِ فتحها بالكامل بلا متاعب ولا ألم، لكنك تستطيعين فتحها. في أسوأ الأحوال بمقدورك فتحها عنوةً! أرجوكِ، استجمعي قواكِ، وافتحيها عن آخرها".

"لن أجرِّب ما أعرف أنه مستحيل، ستكون حماقةً منِّي!".

"وهو ما تفعلينه طوال حياتك! أوه، أنتِ صعبة التعليم!".

ظهر التَّحدِّي مُجدَّدًا على وجه الأميرة. أدارت ظهرها إلى مارا، قائلةً، "أعرف لماذا تُوقعين بي العذاب! لم تنجحي، ولن تنجحي! ستكتشفين أنني أقوى ممَّا تظُنِّين! سأكون رغم أيِّ شيء سيدةً لذاتي! ما زلت كما أعرف نفسي دائمًا... ملكة الجحيم، وسيدة العوالم!".

ثم ظهر الشيء الأكثر فظاعةً من بين كل الأشياء. لم أتبيَّن ما هو، أدركتُ أنني عاجز عن تخيُّله، لم أدرك سوى أنه إذا اقترب منِّي؛ سأموت من الرعب! أدرك الآن أنه كان "الحياة في الموت"... حياةٌ ميِّتة، وموجودة مع ذلك، وأدركتُ أن ليليث قد رأته من قبل، لكن بنظراتٍ خاطفة فحسب: أبدًا لم يكن معها إلَّا الآن.

وقفت فيما تستدير. خطت مارا وجلست بجوار النار، خائفًا من الوقوف وحيدًا مع الأميرة، خطوتُ

بدوري وجلست مُجدَّدًا بجوار المدفأة. شيءٌ ما بدأ في مغادرتي. حسٌّ بالبرودة، لكن ليس ما ندعوه بالبرودة، تسلَّل، ليس داخلًا، بل خارجًا من كينونتي، واحتواها تمامًا. بدا مصباح الحياة والنار الأبدية وكأنهما يتلاشيان معًا، وأوشكت على أن أفقد كل شيء ما عدا الوعي بأنني كنتُ حيًا. من رحمة الربِّ، لم تستمر فجيعتي طويلًا، وعدتُ بأفكار إلى ليليث.

شيءٌ ما كان يحلُّ داخلها، شيئًا لم نكن نستوعبه. أدركنا أننا لا نشعر ما تشعر به، لكننا نشعر بشيءٍ عن المأساة التي دفعتها إلى ذلك الشعور. الشيء ذاته كان داخلها، ليس داخلنا، وصلنا انعكاسه، مأساته، وانعكس مُجدَّدًا داخلنا: كانت في الظلام الخارجي، وكنّا نحن مع تلك التي في قلبه! لم نكن في الظلام الخارجي، لو كنّا كذلك؛ لم نكن لنستطيع أن نكون معها. لا بُدَّ أننا كنّا متباعدين، في المطلق، خارج الزمان والمكان. لا يَعرفُ الظلام النورَ ولا يعرف ذاته؛ الضوء وحده يعرف ذاته ويعرف الظلام. لا أحد سوى الرَّبِّ يمقت الشرَّ ويفهمه.

شيءٌ ما ارتحل عنها، وبغيابه، أدركْتُ أنها كانت في صحبته في كل لحظة في سنواتها الطالحة. كان نبع الحياة قد انسحب؛ وكلُّ ما تبقى من كينونتها الواعية كانت رواسب حياتها الفاسدة والميِّتة.

وقفت مُتخشِّبةً. دفنت مارا رأسها في يديها. حدَّقتُ في وجه تلك التي تعرف الوجود لكن ليس الحب... تلك التي لا تعرف الحياة، ولا البهجة، ولا

الخير، بعينيَ رأيت وجه موتٍ حيّ. لم تعرف الحياة إلا لتعرف أنها، الحياة، كانت ميّتة، وأنه، في داخلها، يحيا الموت. لم يكن الأمر فحسب أن الحياة قد انتهت من داخلها، لكن أنها كانت شيئًا ميتًا بوعي. كانت قتلت حياتها، وغدت ميّتة... وأدركت ذلك. لا بُدَّ أنها مارست "الموت للحياة" مرارًا وتكرارًا! طالما حاولت جهدها أن تُفني نفسها، ولم تستطع! كانت حياةً ميّتة! وليس بمقدورها أن تتلاشى! لا بُدَّ أن "تكون"! في وجهها رأيث وقرأتُ ما يتجاوز مأساته... رأيث في محنته أن المحنة وراءه كانت أكثر ممَّا يستطيع إظهاره. كان يطلق ظلامًا شاحبًا، الضوء داخلها كان ظلامًا، وعلى شاكلته كان يسطع. كانت ما لم يستطع الرَّبُّ خَلقَه. اغتصَبت ما يتجاوز نصيبها من الخلق الذاتي، وقد تجاوز ما اغتصبته "حِصَّته"! تدرك الآن ما صنعته، وتنظر، لم يكن خَيِّرًا! كانت جُثّة واعيةً، كفنها لن يتشظَّى أبدًا، لن يُطلق سراحها أبدًا! كانت عيناها الجسديَّتان مفتوحتين على اتِّساعهما، كما لو كانتا في قلب الشَّرِّ الجوهري المرعب، هزُّ ذاتها الذي لا يَفنَى. يدها اليمنى أيضًا كانت مضمومة -على "لا شيء" موجود- على ميراثها!

لكن مع الرَّبِّ كل الأشياء مُمكِنة: يمكنه إنقاذ حتَّى الأثرياء!

بلا تغيُّر في النظرة، أو إشارة على ما تنتويه، خطَت ليليث نحو مارا. شَعُرَت بقدومها، ونهضت

لملاقاتها.

"أستسلم"، قالت الأميرة "لا أستطيع المقاومة. لقد هُزِمتُ. مع ذلك، لا أستطيع فتح يدي".

"هل حاولتِ؟".

"أحاول الآن بكل قوّتي".

"سآخذك إلى أبي. لقد أخطأتِ في حقّه بأسوأ ما جنى المخلوقون؛ لذلك فهو أفضل مَن يمكنه مساعدتك من بين المخلوقين".

"كيف يمكنه مساعدتي؟".

"سيسامحك".

"آها، إذا كان له أن يساعدني حتّى أتلاشى! ولا حتّى أنا قادرة على ذلك! لم أعُد أملك سلطانًا على نفسي؛ أنا عَبدَة! أعترف بذلك. دعيني أمُت".

"عبدةٌ أنتِ ستكون طفلةً ذات يوم!" أجابتها مارا. "في الحقيقة، ستموتين، لكن ليس كما تظنّين. ستموتين خروجًا من الموت إلى الحياة. الآن حانت ساعة الحياة، التي أبدًا لم تكن ضدّكِ!".

مثل أمّها، التي فيها تستقرُّ أمومة العالم أجمع، وضعت مارا ذراعيها حول ليليث، وقبّلتها على جبينها. انسابت المأساة الباردة- المهتاجة من عينيها، وملأت ينابيعهما. رفعتها، وحملتها إلى فراشها في زاوية الغرفة، ووضعتها ببطء عليه، ثم أغلقت عينيها بعينين حانيتين.

استلقت ليليث وانتحبت. خطت سيدة الأحزان إلى الباب وفتحته.

كان الصباح، بالربيع بين أذرعه، ينتظر في الخارج. انسابت أذرعه بنعومة عبر الباب المفتوح، بريح رقيقة بين ثنايا أرديتها. تدفّقت الريح أكثر وأكثر حول ليليث، مماوجةً المجهول، ومنهضةً بحر حياتها الأبدية، حتّى أصبحت تلك، التي لم تكن سوى عُشبة نُبِذَت على الشاطئ الرملي الجاف حتى ذبلت، واعيةً لنفسها بمخرج المحيط الأبدي، حتّى ينساب إليها إلى الأبد، ويستقرّ بلا تقهقر. أجابت هي رياح الصباح بأنفاس منتعشة، وبدأت في الإنصات؛ ذلك أنه في ثنايا الرياح جاء المطر... المطر العذب الذي يشفي العشب المجزوز لا متناهي الجِراح، مداويًا إيّاها بعذوبة كل موسيقى العالم. ثم خضَّلَ الحفيف، الذي يحيا بين الموسيقى والصمت، المواضع الصحراوية حول الكوخ، وسمعته الرمال في قلب ليليث، وارتوت منه. عندما عادت مارا للجلوس بجوار فراشها، كانت دموعها تتدفّق ألينَ من المطر، وسريعًا غرقت في النوم.

(40)

منزلُ الموتِ

نهَضت أمُّ الأحزان، ارتدت لفاعَها، وانطلقت لنداء المخلوقات الصغيرة. كانوا نائمين كما لو أنهم لم يتحركوا قطُّ طوال الليل، لكن في اللحظة التي تكلَّمت فيها اندفعوا واقفين على أقدامهم، منتعشين كما لو قد صُنعوا لتوِّهم. بمرح هبطوا الدَّرَج في إثرها، ثم أحضرتهم إلى حيث تستلقي الأميرة، دموعها تتدفَّق ما تزال وهي نائمة. ظهرَ التهيُّب والوقار على وجوههم المبتهجة. انتقلوا بأبصارهم من الأميرة إلى الخارج في المطر، ثم عائدةً إلى الأميرة.

"السماء تسقط!" قال أحدهم.

"العصير الأبيض يتدفَّق خارجًا من الأميرة!" هتف أحدهم، بنظرةٍ خائفة.

"هل هي أنهار؟" سأل أودو، مُحدِّقًا في الينابيع الصغيرة التي تنساب على خدَّيها الغائرين.

"نعم"، أجابته مارا، "أروع أنهار العالم".

"كنتُ أظنُّ أن الأنهار أكبر حجمًا، تجري كحفنة من المخلوقات الصغيرة، صانعة ضجيجًا عاليًا!" أجابها، متطلِّعًا إليّ، الذي منه وحده كان سمع عن الأنهار.

"انظر إلى أنهار السماء!" قالت مارا. "انظر كيف

تهبط لتوقظ المياه تحت الأرض! قريبًا ستتدفَّق الأنهار في كل مكان، مبتهجةً وصادحةً، كآلاف وآلاف من الأطفال السعداء. أوه، كم ستمنحكم السعادة، أيَّتها المخلوقات الصغيرة! أبدًا لم تروا أيَّة أنهار، ولا تعرفون كما هو بديع الماء!".

"ستكون بهجة الأرض الحقيقية أن تصبح الأميرة طيِّبة"، قال أودو. "انظروا إلى بهجة السماء!".

"هل الأنهار قُرَّة عين الأميرة؟" سألت لوقا. "إنها ليست عصيرها، ذلك أنها ليست حمراء!".

"إنها العصارة داخل العصارة"، أجابتها مارا.

وضع أودو إصبعًا أمام عينيه، ونظر إليه، ثم هزَّ رأسه.

"لن تعضَّنا الأميرة الآن!".

"لا، لن تفعل ذلك مُجدَّدًا أبدًا. لكن علينا الآن أن نقترب بها من البيت".

"هل ذلك عُشّ؟" سأل سوزو.

"نعم، عُشّ كبير جدًا. لكن علينا أن نأخذها إلى مكان آخر أولًا".

"ما هو؟".

"إنه أكبر غرفة في هذا العالم. لكن أعتقد أنه سيقوَّض: قريبًا سيمتلئ بالأعشاش الصغيرة. اذهب واجلب حمقاك".

"أرجوكِ، هل توجد قطط في ذلك المكان؟".

"ولا قِطّة. تلك الأعشاش تغصّ بأحلام جميلة على أن تجرؤ قطّة واحدة على دخولها".

"سنكون مستعدين في دقيقة"، قال أودو، وركض مبتعدًا، يتبعه الجميع باستثناء لوفا.

كانت ليليث مستيقظة الآن، تنصت بابتسامة حزينة.

"لكن أنهارها تجري بسرعة شديدة!" قالت لوفا، التي كانت تقف جوارها وتبدو عاجزةً عن انتزاع عينيها عن وجهها. "رداءها بأكمله- لا أعرف بالضبط. لن يحبّه الحمقى!".

"لن يعترضوا عليها"، أجابتها مارا. "هذه الأنهار نقيّة لحد أنها ستجعل العالم بأكمله نقيًا".

كنت استغرقت في النوم بجوار النار، لكن لبعض الوقت كنت مستيقظًا ومنصتًا، والآن نهضت.

"حان وقت الانطلاق، سيد فين"، قالت مضيفتنا.

"أخبريني، أرجوكِ"، قلت لها، "ألا يوجد طريق نسلكه حتى نتجنّب قنوات وعرين الوحوش؟".

"يوجد طريق سهل عبر قاع النهر، سأريك إيّاه"، أجابتني؛ "لكنك عليك أن تمرّ مرّةً واحدة عبر الوحوش".

"أخشى على الأطفال"، قلت لها.

"لن يقترب منهم الخوف ثانية"، أجابتني.

غادرنا الكوخ. كانت البهائم تقف منتظرة حول الباب، وأودو على عنق واحدة من الاثنتين اللتين ستحملان الأميرة. امتطيث حصان لونا؛ جلبَت مارا جسدها، ومنحته إليّ بين ذراعيّ. عندما خرجت مُجدَّدًا بصحبة الأميرة، انطلقت صيحة ابتهاج من الأطفال: لم تَعُد ملتفعة! محدِّقين فيها، ومنتشين بجمالها، نسيَ الأطفال استلام الأميرة منها، لكنّ الفيلَين التقطا ليليث برفقٍ بخرطوميهما، واحد حول جذعها والآخر حول ركبتيها، وبمساعدة مارا، وضعاها بينهما بالطول.

"لماذا تريد الأميرة أن ترحل؟" سأل صبي صغير. "من الأفضل لها أن تبقى هنا!".

"تريد أن ترحل، ولا تريد أن ترحل: نحن نساعدها"، أجابت مارا. "لن تكون بخير هنا!".

"في ماذا تساعدينها؟" تابع سؤاله.

"في أن تذهب إلى حيث يمكنها الحصول على مزيد من المساعدة... المساعدة في فتح يدها، المغلقة منذ آلاف السنين".

"زمن طويل جدًا! إذن فقد تعلّمَت كيف تتعايش مع ذلك: لماذا يجب أن تفتحها الآن؟".

"لأنها مغلقة على شيء ليس ملكها".

"رجاءً، سيدة مارا، هل يمكن أن نتناول بعضًا من

خُبزك اليابس جدًا قبل أن نرحل؟" قالت لوقا.

ابتسمت مارا، وجلبت إليهم أربعة أرغفة وجرّة ماء كبيرة.

"سنأكل ونحن في الطريق"، قالوا، لكنهم احتسوا الماء مبتهجين.

"أعتقد"، لاحظ أحدهم، "أنه عصير الأفيال حتمًا! يجعلني قويًا جدًا!".

بدأنا مسيرتنا، مع سيدة الأحزان تسير برفقتنا، أكثر جمالًا من الشمس، والنَّمِرة البيضاء تتبعها. ظننتُ أنها كانت تنوي وضعنا على المسار الذي يقطع القنوات فحسب، لكنني سرعان ما اكتشفت أنها ستصاحبنا طوال الطريق. ثم وددتُ لو ترجّلتُ عن حصاني حتى تمتطيه هي، لكنها لم تكن لتسمح لي.

"ليس لديّ جمل أحمله"، قالت. "سأسير أنا والأطفال معًا".

كان أجمل الصباحات؛ الشمس متألّقة بأسطع ما يكون، والرياح تهبّ بأعذب حالاتها، لكن ذلك لم يمنح العزاء إلى الصحراء، ذلك أنها لم تكن تحوي أيّ ماء.

عبرنا القنوات بلا صعوبة، والأطفال يتقافزون في مرح حول مارا طوال الطريق، لكننا لم نصل إلى قمة الحافة على الجُحر الرهيب حتى شرعت الشمس

في فِعل اختفائها. ثم أمرتُ المخلوقات الصغيرة بركوب أفيالهم؛ ذلك أن القمر قد يتأخّر ولم أستطع منع نفسي من الخوف عليهم.

كانت سيدة الأحزان تتقدّم الطريق الآن بجواري؛ تتبعنا الأفيال، مع الاثنين اللذين يحملان الأميرة في المنتصف، والنّمِرة قد جُلِبت إلى المؤخرة، وما كدنا نصل إلى الحافة المرعبة، حتّى طلع القمر وأرانا الحوض الضحل يستلقي أمامنا في سكون. خطَت مارا داخله، ولا حركة واحدة أجابت وقعَ أقدامها أو حوافر حصاني، لكن في اللحظة التي لامسته فيها الأفيال التي تحمل الأميرة بدأت الأرض الصلبة ظاهريًا في الفوران والغليان، وتداعى المَحضن المرعب بأكمله في الغشِّ الجحيمي. ارتفعت الوحوش من كل الجوانب، كل عُنق متطاول عن آخره، وكل منقار ومخلب قد انفتح بالكامل، وكل فم فاغر على اتّساعه. رؤوسٌ طويلة بمناقير، وجوه بفكوك مريعة، أذرع عُقَدية لا نهائية، انطلَقت في إثر ليليث، التي كانت تستلقي في ألم الخوف، لا تجرؤ على تحريك إصبع. لكن هل رأت الأشياء البشعة الأطفال حتّى، أشكّ؛ بالتأكيد لم يلمس أيُّها أيّ طفل، ولا عضوٌ مُقزِّز واحد حاولَ تجاوز الحصن الحيّ الذي يحرس جسدها، حتّى يمسك بها.

"أيتها المخلوقات الصغيرة"، هتفت، "أبقوا أفيالكم قريبًا من الأميرة. كونوا شجعانًا، لن تجرؤ هذه الأشياء على لمسكم".

"ما ذلك الذي لن يجرؤ على لمسنا؟" لا نعرف أمام ماذا يجب أن نكون شجعانًا!" أجابوني، وأدركتُ حينها أنهم لم يكونوا واعين بالمسوخ من حولهم.

"لا تلقوا بالًا إذن"، أجبتهم؛ "ابقوا قريبين فحسب".

كانوا مُحِقِّين في عمائهم! عجزهم عن الرؤية كان أمانًا لهم. ما لا يستطيعوا رؤيته البتة، لا يمكنه إيذاؤهم.

لكن تلك الأشكال الشنيعة التي رأيتها تلك الليلة! كانت مارا على بعد خطوات أمامي عندما قفز رأس منفرد، بلا جسد، على الممر بيننا. جاءت النِّمِرة راكضة تحت الأفيال من الخلف، وأوشكت على اقتناص الرأس، لكن، مع انبعاجات مرعبة في ملامحه وعواء مفزع، التفَّ بشكل دائري سريع، ووثب مبتعدًا عنها، ودفن نفسه في الأرض. بالموت في ذراعيَّ يُعفيني من الخوف، نظرتُ إلى المسوخ جميعها لا مباليًا، رغم أنني أبدًا، بالتأكيد، لم أرَ في أيِّ مكان آخر حشدًا لعينًا كهذا!

كانت مارا ما تزال تمضي أمامي، والنِّمِرة تسير الآن على مقربة وراءها، ترتجف بين حين وآخر، ذلك أن البرد كان شديدًا، عندما بدأت الأرض أمامي على اليسار في الهيجان والارتفاع بغتةً، ثم جاءت موجة واطئة من الطين متهاديةً نحونا. ارتفعَت إلى أعلى مع اقترابها؛ ومنها خرج متراخيًا رأسٌ مربع بأنابيب لَحمية مَحلَّ الشَّعر، فاغرًا فمًا بيضاويًا هائلًا، وانقضَّ

عليّ. وثبت النَّمِرة، لكنها سقطت ذاهلةً وراءه.

تحت أقدامنا بالضبط تقريبًا، انبثق رأس أفعى هائلة، بتوهُّج زاخر مضيء في عينيها. اندفعت النَّمِرة مُجدّدًا لتهاجم، لكنها لم تجد شيئًا. على وحش ثالث انقضَّت بغضب مُماثِل، وإخفاق مُماثِل... ثم توقَّفت بتجهُّم عن الانتباه لقطيع الأشباح تمامًا. لكنني أدركتُ الخطر وأسرعتُ في العبور... خاصّةً وأن القمر كان يحمل نفسه بغرابة. حتّى في ارتفاعه بدا على استعداد للسقوط والتخلِّي عن المحاولة؛ ثم رأيته يغرق عائدًا مُتَّخذًا عَرضه الأصلي بالكامل. كان القوس الذي صنعه واطئًا جدًّا، والآن بدأ مجددًا في الهبوط بسرعة.

أوشكنا على عبور الحوض، عندما ارتفع، بيننا وبين حدّ الحوض، عنقٌ طويل، على قمته، كبُرعم زنبقة جحيمية، استقرَّ ما بدا أنه رأس جُثَّة، فمه نصف مفتوح، وبأسنان نابيّة كاملة. تابعتُ طريقي؛ تراجعَ، ثم انزاح جانبًا. خَطت السيدة على الأرض الثابتة، لكن النَّمِرة بيننا، مستثارة مجدّدًا، استدارت وانقضّت على خلق الرعب. ظللتُ حيث أنا لأتأكّد أن الأفيال، إلى جانب الأميرة والأطفال، قد وصلت بأمان إلى الضَّفَّة، ثم استدرتُ لمراقبة النَّمِرة. في تلك اللحظة هبط القمر، ولوهلة رأيتُ النَّمِرة والوحش- الثعبان ملتفَّين وسط سحابة من الغبار؛ ثم أخفاهما الظلام. مرتجفًا من الخوف، انعطف حصاني، وفي ثلاث وثبات استبق الأفيال.

فيما نلحق بالآخرين، سقط هلام عديم الشكل على الأميرة. ثم سقطت حمامة بيضاء على الفور فوق الهلام، طاعنةً إيّاه بمنقارها. أصدر صوت انسحاق وامتصاص، وسقط من على الأميرة. ثم سمعت صوت امرأة تتحدث مع مارا، وتعرّفت عليه على الفور.

"أخشى أنها ميّتة!" قالت مارا.

"سأرسل من يبحث عنها ويجدها"، أجابت "الأم". "لكن لماذا، يا مارا، تخشين عليها أو على أيّ أحد؟ لا يمكن للموت أن يؤذي تلك مَن تموت وهي تنجز العمل الموكل إليها".

"سأفتقدها بشدّة؛ إنها صالحة وحكيمة. مع ذلك، لم أكن لأطيل حياتها بعد ساعتها!".

"لقد هبطت إلى سافلين مع الأشرار؛ وستنهض مع الصالحين. سنراها قريبًا قبل أن ينقضي زمن طويل".

"أيّتها الأمّ"، قلت، رغم أنني لم أكن أراها، "جئنا إليكِ كثيرين، لكن معظمنا مخلوقات صغيرة. هل تستطيعين استقبالنا جميعًا؟".

"مرحَبٌ بكل واحد منكم"، أجابتني. "عاجلًا أم آجلًا سيكون الجميع مخلوقات صغيرة؛ ذلك أن الجميع عليه أن ينام في منزل! إنه مناسب لمن يخلد إلى النوم أن يكون شابًا وراغبًا! بل إن زوجي يجهّز الآن فراشًا من أجل ليليث. ليست شابّةً ولا

راغبة تمامًا، لكن من الحسن أنها جاءت".

لم أسمع المزيد. ارتحلت الأم والابنة معًا عبر الظلام. لكننا رأينا ضوءًا على البعد، ونحوه انطلقنا متعثّرين في المستنقع.

كان آدم يقف عند الباب، حاملًا شمعة لإرشادنا، ويتحدّث مع زوجته، التي وضعت، وراءه، الخبز والنبيذ على المائدة في الداخل.

"أطفالٌ سعداء"، سمعته يقول، "نظروا إلى وجه ابنتي! بالتأكيد هذا أجمل شيء في العالَم الكبير!".

عندما وصلنا إلى الباب، رحّب بنا بفرَح. وضع الشمعة على العتبة، ومتّجهًا نحو الأفيال، كان يريد أخذ الأميرة لحملها إلى الداخل؛ لكنها صدّته، ودفعت فيلَيها إلى الجانبين، ووقفت منتصبةً بينهما. سار الفيلين مبتعدين عنها، وتركاها معه ذلك الذي كان زوجها يومًا ما. كانت خجولةً من جمالها الذاوي، لكن ليست خنوعًا. وقف هو بترحيب في عينيه اللتين سطعتا عبر قسوتهما.

"انتظرناكِ طويلًا يا ليليث!" قال لها.

لم تمنحه أيّ إجابة.

خطت حواء وابنتها إلى الباب.

"العدو القاتل لأطفالي!" غمغمت حواء، وهي تقف مشرقةً بجمالها.

"أطفالك لم يعودوا في خطر"، قالت مارا؛ "لقد

ابتعَدَت عن الشر".

"لا تثقي فيها بسرعة يا مارا"، قالت أمُها؛ "طالما خدَعَت كثيرين!".

"لكنكِ ستفتحين لها مرآة "ناموس الحريَّة"((18)) يا أمي، حتى تدلف إليها، وتستقر فيها! لقد وافَقَت على فتح يديها واسترداد نفسها: ألن يعيدها "الأب" العظيم إلى الميراث مع أطفاله الآخرين؟".

"لا أعرفه!" غمغمت ليليث، بصوت الخوف والشك.

"لذلك أنت بائسة"، قال آدم.

"سأعود من حيث أتيت!" هتفت، واستدارت، معتصرةً يديها، لترحل.

"هذا في الحقيقة ما أتمنَّى أن تفعليه، حيث أتمنَّى أن تذهبي- "إليه" الذي منه جئتِ! في آلامك المضنية ألم تصرخي طلبًا لعونه؟".

"صرخت طلبًا للموت... للهروب "منه" ومنك!".

"الموت في طريقه الآن ليقودكِ إليه. لا تدركين الموت ولا الحياة التي تكمن في الموت! كلاهما نصيران لكِ. أنا ميِّت، وسأراكِ ميِّتة، ذلك أنني أحيا وأحيك. أنتِ مرهقة ومثقلة بالأحمال: ألا تشعرين بالخزي؟ ألم تصبح الكينونة التي أفسدتِها شيئًا شرِّيرًا في نهاية المطاف؟ ألن تعيشي بعد ذلك في خزيٍ أبدًا؟ وإذا تلاشيتِ حقًّا: هل ستُستعادين

و"تكونين"؟".

وقفت صامتةً برأس منحنٍ.

"أبي"، قالت مارا، "خذها بين ذراعيك، واحملها إلى فراشها. هناك ستفتح يدها، وستموت داخلةً الحياة".

"سأمشي"، قالت الأميرة.

استدار آدم وتقدّمها. سارت الأميرة بضعف في إثره إلى داخل الكوخ.

ثم جاءت حواء إلى حيث أجلس محتضنًا لونا. مدّت ذراعيها عاليًا، أخذتها منّي، ثم حملتها إلى الداخل. ترجّلتُ، وكذلك الأطفال. وقف الحصان والأفيال مرتعشةً. مسّدَت مارا وربّتت على كل واحد منها؛ جثمت الأفيال أرضًا واستغرقت في النوم. ثم قادتنا إلى الكوخ، وقدّمت للمخلوقات الصغيرة الخبز والنبيذ على المائدة. كان آدم وليليث يقفان معًا، لكن صامتَين كلاهما.

ظهَرَت حواء خارجةً من حجرة الموت، حيث كانت أودعت لونا، وعرضت الخبز والنبيذ على الأميرة.

"جمالك يذبحني! إنه الموت ما أتوق إليه، وليس الطعام!" قالت ليليث، ثم أولتها ظهرها.

"سيساعدك هذا الطعام على الموت"، أجابتها حوّاء.

لكن ليليث أبَت أن تتذوّقه حتّى.

"إذا لم تأكلي أو تشربي يا ليليث"، قال لها آدم، "فتعالي وانظر إلى الموضع الذي سترقدين فيه بسلام".

تقدَّمها عبر باب الموت، وتَبِعَته طائعةً. لكن عندما خَطَت قدمها على العتبة سحَبَتها للخلف، وضَغَطَت بيدها على صدرها، المطعون بالبرد السَّرمديّ.

سقطت فرقعة متوحّشة تزأر على السقف، وتلاشت في أنَّةٍ. وقَفَت كالشبح مرتعبةً.

"إنه هو!" قالت شفتاها عديمتا الصوت: قرأتْ حركتهما.

"مَن، أيَّتها الأميرة!" همستْ.

"الظِّلُّ العظيم"، غمغَمَت.

"لا يمكنه الدخول إلى هنا"، قال آدم. لا يمكنه إيذاء أحدٍ هنا. عليه أيضًا مُنح لي السلطان".

"هل الأطفال في المنزل؟" سألت ليليث، وفور أن نطقت الكلمة بدأ قلب حوّاء في خبّها.

"لم يجرؤ أبدًا على المساس بأيِّ طفل"، قالت. "وأبدًا لم تؤذي أنتِ طفلًا. ابنتكِ ذاتها لم تفعلي بها سوى أنك أرسلتِها إلى أعذب أشكال النوم، ذلك أنها كانت ميّتة بالفعل منذ زمن طويل عندما ذبحتِها. والآن سيكون الموت مانح المغفرة؛ ستنامان معًا".

"يا زوجتي"، قال آدم، "لنضع أولًا الأطفال في

الفِراش، حتى تطمئن على سلامتهم!".

عاد لجلبهم. وفور أن رحل، ركَعَت الأميرة أمام حوَّاء، واحتضنت ركبتيها وقالت:

"يا حوَّاء البديعة، أقنعي زوجك بقتلي: سينصت إليكِ! ذلك أنني لا أستطيع حقًّا فتح يدي".

"لا يمكنك أن تموتي دون فتحها. قتلك لن يفيدك"، أجابتها حوَّاء. "إلى ذلك، لن يستطيع قتلك! لا أحد يستطيع قتلك سوى "الظِّلّ"؛ وحتى عندما يقتلك لن تعرفي أنك ميِّتة، لكن ستعيشين حسبَ إرادته، وستظنين أنك تُنفذين إرادتك".

"أريني إذن الطريق إلى قبري؛ أنا في غاية الإرهاق على أن أحيا لحظة أخرى واحدة. عليَّ أن أذهب إلى "الظِّلّ"... ومع ذلك لا أريد!".

لم تفهم، لم تستطع الفهم!

جاهَدَت لتنهض، لكنها سقطت عند قدمَي حوَّاء. رفعتها الأم، وحملتها إلى الداخل.

تبعث آدم ومارا والأطفال إلى داخل حجرة الموت. مررنا بحوَّاء في ذراعيها ليليث، وتابعنا طريقنا.

"لن تذهبي إلى "الظلّ""، سمعتُ حوَّاء تقول، بينما نمرّ بهما. "بل إن رأسه تحت عقِبيَ الآن!".

ارتعش الضوء الخافت في يد آدم على الوجوه النائمة، وبينما يمضي في طريقه، غلّفهم الظلام. الهواء نفسه بدا ميِّتًا: هل كان ذلك لأن أيًّا من

النائمين لا يتنفّسه؟ كان النوم الأكثر عُمقًا يملأ المكان المتّسع. بدا وكأن أحدًا لم يستيقظ منذ كنتُ هنا آخر مرّة؛ ذلك أن الأشكال البشرية التي لاحظتها حينها ما تزال ساكنة. كان أبي ما يزال حيث تركته، باستثناء أنه بدا أكثر قُربًا من حالة السكينة المطلقة. بدت المرأة بجواره أكثر شبابًا.

الظلام، البرد، الصمت، الهواء الساكن، وجوه الأموات البهيّة، كل ذلك جعلَ قلوب الأطفال تخفق برقّة، لكن ألسنتهم الصغيرة كانت تتحدث... بأصوات هامسة واطئة.

"يا له من مكان عجيب للنوم فيه!" قال أحدهم، "أودُّ لو كنت في عُشّي!". "البرد قارص هنا!" قال آخر.

"نعم، هو كذلك"، قال مُضيّفنا؛ "لكنكم لن تشعروا بالبرد في نومكم".

"أين أعشاشنا؟" سأل أكثر من طفل، متطلّعين من حولهم دون أن يروا فراشًا شاغرًا.

"ابحثوا عن مواضع، وناموا حيث تختارون"، أجابهم آدم.

على الفور انتشروا، متقدّمين بجرأة إلى ما وراء الضوء، لكن ما زلنا نسمع أصواتهم الرقيقة، وكان من الواضح أنهم يرون مواضع لا أستطيع رؤيتها.

"أره"، هتف أحدهم، "توجد هنا سيدة في غاية

الجمال! هل يمكن أن أنام بجوارها؟ سأتسلّل بهدوء إلى الفراش ولن أوقظها".

"نعم، يمكنك"، أجابه صوت حوّاء وراءنا، وتقدّمنا إلى الفراش فيما الطفل الصغير ينسلُّ ببطء وخِفّة تحت الملاءة. وضع رأسه بجوار رأس السيدة، وتطلّع إلينا، ثم سكن. انغلق جفناه؛ استغرق في النوم.

تابَعنا تقدُّمَنا قليلًا، وهناك كان آخر يتسلّق فراش امرأة.

"أمّي! أمّي!" كان يهتف، منحنيًا عليها، وجهه ملتصقًا بوجهها. "إنها في غاية البرودة ولا يمكنها التحدُّث"، قال، متطلعًا إلينا؛ "لكنني سأجعلها دافئة بسرعة!".

تمدّد على الفراش، والتصق بها، واضعًا ذراعه الصغير عليها. في لحظة استغرق في النوم بدوره، مبتسمًا برضاء مطلق.

صادفنا مخلوق صغير ثالث؛ كانت لوفا، تقف على أطراف أصابعها، وتنحني على حافة فِراش.

"أمّي الحقيقية لم تقبّلني"، قالت بعذوبة: "هل تقبلينني أنتِ؟".

لم تتلقَ إجابة، فرفعت بصرها إلى حوّاء. رفعتها الأمّ الكبيرة إلى الفراش، وانسلّت على الفور تحت الغطاء الجليدي.

كان كل واحد من المخلوقات الصغيرة الآن، باستثناء ثلاثة من الفتيان، قد وجدَ زميل فراش غير معترض، واستلقى خامدًا، أبيض، بجوار امرأة خامدة، بيضاء. كان اليتامى الصغار قد تبنَّوا أمَّهاتٍ! بينما اختارت فتاة ضئيلة أبًا للنوم بجواره، وكان ذلك أبي ذاته. استلقى أحد الفتيان بجوار المرأة الوقورة ذات اليد المجروحة الملتئمة ببطء. على الفراش الأوسط من الثلاثة التي لم تُشغل حتَّى الآن، استلقت لونا.

وضَعت حوَّاء ليليث بجواره. أشار آدم إلى الفراش الشاغر على يمين لونا، وقال:

"هناك، يا ليليث، الفراش الذي هيأته لكِ!".

ألقت نظرة خاطفة على ابنتها المستلقية أمامها كتمثال منحوت من مرمر نصف شفَّاف، وارتجفت من رأسها إلى أخمص قدميها. "يا لها من برودة!" غمغَمت.

"سريعًا ستجدين العزاء في البرودة"، أجابها آدم.

"ما أسهل بذل الوعود إلى المحتضرين!" قالت.

"لكنني أعرف هذا: نمتُ أنا أيضًا. أنا ميِّت!".

"أصدِّق أنك ميِّت منذ زمن طويل؛ لكنني أراك حيًا!".

"أكثر حياة مما تدركين أو تستطيعين إدراكه. كنت حيًا بالكاد عندما عرفتني لأول مرة. الآن وقد نِمتُ،

ثم استيقظت؛ فأنا ميِّت، وحيٌّ حقًّا!".

"أخشى أن تلك الطفلة"، قالت، مشيرة إلى لونا: "ستنهض وترعبني!".

"إنها تحلم بحُبِّك".

"لكن "الظلّ"!" قالت. متأوهةً؛ "أخاف "الظِّلّ"! سيغضب منِّي!".

"ذلك التي تندفع خيول السماء وتشبُّ عند رؤيته، لن يجرؤ على إزعاج حلم واحد في هذه الحجرة الساكنة!".

"سأحلم إذن؟".

"ستحلمين".

"بأيَّة أحلام؟".

"هذا ما لا أعرفه، لكنها أحلام لا يستطيع "هو" الدخول إلى أيٍّ منها. عندما يأتي "الظِّلّ" إلى هنا، سيستلقي وينام أيضًا. ستحين ساعته، ويدرك أنها ستحين".

"إلى متى سأنام؟".

"أنتِ وهو ستكونان آخر مَن يستيقظ في صباح الكون".

تمدَّدت الأميرة، وسحبت الملاءة عليها، استقامت في تمدُّدها، واستقرّت ساكنة بعينين مفتوحتين.

استدار آدم إلى ابنته. اقتربت منه.

"ليليث"، قالت مارا، "لن تنامي، حتّى لو استلقيتِ لألف سنة، ما لم تفتحي يدكِ، وتتنازلي عن ما لا يحقُّ لك منحه أو الاحتفاظ به".

"لا أستطيع"، أجابتها. "أتمنّى لو أستطيع، ويسعدني، ذلك أنني مُنهَكَة، وظلال الموت تحتشد من حولي".

"ستحتشد وتحتشد، لكنها لن تستطيع احتواءك ما دامت يدك غير مفتوحة. قد تظنين أنكِ ميّتة، لكنه سيكون حلمًا فحسب؛ قد تظنّين أنكِ استيقظتِ، لكن سيكون أيضًا حُلمًا لا غير. افتحي يدك، وستنامين بحقٍّ... ثم تستيقظين بحقٍّ".

"أحاول جاهدةً، لكن أصابعي غدت كُتلَةً واحدة منغرسةً في راحتي".

"أرجوكِ أن تبذلي كل القوة في إرادتك. من أجل حبّ الحياة، استجمعي قواكِ واكسري ما يربط أصابعك!".

"جاهدتُ بلا طائل؛ لم يَعُد في وسعي المزيد. أنا منهكة جدًا، والنوم يستلقي ثقيلًا على جفنيّ".

"في اللحظة التي تفتحين فيها يدك، ستنامين. افتحيها، وضعي نهايةً لكل ذلك".

ارتفعت مسحة ملوّنة على الوجه الشاحب الذي يشبه الزقّ؛ ارتعشت اليد المثنيّة بجهدٍ متألم. تناولتها مارا، وسعت لمساعدتها.

"انتظري يا مارا!" هتف أبوها. "هناك خطرا".

أدارت الأميرة عينيها إلى حوَّاء، متوسّلةً.

"يوجد سيفٌ رأيته ذات مرّة في يدَي زوجك"، غمغمَت. "فرَرتُ هاربةً عندما رأيته. سمعتُ من يحمله يقول إنه يشطر كل ما هو ليس واحدًا وغير قابل للقسمة!".

"لديَّ ذلك السيف"، قال آدم. "منحني إيّاه الملاك عندما غادرته عند البوابة".

"أحضره يا آدم"، ناشدته ليليث، "واقطع هذه اليد حتى أستطيع النوم".

"سأفعل"، أجابها.

ناولَ الشمعة لحوّاء، وانصرف. أغلقت الأميرة عينيها.

بعد بضع دقائق عاد آدم بسلاحٍ قديمٍ في يده. بدا الغمد كجلدٍ اسودّ لونه مع تتابع السنين، لكن المقبض ما يزال يلمع كذهبٍ لا يمكنُ لشيءٍ إفساده. أخرج السيف من غمده. سطعَ كرايةٍ شماليةٍ زرقاء شاحبة، على وقع ضوئها سرعان ما فتحت الأميرة عينيها. رأت السيف، ارتجَفت، ومدّت يدها. تناولها آدم. توهّج السيف مرّةً واحدة، انبجست دفقةٌ صغيرة من الدماء، ثم وضع اليد المقطوعة في حِجر مارا. أطلقت ليليث أنّةً واحدة، ثم غرقت في النوم سريعا. غطّت مارا الذراع بالملاءة، واستدار الثلاثة

مبتعدين.

"ألن تضمِّد الجُرح؟" قلت له.

"جُرح من ذلك السيف"، أجابني آدم، "لا يحتاج إلى ضمادات. إنه شفاء وليس أذى".

"المسكينة!" قلتُ، "ستستيقظ بيدٍ واحدة فقط!".

"حيث يتدلّى التّشوُّه الميت"، أجابتني مارا، "تنمو اليد الحقيقية، الجميلة بالفعل".

سمعنا صوتًا طفوليًا وراءنا، واستدرنا مُجدَّدًا. كانت الشمعة في يد حوّاء تسطع على وجه ليليث، والوجوه الثلاثة للمخلوقات الصغيرة الثلاثة، متجمِّعةً على الجانب الآخر من فراشها. "كم أصبحت جميلة!" قال أحدهم.

"الأميرة المسكينة!" قال آخر؛ "سأنام بجوارها. لن تلدغني بعد الآن!".

فيما يتحدّث تسلّق صاعدًا فِراشها، واستغرق في النوم على الفور. غطّته حوّاء بالملاءة.

"سأستلقي على جانبها الآخر"، قال الثالث. "سيكون لديها اثنان لتقبيلها عندما تستيقظ!".

"ثم تتركونني وحيدًا" قال الأول بحزن.

"سأضعك في الفراش"، قالت حوّاء.

ناولت الشمعة إلى زوجها، وقادت الطفل مبتعدين.

استدرنا ثانية للعودة إلى الكوخ. كنتُ في غاية

الحزن؛ ذلك أن أحدًا لم يعرض عليَّ مكانًا في منزل الموتى. انضمَّت إلينا حوَّاء فيما نمضي، وتابعتُ سيري في المقدمة مع زوجها. كانت مارا بجواري تحمل يد ليليث في ثنيَّات ردائها.

"آها، لقد وجدتموها!" سمعنا حوَّاء تقول ذلك بينما نخطو إلى داخل الكوخ.

انتصب الباب مفتوحًا؛ اخترقه خرطوما فيلَين منبثقَين من الليل خارجه.

"أرسلتهم بالمصباح"، تابَعت حديثها مع زوجها، "للبحث عن نَمِرة مارا: جلبوها لتوِّهم".

تبعتُ آدم إلى الباب، وتناولنا معًا المخلوق الأبيض من الفيلَين، وحملناها إلى الحجرة التي كنَّا غادرناها، المرأتان تتقدَّماننا، حوَّاء بالضوء، ومارا ما تزال تحمل اليد. هناك وضعنا الجَمال الوحشي أمام قدمَي الأميرة، قدماه الأماميتان ذات المخالب متطاولتان، ورأسه جاثم بينهما.

@ART_OF_BOOK

(41)

أنا مُرسَل

ثم عدتُ وقلت لحوّاء:

"أمّاه، يوجد فِراش شاغر بجوار لونا: أعلم أنني لا أستحقه، لكن ألا يمكن أن أنام هذه الليلة في حجرتك مع موتاي؟ هل تعذرين جُبني وثقتي بنفسي، وتَقبلينني؟ أتخلّى عنّي. سئمتُ من نفسي، وأودُ بكل سرور لو أنام النوم!".

"الفراش بجوار لونا هو الفراش المعَدُّ لك بالفعل"، أجابتني؛ "لكن شيئًا ينتظر إنجازه قبل أن تنام".

"أنا مستعدٌ"، أجبتها.

"لماذا تظنُّ أنه بمقدورك إنجازه؟" سألتني بابتسامة.

"لأنكِ تطلبين ذلك"، أجبتها. "ما هو؟".

استدارت إلى آدم:

"هل سامحته يا زوجي؟".

"من قلبي".

"إذن فأخبره بما يجب عليه فعله".

استدار آدم إلى ابنته.

"أعطني تلك اليد يا مارا، يا طفلتي".

مدّتها إليه في ثنيّة ردائها. أخذها برفق.

"لنذهب إلى الكوخ"، قال لي؛ "هناك سأرشدك إلى ما ينبغي عليك فعله".

بينما نمضي، ارتفعت مجدّدًا هَبّة عاصفة مفاجئة، متداخلةً مع خفقان هائل على السقف، لكنها تلاشت كما من قبل، بأنّةٍ عميقة.

عندما انغلق باب حجرة الموت وراءنا، جلس آدم، ووقفت أمامه.

"تتذكّر"، قال لي، "كيف أنك، بعد مغادرتك منزل ابنتي، صادفت صخرةً جافّة، تحمل آثار شلّال قديم؛ تسلّقت تلك الصخرة، ووجدت صحراء رملية: اذهب إلى تلك الصخرة الآن، ومن قمّتها انطَلِقْ عميقًا إلى الصحراء. لكن لا تقطع خطوات كثيرة قبل أن تستلقي أرضًا، وتنصت برأسك على الرمال. إذا سمعتَ خرير مياه تحت الرمال، امضِ أبعد قليلًا، وأنصِت مجدّدًا. إذا سمعت الصوت أيضًا، فأنت في الاتجاه الصحيح. بعد كل بضعة ياردات عليك أن تتوقّف، وتستلقي أرضًا، وتنصت. إذا لم تسمع صوت المياه في أي مرّة بهذه الطريقة، فقد حدتَ عن الطريق، وعليك أن تنصت في كل اتّجاه حتّى تسمعه ثانيةً. التزم بالصوت، واحرص على ألّا تطأ آثار خطواتك؛ سرعان ما ستسمعه بشكل أعلى، والصوت المتزايد سيرشدك إلى حيث هو أشدّ ما يكون: هذه هي البقعة التي تنشدها. احفر هناك

بالمجرفة التي سأعطيك إيَّاها، واحفر حتى تصل إلى طبقة رطبة من الرمال: فيها ضَعْ اليد، وغطِّها حتى مستوى الصحراء، ثم عُدْ إلى البيت. لكن انتبِه جيدًا، واحمل اليد بحذر. أبدًا لا تضعها أرضًا في أيِّ مكانٍ مهما بدا آمِنًا. لا تَدَعْ شيئًا يلامسها. لا تتوقَّف ولا تنحرف لتتجنَّب أي شيء يعيق طريقك. أبدًا لا تَنظُر وراءك. لا تتحدَّث مع أحد. لا تُجِب أحدًا. انطَلِقْ مباشرةً إلى غايتك. لم ينقشع الظَّلامُ بَعدُ، والصباح ما يزال بعيدًا، لكن عليك أن تنطلق على الفور".

أعطاني اليد، وجلب لي مجرفة.

"هذه مجرفتي للبَستَنَة"، قال لي؛ "بها أخرجتُ أشياء جميلة كثيرة إلى الشمس".

أخذتها، وانطلقت في قلب الليل.

كان البرد قارصًا والظلام حالكًا. ارتعبتُ من فكرة أن أسقط؛ ذلك أن الطريق الذي اضطررت لسلكه كان وعرًا حتّى في وضح النهار! لكنني لم أكُن شرعتُ في مَهمَّتي بعد، وفي اللحظة التي بدأت فيها، أدركت أنه لم تَعُد لي أيُّ فرصة للتراجع: كان نور شاحب ينبثق من الأرض عند كل خطوة، ويريني خطوتي القادمة. عبر شجيرات الخلنج والصخور الواطئة سرت دون أتعثّر ولا حتى مرة واحدة. وجدت الجحر الرهيب في غاية السكون، ولا رفرفة واحدة ارتفعت، ولا رأس واحد ظهر فيما أعبره.

طلع قمر، وأراني الطريق السهل: مع اقتراب

الصباح كنتُ تقريبًا على القنوات الجافة للفرع الأول من قاع النهر، وليس بعيدًا، تصوَّرتُ، عن كوخ مارا.

كان القمر واطئًا جدًا، والشمس لم تطلع بعدُ، عندما رأيت أمامي على الممشى، الضَّيِّق هنا بفعل الصخور، شكلًا بشريًا مُغطًّى من رأسه إلى قدمه بحجاب من ضباب مضاء بنور القمر. تابعت سيري وكأنني لم أرَ شيئًا. أزاح الشكل البشري حجابه.

"هل نسيتَني حقًّا؟" قالت الأميرة- أو ما بدا أنها هي.

لم أتوقَّف ولم أجب، تابعتُ طريقي قُدمًا.

"تنوي إذن أن تتركني في ذلك القبر الفظيع! ألم تفهم بعدُ أنه حيث أحبُّ أكون، أوجد على الفور؟ خذ يدي: أنا حيَّةٌ مثلك!".

كنت على وشك أن أقول "أعطيني يَدَكِ اليسرى"، لكنني فكَّرت قليلًا، وأمسكت لساني، وتقدَّمتُ بثبات.

"أعطني يدي"، صرَخت بغتةً، "وإلَّا سأمزِّقُك إلى شظايا: أنت ملكي!".

انقضَّت عليّ. ارتجفتُ، لكنني لم أترنَّح. لم يمسَّني شيء، ولم أعُد أراها.

بوقع خطواتٍ منتظمة على طول الممر، محتشدة حبره، ظهرت جماعة من رجال مُسلّحين. سِرتُ بينهم... لم أتبيّن إن كانوا أفسحوا لي الطريق

أم أنهم مجرد أشياء بلا جسد. لكنهم استداروا وتبعوني، سمعتُ وشعرت بزحفهم عند قدميَّ، لكنني لم أنظر ورائي، سرعان ما تلاشى صوت خطواتهم وقعقعة دروعهم.

على مسافة أبعد بخطوات قليلة، والقمر الآن أكثر التصاقًا بالأفق والطريق في الظل العميق، لمحتُ، جالسةً حيث يضيق الممر لحد أنني لا أستطيع تجاوزه، امرأةً بوجهٍ ملتفع.

"آها"، قالت، "لقد جئتَ أخيرًا! أنتظرك هنا منذ ساعة وأكثر! لقد فعلت حسنًا! انتهت مُحاكَمَتُك! أرسلني أبي للقائك حتى تستريح قليلًا في الطريق. أعطني ما تحمله، وأرِخ رأسك في حِجري؛ سأعتني جيدًا بكليكما حتى تشرق الشمس. لستُ علقمًا دائمًا، ليس مع كل الرجال!".

كانت كلماتها مُترعَةً بالإغواء؛ ذلك أنني كنتُ في غاية الإرهاق. لكن ماذا لو كان لي، عبر الطاعة العمياء لخطاب القيادة وغياب البصيرة النقية، أن أدهس بقدميَّ سيدة الأحزان ذاتها! تداعى قلبي من الفكرة، ثم خفقَ كما لو كان يتوق لشقِّ صدري.

رغم ذلك تصلَّبَت إرادتي في مواجهة قلبي، ولم تتراخ خطوتي. أمسكتُ بلساني بين أسناني خشية أن أجيبها عن غير قصد، وتابعتُ طريقي. إذا كان آدم قد أرسلها، فلا يمكن أن ينزعج أنني لم أبالِ بها! ولا كان لسيدة الأحزان أن تحبّني بشكلٍ أقلّ لو

أخفَقت في تحييدي عن طريقي.

لكن عندما أوشكت على الوصول إلى الشبح، جذَبت الغطاء من على وجهها: عظيمًا بحقٍّ كان جمالها، لكن تلك لم تكن عيئني مارا! لا يمكن لكذبة أن تحاكيهما طويلًا! تقدّمتُ كما لو أن الشيء لم يكن هناك، ووجَدَت قدماي بقعةً خاوية.

كنتُ وصلتُ بالكاد إلى الجانب الآخر عندما حجبَ ظلٌّ طريقي... أعتقد أنه كان "الظِّلّ". بدا أنه يرتدي خوذةً على رأسه، لكن فيما أقترب منه أدركت أن الرأس ذاته هو ما رأيته... في غاية التَّشوُّه لحد أنه ليس بمقدوره سوى أن يحمل تشابُهًا ضبابيًا بالبشر. صعقتني ريحٌ باردة، رطبةٌ ومُغثية، شنيعة كهواء منزلٍ لرُفَات الموتى؛ غادر الثبات مفاصلي، وارتعَشَت أطرافي كما لو كانت تتساقط في ركام عاجز. ظننتُ حينها أنني عبرت خلاله، لكنني الآن أعرف أنه عبر خِلالي: ذلك أنه لوهلة كنتُ واحدًا من الملعونين. ثم هبَّت رياح خفيفة وكأنها أول أنفاس الربيع الرضيع ترسل إليّ التحيّة، وأمامي ظهرَ الغسق.

قادني طريقي الآن عبوزا بباب كوخ مارا. كان مفتوحًا على اتساعه، وعلى المائدة لمحث رغيف خبز وإناء ماء. وفي أو حول الكوخ لم يكن هناك حواة ولا نحيب.

وصلتُ إلى المنحدر الذي يشهد بوجود النهر

المحتجب. تسلَّقتُ وجهه البالي، وانطلقت إلى داخل الصحراء. هناك أخيرًا، بعد كثيرٍ من الإنصات هنا وهناك، حددتُ البقعة حيث صوت الماء المختفي أعلى ما يكون، علَّقتُ يد ليليث حول عنقي وبدأت في الحفر. كان جَهْدًا طويلًا؛ ذلك أنني اضطررتُ للحفر كثيرًا بسبب رخاوة الرمال، لكن في النهاية أخرجت كمية كبيرة من الرمال الرطبة. طوَّحتُ بأداة حفَّار القبور على الحافَّة، ووضعت اليد. كان بعض الماء يتسرَّب بالفعل من تحت أصابعها. وثبت خارجًا من الحفرة، وأسرعت لردم القبر. بعدها، مُنهكًا بشدَّة، سقطتُ بجواره، واستغرقت في النوم.

(42)

أنامُ النّوم

عندما استيقظت، كان الأرض من حولي رطبةً، وآثار خطواتي من القبر تمتلئ برمال متحرّكة متزايدة. في مساره القديم كان النهر ينتفخ، وبدأت الرمال في التدفُّق نحو قرار النهر. سريعًا ستزمجر نزولًا على المنحدر، ومنقسمةً في سقوطها، ستندفع على طول أحد الفرعين لتحجب مجدَّدًا وادي البساتين، وعبر الفرع الآخر لتغرق ربما حشد الوحوش، ومن بينهما إلى الغابة الشريرة. انطلقتُ على الفور في طريق عودتي إلى هؤلاء الذين أرسلوني.

عندما وصلت إلى المنحدر، اتّخذتُ طريقي بين الفرعين؛ لأنه بذلك سأمرُّ ثانيةً بكوخ مارا، خشية أن تكون قد عادت: كنت أتوق لرؤيتها لمرَّةٍ أخيرة قبل أن أنام، والآن أدرك أين ينبغي أن أقطع القنوات، حتّى لو غمرني النهر وأغرقهما. لكن عندما وصلت إليه، كان الباب مفتوحًا ما يزال، والخبز والماء ما يزالان على المائدة، والصمت العميق في داخله وحوله. توقّفتُ وناديتُ بصوتٍ عالٍ عند الباب، لكن لم يُجِب أيُّ صوتٍ؛ فتابعت طريقي.

أبعد قليلًا، وصلت إلى مكان يجلس فيه رَجُلٌ رماديّ الشعر على الرمال، ينتحب.

"ما الذي يُبكيك يا سيدي؟" سألته. "هل أنت منبوذ؟".

"أبكي"، أجابني، "لأنهم لا يسمحون لي بالموت. كنتُ في منزل الموت، ورفَضَتني سيدته، رغم أعوامي الطويلة. توسّط من أجلي يا سيدي، إن كنت تعرفها، أرجوك".

"لا يا سيدي"، أجبته، "هذا ما لا أستطيعه؛ ذلك أنها لا ترفض أحدًا يُسمح لها باستقباله".

"كيف تعرف هذا عنها؟ لم تطلب الموت أبدًا! أنت صغير جدًا على أن تتوق إليه!".

"أخشى أن كلماتك قد تعني، أنه إذا أصبحت شابًا مجدَّدًا، فلن تتوق إلى الموت أنت كذلك".

"حقًّا، سيدي الشاب، لن أتوق إليه! وأنا على يقين أنك عاجز عن ذلك أيضًا".

"ربما لا أكون عجوزًا ما يكفي لأتوق للموت، لكنني شابٌ بما يكفي لأتوق للحياة بحق! لذلك أنا ذاهب الآن لمعرفة إذا كانت ستَقبَلُني في نهاية الأمر. تتمنّى أن تموت لأنك لم تَعُد حريصًا على الحياة: لن تفتح لك بابها؛ ذلك أنه لا يمكن لأحد أن يموت ما لم يكن توّاقًا لأن يحيا".

"لا يناسب شبابك أن تسخر من رجل عجوز بلا أصدقاء. أرجوك. توقف عن ألغازك!".

"ألم تقل لي "الأم" إذن شيئًا من هذا القبيل؟".

"في الواقع أعتقد أنها قالت، لكنني لم أهتمَّ كثيرًا بمبزّراتها".

"إذن يا سيدي"، أجبته، "من الواضح جدًا أنك لم تتعلّم بعد كيف تموت، وأنا حزين من كل قلبي من أجلك. هكذا كنتُ ذات يومٍ لولا سيدة الأحزان. أنا شابٌ فعلًا، لكنني بكيتُ لأعوام كثيرة. اعذرني، لذلك، إذا كان لي أن أعرض عليك النصيحة: اذهب إلى سيدة الأحزان، "وخُذْ بكلتا يدَيكَ"((19)) ما تمنحك إيّاه. هناك يقع كوخها. ليست فيه الآن، لكن بابها ينتصب مفتوحًا، وهناك خبز وماء على مائدته. اذهب إليه. اجلِس. تناوَلْ الخبز. اشرَبْ الماء، وانتظر هناك حتّى تظهر. ثم اطلب منها المشورة؛ ذلك أنها صادقة، وحكمتها عظيمة".

انغمس في البكاء ثانيةً، وتركته وهو يبكي. أخشى أنه لم يهتم بما قلته. لكن مارا ستجده!

كانت الشمس قد غابت، والقمر لم يطلع، عندما وصلت إلى مهجع الوحوش، لكنه كان ساكنًا كحجَر عندما عبرته. ثم سمعتُ ضجيج مياه كثيرة، وصرخة مدوّية ورائي، لكنني لم ألتفت.

قبل أن أصل إلى منزل الموت، كان البرد قارصًا والظلام شديدًا، وكان البرد والظلام واحدًا، تسلّلا إلى عظامي معًا. لكن شمعة حوّاء، تسطع من النافذة، أرشدتني، وأبقت الجليد والظُّلمة بعيدًا عن قلبي.

كان الباب مفتوحًا، والكوخ يستلقي خاويًا. جلستُ تعِبًا ومُغتمًّا.

لكن بينما أنا جالس، تَنامى داخلي شعورٌ بالوحدة لم يراودني مثله قطُّ طوال تجوالاتي. الآلاف كانوا بالقرب منّي، لكن ولا واحد معي! حقًّا، أنا مَن كنتُ ميْتًا، وليسوا هم، لكننا، سواء بحياتهم أو بموتي، قد حِيلَ بيني وبينهم! كانوا أحياءً، لكنني لم أكن ميْتًا بما يكفي لأدرك أنهم أحياء: عاجلًا أم آجلًا سيحلُّ الشك. كانوا، في أفضل الأحوال، بعيدين عنّي، وليس لديّ أيُّ نصير ليدفئني بجانبهم!

أبدًا لم أعرف من قبل، ولم أتخيَّل بحقٍّ وَحشَةً كهذه! سُدًى ألقيتُ بنفسي في المَهمَّة، قائلًا إن العُزلَة ليست سوى وهمًا: كنتُ مستيقظًا، وكانوا نائمين... هذا كل ما في الأمر! أنهم يستلقون فحسب ساكنين، لا ينطقون! كانوا معي الآن، وقريبًا، قريبًا، حتمًا سأكون معهم!

أسقطتُ مجرَفَة آدم العتيقة، وبدا صوْتُ سقوطها المكتوم على الأرض الحجرية وكأنه ارتداد صدى من الحجرة في الخلف: استولى عليَّ رعبٌ طفولي، جلست وحدَّقت في الباب- التابوت. لكن الأب آدم، والأم حوّاء، والشقيقة مارا قريبًا سيأتون إليّ، وحينها، مرحبًا بالعالم البارد والرفقاء ذوي اللون الأبيض! نسيتُ مخاوفي، عشتُ قليلًا، وأحببتُ موتاي.

شيءٌ كان يتحرَّك في حجرة الأموات! منها جاء ما يشبه صوتًا خافتًا، نائيًا، مع ذلك لم يكن ما أعرفه كصوت. تواثَبَت روحي إلى أذنيَّ. هل كان مجرَّد ارتجافةٍ للهواء الميِّت، شاحبة للغاية على أن تُسمع، لكنه، الشيء، يرتعش بكل المعاني الروحانية الممكنة؟ أدركتُ ماهيَّته دون سماعه، دون الشعور به!

كان الشيء قادمًا! اقتربَ أكثر! في قلب هجراني استيقظ أملُ طفل. وصلت الارتجافة الصامتة إلى الباب- التابوت، أصبَحَت صوتًا، وانقضَّت على أذنيَّ.

بدأ الباب في التحرُّك، بصريرٍ واطئ خافت من مفاصله. كان ينفتح! توقَّفتُ عن الإنصات، وحدَّقتُ مترقِّبًا.

انفتح قليلًا، وأطلَّ وجهٌ من الفرجة. كان وجه لونا. عيناه مغلقتان، لكن الوجه نفسه كان قُبَالتي، وبدا أن يراني. كان أبيضَ كوجه حوَّاء، أبيض كوجه مارا، لكنه لا يسطع كوجهيهما. تحدَّثَت، وكان صوتها كريح ليلية ناعسة في العشب.

"هل أنت قادم أيُّها الملك؟" سألني الوجه. "لا يمكنني الرقاد حتَّى تكون معي، منزلقًا عبر النهر إلى البحر العظيم، وأرض الأحلام البديعة. النوم يمتلئ بالأشياء الجميلة: تعال وانظر إليها".

"أوه، يا عزيزتي!" هتفت. "لو كنتُ أعرف! ظننتُ أنك ميتة!".

استلقت على صدري، باردةً كجليدٍ مرمري. طوَّحت بذراعيها، شديدَتي البياض، بضعفٍ حولي، وتنهَّدت:

"غد بي إلى فراشي أيُّها الملك. أتوق إلى النوم".

حملتها إلى حجرة الموت، ممسكًا بها بشدَّة خشية أن تنحلَّ من ذراعيَّ. متغافلًا عمَّا أراه حولي، حملتها مباشرةً إلى فراشها.

"ضعني على الفراش"، قالت، "ودثِّرني لتحميني من الهواء الدافئ؛ إنه يؤلمني... قليلًا. فراشك هناك، بجوار فراشي. سأراك عندما أستيقظ".

استغرَقَت في النوم من فورها. ألقيت بنفسي على فراشي، مُنعَّمًا كما لم يكن أيّ رَجُلٍ في عشيَّة زفافه.

"تعال، أيُّها البرد العذب"، قلت، "واسكن قلبي بسرعة".

لكن بدلًا منه، ظهرَ وميض ضوء في الحجرة، ورأيت وجه آدم يقترب. لم يكن يحمل شمعةً، ومع ذلك رأيته. على جانب فراش لونا، تطلَّع إليها بابتسامة متسائلة، ثم ألقى عليَّ التحيَّة إلى الجانب الآخر.

"كنَّا على قمة التلِّ لنتسمَّع المياه في مجراها"، قال. "ستصل إلى عرين الوحوش الليلة. لكن لماذا لم تنتظر عودتنا؟".

"طفلتي لم تستطع النوم"، أجبته.

"إنها تغط في النوم!".

"نعم، الآن!" قلت، "لكنها كانت مستيقظة عندما وضعتها".

"كانت نائمة طوال الوقت!" أصرّ. "ربما كانت تحلم بك، وجاءت إليك؟".

"نعم".

"ألم ترَ أن عينيها كانتا مغلقَتَيْن؟".

"الآن أعتقد ذلك، رأيتهما حقًّا".

"لو كنت نظرت إليهما قبل أن تضعها في الفراش، لرأيت أنها كانت نائمة!".

"كنتُ لأجد هذا فظيعًا!".

"كنت ستكتشف فحسب أنها لم تَعُد بين ذراعيك".

"وهذا أسوأ!".

"ربما إذا تخيّلته؛ لكن أن تراه لم يكن ليزعجك".

"أبي العزيز"، قلت، "لماذا لستُ نائمًا؟ اعتقدت أنني سأنام على الفور كالمخلوقات الصغيرة في اللحظة التي أضع فيها رأسي على الوسادة!".

"ساعتك لم تَجِن بعدُ. عليك أن تتناول طعامًا قبل أن تنام".

"على أيّ حال، ليس لي أن أستلقي على الفراش دون إذنك؛ ذلك أنني لا أستطيع النوم دون مساعدتك! وإلا سأستيقظ على الفور!".

لكنني وجدتُ وزني أثقل ممَّا يمكنني تحريكه.

"لا حاجة لذلك: سنخدمك هنا"، أجابني. "لا تشعر بالبرد، أليس كذلك؟".

"ليس بردًا شديدًا يمنعني من الاستلقاء خامدًا، لكن ربما يمنعني من تناول الطعام!".

خطا إلى جانب فراشي، وانحنى عليّ، وأطلق أنفاسه على قلبي. على الفور ملأني الدفء.

فيما يغادرني، سمعتُ صوتًا، أدركتُ أنه صوت الأم. كان تغنّي، تشدو بأغنيةٍ عذبة، ورقيقة، وخافتة، وظننتُ أنها تجلس بجوار فراشي في الظلام؛ لكن قبل أن ينقطع الغناء، حوّمَت أغنيتها عاليًا، وبَدَت أنها تخرج من حلق ملاك، عاليًا فوق كامل أرض القُبَرات، أعلى ممَّا ارتقى إليه قلبُ أيّ إنسان. سمعتُ كل كلمة شَدَت بها، لكنني لا أتذكّر سوى هذه:

"خطايا كثيرة، وأغنيَّاتها الشافية؛

طرقٌ كثيرة، ونُزلٌ كثيرة

فضاءٌ للتطواف، لكن بيتٌ واحد فحسب

يربحه كل العالم!".

وخطر لي أنني سمعتُ الأغنية من قبل.

ثم خطا الثلاثة إلى فراشي معًا، جالبين إليّ الخبز والنبيذ، واعتدلت في جلستي لأشاطرهم الطعام. كان آدم يقف إلى جانبي، وحوّاء ومارا إلى الجانب

الآخر.

"أنتم خيّرون حقًّا، أيُّها الأب آدم، والأم حوّاء، والشقيقة مارا"، قلت لهم، "بقبولي بينكم! في روحي أشعر بالخزي والأسف!".

"كنّا نعرف أنك ستأتي ثانيةً!" أجابتني حواء.

"وكيف عرفتم؟" سألتها.

"لأنني كنت هنا، وُلدتُ لأعتني بأشقائي وشقيقاتي!" أجابتني مارا بابتسامة.

"كل مخلوق حتمًا سيُسلم نفسه ويستلقي"، أجابني آدم: "هو المصنوع للحرية، لا ينبغي أن يُنبذ عبدًا!".

"سيكون الأوان قد فات، أخشى، قبل أن يستلقي الجميع".

"لا يوجد "قبل الأوان" أو "بعد الأوان" هنا"، أجابني. "لكل مخلوق، فإن الزمن الحقيقي يبدأ عندما يستلقي لأول مرة. الرجال لا يصلون إلى البيت سريعًا؛ النساء يَصِلن أسرع. صحراء، شاسعة وموحشة، تفصل بين مَن يستلقي ليموت عن ذلك الذي يستلقي ليحيا. الأول قد يتعجّل، لكن هنا لا توجد عجلة".

"في أعيننا"، قالت حواء، "كنتَ قادمًا طوال الوقت: كنّا نعرف أن مارا ستجدك، وأنك قادم حتمًا".

"منذ متى وأبي يستلقي؟" سألتهم.

"أخبرتك أن الأعوام لا قيمة لها في هذا المنزل"، أجابني آدم؛ "لا نأبه لها. سيستيقظ عندما يحين صباحه. أمُك، التي تستلقي بجواره...".

"هي أمي حقًّا؟" قلت مستغربًا.

"نعم... إنها ذات اليد المجروحة"، أجابني مؤكّدًا؛ "ستنهض طويلًا جدًّا قبل أن يحين صباحكَ".

"أنا آسف".

"من الأفضل أن تكون سعيدًا".

"لا بُدَّ أنه مشهدٌ بديع في عين الرَّبِّ نفسه أن يرى امرأةً كهذه تستيقظ!".

"إنه مشهد بديع حقًّا بالنسبة للرَّبِّ، مشهد سيجعل خالقها سعيدًا! أن يرى عملَ روحه، ويرى...! انظر إليها مرّةً واحدة أخرى، ونَم".

أسقطَ شعاعَ شمعته على وجهها الجميل.

"تبدو أصغر كثيرًا!" قلت.

"إنها أصغر كثيرًا في الحقيقة"، أجابني. "حتَّى ليليث في طريقها لتبدو أصغر!".

استلقيت، ناعسًا في النعيم.

"الآن عندما ترى أمك مجددًا"، تابع قوله، "لن تتعرف عليها في بداية الأمر. ستظلُّ هي تصغر بثبات حتى تصل إلى جمال أنوثتها... بهاء لا يدركه

النظر. ثم ستفتح عينيها، وترى على جانبٍ زوجها، وعلى الجانب الآخر ابنها، ثم تنهض وتغادرهما لتنطلق إلى أبٍ وشقيقٍ أقرب إليها منهما".

سمعتُ ذلك كما لو كنتُ في حُلمٍ. كانت برودتي قارصة، لكن البرد لم يُسبِّب لي أيَّ ألم. شعرتُ بهم يُلبسوني الرداء الأبيض للموتى. ثم نسيتُ كل شيء. كان الليل حولي شاحبًا بوجوهٍ نائمة، وكنتُ نائمًا أيضًا، لكنني لم أدرك أنني نائم.

(43)

الأحلامُ الّتي جاءت

ازداد وعيي بالوجود، وكذلك وعيي بالبرد العميق، اللا متناهي. كنتُ مُنعَمًا بشدّة في قلبي... أكثر ممّا أتذكّر أو أتخيّل الآن. لم يسعني التفكير في الدفء بأدنى أثر للبهجة. أعرف أنني استمتعت به ذات يوم، لكنني لم أعُد أتذكّر ذلك. كان البرد قد أخمد كل قلق، وأذاب كل ألم، ومنح العزاء لكل حزن. العزاء؟ لا؛ ابتَلِعَ الحزن في الحياة، تلك الحياة التي تقترب من أجل استعادة كل شيء جميل وطيّب بمائة ضعف! كنت أستلقي في سلام، ممتلئًا بأهدأ تَرَقُّب، متنفِّسًا الروائح الرطبة لحضن الأرض الفسيح، واعيًا بأرواح أزهار الربيع، والأقحوانات وقطرات الجليد، أنتظر داخلها الربيع بصبرٍ.

كيف لي أن أصف بهجة النوم المتجمِّد، والواعي مع ذلك! لم أعُد مضطرًا للنهوض! لم يكن عليَّ سوى الاستلقاء متمدِّدًا وساكنًا! كم كنت باردًا بما يفوق الكلمات، مع ذلك ازدادت برودتي أكثر وأكثر- ورحّبت بالبرد أكثر وأكثر. كان وعيي بذاتي يزداد تلاشيًا، ووعيي بالنعيم، غير المتخيَّل، المحسوس مع ذلك، يزداد قوّةً. لم أخلقه ولم أصلّ لأجله: كان ملكي كمنحة من الوجود! وكان الوجود مِلكي كمنحة من إرادة تسكن في إرادتي.

ثم بدأت الأحلام في الوصول -جاءت محتشدةً،

كنت أستلقي عاريًا على قمّة جبل جليدية. الضباب يموج تحتي كبحرٍ مضطرب. كان القمر البارد في الهواء معي، وفوق القمر وفوقي، السماء الباردة، التي أسكنها أنا والقمر. كنتُ آدم، أنتظر الرَّبّ لينفخ في مِنخريَّ نفَسَ الحياة. لم أكن آدم، لكن طفلًا في حضن أمٍّ بيضاء بياضًا متألقًا. كنتُ شابًا على حصان أبيض، يثب من سحابة إلى أخرى في سماء زرقاء، يسرع بهدوء إلى غايةٍ مباركة. لقرون كنت أحلم... أم أنها كانت آلاف الأعوام؟ أم مجرد ليلة واحدة فحسب؟ لكن لماذا أسأل؟ ذلك أن الزمن قد انتفى من داخلي؛ كنتُ في أرض الأفكار... فيما وراء، فيما أبعد من الأبعاد السبعة، والحواسّ العشر: أعتقد أنني كنتُ حيث أنا- في قلب الرَّبّ. حَلمتُ بمدارات كابية في مركز كتلة جليدية تذوب، والقمر الشبحي يقترب أكثر وأكثر، والرياح في تلاطم إعصار يتصاعد داخل أذنيّ. استلقيتُ وسمعتُ كل ذلك: الرياح والماء والقمر تشدو بانتظار مطمئنّ من أجل خلاصٍ يقترب. حلمتُ بمدارات، أقول، بما يعجزني وصفه أو حكيه، كانت الزحف المقدّس الخالد لثانية واحدة محمَّلة بالأبدية.

ثم بغتةً، بلا أي إقلاق لتنعُّمي الواعي، انضمَّت إليَّ كل الخطايا التي ارتكبتها أبدًا، فيما وراء ذاكرتي الأرضية وحتى اللحظة الراهنة. ممتلئةً بكل خطيئة كانت "أنا" تعيش واعيةً، معترفةً، نابذةً، نائحةً على الموتى، باذلةً التوبة أمام كل شخص أذيته، أو ألمته،

أو أهنته. كل روح بشرية تسبَّبتُ لها بفكرة مُعذِّبة، كانت الآن قد تنامت عزيزةً عليّ بما لا يوصف، باذلًا نفسي لها، مجاهدًا بألمٍ لأطرد من بيننا الجريمة المُعلَّقة. بكيتُ عند قدمَي الأمّ التي عصيت أوامرها؛ بخزيٍ مرير اعترفتُ لأبي أنني أخبرته بكذبتَين، وأنني نسيتهما تمامًا: الآن أتذكَّرهما منذ زمن طويل، وأبقيهما في الذاكرة لأسحقهما عند قدمَيه. كنتُ العبد التوَّاق لكل من أخطأت في حقِّه بأي شكل. عطايا لا تحصى قرَّرتُ بذلها لهم! لهذا سأبني منزلًا لم يطلع مثله قطُّ من الأرض! لذلك سأدرِّب خيولًا لم يُرَ مثلها في أيِّ عالم! لثالثٍ سأشيِّد حديقة لم تزدهر مثلها قطُّ، مسكونةً ببحيرات هاجعة، وتحيا بمياهٍ جارية! سأكتب أغاني تجيش بها قلوبهم، وحكاياتٍ تبعث فيها الوهج! سأحوِّل كل قوى العالم إلى قنوات اختراع تمنحهم ضحكاتِ البهجة المندهشة! تلبَّسني الحبُّ! أضحى الحبُّ حياتي! هو الآن بالنسبة لي، كما بالنسبة لمن صنعني، كل شيء!

وجدتُ نفسي بغتةً في سوادٍ مُصمَت، عليه لا يمكن لشبح الضوء الذي يقطن في كهوف العين أن يلقي عليه بالتماعة مُتخيَّلة واحدة. لكن قلبي، الذي الآن يخشى شيئًا ويأمل في كل شيء، كان ممتلئًا بالطمأنينة. استلقيتُ مُتخيِّلًا ما سيكون عليه الضوء حين يأتي، وأيَّ خلقٍ جديد سيجلبه معه... عندها، بغتةً. بلا إرادة واعية، اعتدلتُ في جلستي وحدَّقتُ من حولي.

كان القمر يختلس النظر من النوافذ الأدنى الأفقية، التي تشبه السراديب، لحجرة الموت، ضوؤه الطويل، توهمت حينها، ينتشر بميل عبر الحزَم المتردِّية لكن اليانعة لحصاد الفلاح العظيم. لكن لا؛ ذلك الحصاد قد اختفى! تراكم، أو انجرف بفعل عاصفة عمائية، .ولا حِزمة مُقدَّسة واحدة كانت هناك! اختفى أمواتي! كنتُ وحيدًا! في وحشة مريعة حيث تستلقي أعماقٌ أشدُّ غوْرًا ممَّا عرفته حتى الآن! هل أبدًا لم يوجد أيّ مَيِّت يانع؟ هل كنت أحلم فحسب بهم وبجمالِهم؟ لماذا إذن هذه الجدران؟ لماذا الفُرُش الخاوية؟ لا؛ كانوا جميعًا قد استيقظوا! كانوا جميعًا في الخارج في النهار الأبدي الجديد، ونسوا أمري! غادروني وراءهم وحيدًا! الأكثر فظاعةً من هذا عشر مرات كانت المقبرة البعيدة وقاطنيها! الهادئون الذين قد جعلوني هادئًا بحضورهم... غزوا عقلي بطمأنينتهم النعيمية، والآن كنتُ وحيدًا مع القمر في الضريح الأجوف الهائل: كان يُحدِّق أيضًا فيما حوله، يبحث عن الموتى بتحديقة شبحية! اندفعتُ واقفًا، ومشيتُ متعثرًا مبتعدًا عن المكان المخيف.

كان الكوخ خاويًا. هرعتُ خارجًا إلى الليل.

لم يكن القمر هناك! ذلك أنه فيما أغادر الحجرة، ارتفع حاجز من السحاب وحجبه. لكن وميضًا عريضًا جاء من بعيد من فوق شجيرات الخلنج، مختلطًا بموسيقى هامسة شبحية، كما لو أن القمر

كان يمطر ضوءًا يسقط متناثرًا. ركضتُ متعثِّرًا عبر المستنقع، ووجدت بحيرة بديعة، يحدُّها الخيزران وأعشاب الماء: كان القمر وراء السحابة يُحدِّق من عَلٍ في عرين الوحوش الساكن جدًّا، الممتلئ بماء أصفى وأكثر تألُّقًا. لكنَّ الهمس الموسيقيَّ استمرَّ، مالئًا الهواء الغافي، وجاذبةً إيَّاي في إثره.

مشيتُ حول حدود البِركة الصغيرة، وتسلَّقتُ سلسلة التلال. يا له من مشهد ظهرَ أمام عينيَّ! الامتداد بأكمله، حيث عبرت مرَّةً تلو أخرى، بقدمين متورِّمَتين ملتهبتين، القنوات عميقة الغور ووهاد قاع النهر الجاف، كان حيًّا بالينابيع، بالشلالات، وبالبِرَك الساكنة... "نهرًا عميقًا ومُتَّسِعًا"! كيف كان القمر يسطع على الماء! كيف كان الماء يجيب القمر بومضات تنطلق من سطحه... ومضات بيضاء تنبثق من كل موضع من جريانه المصطدم بالصخور! ثم ارتفعت أغنية مبتهجة صادحة من أعماقه، أغنية الحرِّيَّة الوليدة. وقفتُ لوهلة مُحدِّقًا، وبدأ قلبي أيضًا في الانتشاء: لم تكن حياتي فشلًا كاملًا! كنت ساعدتُ في إطلاق سراح هذا النهر! أمواتي لم يضيعوا! لم يكن عليَّ سوى الانطلاق في إثرهم والبحث عنهم! سأمضي وأمضي حتى أصل إلى حيث اختفوا! قد يكون التقاؤنا على بُعد آلاف السنين، لكن في النهاية... في النهاية، حتمًا سأحتويهم! وإلَّا لماذا صفَّقت الأمواج بأيديها؟

أسرعت نازلًا التل: الآن بدأ حجّي! لم أعرف في أي

اتجاه عليّ أن أدير خطواتي، لكن ينبغي أن أمشي وأمشي حتى أجد أمواتي الأحياء! اندفع سيلٌ سريع ومُتّسع عند قاع سلسلة التلال: هرعت من تحته، لم يمسك بي، اجتزته خارجًا منه. في السيل التالي وثبت، في الثالث سبحت، في التالي عبرت خائضًا مُجدّدًا.

وقفتُ لأمعن نظري في الجمال العجيب للوميض والجريان اللذين لا ينتهيان، ولأنصت إلى الموسيقى المتقطّعة الوافرة. بين حينٍ وآخر، كان بعض الهواء المتدفّق يبدو وأنه ينسحب من تلك الفوضى العذبة، فقط ليَمتزج مجدّدًا مع الصخب المتنوع. وأحيانًا ما كان عالم المياه ينقضّ كما لو كان لغفري... ليس بقوة اندفاعته البحرّيَة، أو صياح حشوده المتحرّرة، لكن بعظمة الصمت الهائم في الصوت.

بينما أقف مستغرقًا في البهجة، شعرتُ بيدٍ على كتفي. استدرت، ورأيت رَجُلًا في ذروة قوّته، جميلًا كما لو كان قد خرجَ لتوّه من قلب الخالق السعيد، أبديّ الشباب مثله. نظرت إليه: كان آدم. يقف كبيرًا ومهيبًا، مُتّشحًا برداءٍ أبيض، بالقمر في شَعره.

"أبي"، هتفتُ، "أين هي؟ أين الموتى؟ هل جاء البعث العظيم وارتحل؟ استولى عليّ رُعبُ الوحدة، لم أستطع النوم دون موتاي، فررت من الحجرة الموحشة. إلى أين ينبغي لي أن أذهب لأجدهم؟".

"أنت مخطئ يا بنيّ"، أجابني، بصوتٍ وجدت

العزاء في أنفاسه ذاتها. "ما زلت في حجرة الموت، ما زلت على فراشك، نائمًا وتحلم، مع الموت حولك".

"وا أسفاه! لكن إن كنت أحلم فحسب، فكيف أعرف ذلك؟ أفضل الأحلام هي الأكثر شبهًا بحقيقة اليقظة!".

"عندما تكون ميِّتًا تمامًا، لن تحلم بأيِّ حلم زائف. الروح الحقُّ لا تَلِدُ سوى ما هو حقٌّ، ولا يمكن للزائف التسرُّب إليها".

"لكن، سيدي"، قلتُ مُتحيِّرًا، "كيف لي أن أفرِّق بين الزائف والحقِّ إذا كان كلاهما يبدو حقيقيًا؟".

"ألم تفهم بعد؟" أجابني، بابتسامة بمقدورها ذبح أحزان كل أطفاله. "لا تستطيع التمييز بشكل مطلق بين الحقيقي والزائف ما لم تكن ميِّتًا تمامًا؛ ولا حتَّى عندما تكون ميِّتًا تمامًا... أي حيٌّ تمامًا؛ ذلك أن الزائف لن يُظهر نفسه حينها أبدًا. لكن في هذه اللحظة، صدِّقني، أنت على فراشك في منزل الموت".

"أحاول جهدي أن أصدِّقك يا أبي. أصدِّقك حقًّا، رغم أنني عاجز عن رؤية أو إدراك حقيقة ما تقوله".

"لا لوم عليك فيما تعجز عنه. ولأنك تصدِّقني حتى في الأحلام، سأساعدك. أخرِج يدك اليسرى مفتوحة، ثم أغلِقها برفقها؛ ستقبض على يد لونا، التي تستلقي نائمة حيث تستلقي أنت تحلم أنك مستيقظ".

أخرجتُ يدي اليسرى: انغلَقَت على يد لونا، القوية والرقيقة وعديمة الموت.

"لكن أبي"، هتفت، "إنها، لونا، دافئة!".

"يدك دافئة كيدها. البرد شيء مجهول في بلادنا. لا هي ولا أنت في حقول البيت بعدُ، لكن لبعضكما البعض، كلاكما حيٌ ودافئ وبكامل الصحة".

ثم كان قلبي سعيدًا. لكن شكٌّ حادٌ، لاذع، انبثق على الفور.

"أبي"، قلت له، "اعذرني، لكن كيف لي أن أعرف على وجه اليقين أن هذا أيضًا ليس سوى جزءًا من الحلم الجميل الذي أسير فيه الآن معك؟".

"تشكُّ لأنك تحبُّ الحقيقة. البعض على استعداد لتصديق أن الحياة ليست تَوَهُّمًا، فقط لو منحتهم عالمًا أبديًا من الأحلام المبهجة: لكن لستَ من هؤلاء! كُنْ راضيًا لفترة وجيزة بحقيقة أن لا "تعرف" على وجه اليقين! ستحين الساعة، ولن يمرَّ عليك زمنٌ طويل قبل أن تتمكَّن -كونك صادقًا- من رؤية كل حقيقة، وحينها سيموت الشك للأبد. حينها، ستكون بالكاد قادرًا على تذكُّر ما يُميّز التَّوهُّم. ستدرك حينها ذلك الذي لا تستطيع أن تحلم به الآن. لم تنظر بعدُ إلى الحقيقة في وجهها، لم ترَ الحقيقة إلا عبر سحابة. ذلك الذي لا تراه، ولم ترهُ أبدًا إلا عبر زجاج معتم... الذي لا يمكن معرفته بحقٍّ أبدًا إلا عبر التماعه البهي المتأصل فيه، مباشرةً في الأعين

الثقيلة... ذلك الذي لا يمكنك سوى التشكُّك فيه، ولا لوم عليك في الشَّك فيه حتى تراه وجهًا لوجه، وحينها لن تعود قادرًا على التشكُّك فيه. لكن بالنسبة إليه، ذلك الذي لم يَرَ سوى ظلٍّ من الحقيقة، وكل أمله أن يراها -في حين أنها لم تَعُد موجودة- ويذعن لها، بالنسبة إليه فإن الرؤية الحقيقية، الحقيقة نفسها، ستأتي حتمًا، ولن ترحل ثانيةً، وستبقى معه للأبد".

"أعتقد أنني أرى يا أبي"، قلت له. "أعتقد أنني أفهم".

"إذن فتذكَّر، واستحضر. ما زالت تنتظرك محاكمات ثقيلة، ذات طبيعة لا تدركها الآن. تذكَّر كل الأشياء التي رأيتها حتى الآن. أنت لا تدرك هذه الأشياء على حقيقتها، لكنك تعرف كيف تبدو، وماذا تعني لك! تذكَّر أيضًا الأشياء التي لم ترها. الحقيقة غالبة، وحقيقة الأشياء تكمن، فور أن تُحجَب ثم تُكشف، في مظهر الأشياء".

"كيف ذلك، يا أبي؟" قلت له، ورفعتُ عينيَّ متسائلًا؛ ذلك أنني كنت أنصت برأسٍ منحنٍ، غير واعٍ بشيء سوى صوت آدم.

اختفى، وفي عينيّ لم يَبقَ شيءٌ سوى الصمت المدوّي للمياه المتدفِّقة. مددتُ يديّ لأجده، لكنهما لم تجدا لمسةً مجيبة. كنتُ وحيدًا... وحيدًا في أرض الأحلام! تراءى لي أنني مستيقظ تمامًا، لكنني

كنت مؤمنًا أنني في حلم؛ لأن آدم أخبرني أنني كذلك.

حتى في الأحلام، رغم ذلك، على الحالم أن يفعل شيئًا ما! لا يمكنه الجلوس فحسب ورَفض التحرُّك حتى يسأم منه الحلم ويرحل: قرَّرتُ التجوُّل، ومضيتُ قُدمًا.

عبرتُ قنوات كثيرة، ووصلت إلى فسحة صخرية أوسع، هناك، حالمًا أنني مُرهَق، تمدَّدتُ، توّاقًا إلى الاستيقاظ.

كنت على وشك النهوض ومتابعة رحلتي، عندما اكتشفتُ أنني أستلقي بجوار حفرة في الصخرة، بدت فوَّهتها كقبر. كانت عميقة ومظلمة، لم أستطع رؤية قاعها.

لكنني في أحلام طفولتي كنت أعرف أن السقوط يوقظني دائمًا، وبالتالي، عند الرغبة في قَطع حلم، أبحث عن مرتفَع لألقي نفسه منه حتى أستيقظ: بنظرة خاطفة على السماء الهادئة، وأخرى على المياه المندفعة، دحرجتُ نفسي على حافة الحفرة.

غادرني الوعيُ لوهلة. عندما عاد، كنتُ أقف في عِلّيَة منزلي، في الحجرة الخشبية الصغيرة التي تضمُّ الساتر والمرآة.

غزاني يأسٌ مريع، وشعورٌ خاوٍ ومُرعِب بالعجز بسبب إدراكي: بيني ولونا تستلقي الآن هوّة يستحيل عبورها! تمتدُّ مسافة لا يمكن لأي سلسلة

قياسها! المكان والزمان ونوع الكينونة، كما لو بجُدرانٍ من حجارة حرون غير قابلة للقياس، غير قابلة للاختراق، يفصلون بيني وبين تلك الهوّة! لكن من الحقيقي أنه ما يزال بمقدوري عبور باب النور مُجدّدًا، والارتحال مُجدّدًا إلى حجرة الموت، لكن حتّى لو كان الأمر كذلك، فقد افترقت عن تلك الحجرة بأرض واسعة من الخلنج، وبالليل الشاحب النَّجميّ عن الشمس، التي وحدها بمقدورها أن تفتح أمامي الباب- المرآة، والتي غَدَت الآن شديدة البُعد على الجانب الآخر من العالم! لكن هوّة أكثر اتّساعًا بما لا يُقاس كانت قد انفتحت بيننا... حقيقة أنها نائمة وأنني مستيقظ! أنني لم أعُد جديرًا بمشاركتها ذلك النوم، ولم يَعُد بمقدوري أن آمل الاستيقاظ منه معها! ذلك أنني المخطئ مستحقٌّ اللّومَ حقًّا: لقد فَرَرتُ من حُلمي! الحلم الذي لم يكن من صنعي، بأكثر ممّا كانت حياتي: كان عليّ أن أستمر فيه حتى نهايته! وبفراري منه، خلّفتُ النوم المقدّس ذاته ورائي! عليّ أن أعود إلى آدم، وأخبره بالحقيقة، وأنصاع لقراره!

انسللتُ إلى حجرتي، وارتميتُ على فراشي، وقضيتُ ليلة بلا أحلام.

استيقظت، واتّجهتُ نحو المكتبة خاملًا. لم أصادف أحدًا في الطريق، بدا المنزل ميّتًا. جلستُ بجانب أنتظر الظهيرة: لم أستطع تبيُّن جملة واحدة! قدم المخطوط المشوّه نفسه من الباب المُخادع:

أصابني مَرآه بالسّقم، كان بالنسبة لي كالأميرة وشيطنتها.

مع اقتراب الظهيرة. صعدتُ الدَرَج إلى سطح العلِيّة المظلّل، الصامت. أغلقتُ ورائي الباب المؤدي إلى الحجرة الخشبية، واستدرتُ لفتح الباب المؤدي إلى عالمٍ مُرعِب.

غادرتُ الحجرة بقلبٍ من حَجرٍ. فعلتُ ما باستطاعتي، لكن بلا طائل. جذبتُ السلاسل، عدّلتُ الساتر مرةً تلو أخرى، ضبطتُ المرايا مرةً تلو أخرى، لم يَعقُب ذلك أيّة نتيجة. انتظرتُ وانتظرت لتأتي الرؤية، لكنها لم تأتي، كانت المرآة تنتصب خاوية، لا شيء يستقرُّ في عُمقِها العتيق القاتم سوى المرآة المقابلة ووجهي الكالح.

عدتُ إلى المكتبة. هناك كانت الكتب بغيضةً إليّ... ذلك أنني أحببتها ذات يوم.

في تلك الليلة استلقيت مستقيظًا حتى طلوع الصباح، وفي النهار التالي استأنفت محاولاتي مع الباب المخادع، لكن بلا أيّ طائل. ساعات طويلة قضيتها عاجزًا عن التفكير. لم يقترب منّي أحدٌ، لم يدخل صوتٌ من المنزل في الأسفل أذنيّ. لم أشعر بالإرهاق بتاتًا، بل بالوحشة فحسب، الوحشة الكابية.

قضيت ليلةً ثانية بلا نوم. في الصباح انطلقت للمرة الأخيرة إلى الحجرة في العلّية، وللمرة الأخيرة بحثت عن باب مفتوح: لم يظهر شيء. مات

قلبي داخلي. فقدت "لوناتي"!

هل كانت في أيّ مكان؟ هل رأيتها أبدًا، سوى في الخلايا المتفتّتة لدماغي؟ "يجب أن أموت يومًا"، قلت لنفسي، "وحينها، مباشرةً من فراش موتي، سأنطلق لأبحث عنها وأجدها! إذا لم تكن هناك، فسأنطلق إلى الأب وأقول: "حتى أنتَ لا يمكنك مساعدتي: دعني أتلاشَ، أرجوك!"".

@ART_OF_BOOK

(44)

الاستيقاظ

في الليلة الرابعة تراءى لي أنني استغرقتُ في النوم، وفي تلك الليلة استيقظت حقًّا. فتحت عينيَّ وأدركت، رغم الظلام الحالك من حولي، أنني أستلقي في منزل الموت، وأنه في كل لحظة منذ استغرقت في النوم هناك كنت أحلم، والآن أستيقظ للمرة الأولى. "أخيرًا!" قلتُ لقلبي، وتقافَزَ من الفرح. أدرتُ عينيَّ، كانت لونا تقف بجوار فِراشي! لم أكن فقدتها قطُّ! فقدتُ مَرآها فحسب لبرهة قصيرة! حقًّا، لم يكن عليَّ الانتحاب على فراقها بهذه الحرقة!

كان الظلام حالكًا، كما قلت، لكنني رأيتها. لم تكن مُظلِمةً! كانت عيناها تسطعان كعينَي الأم، ونفس الضوء ينبعث من وجهها... ليس من وجهها فحسب؛ ذلك أن كَفَنها، الممتلئ بنور جسدها المستيقظ الآن أضعافًا بقوة انبعاثه، كان أبيضَ ومتلألئًا كالجليد. نامت فتاةً، واستيقظت امرأةً، مختمرةً بجمال جوهر الحياة. احتويتها في ذراعَيَّ، وأدركت أنني أحيا حقًّا.

"استيقظتُ أوّلًا"، قالت، بابتسامة مُندهشة.

"حقًّا، يا عشقي، ثم أيقظتِني!".

"لم أفعل سوى النظر إليك والانتظار"، أجابتني.

جاءت الشمعة طافيةً نحونا عبر الظلام، وفي لحظات كان آدم وحوّاء ومارا معنا. حيّونا بابتسامةٍ وتحية صباح هادئة: كانوا معتادين على مثل هذه الاستيقاظات!

"آمل أنك استمتعت بظلامٍ بهيجٍ!" قالت الأم.

"ليس كثيرًا"، أجبتها، "لكن الاستيقاظ منه شيء سماوي".

"لقد بدأ الأمر فحسب"، قالت لي؛ "بالكاد استيقظتَ!".

"إنه على الأقل مُتَّشِح بالموت، وهو الرداء الساطع للحياة"، قال آدم.

احتضنَ لونا طفلته، ووضعَ ذراعه حولي، نظرَ للحظة أو اثنتين بتساؤل إلى الأميرة، ثم ربَّتَ على رأس النَّمِرة.

"أعتقد أننا سنلتقي بكما مُجدَّدًا قبل وقت طويل"، قال، مُتطلّعًا إلى لونا أولًا ثم إليَّ.

"هل سيكون علينا الموت ثانيةً؟" سألته.

"لا"، أجابني، بابتسامة كابتسامة الأمّ. "لقد مِتُّما خروجًا إلى الحياة، ولن تموتا ثانيةً. عليكما فحسب أن تبقيا ميِّتَين. فور الموت كما نموت هنا، ينتهي كل الموت. ليس عليكما الآن سوى أن تحييَا، بكل قوّتكما المنعشة. كلما حييتما أكثر، كلما زادت قدرتكما على العيش".

"لكن ألن يصيبني السأم من الحياة بهذه القوَّة؟" قلت له."ماذا لو لم أعُد أحيا بكل قوَّتي؟".

"لا يتطلَّب الأمر سوى الإرادة، ولدينا القوَّة هنا!" قالت الأم. "الحياة الخالصة لا تحمل ضعفًا أمام السأم والمكابدة. الحياة تستمر في ولادة حياتنا. من لا يموت، سيموت مرَّات كثيرة، سيموت باستمرار، سيظلُّ يموت عميقًا، لن ينتهي أبدًا من الموت، هنا لا يوجد سوى الصعود والحبّ والابتهاج".

توقَّفَت بابتسامةٍ ونظرة بدت أنها تقول، "نحن الأم والابن، نفهم بعضنا البعض! بيننا الوداع غير مُمكِن".

قبَّلَتني مارا على جبيني، وقالت بفرح:

"أخبرتك يا أخي، كل شيء سيكون حسنًا! عندما تبحث عن العزاء ثانيةً، قُل لنفسك: "ما سيكون حسنًا، فهو حسنٌ الآن"".

أطلَقَت تنهِدَةً صغيرة، وفكَّرتُ أنها تعني، "لكنهم لن يصدِّقوك!".

"... تعرفني الآن!" ختَمَت حديثها، بابتسامة كابتسامة أمِّها.

"أعرفكِ!" أجبتها: "أنتِ الصوت الذي صرخ في البرّيّة قبل أن يظهر المعمداني طويلًا! أنتِ الراعي الذي انطلقت ذئابه تصيد الخراف التائهة وتدفعها إلى البيت قبل أن يرتفع الظُلّ ويسود ظلام الليل!".

"سينتهي عملي يوما ما"، قالت، "وحينها سأبتهج

بهجة الراعي العظيم الذي أرسلني".

"طوال الليل فإن الصباح في متناول اليد"، قال آدم.

"ما رفرفة الأجنحة هذه التي أسمعها؟" سألت.

""الظّلُ" يحوِّم"، أجاب آدم: "بيننا هنا مَن يعتبرها مِلكًا له! لكن فور أن تكون مِلكنا، أبدًا لا يمكن أن تكون له!".

استدرتُ لأنظر إلى وجهَي أبي وأمّي، وأقبّلهما قبل أن ننطلق: لكن فراشاهما كانا خاويين، ولم أرَ سوى فُرُش المخلوقات الصغيرة التي نجحت عبر شجاعة الحب في الاستيلاء عليها! لوهلة طافَ فوقي ظلُّ ذلك الحلم المريع بالوحشة، فتنحّيتُ جانبًا.

"ما الأمر يا قلبي؟" قالت لونا.

"مكاناهما الخاويان يصيبانني بالرُّعب"، أجبتُها.

"لقد استيقظا ورحَلا منذ زمن بعيد"، قال آدم. "قبّلاك قبل رحيلهما، وهمسا، "قريبًا ستأتي إلينا".

"لكنني لم أشعر بهما أو أسمعهما!" غمغمت.

"لم يكن بمقدورك... وأنت بعيدٌ للغايةُ في منزلك القديم الكئيب! تظنُّ أن المكان المُفزع قد احتواك مرةً أخرى! اذهب الآن وابحث عنهما. وأبواكِ، يا طفلتي"، أضاف، مستديرًا إلى لونا، "حتمًا سيجيئان ويجدانك".

اقتربت ساعة رحيلنا. خطَت لونا إلى فراش أمِّها التي كانت قتلتها، وقبّلتها بحنوٍّ، ثم ألقت بنفسها بين ذراعَي أبيها.

"هذه القبلة ستقرِّبها نحو البيت، يا لوناتي!" قال آدم.

"مَن كان أبوَيها؟" سألَت لونا.

"أبي"، أجابها آدم، "هو أبوها أيضًا".

استدارت ووضعت يدها في يدي.

جثوتُ على ركبتي وشكرتُ الثلاثة بخشوع على تقديم العَونِ لي لأموت. جَثَت لونا بجواري، وأطلقوا جميعًا أنفاسهم علينا.

"أنصِتوا! اسمعوا الشمس"، قال آدم.

أنصتُّ: كانت الشمس قادمة، كما لو باندفاعة عشرة آلاف جناح منبسطٍ ومتضاعِف ألف مرة، مع اصطخاب مليون عالَمٍ منصهر ومتأجِّج منطلقة على اتّساع ملايين الأميال. كان اقترابها تآلفًا متصاعدًا لمائة لحن متناغم معًا.

تطلّع الثلاثة إلى بعضهم البعض وابتسموا، ثم انطلقت تلك الابتسامة طافيةً نحو السماء على شكل زهرة ذات ثلاثة بتلات، صلاة شكر الصباح تتلوها العائلة. من أفواههم ووجوههم انتشرت الابتسامة على أجسادهم وسطعت عبر أرديتهم. قبل أن أتمكّن من القول "انظروا إلى السماء، إنها

تتبدّل!" كان آدم وحوّاء يقفان أمامي كملائكة البعث، وكانت مارا هي مريم المجدلية معهم على القبر. كان مُحيّا آدم كالبرق، وحوّاء تُمسك بمَحرمةٍ تطلق ندفات من البهاء في أرجاء المكان.

ثم بدأت ريحٌ تئنُّ في هبّات نابضة.

"تسمعون أجنحته الآن!" قال آدم، وأدركتُ أنه لم يكن يعني أجنحة الصباح.

"إنه "الظِّلُّ" العظيم يتأهَّب للرحيل"، تابع القول. "المخلوق البائس، يحمل "ذاته" داخله، ولا يمكنه الهجوع والاطمئنان!".

"لكن ألا يوجد داخله شيءٌ أعمق من ذلك؟" سألته.

"بلا جسد"، أجابني، "لا يمكن للظِّلّ أن "يكون"... نعم، أو بدون ضوء وراء الجسد!".

أنصت لوهلة، ثم صاح، بابتسامة سعيدة، "أنصِتوا إلى الديك الذهبي! صامتًا بلا حراك لملايين السنين يقف على ساعة الكون، والآن أخيرًا يرفرف أجنحته! الآن يبدأ في الصياح! وبين حين وآخر سيسمعه الرجال حتّى فجر النهار الأبدي!".

أنصتُ. بعيدًا... كما لو في قلب صمتٍ لا نهائي، سمعتُ الصيحة المغتبطة للحلق الذهبي. كان يقذف بالتحدّي في وجه الموت والظلام، ويشدو بأملٍ أبدي، ثم سرعان ما هدأ. كان "ترقُّب المخلوق" وقد وجد صوتًا في نهاية المطاف، صرخة الخواء الذي

سيصبح مملكةً!

ثم سمعتُ رفرفة مدوّية.

"الخفاش الأسود يطيرا!" قالت مارا.

"آمين، أيّها الديك الذهبي، يا طائر الرّبّ!" هتف آدم، وتردّد صدى الكلمات عبر منزل الصمت، وصعُدت إلى العوالم العليا.

عند هذه الـ "آمين"... مثل يماماتٍ تَصّعَّد على أجنحةٍ من شظايا الفضّة، انبثقت المخلوقات الصغيرة جاثمين على فُرُشهم، هاتفين عاليًا:

"صِخ! صِخ ثانيةً أيُّها الديك الذهبي!"... كما لو كانوا رأوه وسمعوه في أحلامهم.

ثم استدار كل منهم وتطلّع إلى جاره في الفراش، حدّق لوهلة بعينين مُحِبّتين، وقبّل رفيق الليل الصامت، ووثب من الفراش. حدّقت المخلوقات الصغيرة، التي كانت راقدة بجوار أبي وأمّي، بخواء وحزن لوهلة في مكانيهما الخاويين؛ ثم انزلقوا ببطء إلى الأرض. هناك تدافعوا في أذرع بعضهم البعض، كما لو أنهم قد اطمأنّوا لأول مرة، عبر أعين بعضهم البعض، أنهم أحياء ومستيقظون. بعد أن لمحوا لونا فجأةً، هرعوا، متألقين بالسعادة، لاحتضانها. ثم وثب أودو إلى النمِرة، فور أن رآها جاثمة عند قدمي الأميرة، وألقى ذراعه على الرأس النائم الحبيب، واحتضنه وقبّله.

"استيقظي، استيقظي، يا عزيزتي!" هتف. "حان وقت الاستيقاظ!".

لم تتحرك النَمِرة.

"إنها نائمة وباردة للغاية!" قال متطلّعًا إلى مارا، بنظرة فزع متوسَلَة.

"إنها تنتظر أن تستيقظ الأميرة يا طفلي"، قالت مارا.

تطلَّعَ أودو إلى الأميرة، ورأى بجوارها، نائمَين ما يزالان، اثنين من رفاقه. اندفع ناحيتهما.

"استَيقِظا، استَيقِظا!" هتف، ودفعَ وجذبَ، حينًا الأول، وحينًا الآخر.

لكن سريعًا ما بدا عليه الانزعاج والحيرة، ثم استدارَ إليَّ بعينين غائمتين.

"لا يريدان الاستيقاظ!" قال لي. "لماذا هما باردان جدًا هكذا؟".

"إنهما ينتظران أن تستيقظ الأميرة أيضًا"، أجبته.

اندفعَ عبر الحجرة، ووضعَ يده على وجهها.

"إنها باردة جدًا! ما الأمر؟" هتف، وتطلَّعَ من حوله بخوفٍ فتسائل.

خطا آدم إليه.

"لم يحن أوان استيقاظها بعد"، قال له: "إنها مشغولة بالنسيان. عندما تنسى بما يكفي لتتذكّر بما

يكفي، سيحين أوانها، وستستيقظ!".

"وتتذكّر؟".

"نعم... لكن ليس كثيرًا جدًا في البداية".

"لكن الديك الذهبي قد صاح!" تَشكّك الطفل، وانقضَ مُجدّدًا على رفيقيه.

"بيترا بيترا كريسبي!" صرخ. "استيقظ يا بيترا استيقظ يا كريسبي! كلنا مستيقظون إلّا أنتما! صاح الديك الذهبي عاليًا جدًّا! استيقظت الشمس وهي قادمة! أوه، لماذا لا تستيقظان؟".

لكن بيتر رفض أن يستيقظ، وكذلك كريسبي، وانخرط أودو في نحيب شديد في النهاية.

"دعهما ينامان يا عزيزي!" قال آدم. "لن تُحبَّ أن تستيقظ الأميرة ولا تجدهما، أليس كذلك؟ إنهما في غاية السعادة. وكذلك النَّمِرة".

شعر بالعزاء، ومسح عينيه كما لو أنه معتاد طوال حياته على البكاء ومَسْحِ دموعه، رغم أنها كانت أول مرّة يعرف فيها دموعًا... سريعًا ما ستُمسح تمامًا.

تَبِعنا حوّاء إلى الكوخ. لم تُقدّم لنا خبزا ولا نبيذًا، لكنها وقفت متوهّجةً تتوق إلى رحيلنا. لم نَقُل كلمة وداع واحدة، بل رحلنا فحسب. كان الحصان والأفيال عند الباب، في انتظارنا، كنّا في غاية السعادة على أن نمتطيها، فانطلقنا مشيًا وهي في إثرنا.

(45)

الرّحلَة إلى البَيت

كان الظلام اختفى، سِرنا عبر ضوء مُعتِم، استنشقنا عبر العَتامة أنفاس الربيع. تحوُّلٌ عجيب كان وقعَ على العالم أم أنه تحوُّلٌ أكثر غرابةً حدثَ داخلنا؟ دون ضوء كافٍ في السماء أو الهواء ليكشف عن كل شيء، كانت كل أجَمَة خلنج، كل شجيرة صغيرة، كل شفرة عشب، في غاية الجلاء، سواءً عبر الضوء الذي ينبعث منها، كنار الأجَمَة التي رآها موسى في الصحراء، أو عبر الضوء المنطلق من أعيننا. لم يُلق أيُّ شيء بظلٍّ، كانت كل الأشياء تتبادل ضوءًا قليلًا. كل شيء ينمو كان يُظهر لي، عبر لونه وشكله، فكرته الكامنة… الفكرة الكاشفة، التي هي كينونته، المنبعثة إلى الخارج. بَدَت قدمي العارية وأنها تحبُّ كل نبتة تطؤها. العالم وكينونتي، حياته وحياتي، أصبحتا شيئًا واحدًا. العالَم الأصغر "الإنسان" والعالَم الأكبر نالا المغفرة أخيرًا، وتناغَمَا أخيرًا! كنتُ أعيش في كل شيء، كل شيء يخترقني ويعيش داخلي. أن أكون واعيًا بشيء؛ فهذا يعني أن أعرف حياته وحياتي على الفور، أن أعرف مِن أين جئنا، وأين مآلنا الأخير… كان يعني أننا جميعًا نكون ما نحن عليه؛ لأن "آخر" هو ما هو! حافةً بعد أخرى، نائمةً حتّى الآن، استيقظت داخلي حافةً بعد أخرى، عصيّة على الوصف؛ لأنه لا كلمات

مقابلة، ولا تشابهات ولا خيالات، يمكنها وصفها. ممتلئةً حقًا، ومع ذلك متوسّعةً أبدًا، خالقةً فراغًا أبديًا لاستقبال المزيد، كانت الكينونة الواعية، التي داومت الأشياء على اختراقها عبر أبواب مفتوحة كثيرة! عندما قرعَ نسيمٌ خافت، حافًا بأجَمَة خلنج، أجراسه، وجدتُ ذاتي في بهجة الأجراس، في بهجة النسيم الذي عليه أجابت بترنيمتها العذبة((20))، وجدت ذاتي في بهجة الشعور، في بهجة الروح التي استقبلت كل الأفراح معًا. لكل شيءٍ مبتهج مَنحتُ بهو كينونتي حتى يُعَربِد فيها. كنتُ مُحيطًا مطمئنًا، عليه كانت الموجة الأولى الهائلة لبهجةٍ حيّة تَرفع باستمرار أمواجًا جديدة، مع ذلك كانت البهجة هي نفس البهجة الأبدية، لكن بعشرات الآلاف من الأشكال المتبدّلة. كانت الحياة احتفالًا كونيًا.

الآن أدركتُ أن الحياة والحقيقة كانتا شيئًا واحدًا، أن الحياة مُجرّدةً نَقيّة هي في حدّ ذاتها نعيمٌ، أنّه حيث لا تَسعَد الكينونة، فتلك ليست الحياة، بل الحياة- في- الموت. كل استثارة للريح المظلمة، تهبُّ حيث تشاء، كانت تُطلق تنهدَة شُكر! أخيرًا "أكون" وأحيا، ولا شيء بمقدوره أن يمسّ حياتي! كانت محبوبتي تسير بجواري، كنّا في طريقنا نحو البيت إلى "الأب".

حيز كان لنا قبل أن تشرق الشمس لأول مرّة على حزيننا: وماذا سيجلب النهار الأبدي أيضًا؟!

وصلنا إلى الحفرة المرعبة حيث تمرّغت وحوش الأرض ذات مرّة: لم تكن في الحقيقة، بعد أن أبصرتها في أحلامي، سوى بحيرة بديعة. حملقتُ في أعماقها الشفافة. كانت دوّامةٌ قد كنست التربة في المواضع التي احتجب فيه السّقط، وفي القاع كان النوع الشنيع بأكمله يستلقى باديًا للعيان: ضوء أخضر خافت كان يخترق الماء البلّوري، ويكشف عن كل شكل شنيع أسفله. ملتفّةٌ في أشكال حلزونية، ومنطوية في طبقات، ومعقودة فيما بينها، أو "ممتدّةٌ طويلةٌ وكبيرةٌ"، كانت تلك الأشكال تموج في كومات بلا حراك- أشكال أكثر فانتازيّةً برعبها الغولاني الذاوي، من أي عقل بلّله النبيذ لشاعر مُنهَكٍ أودت به الحُمّى إلى العَدَم. ذلك الذي يغطس في العاصفة المدوّمة الكبرى لا يمكنه رؤية شيء يُقارن برعبها: تلافيف مجَسّيّة، انحناءات متوّرمة، كرّات مُتوهّجة من التشوّهات البُنّيّة الداكنة، كان لتبدو في عينيه براءةً محضة مقارنةً بكل تجسّدات الكراهية هذه- كل رأس لزهرة شرّيرة، أكملت، منفجرةً من وتد قبيح، مغزاها الشّرّير.

لم يتحرّك أيٌّ منها فيما نعبر البحيرة. لكنها لم تكن ميّتة. طويلًا كوجود الرجال والنساء ذوي العقول المعتلّة، تلك البحيرة ستُسكَن بالكراهات.

لكن لنتحدث إلى مُنادي الشمس، الريح الفجريّة، تطلق نفير اقترابها بنعومة! القِسّ الرئيسي للمعبد البشري قد اقترب! فراكِعًا أمام قيدومه موجةٌ هائلة،

منحوتة بمويجات صغيرة بالقرمزي والذهبي، يندفع عاليًا، كما لو أنه قد انطلق لتوِّه من اليد الحانَّة لخالقه إلى البحر الأعلى- يتوقَّف لبرهة، ثم يتطلَّع من علٍ على العالم. عاصفة تصطخب بالأبيض من المعادن الذائبة، إنها ليست سوى جَمرةٍ من مذبح قربان "الأب" الذي لا ينتهي أبدًا في سبيل أطفاله. لننظر إلى كل زهرة صغيرة تُسوِّي وَتدها، وترفع عنقها، وبرأس متطاوِلٍ تقف مترقِّبةً: شيءٌ أكثر من الشمس، أعظم من الضوء، قادم، قادم- لكنه قادمٌ مُتطاوِلًا على الطريق! ماذا يهم إن كان اليوم، أو غدًا أو بعد عشرة آلاف عام من الحياة ذاتها، من الحبّ ذاته! إنه قادم، قادم، وأعناق البشرية جمعاء متطاولة لرؤية قدومه! في كل صباح تتطاول تلك الأعناق، في كل مساء تتدلّى وتنتظر، حتّى يأتي. هل هي رؤية نسجها الهواء فحسب؟ عندما يأتي، هل سيجدهم حقًا يترقَّبون هكذا؟

كان صباح انبعاث مجيد. الليل كان قد قُضيَ في الاستعداد له.

انطلق الأطفال يتواثبون قُدمًا، وجاءت البهائم في إثرنا. فراشات ترفرف، ورعاشات مُسرعة تحوّم أو تندفع هنا وهناك فوق رؤوسنا، سحابةٌ من الألوان والومضات، تهبط الآن علينا كعاصفة جليديَّة من رقاقات قوس قزح، ثم ترتفع إلى الهواء الرطب كبخار متدحرج لروائح متجسّدة. كان نهارًا صيفيًا أكثر من الصيف ذاته، أيْ أكثر مثاليّة، من أيّ إنسان

لم يَفت بعد أن صادف يومًا صيفيًا في أيّ عالَم. سرتُ على الأرض الجديدة، تحت السماء الجديدة، ووجدتهما على نفس شاكلة القديمتَين، باستثناء أنهما الآن قد فتحتا عقليهما لي، ورأيتُ "داخلهما". ثم خرجت روح كل شيء صادَفتُه لتحيَّتي وعقد الصداقة معي، قائلًا لي إننا جئنا من نفس المنبع، وأننا ذاهبان إلى نفس المصير. كنت ذاهبًا معه -يقولون- ذلك الذي كانوا معه دائمًا والذي يقصدونه دائمًا، كانوا هم -يقولون- صواعِقَ تتَّخذ أشكالها فيما تومض منه إليه. كانت الصخور القاتمة تمتصُّ كالإسفنج الشُّعاعَ الذي يتقاطر علينا، العالَم العظيم يتشرَّب الضوء، ويبعث بالأحياء. نارَيْ بهجةٍ كنَّا أنا ولونا. أطلَقَت الأرض إلى السماء دخانها عذبَ الرائحة، تنفَّسنا في طريقنا نحو البيت رغباتنا التَّوَّاقة. من أجل الشُّكر، وَغيُنا ذاته كان ذلك.

وصلنا إلى القنوات، الجافَّة والذَّاوية فيما مضى: تجري الآن وتومض بمياهٍ حيَّةٍ تُطلق صيحات سعادتها! بعيدًا على امتداد البصر، كانت تندفع، مصطخبةً، ونهر المياه المندفع يُنطقُ صخوره.

لم نعبره، لكن "سرنا بمَجدٍ وابتهاجٍ"على طول ضفَّته اليمنى، حتَّى وصلنا إلى الشلال العظيم في نهاية الصحراء الرملية، وهنا، مصطخبًا وملتفًّا ومتساقطًا عموديًّا، انشطر النهر إلى فرعيه. هناك تسلقنا القمّة، ولم نجد صحراء: عبر أراضٍ منبسطة عشبية، بين الضفَّتين العشبيّتين، كان النهر الصامت،

الواسع، العميق، يتدفّق ممتلئًا عن آخره. ثم انكشف، للمخلوقات الصغيرة أولًا، مَجد الرّبّ في التدفُّق الرائق للمياه. غطسوا بلا تفكير وسبحوا، وتبعتهم البهائم.

ابتهجت الصحراء وازدهرت كالوردة. غابات شاسعة كان انبثقت، شجيراتها وأجمتها تغصّ جميعها بطيور صادحة. كل أجَمَة وقد أنجبت نُهيَرًا، وكل نُهيَر يصدح بأغنيةِ مَائِه.

لم يُبدِ موضع اليد المدفونة أيَّ علامة. أبعد وأبعد، كان النهر يمتدُّ ممتلئًا في الاتجاهين. عاليًا وعاليًا صعدنا، حينًا عبر حافّة عشبية، وحينًا عبر غابة من أشجار بديعة. كان العشب يزداد عذوبةً والأزهار جمالًا وتنوُّعًا، فيما نمضي، والأشجار تزداد ضخامةً والرياح امتلاءً بالرسائل.

وصلنا في النهاية إلى غابة كانت أكبر وأعظم وأكثر جَمالًا ممّا رأيناه حتى الآن. كانت أعمدتها الحيّة ترفع ذُرى مَحنيّة سميكة، بين أوراقها وأزهارها بالكاد يتسرّب شعاع شمس. إلى عوارض هذا القبو الهوائي تسلّق الأطفال، وبينها انطلقوا متدافعين ومتواثبين في أرض الازدهار، صائحين إلى الأفيال غير المرئية في الأسفل، ومنصتين إلى أبواق إجاباتها. كانت لونا تفهم المحادثات بينهم لكنني لم أستطع سوى تخمينها متخبّطًا. طاردت المخلوقات الصغيرة السناجب، فيما السناجب، راقصة فرحًا، تشجعهم على ذلك... دائمًا على بُعد

يسمح بإمساكها والتربيت عليها. كثيرًا ما كان طيرٌ بديعٌ في ريشه وهيئته، يحطّ على واحد منهم، ويشدو بأغنية ما هو قادم، ثم يطير بعيدًا. لم يتمكنوا من رؤية أيّ قرد من أيّ نوع.

@ART_OF_BOOK

(46)

المدينة

سمعنا أنا ولونا، سائرَين في الأسفل، صيحة هائلةً فوقنا في النهاية، وبعد لحظة أو اثنتين بدأت المخلوقات الصغيرة في النزول متساقطين من الأوراق الكثيفة بأخبار أنهم لمَحوا، بتسلُّقهم لقمة شجرة أطول من البقيَّة، بعيدًا على الأرض المنبسطة، شيئًا عجيبًا على جانب جبل منعزل... وهو جبل، قالوا، كان يرتفع ويرتفع حتَّى اضطرَّت السماء لكبح جماحه، وإسقاط قمَّته.

"ربما تكون مدينة"، قالوا، "لكنها لا تشبه بوليكا أبدًا".

تسلَّقتُ الشجرة لأنظر، ورأيتُ مدينة هائلة، تتصاعد حتى الشحب الزرقاء، لحدَّ أنني لم أستطع تمييز الجبل عن السماء والشحب، أو الصخور عن المساكن. كانت الشحب والجبال والسماء، والقصر والمنحدر، تختلط جميعها في فوضى بادية من ظلال والتماعات متكسّرة.

هبطتُ، ثم انضمَّت إليَّ المخلوقات الصغيرة، وأسرعنا خطانا معًا. ازداد ابتهاجهم أكثر مع انطلاقهم، يقودون المسيرة، وأبدًا لم ينظروا وراءهم. ازداد النهر جمالًا على جمالِه، حتَّى قلت لنفسي إنني أبدًا لم أر ماءً حقيقيًا في حياتي. لا

شيء في هذا العالَم يضاهيه.

في النهاية، استطعنا من الأرض المنبسطة أن نرى المدينة بين الشحب البيضاء. لكنّ شحبًا أخرى كانت تتجمّع حول برجٍ سامق -أم أنه كان صخرةً؟- ينتصب فوق المدينة، قريبًا من ذروة الجبل. رماديةً، ورماديةً داكنةً، وأرجوانيةً، كانت تلك الشحب تتلوّى بحركات مختلطة، متعاكسة، وتقذف عاليًا بزبَدٍ بخاريّ، فيما تدور داخلها لُطخٌ كالدّوّامات. في النهاية أطلَقَت وميضًا متلألئًا، بدا لوهلة وكأنه يلهو حول المخلوقات الصغيرة أمامنا. ظلامٌ مُعِمٍ تَلَا ذلك، لكن عبره سمعنا أصواتهم، واطئةً ومبتهجةً.

"هل رأيت؟".

"رأيت".

"ماذا رأيت؟".

"أجمل الرجال".

"سمعته يتكلّم!".

"لم أسمع ذلك؛ ماذا قال؟".

هنا أجابني أصغر الأصوات وأكثرها طفوليةً... صوت لوثا:

"قال، "كلُّ شيء لنا، أيُّها المبتهجون: هَلُمُّوا!"".

كنت قد رأيت البرق، لكنني لم أسمع أيّ كلمات، لكن لوثا رأت وسمعت مع الأطفال. انطلقت ومضة

ثانية، ثم انفتحت عيناي، لكن ليست أذنيَّ. كان الضوء المرتعش الهائل حشدًا من وجوه الملائكة. أضاءت وتبدَّت، ثم اختفت.

انطلقت ومضة ثالثة، كان قوامها وبريقها بشريَّين.

"أرى أمِّي!" هتفتُ.

"أرى حشدًا من الأمَّهات!" قالت لوقا.

مجدَّدًا ومضت السحابة. كل أنواع المخلوقات: أحصنة وأفيال، أسود وكلاب- أوه، يا لها من بهائم! ويا لها من طيور... طيور هائلة كانت أجنحتها تتوهَّج بكل لون مُمكِن في غروب الشمس أو قوس قزح! طيور صغيرة يتلألأ ريشها كما لو بكل الأحجار الثمينة في الأرض المكتنزة! غرانيق فضِّيَّة. طيور فلامنيجو حمراء. حَمام من العقيق. طواويس بديعة بالذهبيّ والأخضر والأزرق. طيور طنَّانة كالجواهر... فراشات بأجنحة هائلة. أشياء زاحفة رشيقة... جميعها في ومضة سماوية واحدة!

"أرى أن الأفاعي تتحوَّل إلى طيور هنا، كما تتحوَّل اليرقات إلى فراشات!" لاحَظَت لونا.

"أرى مُهري الأبيض الصغير الذي مات عندما كنتُ طفلًا. لم يكن عليَّ أن أحزن هكذا. كان عليَّ أن أنتظر فحسب!" قلتُ.

لم يكن هناك أيّ رعد، في صفقات أو دكَّات. لكن هطل مطرٌ عذبٌ، مالئًا الجوّ ببرودة حانية. تنفَّسنا

عميقًا، وخطونا بخطوات أقوى. سطعت القطرات المتساقطة بألوان كل الجواهر التي استيقظت في الأرض، وأحيطت المدينة بقوس قزح هائل.

تجمّعت الشحب الزرقاء متكاثفةً، تساقط المطر في زخّات، انتشى الأطفال وتراكضوا، كان ذلك كل ما في مقدورنا لإبقائهم تحت النظر.

بدمدمةٍ صامتة، متألّقة، انجرف النهر قُدمًا، مالئًا حتّى الحافّة قناته المنبسطة، الملساء، المطواعة؛ ذلك أنه، بدلًا من الصخور أو الحصى أو الرمال، كان ينساب على عُشبٍ نَمَت فيه زهور الربيع والأقحوانات، والزعفران والنرجس، والأنجالِس والنُعمان، وفرةٌ نَجميَة، كبيرة وساطعة عبر الماء المتألّق. لم يكن النهر قد جمع أيّ غشاوة متعكّرة من المطر، ولا حتّى مسحة من الأصفر أو البُنّي، كانت الكتلة الرقيقة تسطع بوهج الخط الزُمرُدي الشاحب الذي يهبط إلى قاعها العميق، البهيّ.

مع اقترابنا من الجبل، رأينا أن النهر ينبع من ذروة الجبل ذاتها، ويندفع بكامل سعته عبر الشارع الرئيسي في المدينة. كان يهبط إلى البوابة عبر درَج ذي درجات واسعة وعميقة، مختلطًا بأحجار الشماق والسربنتين، ويستمر وصولًا إلى قاع الجبل. بعد أن وصلنا إلى هناك، وجدنا درجات أكثر أقلّ عمقًا على جانبي الضَفّة، تؤدي إلى البوابة، ثم على طول الشارع الصاعد. على الفور، هرعت المخلوقات الصغيرة على الفور صاعدة الدَرج إلى البوابة، التي

كانت تنتصب مفتوحةً.

في الخارج، على بَسطة الدَّرَج، كانت تجلس حارسة البوَّابة، ملاك- أنثى ذات مُحَيًا قاتم، تستند بجبينها المظلل على يدها الخاملة. انقضَّ الأطفال عليها، وأمطروها بالأحضان، وقبل أن تعي هي الأمر، كانوا نجحوا في أخذ السماء على حين غرَّة وأصبحوا بالفعل داخل المدينة، مُرتقين الدَّرج ما زالوا عبر جانب التيار الهابط. ثم نزلَ ملاكٌ عظيم، بصحبة ملائكة ساطعين؛ لملاقاتهم واستقبالهم، لكنهم تحاشوه جميعًا، وأكملوا طريقهم للأعلى. برقصة مبتهجة، رغم ذلك، هبَطَت عليهم مجموعة من الملائكة- الإناث، وفي لحظة كانوا مُكبَّلين في أذرع سماوية. حمَلَتهم "الزاهرات" بعيدًا، واختفوا عن نظري.

"آها!" قال الملاك المُهيب، متابعًا هبوطه لملاقاتنا بعد أن أوشكنا الآن على الوصول إلى البوابة، وجاءتنا كلماته، "هذا حسن! هؤلاء ،هم الجنود الذين سيكتسحون السماء ذاتها! أسمع حشدًا من الخفافيش السوداء على الحدود: هؤلاء سينهون الأمور معها!".

بعد أن رأى الحصان والأفيال تصعد متثاقلةً وراءنا:

"خذوا هذه الحيوانات إلى الاصطبلات الملكية"، أضاف: "هناك اعتنوا بها، ثم اذهبوا بها إلى غابة

الملك".

"مرحبًا بكم في البيت!" قال لنا، منحنيًا بأعذب ابتسامة.

استدار على الفور وقاد المسيرة لأعلى. كانت صفائح درعه تسطع كشظايا البرق.

لا يمكن لأيِّ فكرة أن تتَّخِذ شكلًا لتصف ما شعرت به، بعد استقبالي هكذا من قبل حُرَّاس السماء((21)). كل ما أردت معرفته ولم أستطع، لا بُدَّ أنه في طريقه إليَّ!

وقفنا لبرهة عند البوابة التي كان ينطلق منها مصطخبًا النهر الزاهي. لم أعرف من أين تأتي الأحجار التي تزيِّنه، لكن بينها رأيت نماذجَ أوَّليَّةً لكل الجواهر التي أحببتها على الأرض- أكثر جمالًا منها بكثير؛ ذلك أن تلك كانت أحجارًا حيَّة، وفيها رأيت، ليس النِّيَّة فحسب، بل صاحب النِّيَّة أيضًا، ليس الفكرة فحسب، لكن المُجسِّد حاضرًا، الباعث الأكبر: لا شيء في هذه المملكة كان ميِّتًا، لا شيء كان "فحسب"، لا شيء مجرَّد "شيء".

انطلقنا عبر المدينة وقطعناها حتَّى آخرها. لم يكن هناك أيّ جدار في الجانب الآخر، لكن كومة هائلة من الحجارة المتكسّرة، مائلةً لأعلى كركام جليديّ، وعبر الفتحات بين الصخور، كان النهر يتدفّق هائجًا. على قمة الصخور كان بمقدوري تبيُّن ما بدا أنه ثلاث أو أربع درجات كبيرة لدرج يختفي في سحابة

بيضاء كالثلج، وأعلى الجدار رأيث، لكن بعين عقلي فحسب، كما كان لو كرسيًا عتيقًا عظيمًا، عرش قديم الأيام. فوق وتحت وبين هذه الدرجات كان ينبعث، وفيرًا، وليدًا، بلا انقطاع، نهر ماء الحياة.

لم يكن بمقدور الملاك العظيم اصطحابنا إلى أبعد من ذلك: هذه الصخور يجب أن نرتقيها بمفردنا!

بقلبٍ يخفق بالأمل والتَّوق، شددتُ قبضتي على يد لونا، وبدأن في التَّسلُّق، لكن سريعًا ما أفلتنا بعضنا البعض؛ لاستخدام أيدينا وكذلك أقدامنا في الصعود الشَّاقّ على الأحجار الهائلة. في النهاية اقتربنا من السحابة، التي كانت تتدلَّى على الدرجات كحوافِّ رداء، يخترق الأطراف، ويدلف إلى التجاويف العميقة. يدٌ، دافئة وقوية، أمسكت بيدي، وقادتني إلى باب صغير ذي قفلٍ ذهبي. انفتح الباب، أفلتت اليد يدي، ودفعتني برفقٍ عبره. استدرتُ بسرعة، ورأيت لوح كتاب كبير على وشك الانغلاق ورائي. كنتُ أقف وحيدًا في مكتبتي. ·

(47)

نهايةٌ لا تنتهي

رغم أنني لم أعثر على لونا، إلّا أن مارا كانت معي بحقٍّ، علّمتني أشياء كثيرة، وما زالت تُعلّمني المزيد.

هل يمكن أن تلك اليقظة الأخيرة كانت أيضًا في الحُلم؟ أنني ما زلت في حجرة الموت، نائمًا وأحلُم، لم يَحِن أوان استيقاظي بعد؟ أم أنني لم أخلد إلى النوم تمامًا وعميقًا، وبالتالي استيقظتُ قبل أواني كثيرًا؟ إذا كانت تلك اليقظة نفسها ليست سوى حُلمٍ، فحتمًا كانت حُلمًا يتبعه استيقاظ أفضل لم يأتِ بَعدُ، وأنني لم أكن فريسةً لرؤية زائفة! حُلمٌ كهذا لا بُدَّ أنه يحمل حقيقةً أكثر عذوبةً وجمالًا في القلب منه!

في لحظات الشّكّ أبكي عادةً.

"هل خلقَ الرّبُّ ذاته تلك الأشياء البديعة بينما أحلم؟".

"من أين إذن جاء حُلمك؟" أجابني الأمل.

"من ذاتي المظلمة، إلى نور وعيي".

"لكن من أين، قبل ذاتك المظلمة؟" ردّ الأمل.

"عقلي كان أمه، والحمى في دمي أباه".

"بل قل"، نصحني الأمل، "إن عقلك كان الكمان الذي انبعث منه الحلم، وأن الحمى في دمك كانت

القوس الذي يعزف على الكَمان ليبعث الحُلم. لكن مَن صنع الكَمان؟ ومَن أرشد القوس عبر أوتاره؟ بل قُل، مُجدّدًا: مَن وضع الطيور المغرِّدة، كلًّا على غصنه، في شجرة الحياة، وأجفلَ، في دوره المحتوم، كلًّا من مَجثِمِه؟ من أين جاءت الفانتازيا؟ ومن أين جاءت الحياة التي رقصت على الفانتازيا؟ ألم تَقُل، في ظلام ذاتك اللا واعية، "ليكن الجمال؛ لتظهر الحقيقة!" وعلى الفور كانت الحياة، وعلى الفور انبثقت الحياة؟".

يحلم الإنسان ويتوق، يُطلُّ الرَّبُّ ويشاء ويُعجِّل.

عندما يحلم الإنسان بحلمه هو، يكون فريسةً لحلمه، عندما يمنحه "آخر" الحُلم، فإن ذلك "الآخر" يكون قادرًا على تحقيقه.

لم أبحث ثانيةً عن المرآة. أعادتني اليد: لن أخرج ثانيةً أبدًا من ذلك الباب! "كل أيّام زمني المُقدّر سأنتظرها حتى يحين أوان تغيُّري".

بين الحين والآخر، عندما أتطلّع إلى كُتبِي من حولي، تبدو وكأنها تهتزُّ كما لو أن ريحًا تُموّجُ كُتلَتَها الصلبة، وعالمًا آخر يوشك على الظهور. أحيانًا عندما أكون في الخارج، يحدث شيءٌ مشابه: السماوات والأرض، الأشجار والعشب، تبدو لوهلة وكأنها ترتعش في طريقها للفناء، ثم، انظر، ها هي تستقرُّ مجددًا بالوجد القديم المألوف! وأحيانًا ما يتراءى لي أنني أسمع همسات من حولي، كما لو أن مَن

يحبُّني يتحدَّث عنِّي، لكن فور أن أتمكَّن من تمييز الكلمات، تتلاشى، ويَسكُنُ كل شيء. لا أعرف إن كانت تلك الأشياء تظهر في عقلي، أم أنها تدلف إليه من الخارج. لا أسعى إليها، تأتي فحسب، ثم أطلق سراحها.

كثيرًا، في وضح النهار، ما تتطلَّع إليَّ ذكريات غائمة عجيبة عصيَّة على الإثبات، عبر نوافذ الماضي الضبابية، لكنني لا أحلم الآن أبدًا. قد يكون الأمر، رغم ذلك، في أعلى حالات يقظتي، أنني أحلم أكثر فحسب! لكن عندما أستيقظ أخيرًا إلى تلك "الحياة" التي تحمل الحياة في أحضانها، كأمٍّ تحتضن رضيعها، فلن أعرف أنني استيقظتُ، وستتلاشى شكوكي.

سأنتظر، نائمًا أم مستيقظًا، سأنتظر.

يقول نوڤاليس((22)): "حياتنا ليست حلمًا، لكنها ينبغي أن تكون، وربما تصبح حلمًا".

نبذة عن الكاتب

چورچ ماكدونالد (1824 - 1905)

القائل "الحياة ليسَت حُلمًا، لكنها ينبغي أن تكون كذلك". روائي وشاعِرٌ ولاهوتيٌ وقسٌّ مسيحيٌ اسكتلندي. أبدعَ في مجال الكتابة الفانتازيَّة الممتَزِجَة بالأساطير والمأساة، دون التَّخلِّي تمامًا عن الكوميديا السوداء. كان له تأثير كبير على كُتَّاب مثل: لويس كارول، ومارك توين، و"چيه. آر. آر. تولكين"، وليمان فرانك باوم. من أشهر رواياته: "فانتازيَّات"، و"ليليث"، و"في إثر رياح الشمال"، و"الأميرة والعفريت".

نبذة عن المترجم

عماد منصور (1983 - ....)

مُتَرجِم وروائي من مواليد القاهرة، حاصل على ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية من جامعة القاهرة، ترجمَ العديد من المقالات النقديَّة والسينمائيَّة في دوريَّاتٍ مثل: مجلة "عالم الكتاب"، و"مجلة الفيلم". صدَرَت له رواية "تحت السَّمع والبَصَر" عام 2014، وترجمة "يوميَّات كافكا" عام 2019، وعن دار المحروسة صدَرَت له ترجماتٌ مثل: "ألواح موسى" لتوماس مان، والترجمة العربية الأولى لرواية "ماتيلدا" لماري شيلي، و"الرجل الذي كان الخميس" لجي كيه تشيسترتون، و"طفل فيلا" لدالين ماتي.

---

(1) "المشي" أو "البريَّة"، محاضرة ألقاها هنري ديڤيد ثورو عام 1851 في كونكورد، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية، تحوَّلت فيما بعد إلى مقال، تناوَلَ فيها الفلسفة المتسامية والعلاقة بين الإنسان والطبيعة- (المترجم)

(2) (Raven): الغُداف، وهو نوع من الغربان يتميَّز عن الغراب العادي (Crow) بمنقار أكبر، وسواد أكثر حلكةً- (المترجم)

(3) Ville تعني "متقلب" (المترجم)

(4) [illegible] "يوم الزفاف" في

ترولدهاوجين" لإدڤارد جريج- (المترجم)

(5) يشير إلى الغراب الذي أطلقه النبي نوح من الفُلك بعد الطوفان: "وأرسل الغراب، فخرج مترددًا حتى نشفت المياه عن الأرض"، سِفر التكوين (8:7)- (المترجم)

(6) بياتريس هي محبوبة دانتي أليجري في "الكوميديا الإلهية". كان أسرُها هو ما دفع دانتي للبدء في رحلته عبر الجحيم بحثًا عنها وعن خَلاص روحه، والوردة البيضاء هنا هي "الفردوس" يستقبل دانتي بعد خَلاصِه من الجحيم- (المترجم)

(7) "الفردوس المفقود"، چون ملتون.

(8) "يا مُرائي أخرِجْ أوّلًا الخشبة من عينِك، وحينئذٍ تُبصِر جيّدًا أن تُخرج القذى من عين أخيك"، سِفر متّى، الإصحاح (7:5)- (المترجم)

(9) Mara: إلهة في الميثولوچيا البوذية، ترتبط بالموت والرغبة وتجدُّد الروح، والاسم يعني "المرارة" أو "العلقم"- (المترجم)

(10) في الكتاب المقدّس، راحيل (Rachel) هي زوجة النبي يعقوب وأم النبي يوسف وبنيامين، وماتت حين اشتدّ ألم الولادة بها أثناء إنجابها لابنها الثاني بنيامين- (المترجم)

(11) عشتروت (Astarte)، هي الصورة الإغريقية من عشتار (Ishtar)، إلهة الخصب والحب والحرب لدى البابليين والكنعانيين وحضارات أخرى في الشرق الأدنى القديم- (المترجم)

(12) جورج فريدريك هاندل، مؤلف موسيقي إنجليزي من أصل ألماني

(13) فيليب سيدني: شاعر ورجل بلاط إنجليزي.

(14) دودة العلق سوداء أو داكنة اللون عادة- (المترجم)

(15) "Hybla" مدينة قديمة في صقلية، و"Hymettus" سلسلة جبال في أثينا- (المترجم)

(16) Hecate: إلهة في الميثولوجيا الإغريقية القديمة، تظهر عادة ممسكةً بمشعلَين أو مفتاح، وكانت تُعبد في المنازل الأثينية بصفتها إلهةً حاميةً تمنح الرّخاء والنّعم اليومية للعائلة- (المترجم)

(17) "فلما سقطنا على الأرض سمعت صوتًا يكلّمني ويقول باللغة العبرانية شاول شاول، لماذا تضطهدني، صعب عليك أن ترفس مناخس"، سِفر أعمال الرُّسل (26:14)، وشاول هو الرسول بولس قبل هدايته. والآية تعني أن الله كان يحاول أن يوجّه شاول إلى النور، لكنه كان يعاند الإرادة الإلهية- (المترجم)

(18) "ولكن من اطّلع على الناموس الكامل، ناموس الحرية، وثبت وصار ليس سامعًا ناسيًا بل عاملًا بالكلمة فهذا يكون مغبوطًا في عمله"، العهد الجديد، رسالة يعقوب (1:25)- (المترجم)

(19) "تلقَّ كل مشكلة، من داخلك أو خارجك، كل خيبة أمل، كل ألم، وقلق، وإغواء، وظلام، ووحشة بكلتا يديك"، مقولة لويليام لو (1891 -1809) William Law، صحفي وكاهن في كنيسة انجلترا.

(20) "هكذا رأيت [illegible] الحلقة المجيدة تدور وهي تترنم بأصوات [illegible] فيها كل [illegible] مع الأخرى، بأنغام عذبة [illegible] [illegible]"، [illegible] 145، الكوميديا

الإلهية لدانتي أليجري.

(21) "فهناك ملاك الله، ولتضمّ يديك، ولسوف ترى الآن حرّاسا مثله"، المطهر، الأنشودة الثانية: 30، الكوميديا الإلهية لدانتي أليجري.

(22) Novalis (1772 - 1801): فيلسوف وشاعر وكاتب ألماني- (المترجم)

@ART_OF_BOOK